

مذكرات خضر حمد

مذكرات خضر حمد



الحركة الوطنية السودانية
الاستقلال و ما بعده

الحركة الوطنية السودانية الاستقلال و ما بعده



مركز عبد الكريم سيرينغني لثقافي



مركز عبد الكريم سيرينغني لثقافي

الحركة الوطنية السودانية

الاستقلال وما بعده

مُذَكِّرٌ خَضِرٌ حَمْدٌ

الحركة الوطنية السورية

الاستقلال وما بعده



مركز عبد الكريم مبرغني الثقافي

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان

920.7 خضر حمد

خ م

مذكرات المرحوم خضر حمد : الحركة الوطنية السودانية
والاستقلال وما بعده / خضر حمد. - أم درمان : مركز عبد الكريم
ميرغني ، 2013 م .

420 ص : 24 سم.

ربمك 0-31-56-99942-978

1. خضر حمد - المذكرات.
 2. السياسيون السودانيون - تراجم.
 3. السودان - تاريخ - العصر الحديث.
- أ. العنوان.

Second Published in January 2014

Copyright ©Abdel-Karim Mirghani Cultural Centre

حقوق النشر محفوظة لمركز عبد الكريم ميرغني الثقافي

أم درمان - السودان

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الثانية - يناير 2014م

التدقيق اللغوي : أحمد منصور سوركتي

التصميم والاخراج الفني: معمر مكي عمر

إهداء

إلى الشعب السوداني الحن المسنل المنطلع إلى الأمل والمستقبل، أهدي هذا
السفر المنبع من تاريخنا المعاصر كما ير ويدا أحد قاداته.
وفاء مني وتقديراً لعمي وأبي وصديقي طيب الذكر المرحوم رخص حمد..
إذ لعلني أوفي الأمانة وأرد بعض الدين في ذكرى روحه الطاهرة ..

حمد عبد الله حمد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة (1)

لا يعدل الوفاء إلا وفاء ولا يكافيء الحب إلا الولاء وقد علمنا القرآن الكريم حيث يقول
«وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان».

إنَّ ما كتبه الأخ الفاضل الأستاذ/ الهادي أبو بكر إسحق في مقدمته لمذكرات المرحوم/
خضر وما قام به من جهد في إعداد فهرسي الأعلام و الموضوعات إنَّ دَلَّ فَإِنَّمَا يدل على
وفاء و مودة وولاء وحب- لرجل و الولاء لصديق و المودة لزميل و الحب لرفيق كفاح- وليس
هذا بمستغرب من أستاذنا الهادي لما عرف به من عراقة أصل و سلامة منبت و شخصية
كريمة مميزة فجزى الله الأستاذ الفاضل على وفائه بما يجازي به الأوفياء وجمع الجميع
على ولاء وحب فيه ومودة من أجله.

أسرة المرحوم/ خضر حمد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة (2)

بقلم: الأستاذ الهادي أبو بكر إسحق

الكتابة عن خضر حمد صاحب هذه المذكرات تحتاج إلى مجلّد ضخم وحصرها في وريقات أمر عسير فقد كانت حياته رحمه الله حافلة بالحركة والعمل الدؤوب. كان مثالا للجد والمثابرة وللشباب المؤمن بالوطنية والبذل لها والتضحية في سبيلها في تفان وإنكار ذات.

تلقي خضر تعليمه الأولي والأوسط في مدينة الأبيض حيث كان أخواه يعملان في التجارة. وكان أكبرهما - المرحوم الشيخ عبد الله - موفور النشاط في ميادين العمل العام وكانت داره ملتقى العلماء والأدباء من القضاة والمعلمين. ومن هنا عرف خضر أنَّ للعلم مصادر غير الكتب المدرسية.

وفي يناير من عام 1925م انتقل خضر إلى الخرطوم حيث التحق بكلية غردون التي كانت المدرسة الوحيدة في السودان وكان طلبتها خلاصة النجباء من كل مدارس المرحلة المتوسطة في طول البلاد وعرضها وسنة 1925م هي السنة التي أعقبت ثورة 24 المشهورة والتي انفرد بعدها الإنجليز بحكم السودان بعد إخراج المصريين وراحوا يخططون لفصل السودان عن مصر وتركيز حكمهم فيه. إلا أنَّ أسلوبهم وخططهم باءت بالفشل لأنّها انبنت على اضطهاد المتعلمين وإذلالهم وفرض الرقابة المشدّدة عليهم وكبت حريتهم وحرمانهم من الإطلاع على الصحف والمجلات التي كانت تصلهم بالعالم

الخارجي لا سيما المصرية منها. كما حرموا تحريماً صارماً أن يسافر أحد إلى مصر أما الهجرة لطلب العلم فكانت جريمة لا تغتفر.

أما إدارة البلاد فقد وضعت لها خطة مستمدة من تجاربهم في غرب أفريقيا في الحكم غير المباشر عن طريق رؤساء القبائل وزعماء العشائر والتي كتب فيها اللورد لوفارد كتابه Dual Mandate وهي سياسة تقوم على أساس أن الأفريقي ليس أهلاً لأن يستوعب أساليب المدنية الحديثة وأنه لا يرجى منه أن يحكم نفسه أو يقيم العدل بين بني جنسه ولهذا وضعت قوانين المحاكم الأهلية التي أنشئت بموجبها محاكم القرى ومنح العمد والمشايخ السلطات القضائية والإدارية ليمارسوها تحت إشراف مفتشي المراكز ومديري المديرية البريطانيين ممّا أثار سخط المواطنين وأوغر صدورهم.

ليس هذا فحسب بل أقفلوا مناطق التخلف في السودان في جنوبه وغربه وعزلوها تماماً عن باقي البلاد ولضمان أن تبقى على تخلفها فلا تتأثر بأهل الشمال والوسط الذين كانوا على درجة من الوعي يخشى من عدواها.

وفي مجال التعليم تعدّلت الأهداف والبرامج والكتب الدراسية فلم يبق من ضروب المعرفة إلا ما يُخرّج الموظفين الذين تحتاج إليهم دواوين الحكومة، كما حُوربت خلاوي تحفيظ القرآن وراحوا يغرون مشايخها بمنحهم رواتب ثابتة نظير أن يسمحوا بإدخال علوم الحساب وقواعد النحو ومبادئ العلوم الإنسانية ولكن بقدر لا يغني فتياً ثم طوروها بعد أن أذعنت لسلطات الحكومة وأصبح شيوخها موظفين تنطبق عليهم شروط المستخدمين.. وأصبحت تُعرف باسم (المدارس الصغرى) وبذلك اختفت نار القرآن من مراكز حفظ القرآن.

كل هذا وغيره من الكبت والإذلال فعل فعلته في نفوس الطلبة بكلية غردون وحفرهم للتحوط من أثار تلك السياسة وأوقد في نفوسهم شعلة الوطنية كما ألهب نهمهم للمعرفة والتزوّد بخبرات الأمم في مجال التحرر الوطني ومحاربة الاستبداد فاتصلوا بمن سبقوهم في هذا المضمار من أحرار الموظفين من الخريجين ونشأت جماعات القراءة في كثير من أنحاء القطر.

كان المرحوم خضر حمد من أنشط العاملين في كل مجالات العمل الاجتماعي والوطني فاشترك في جماعة (أبي روف) الشهيرة وفي فرق التمثيل التي كانت تنشأ كلما دعا داعي الوطنية لجمع المال فكان من نشاط تلك الفرق دعم المدرسة الأهلية

بأم درمان التي نشأت بدوافع وطنية ومن نشاط تلك الفرق قام ملحق القرش الذي تطوّر إلى (معهد القرش) الحالي ولخضر في كل ذلك دور كبير وعمل كان يؤديه في جرد وصبر.

كذلك كان من نشاط أولئك الرواد أن ظلّوا يكتبون في الصحافة المحلية نافذين لانحرافات الحكم كاشفين لنياته السيئة ومظالمه وكان أسلوبهم يميل إلى الرمز دون الوضوح وإلى اتخاذ الإمضاءات المستعارة وقد كتب خضر في جريدة السودان لصاحبها الصحافي الحر المرحوم الشيخ عبد الرحمن أحمد كما كتب في مجلة النهضة وغيرها وكان له باب ثابت في جريدة السودان بعنوان (في الهدف) وبإمضاء طنجي وباب آخر بإمضاء غشيم. وقد حدّثني قبل وفاته بأن مجموعة (في الهدف) مُعدّة للطبع والنشر. تخرّج خضر وزملاؤه وانضموا إلى نادي الخريجين بأم درمان ونقلوا نشاطهم إلى هناك كما اتخذوا من المدرسة الأهلية مركز آخر لنشاطهم وفتحوا فيها فصولاً ليلية لمحو الأمية قاموا بالتدريس فيها وخرّجوا عدداً من الدفع غير قليل بعد انمحت أميتها وتزوّدت بقدر من الوعي الوطني.

تعاهد المرحوم خضر حمد ونفر من رفاقه على أن يعدوا أنفسهم للجهاد العنيف والمصادمة المتوقّعة مع سلطات الحكومة فلم يدخلوا في نظام الخدمة المعاشية ولم يتزوّجوا وكانوا يرون في مسئولية الأسرة عبئاً قد يثقلهم ويقعد بهم عن التضحية وركوب المخاطر إلّا أن رفاقه كلهم تزوّجوا متأخرين وبقي هو بلا زواج حتّى فارق الحياة. وكان من ضمن استعدادهم للمعارك المرتقبة أن تدربوا على استعمال السلاح على يد أحد الضباط الوطنيين. وفي عام 1931م أضرب طلبة كلية غردون إضرابهم الذي دخل التاريخ واتخذوا من القرارات أن يقاطعوا استعمال السكر الذي تحتكره الحكومة ويكون بنداً كما بنود الميزانية فأضرب خضر تضامناً معهم ورجع الجميع إلى استعماله سوى المرحوم عبد الله عبد الرحمن نقد الله من الطلبة وخضر حمد من المتضامنين واستمر في مقاطعة السكر حتّى انتقل إلى الدار الآخرة.

ثمّ جاء مؤتمر الخريجين فكان خضر في طليعة الداعين إليه وظلّ يعمل فيه بجد لا يعرف الكلل وعزيمة لا تعرف الخور وبسالة لا تعرف الحذر ولما كان عضواً في جماعة الأبروفيين التي أمنت بضرورة ربط الحركة السودانية بحركة التحرر المصرية. لمّا كان ذلك شأنه فقد تكررت زيارته لمصر ولقاءاته مع الأحرار من ساستها كما زار سوريا

والعراق وعقد عدة صلات بدعاة الوحدة العربية أمثال طارق والقاوقجي. وعند اندلاع الحرب الفلسطينية في عام 1947م أرسل إلى الأستاذ عبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية يعرض رغبته في التطوع للقتال وذكر فيما يؤهله لذلك خبرته باستعمال السلاح وقيادة العربات إلا أن الأستاذ عزام أثر أن ينتفع بخبرته المكتبية الإدارية فما كان من خضر إلا أن استقال من الخدمة الحكومية وشذ الرحال إلى مصر وانخرط في سلك العمل بالجامعة وأبدى من النشاط والكفاءة ما أهله لرئاسة أحد أقسامها الإدارية.

وحين جددت الحركة الوطنية في السودان ونشأت الأحزاب عاد خضر إلى السودان وانضم إلى جماعته التي كونت حزب الاتحاديين. لقد كان السودان بعد ثورة سنة 1919 صخرة تتحطم فيها المفاوضات الإنجليزية المصرية - ذلك أن مصر كانت تصر على حقها التاريخي في السيادة على السودان وتعتبر الثورة المهدية تمرداً أمكن بعده استعادة السودان وكانت إنجلترا تدعي الحفاظ بالسيادة للسودانيين واستمر الوضع كذلك إلى أن قامت في مصر ثورة 1952م واختير اللواء محمد نجيب رئيساً لها ودخلت الثورة في مفاوضات مع بريطانيا بغرض استكمال استقلال مصر وإنهاء الانتداب الإنجليزي. ولما كان محمد نجيب عليماً ببواطن الأمور في السودان بحكم نشأته فيه وصدقاته مع كثير من قادته الذين كان خضر من أقربهم صلة وأكثرهم مودة معه - أقول لما كان ذلك وضع نجيب فقد أتجه تفكير الثورة المصرية إلى حل مشكلة السودان أولاً وإرجاء المشكلة المصرية للخطوة الثانية إذ إن الحق المصري فيها واضح والاتفاق عليه يسير واتفق قادة الثورة المصرية مع قادة الحركة الوطنية في السودان على أن تعترف مصر بحق السودان في تقرير مصيره وأن تؤحد الأحزاب السودانية مطلبها حتى يسهل إقراره بواسطة الدولتين وتكون وفد السودان للمفاوضات وانتدب حزب الاتحاديين خضراً ليكون أحد ممثليه في المفاوضات. وفي اجتماع بمصر مع اللواء محمد نجيب تم إدماج الأحزاب الاتحادية في حزب واحد باسم الحزب الوطني الاتحادي وكان خضر عضواً في اللجنة العليا للحزب الجديد بل سكرتيراً عاماً للحزب وعندما تم استقلال السودان اختير خضر وزيراً للري. وفي حكومة الأحزاب التي تلت حكومة أكتوبر 1964م اختاره الحزب الوطني الاتحادي ممثلاً له في مجلس السيادة وبقي في منصبه ذاك حتى قيام ثورة مايو 1969م.

تلك كانت المعالم البارزة في حياة المجاهد المرحوم خضر حمد والظروف التي
اكتنفت حياته. ألا رحم الله خضرا ومن التحق بالدار الآخرة من زملائه وأجزل لهم
المثوبة وجزى الله خيراً من بقي منهم على قيد الحياة وجعلهم في زمرة صحابة
الرسول صلى الله عليه وسلم الذين قال تعالى فيهم:
« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من
ينتظر وما بدلوا تبديلاً ».

صدق الله العظيم

مقدمة المؤلف

عندما أردت أن أضع اسماً لهذا الذي كتبته وهو أشبه ما يكون بتاريخ حياتي وجدت ارتباطاً وثيقاً بينه وبين تاريخ هذا البلد وأعني التاريخ القريب كما وجدت صلة وثيقة بينه وبين حياة كثير من زملائي الذين سرت مع بعضهم الطريق إلى الآن وسار معي بعضهم نصف الطريق وبعضهم جزءاً من الطريق.

والإنسان الذي ترتبط حياته بالحياة العامة سياسية كانت أو اجتماعية لا يستطيع أن يدّعي لنفسه كل شيء وإلاً وصف بالأنانية والجهل، فالعمل في الحياة العامة شركة واسعة مفتوحة ليساهم فيها كل فرد بحسب طاقته وقدرته.

ولهذه الطاقة أو القدرة أثرها في إدارة دولا ب الشركة مهما قلت الطاقة أو ضعفت تلك القدرة.

لقد تجنبت أن أقول كلمة أنا وحاولت دائماً أن أتحدث في صيغة الجمع لأنني اعترف بأن كل ما قمت به من عمل هو أنني في الحقيقة شاركت فيه، قد تكون أحياناً هذه المساهمة هي كل شيء وقد تكون أحياناً شيئاً قليلاً ولكن كلا الحالتين ما كان ليكتب لذلك العمل النجاح إلا بمساهمة الجميع وبتأزر الجميع وبإخلاص الجميع.

إنّ هذا الذي أكتبه ليس تاريخ حياتي الخاصة فحياتي الخاصة محيطها ضيق وليس فيها من المغامرات أو المفاجآت أو الأحداث ما يجعلها شيقة أو تستحق التسجيل.

وليس هو اعترافات أدون فيها أعمالاً عملتها ولا يعلم سرها غيري وأريد أن اكشفها للناس مرّة واحدة ليجدوا فيها شيئاً من العبرة أو العظة.

كل هذا لم يحدث ولكن الذي أراه أنني تتبعت نشاطي منذ أن عرفت الحياة العامة ووجدت ودون أن أقصد أنني أسجل حقبة من التاريخ ولكنها حقبة صحيحة

سليمة أمينة. لم يداخلها الحسد أو التخمين أو الاستنتاج أو استقراء الحوادث لكن حرصت أن أسجل كل ما أعلمه علم اليقين وساهمت فيه فعلاً ولم أنقله من غيري أو أقرأه في مرجع أو استقه من عليم.

يخطئ كثيراً أولئك الذين ينسبون النهضة والحركات الوطنية وإلهاب الشعور إلى أفراد سواء أكانوا قادة أو بارزين لأن في ذلك ظلماً لكثير من الجنود المجهولين الذين كانوا يعملون في صمت ولا يعرفون أو لا يريدون الدعاية لأنفسهم فالقادة بالرجال كما أن الرجال بالقادة ويجب أن يقدر مجهود كل فرد.

لقد ذكرت ما أعلم وتركت ما جهلت لا استخفافاً به ولكن خوفاً من أن أظلم أحداً وأنا على تمام الثقة من أن الجنود المجهولين أكثر من الجنود المعلومين وأن رجل الشارع تعرّض لتضحيات وتشريد ومضايقات لم يتعرّض لها البارزون.

إن هذه - المذكرات ولا بد من تسميتها بذلك - لا تخصني وحدي ولكنها في الحقيقة تشمل أو تصوّر كفاح جمع من الإخوان كل منهم لو أراد أن يكتب لكتب مثل هذا الذي كتبت لأنّ الجهد مشترك والتفكير مشترك والدافع للعمل مشترك.

أرجو أن يجد قراء هذه المذكرات من أبناء الجيل الحديث شيئاً جديداً ولا نريد أن يشنوا علينا أو يكرمونا ولكن نرجو ألا ينسوا أنّ القدامى من آبائهم وإخوانهم لم يقصّروا وأنهم حملوا الأمانة حتى أدوها على ما كان ينقصهم من وسائل وإمكانات استعاضوا عنها بالإيمان والثبات حتى سلموهم السودان حراً مستقلاً ركزت رأيته مع رايات الدول الحرة المستقلة في الهيئات الدولية وبين الشعوب العربية..

أثر البيئة

نشأت فوجدت أخي الأكبر المرحوم عبد الله حمد يقرأ كثيراً.. يقرأ الفقه في الجامع الكبير بالأبيض وينتهي الدرس فيدخل إلى البيت ليبدأ قراءة جديدة في فنون أخرى لا تمتُّ إلى الدين بصلة. كان يقرأ للمنفلوطي وحديث عيسى بن هشام والمقطم والمقتطف وكل ما يقع في يده من كتب الأدب والشعر والسياسة.

كان لا يقرأ لنفسه بل كان يحرص أشد الحرص على أن يقرأ للآخرين الذين يسكنون معه. وكنا نسكن مع عدد من التجار قليلي الثقافة بل فيهم الذي لا يقرأ ولا يكتب وكانوا إذا ما تناولوا العشاء جلسوا أو رقدوا على (العناقيب) وأخذ أخي يقرأ لهم ويشرح ما يقرأ وكانوا هم يجدون لذة ما يعدها لذة فيتابعونه باهتمام بالغ. وكانت روايات المنفلوطي كلها قصصاً ممتعة تتعلّق بحياة الناس وتصف ما هم عليه من بؤس أو نعيم وتعرض لمشاكل الضعفاء أو المستضعفين وتحنو على الفقراء كما تصب جام غضبها على الموسرين والمفترين.

وهذا ما جعل هذه الروايات محببة إلى نفوس هؤلاء القوم فكانوا يواصلون الاستماع إليها باهتمام ويطالبون أخي بقرائها كل مساء وكانوا يحرصون على أن يذكروا له أين وقف في المساء السابق وماذا فعل بطل القصة أو فتاها الأول. كانت أشبه بقصص أبي زيد التي يصر السامعون على الوصول إلى نهايتها أو يعيشون في قلق إلى أن يستأنف القارئ الحلقة في الليلة التالية.

وكان لهذه الحياة أثر في تكويني من ناحيتين أولاًهما أن أخي كان يحب القراءة فأحببتها وأتجه تفكيري إليها وثانيتهما أنه كان لا يقرأ لنفسه بل كان حريصاً على أن يشرك الآخرين الذين حرمتهم ظروف الحياة من التعليم كان يحرص على أن يشركهم فيما يجد من لذة القراءة وتلك المتعة الروحية فتعلّمت من ذلك حب الغير ومساعدته. ومن ذلك نشأ ميلي إلى الأعمال العامة والاجتماعية منها على الخصوص ولعلّ هذا يظهر جلياً من الأعمال التي ساهمت فيها مع زملائي قبل أن نعرف

السياسة مجالاً فسيحاً أو نعمل فيها عملاً سافراً.
وسارت الحياة بي أو سرت معها الشوط الأول في كردفان فأتتمت التعليم الأولى والأوسط وكانت حياتنا حياة عادية ليس فيها من معالم إلا ذكريات الصبا في كردفان (الغرة).

وكانت حياة الناس في كردفان آنذاك (سنة 1920م) حياة بسيطة والعيش رغد والناس في بساطتهم ومسالمتهم. تنتعش الحياة بنزول الأمطار فيرد إلى الأبيض سكان البادية، وتجاور قرى البقارة مدنية الأبيض من الناحية الجنوبية وتمتلى السوق بمعروضات العرب من سمن وجلود وماشية وتنتعش الحياة التجارية فيبيع هؤلاء العرب ما عندهم من خيرات ويشترى ما يحتاجون إليه من سكر وشاي وملابس. وإذا ما حلت الأعياد الدينية ركب الناس الحمير والخيول واتجهنا إلى قرى البقارة المنتشرة في السهل الفسيح جنوب الأبيض نشاركهم ونستمع برقصاتهم.

ومن هناك نخرج على حي الرديف وكان أقصى مكان في أطراف المدينة من الغرب وهناك نجد الألعاب المختلفة على رأسها لعبة (كسوك) ثم من هناك على الفلاته حيث الألعاب والمصارعة والرقص التي تستمر أسبوعاً كاملاً هذا زيادة على المراجيح المبتكرة التي لا يعرفها سواهم.

وفي الأبيض تفتحت عيوننا على استبداد الإنجليز وغطرتهم رأينا كيف أن مفتش المركز بالسوق ممتطياً جواده يمر في أي وقت شاء ولأي غرض شاء ولكن على الناس جميعاً أن يقفوا إجلالاً له واحتراماً والويل لمن تحدته نفسه ألا يفعل ذلك حتى لو كان مريضاً لا يقوى على الوقوف.

ويمر المفتش كل صباح ومعه شيوخ الحارات والأرباع والخفراء والمأمور ونوابه وكل رجال الإدارة يمرون جميعاً كل صباح وكأنما كان من مهمتهم جميعاً القبض على من لا يحيي المفتش أو ينزل عن دابته أو يقف إن كان جالساً أو راقداً. يجمع هؤلاء المذنبون ثم يساقون إلى المركز وهناك ميدان كبير يفصل بين المركز والمديرية تجمع في ذلك الميدان أكوام من التراب على مسافات متباعدة قليلاً ويؤمر كل كم يقبض عليه من أولئك الذين لم يحيوا المفتش الهمام يؤمر أن يمر على كل كوم من التراب ثم يجلس بالقرب منه ثم يقف ويحييه ويسير بعد ذلك للذي يليه ويجلس أيضاً ثم ينتصب واقفاً ويحيي وهكذا إلى أن يمر على العشرة أكوام ثم بعيد الكرة مرة

أخرى إلى آخر ساعات العمل.

وما زلت أذكر والثورة تملأ نفسي إلى هذه اللحظة أن ضابطاً في الجيش كان يأتي في العصر إلى السوق راكباً حصانه وهو يلهو بكرة البولو في الساحة التي حول الجامع ولا يهيمه أين ذهبت الكرة ولا من ضربت وكأنه في ميدان البولو وليس أمامه أناس من بني البشر.

أليس من حقنا إذا أن نكره الإنجليز ونحقد عليهم وهذه أخلاقهم وخطرستهم لا اعتقد أن شاباً حضر هذا العهد تكون في نفسه ذرة من الاحترام لهؤلاء الوحوش.

طرق التربية والتعليم

انتقلنا من غرفة التحضيري وهي فصل قبل الكتاب إلى كتاب القش الأميري سنة 1920م وكان بناء مناسباً يقوم على حيطان من الحجر ومسقوف بالقش بطريقة جيدة لا يتسرب الماء خلال القش في الخريف ويعطي كمية كافية من التهوية ويتناسب مع مستوى مباني البلد.

وليت وزارة التربية والتعليم تأخذ بهذه النظرية في بناء مدارسها فتوفر المال الكثير الذي يصرف على بناء ليست تدعو إليه حاجة بل الحاجة تدعو في إلحاح إلى توفير هذا المال لتبني به مدارس أكثر وأكثر.

إن طقس السودان يختلف في كل مديرية عن الأخرى وكذلك يختلف نوع المباني التي يسكنها الناس وقد ألهمتهم القدرة الإلهية أن يبنوا البناء المناسب لطقس منطقتهم. ففي السودان البلاد التي لا تنزل فيها الأمطار مطلقاً أو في كل عشرات السنين مرة وفيها البلاد التي ينزل فيها المطر أربعة أشهر وفيها ما ينزل فيه المطر أطول من ذلك وقد ألهم الله سكان كل منطقة فبنوا ما يناسبهم من البناء. فنرى سكان أقصى الشمالية لا يهتمون بالسقوف إلا ما يحجب عنهم حرارة الشمس وفي منتصف الشمالية يسكن الناس في بيوت الجالوص (البناء بالطين) وفي الغرب يسكنون بيوتاً من القش وهذا القش يستعملونه بطريقة جيدة تمنع عنهم الحر

والمطر ومعظمهم التهوية الكافية.

ووزارة التربية نصرت على أن تبني مدارسها في كل أنحاء السودان بالطوب الأحمر والأنسجت المسلح وتسقفها إما بالخرصانة أو الزنك وكلاهما في الحر لا يُطاق وتصرف على المدرسة الواحدة عشرات الآلاف من الجنيهات بينما القرية كلها التي عاش فيها الطالب وسيعيش فيها لا تصل تكاليفها إلى ربع تكاليف المدرسة.

ويصدر وزارة التربية أن تعلن عن مسابقة بين المهندسين ليعطوها أنواعاً من المباني تناسب كل منطقة وتقلل من هذه التكاليف التي نحن في حاجة إليها لبناء مدارس أكثر. إن الناس في حاجة إلى التعليم ولو تحت ظل الشجرة.

نمود إلى كتابنا بالأبيض فقد كان هذا الكتاب وزميله كتاب القبة هما المدرستان الأولتان الوحيدتان في الأبيض. ومن الكتاب انتقلنا إلى المدرسة الابتدائية أو الوسطى كما تسمى اليوم وكانت نظرية التربويين تختلف اختلافاً تاماً عن نظريتهم في هذا العهد. ولعلني أستطيع أن أحكم على النظريتين وقد عشت الأولى مع من عاشها ورأيت أثر الثانية.

كان المعلم معلماً ومربياً يُعلّم العلم ويُربّي النشء ليكونوا رجالاً في الحياة. كان الأساتذة أمثال الشيخ محمد الحسن دياب كأنما يشعرون بأن الله وكل إليهم أمر هذا الجيل الذي يربونه وأنه سيسألهم عنه يوماً ما ماذا فعلوا به؟ وكيف أعدوه للحياة؟ وكيف لقنوه العلم؟ لم يكن همهم أن يلقوا الدروس وأن يقفوا عندها ولكن مراقبتهم تتبع الطالب في المنزل والشارع وكل مكان.

كان الأستاذ يقوم بمهمة المدرسة والبيت فكانت لا ترى طالباً يلعب في الشارع خوفاً من أن يراه الناظر أو يعثر عليه المدرس وهو خارج منزله. وكانت سياسة الضرب عند الإهمال في الدروس هي السياسة المتبعة. فالمدرس يعاقب الطالب كما يترأى له فلا والد يغضب أو يشكو ولا ناظر يسأل مادام ذلك العقاب رائده التوجيه والحث على الدرس والتحصيل شعارهم « الضرب ينفعهم والعلم يرفعهم ».

وقد يختلف أصحاب النظريات التربوية في هذه الأساليب ويخطئ بعضهم أسلوب العقاب ولكنه في نظرنا الأسلوب السليم. والذي خرج رجالاً يشعرون بالمسئولية ويقفرون الواجب ولهم أخلاق وقد نجح في الحياة من نجح وفشل من فشل ولكن لم يكن لهذا الأسلوب من التربية أثر في الفشل بل قطعاً كان له أثره البالغ في النجاح.

لقد عشنا كما قلت ذلك الأسلوب من التربية ورأينا أثر الأسلوب الجديد فكان الفارق بين الأسلوبين هذا الفارق بين جيل دؤوب حسّاس له خلق وجيل متخاذل يعيش عيشة اتكالية ولا يقدر المسؤولية ويطنُّ أن نهاية المدرسة هي نهاية الدرس والتحصيل.

ويقول بعض المربين أيضاً إنَّ الأسلوب القديم لا يخلق رابطة أو صداقة بين المربي والتلميذ ولا يشجع التلميذ على السؤال ومحاولة الفهم ولكن الحقيقة الرابطة التي نشأت بين الجيل الماضي وأساتذته هي رابطة احترام وتقدير وحب ومازال الواحد منّا إلى اليوم لا يجزؤ على أن يرتكب أيَّ هفوة عادية أمام أستاذه وقد تلاحقت الكتوف كما يقولون بينما نرى الصلة التي بين الجيل الجديد وأساتذته لا تقوم على احترام متبادل وقد تصل أحياناً إلى الاستهتار والحرية التي تصل إلى درجة الإباحية. ولا يسعني إلا أن أحيي المربين القدماء والذين أسميهم مربين بحق لأنهم كانوا يعنون بالتربية مع التعليم وكانوا يفكرون في مستقبل هذا الجيل وما سيصادفه من متاعب ومسؤوليات وطنية وغير وطنية فأعطوه كل عنايتهم ليُخَرِّجوه رجالاً يجابه الصعاب وهو قوي بخلقه وعلمه.

وانتقلنا في نهاية مرحلة الابتدائي أو التعليم الأوسط إلى كلية غردون وهي المطمع والأمل لأنّها أعلى درجات التعليم في ذلك الوقت وقد كان الدخول فيها والوصول إليها حلم كل شاب. أمّا نحن أبناء كردفان فقد كان الوصول إلى الكلية معناه الوصول إلى عاصمة السودان ورؤية البحر الذي لا يستطيع الخيال أن يرسم له صورة ولا بدّ من رؤيته حتّى يصدق الإنسان أن هناك ماءً بهذه الكثرة وأنّ هناك (الغولة) التي تملؤها مياه الأمطار وهي مسبح الصبية لا تقف إلى جانبه أو تدانيه وكما سمعنا النكت التي ترسل عن أبناء كردفان عند رؤيتهم للنيل العظيم.

جننا إلى الخرطوم بعد مرحلة قاسية أخذنا فيها نصيباً من شدة ناظرنا الذي يدفعه إليها حرصه على مستقبلنا وعلى نجاحنا في امتحان الدخول إلى الكلية حتّى يسعد هو بالنصر والوالدان بالفخر.

ولم تكن الكلية آنذاك هي الكلية المعروفة ولكن أدخلنا إلى قشلاقات عباس التي بجوار المحطة ذلك لأنّ الكلية كانت محتلة بجيش الإنجليز الذي جئ به لقمع ثورة. سنة 1924م تلك الثورة التي اضطرت سلطات الكلية لتقفّل أبوابها أكثر من ستة

أشهر بعد العطلة التي تبدأ في مايو فلا تفتح إلّا في ديسمبر 1924م وكُنّا أول من بأنّي إلى الخرطوم من المدارس الابتدائية للامتحان المخصّص للدخول في الكلية. كان الإنجليز في حالة يرثى لها من الحنق والغيط وكانت ثورة سنة 1924م ثورة عارمة اشترك فيها كل طبقات الشعب والجيش والطلبة وانتهت بالنصر للاستعمار وبخروج الجيش المصري والمدرسين المصريين من جميع مراحل التعليم وبدأ الإنجليز يمارسون أحقادهم على الشعب في كل ميدان وكانت الكلية أحد هذه الميادين.

لقد اجتزنا الامتحان ودخلنا الكلية وكانت أشبه بسجن مظلم قوانينه صارمة وسجانوه أشداء فالمستتر يودال هو الحاكم الأمر ومعه ضباط ورؤساء من الطلبة لا يخرج الواحد منهم إلى الطابور في العصر إلّا والعصا في يده. وخطبنا مستر يودال في أول طابور عام المدرسة خطبة هاجم فيها الثوار أو جماعة اللواء الأبيض وكان يقولها «البريق البيضاء» وأشبعنا من التهديد والوعيد الشيء الكثير.

فرض علينا أن نفعل ملابسنا وأن نكنس المدرسة وأن نحمل الرمال لأنّ في القشلاق بعض الحيطان القصيرة كانت معالم للطرق فكساها التراب وأصرت سلطات الكلية على عملية التنقيب فيها وكشفها وكان علينا أن نرش الشوارع وأن نعد الطرق والويل للمتذمر فالرؤساء من الطلبة بالمرصاد وهناك التيلة التي تنتظر من يرفع أمر هؤلاء الرؤساء إلى Tutor الإنجليزي. وانقضى العام الأول ثمّ حملنا على رؤوسنا الدواليب والعناقريب من قشلاق عباس إلى كلية غردون (الجامعة اليوم) لقد تعاون كل اثنين على حمل العناقريب والبطاطين على رؤوسهم إلى هناك في الصباح الباكر. لكلّ داخلية مفتش أو تيوتر كما يسمونه وهو المفتش الإنجليزي جيّ به لا يعلم ولكن ليتعلّم كيف يتحكّم في السودانيين وكيف يظهر الغطرسة والسيطرة وكل هؤلاء خرجوا من الكلية ليعملوا مفتشين إداريين - وهذه هي المناصب التي جيء بهم لها في الحقيقة. لم يختاروا ليكونوا معلمين ولكن ليكونوا مفتشين في المراكز. وكان بعضهم يدرس علوماً لا خبرة له بها بل بعضهم يدرس الطلبة شكسبير ويعترف أنّه لم يقرأ شكسبير ولا يعرف لغته.

ولكن جزى الله هذا الأسلوب خيراً فقد علّمنا كيف نكره الإنجليز وكيف نحقد عليهم وكيف نقرر أنّ حياتنا يجب أن تُكرّس لمحاربة هذا الاستعمار - إنّ الشدة

تولد الشدة هذا حق ولو كانوا قد سلكوا معنا غير هذا المسلك لكنا لهم أصدقاء وكان عهدهم قد طال في السودان ولكن الله أراد خيراً فسلطهم علينا حتى تترتب نفوسنا على كراهية الغطرسة والعنجهية الإنجليزية وخرجنا من الكلية ونفوسنا معبأة بالكره والحقد عليهم.

ورسمنا برنامج حياتنا على أننا يجب أن نعيش حياتنا الخاصة على هامش الحياة لأن أماننا السجون والمعتقلات فيجب أن نكون أقل الناس أعباء وأقلهم اتباعاً لهوى النفس ونزغ الشباب. حتى ننصرف بكلياتنا إلى الكفاح الوطني.

أما فيما يخصني فقد كنت متأثراً بما سمعته عن المرحوم المجاهد الكبير بل الوطني الحق عبيد حاج الأمين الذي كان صلباً ثابتاً في كفاحه لم يربط نفسه بقيد فلم يتزوج وهو كما يقول عبد للإنجليز ولا يريد أن يزيد في عدد العبيد ولم يتقيد بمزاج خاص فلا مكيفات ولا متع حتى لا يشعر بمرارة السجن. جعل من حياته الخاصة سجناً يهبه للسجن الكبير ولذلك عندما دخل السجن كان أقل إخوانه إحساساً بقيوده وكان لا يفكر في أحد وراءه إلا هذا الوطن.

اتخذت من عبيد هذا مثلاً وصممت بيني وبين نفسي ألا أتزوج والبلاد تحت الاستعمار ولم ارتبط بأي مكيفات بل كنت أحياناً أقفل الغرفة علي وأنام في الليل على الأرض وأحياناً على السرير من غير فرش أدرب نفسي للأيام القاسية التي ما كنت أشك في أنها تنتظرنني في الطريق الشائك الطويل الذي سنسلكه عن رغبة وطواعية في كفاح الغاصبين.

بهذا الشعور خرجنا إلى الحياة العامة لنساهم مع غيرنا في العمل على تحرير بلادنا من قيد الاستعمار الذي أذاقنا من ضيمه واستبداده ونحن مازلنا في عهد الدراسة. وكما ذكرت بالخير المربي الحازم والأب البار لكل طالب الشيخ محمد الحسن دياب في عهد الابتدائي لا بد لي أن أذكر بالخير أستاذنا الشيخ بشير الفضل في كلية غردون ولعل لسائل أن يسأل لماذا ذكرت فضيلة الشيخ البشير الفضل دون الآخرين وجوابي أن الفصل الذي كنت فيه سعد بأن يتلقى العلم عن الشيخ البشير في عامين مختلفين وقد لاحظنا عليه أنه لا يضع دقيقة واحدة من الحصة في غير الدرس ومع ذلك فقد كان خفيف الظل مهذباً يحترم الطالب ويدفعه إلى احترامه وتكريمه.

وكان فوق هذا يمثل أمانة العالم الحق. كنا نسأله سؤالاً وأستلثنا مهما كانت

فهى دون أن يعجز عن الردّ عليها أو على الأقلّ الرد الذي يسكت السائل فليس في حصيلتنا من العلم ما يمكننا من مناقشة بحر علم كالشيخ البشير ولكن مع هذا فقد كان يحجم الشيخ البشير أحياناً عن الردّ ويقول للسائل « أمهلني حتّى أقف على هذه المسألة » ثمّ ينسى السائل السؤال ويمرّ يوم أو يومان ويأتي الشيخ البشير ليقول للطالب يا فلان سألتني يوم كذا سؤالاً عن كذا وقد وقفت لك على الردّ وهاك هو ثمّ يفيض في الشرح ويذكر كل ما يمت إلى السؤال بصلة عن علم غزير وأدب وفير وخلق سمح.

لقد أكبرنا في الشيخ البشير هذه الأمانة وقدّرناها حقّ قدرها وجعلنا له مكانة خاصة في نفوسنا حتّى إنّنا في الأعوام الأولى لتخرّجنا وقبل أن تفرقنا الأيام كنّا نذهب إليه في مجموعة لنهنئه بالعيد أو نزوره لنستمع بجلسة علمية معه.

أنا سوداني

كان أهم ما شغل أذهاننا ونحن ما زلنا في السنة النهائية في كلية غردون بعد الوطنية الدافقة التي امتزجت بها أرواحنا وأشربت بها عقولنا شيئان، أولاً شعورنا بأنّ تعليمنا قاصر وأنّ الاستعمار لا يريدنا إلّا موظفين ندفع عجلة الروتين وتشغلنا مطالب الحياة فهو يعدنا في جميع أقسام الكلية المختلفة لهذا المصير فالتوظيف هو نهاية المطاف والعلم الذي نتلقاه يهيئنا لهذه الوظيفة دون سواها بل كانت الوظيفة هي أمل الأهل والأحباب. وإذا ما تخرّج الفرد مثلاً واحتوته دواوين الحكومة وهذا مصيره الحتمي سرّ به أهله واحتفل به أصدقاؤه وأقيمت له الحفلات ابتهاجاً بالفوز والظفر. كنّا نشعر بأنّنا لم نخلق لهذا وأنّ وراءنا واجباً كبيراً ومهمة شاقة يجب أن نعد لها أنفسنا وكيف نعد أنفسنا ونحن لم نتلق من العلم إلّا هذا القدر، ولكن إذا كان المجال في ميدان العلم والتعلّم قد صيّقه علينا الاستعمار إلى هذا الحدّ ففي مجال الثقافة العامة والاطلاع فرص أرحب.

وتطلّع بعضنا إلى الاستزادة من العلم وعند نهاية السنة الثالثة من سني الدراسة

فى كلفة غردون فرّ منّا ثلاثة زملاء. فرّوا إلى مصر بل هربوا هروب المساجين من غياهب السجن. ففي عطلة الخمسة عشر يوماً التي تكون عادة بعد امتحانات النقل فرّ إلى مصر الأستاذ يعقوب عثمان والدكتور بخيت محمد عمر والأستاذ بشير محمد خير.

ما كنّا على ثقة من أنّهم سيهربون ولكن كان إحساساً داخلياً ينبئنا بأنّ في الأمر شيئاً وما فتحت المدرسة حتّى عرفنا الخبر اليقين. ومنذ تلك اللحظة صمّمنا أن نقف - عندما نتخرّج - إلى جانب من يريد أن يستزيد من العلم وأن نعين على ذلك بما نستطيعه من جهد ومال بل بلغ بنا الحماس أن قرّرنا أن نهب نصف مرتباتنا لمساعدة النازحين إلى الاستزادة من العلم. العلم النافع الذي حرمانا منه ولكن حرماننا منه يجب ألا يقف حائلاً دون وقوفنا إلى جانب أولئك الذين وجدوا طريقهم إليه بل واجبنا أن نشجّع كل طامح وأن نعين كل محتاج وأن ندفع ببعض النابهين والذين تمكّنهم ظروفهم من الاغتراب إلى النزوح خارج البلاد في طلب العلم.

وقد فعلنا كل ما نستطيعه ووقفنا بعد التخرّج إلى جانب أولئك الطموحين ولكن لم يبلغ التشجيع والعون الحد الذي نتبرع فيه بنصف مرتباتنا كما حسبنا أولاً فقد كانت التزامات الحياة التي لم نحسب لها حساباً من قبل قد حالت دون تحقيق تلك الأمنية بنصها ولكن كان تشجيع طلب العلم في الخارج يأخذ منّا غير قليل من جهدنا ومالنا وهكذا أمكن إرسال الكثيرين إلى مصر للتعليم.

ويأتي بعد شعورنا بأنّ تعليمنا قاصر الشيء الثاني وهو تلك التفرقة القبلية التي كان يحرض الاستعمار عليها حرصه على الاستعمار نفسه. لقد كان الاستعمار حريصاً على أن ينمّي فينا روح القبيلة كما كان حريصاً على أن يلهب الحماس لها والتعصّب للعين من أجلها بين القبائل فكّم أثار هذه النزعات وأيقظ الحفاظ والضغائن التي عفى عليها الزمن فهذه القبيلة التي أغارت عليها قبيلة أخرى يوماً من الأيام وسلّبتها نحاسها يتقدّم إليها الحاكم العام ويهبها نحاساً جديداً ويخطب فيها قائلاً إنكم فقدتم في الحرب الفلانية مع قبيلة كذا نحاسكم وهاهي ذي الحكومة تعيد إليكم نحاساً غيره.

وكان السودانيون جميعاً وفي كل المعاملات حتّى في العرائض يطالبون بذكر قبيلتهم « أنا فلان الفلاني المحسي الجنس أو الدنقلاوي الجنس القاطن في جهة

كدا أنعمد إلى جنابكم بكذا وكذا». وطلبة المدارس يجب أن يذكروا قبائلهم ولم تكن كلمة سوداني معروفة أو محترمة وكم ثارت مناقشات ونشبت خلافات في المفاضلة بين الجملي والمحسي والدنقلاوي والشايقي.

كانت الفرقة المتعمدة خطراً كبيراً يهدد البلاد ويزرع عنجهية مبعثها الجهل ويقوّيها بل يُنمّيها الاستعمار.

وقرّرنا ونحن في السنة النهائية أن ندعو إلى كلمة سوداني وأن ننكر هذه القبلات وأن نحكم عليها حكماً لا هواده فيه ولا رحمة حكماً يوردها الفناء ويقضى عليها القضاء المبرم.

وكانت حركة ليست بالهينة ولا بالسهلة وكانت طريقاً شائكاً وجدنا فيه المعارضة حتّى بين صفوف المتعلمين ولكننا صمدنا لها وصمّمنا على أن نشقّ طريقنا وأن نوحّد يوماً ما بين السودانيين جميعاً في كلمة سوداني.

وأذكر حادثين يدلان على مدى ما كنّا نلاقيه. فعندما أرسلنا إلى مصلحة المالية للتوظيف سألنا رئيس كبير هو عيساوي بك عن أسمائنا ثمّ عن أجناسنا ولما قلنا له سودانيون ألحّ في أن يعرف قبائلنا وصمّمنا نحن على كلمة سوداني فلم يكن منه إلّا أن قال لنا إنّه غير مستعد لتعييننا إن لم يعرف قبائلنا فقلنا له ذلك شأنك أمّا نحن فلا نعرف لنا قبائل ولكننا أبناء هذا السودان ولا ننتمي إلى غيره. وأخيراً كتبها من الأوراق القديمة غير مقر لما قلناه من أننا سودانيون.

وبعد أن التحقت بالمالية كنت أعمل مع نائب السكرتير المالي كاتب اختزال Stonographer وفي يوم طلبني أحد المفتشين واسمه المستر بلاكي ليملي على مذكّرة ولعلّه أراد أن يداعبني فسألني:-

خضر أفندي جنسك شنو؟

سوداني.

أقصد قبيلتك.

لا أعترف بهذه القبلات.

هل كلية غردون تعلمكم أن تنكروا أجناسكم؟

إنّ كلية غردون لا شأن لها بالقبائل.

طيب الشلوخ دي عشان شنو؟

لثبتت إنني سوداني.

حسناً دعنا فيما كنّا فيه.

لقد ملأه الغيظ وهمس إلى مفتش آخر كان معه في نفس المكتب وسمعت منه كلمتي « أولاد كلية غردون » وقد كانوا آنذاك بدأوا يحقدون على أولاد كلية غردون الذين لا يعجبهم الحال.

ومنذ تلك اللحظة وبعد أن أملى عليّ ما أراد لم يسألني عنه مرّة أخرى ولم يحاول أن يستعين بي في عمل من الأعمال.

إنّ كلمة سوداني التي أصبحت اليوم لا يعرف الناس غيرها بل أصبحت مفخرة، كانت في يوم من الأيام تُحارب من كل جهة والقائلون بها يتهمون بأشنع التهم ويستنكف كثير من الناس أن يقولوا أنّهم سودانيون.

وانمحت بالتدريج تلك القبلية البغيضة التي حاول الاستعمار بكلّ الطرق ومختلف وسائل الإغراء أن يحييها وأن ينفخ فيها من روحه ولكن هيهات فإنّ الوعي قد بدأ نوره يعم السهل والجبل وأصبح الناس يحسون بأنّ الدعوة التي جاء بها الشباب الجديد لا تخلو من معنى وأنّها ترمي إلى هدف سام بعيد.

وبعد مرور ستة وثلاثين عاماً سمعنا بالتكتلات الإقليمية التي دخلت الانتخابات سنة 1965م وجاءت بكتلة البجة وكتلة النوبة وكأنّنا نريد أن نرجع بالبلاد إلى الوراء إلى ستة وثلاثين عاماً إلى عهد القبلية البغيض وعهد الجهل والتأخر ربيب الاستعمار، وفات هؤلاء الذين جاءوا إلى الجمعية التأسيسية ممثلين لمواطنيهم أنّهم أصبحوا يمثلون السودان كله لا جزءاً ولا قبيلة بعينها.

في معترك الحياة

إنّ الذي سأدونه في هذا الباب ليس فيه غرور أو افتئات على حقوق الغير ولكنّه حق وصدق لقد كانت دفعتنا من الكلية دفعة نشطة فيها طموح وفيها وطنية وفيها اهتمام بالمسألة الوطنية العامة ودلّيلي على ذلك إنّ الكثير من أفراد هذه الدفعة

وصلوا إلى مناصب حكومية أو مراكز اجتماعية أو اقتصادية وبرزوا فيها أكثر من أفراد أيّ دفعة أخرى من خريجي كلية غردون.

ليس معنى ذلك أنّ الدفعات الأخرى خالية من الطموح أو الحماس ولكن عدد الطموحين والمتحمسين في هذه الدفعة أكثر وكانت بينهم صلات ودّ وجب أكثر من الود والحب الذي ينمو بين أبناء فصل دراسي واحد. وفي هذه الدفعة من وصل إلى السفارة والوزارة ورئاسة الوزارة ومجلس السيادة ووصلوا إلى وظائف المديرين لوزارات عديدة وقليل منهم من قعد به الحظ فلم يظهر ظهوراً مرموقاً في المجتمع.

خرجنا إلى الحياة إلى مجتمع مضطرب لا يدري ما يفعل إلى مجتمع خرجت به ثورة فشلت فاستكان المهزوم وتنمّر المنتصر والناس في خوف من المستعمر كما هم في خوف من أنفسهم. برز في المجتمع الانتهازيون الذين وصلوا حبالهم بحبال الإنجليز وتملقوهم وأصبحوا أصحاب الخطوة عندهم. وغمرت البلاد موجة من النفاق والخوف وانصرف كل فرد إلى كسب عيشه.

تخرّجنا في سنة 1929م وقد مرّت على الثورة خمسة سنوات ومازال الحذر طابع المجتمع. فنادي الخريجين الذي قال عنه رئيسه الأول إنّه سيلعب دوراً في تاريخ هذه البلاد أصبح مسرحاً لمختلف الأهواء والأمزجة وطغى عليه النوع المستسلم الذي أطلق عليه الإنجليز النوع المعقول.

وجرت عادة نادي الخريجين على أن يقيم حفلاً للخريجين الجدد كل عام يرحب فيه بالخريجين في ميدان الحياة ويخطبهم لعلّه يجد فيهم سنداً وعوناً ونشاطاً في ميدانه وأقيم الحفل احتفالاً بنا كالعادة والتحقنا نحن بنادي الخريجين لعلنا نجد فيه الهداة والمرشدين ممن سبقونا إلى ميدان الحياة العملية وأصبحنا نزور النادي مع رواده ونجلس كل يوم في مكان ومع جماعة غير التي جلسنا معها بالأمس نتفقد الأحوال والرجال ونستمع إلى الأحاديث ونعود أنا وصديقي إبراهيم سليمان إلى منازلنا ننتقد ونمحض وأحياناً نسخر ونستغرب ممّا سمعناه.

وبدأت صلتنا بالنادي تقوى ولكن في مجال ضيق وبدأ نشاطنا خارج النادي. ففي النادي نشترك في الاحتفالات العامة ونحضر المحاضرات والمناظرات ونسمر مع السامرين.

وكان النادي في تلك السنين وما بعدها لا يجد متنفساً إلا في المناسبات والأعياد

الدولة فيقيم الاحتفالات ويتبارى الخطباء وكنت تحس من تلك القصائد والكلمات ومنس نار. كان الخريجون يحتفلون بالعام الهجري وبالمولد النبوي والأعياد. وقد سمعنا كثيراً من الكلمات والقصائد نهتينا إلى التقرب من أصحابها ومعرفة مدى ما عندهم من استعداد للعمل الجاد فكان بعضهم لسان صدق لما يحس به وكان الآخرون يزوقون الكلام ويصوغون الشعر للمناسبة وحسبهم من ذلك أن يدلوا بدلهم في حفل يجتمع فيه الناس من كل طبقة ويستمعون إلى الشعر والنثر.

وكانت الثقافة المصرية بحته لم يظهر بعد أصحاب «الباب» الذين يزعمون أنهم يعرفون الإنجليزية خيراً من العربية. وكانت علامة المثقف هي الاهتمام بالصحافة المصرية والإطلاع عليها ومعرفة السياسة المصرية وتتبعها والظهور بالاتجاه نحو مصر ولعل ذلك مبعثه الحرمان والمعاندة قبل أن يكون الإيمان والشعور بالعلاقة الطبيعية بين مصر والسودان فالكلية لا تسمح لطالب أن يتصفح جريدة مصرية ويعاقب الطالب الذي يضبط متلبساً بجريمة حمل جريدة مصرية ولذلك كان إقدامنا على قراءتها شديداً وكذلك الرأي العام. والحقيقة إنَّها كانت مصدر الثقافة والأدب والعلم ولولاها لأصبح الناس أعاجم فليس في السودان جريدة أو مجلة غير حضارة السودان التي كانت أشبه ما تكون بالجرائد الرسمية كالغزيتة مثلاً والتي يعلم كل مثقف إنَّها لسان حال الحكومة تصدر بتوجيهها وتعلن عن سياستها وتدافع عن اتجاهاتها والمحرر موظف أو شبه موظف يختاره مكتب المخابرات ويعينه السكرتير الإداري بعد أن يثق من ولائه وإخلاصه.

كانت مظاهر العلم والثقافة هي الإطلاع على الصحافة المصرية والمجلات الأدبية وعلى رأسها آنذاك السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي وقد كانت هذه المجلات بعد أن ظهرت الرسالة والثقافة تمثل مدارس فكرية وأدبية كان لها أثر بعيد في تهيئة الشباب للأدب وكان على رأس السياسة الأسبوعية الدكتور هيكمل وعلى رأس البلاغ الأسبوعي عبد القادر حمزة باشا كاتب الوفد الرزين والسياسي النظيف.

انتهت استطلاعاتنا لحو نادي الخريجين بأنَّه مكان للاجتماع والتسلية وأنَّه لا يصلح لعمل جاد وأنَّ أبوابه مفتوحة بحكم قانونه لكل خريج والخريج كما عرَّفه القانون هو الذي نال تعليماً أرقى من مستوى الكتاب. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إنَّه ناد يجتمع فيه الناس لا على أساس فكرة أو مبدأ ولكن لمجرد إنهم

خربجون أكملوا تعليماً خاصاً ولا يهم اتجاههم الفكري أو السياسي ولذلك يجمع النادي عدداً من المناققين والمخبرين والمتقولين وليس هؤلاء من ميدان الشباب الذي يريد أن يتكلم وأن ينتقد وأن يخوض في السياسة وأن يهئ الناس ليحسوا بما حولهم من مأس ومظالم. كان كل ذلك في أذهاننا وكُنّا نبحث له عن الأرض الصالحة لذلك اتخذنا من النادي مكاناً للمؤانسة والاجتماع واستفدنا من ميدان التنس الذي فيه للرياضة واتجهنا بنشاطنا الآخر إلى ميادين أخرى ومع هذا فإننا لم نترك النادي تماماً ولكن بدأنا نحاول الاستيلاء على لجنته.

أول جمعية سياسية

كان هناك رجال يعملون قبلنا وفيهم زملاء حديثو العهد بالتخرُّج وفيهم آخرون قدامى وكانوا أيضاً يحاولون اصطياذ الشباب للعلم الجاد وتوجيههم الوجهة السياسية وكانت أول جمعية اشتركت فيها مع صديقي يوسف وعبد الله ميرغني جمعية كان فيها قبلنا مكايي سليمان وحسن أحمد عثمان وأحمد خير وعوض محمد مرسل وعلى رأسهم عبد الله خليل. اجتمعنا بهذه الجمعية لأول مرة في منزل الدكتور علي خير بالخرطوم وما كان هو عضواً في الجمعية ولكن كان يعلن ويقول إننا جماعة مكولي أيّ إننا نقرأ الأدب الإنجليزي Mackaly وغرض الجمعية هو الانتفاع بالنشاط عند الشباب وتوجيهه للإعمال الجادة والتي في النهاية تسوقه إلى العمل السياسي ضد الاستعمار ولم يختارونا كما قالوا إلّا بعد أن رأوا منا نشاطاً ظاهراً واهتماماً بالأمر السياسي ولاحظوا مطالعتنا.

كانت هذه هي الجمعية الأولى التي اشتركت فيها بعد التخرُّج والحقيقة إنني حفظت لها فضل التنبيه ولو أنها لم تستمر ولم تجتمع اجتماعات متصلة بعد الاجتماعات الأولى ولكنها تركت بيننا رابطة ومحبة ولكنني في الحقيقة لم أقف عندها وسرحت كما يقولون أقيم جمعيات من أشخاص مختلفين وفي أمكنة مختلفة وهذه الجمعيات لا يعرف بعضها البعض وهي أشبه بالخلايا التي ظهرت أخيراً عند الشيوعيين. أخذت أكوّن الخلايا التي لا يعرفها حتى زميلي إبراهيم يوسف الذي كنت لا أفرقه

إلا عند النوم والذي كان يسكن جوارى أو أسكن جواره في نفس المنازل التي نسينها إلى اليوم.

وقد ذكرت إبراهيم يوسف لأنه - والحق يقال - كان نشطاً لا نشاطاً جسمانياً ففي جميع أطواره كان هو إبراهيم يوسف الهادئ الرزين ولكنه كان نشطاً فكرياً وكان عاملاً وكان لا يتردد في الاشتراك في أي عمل له فائدته الوطنية وكثنا على اتصال وثيق أوثق من اتصالنا بباقي الأصدقاء وكان إذا وجد شخصاً صالحاً أو وجدت شخصاً صالحاً قلت له أن فلاناً «يفهم» وتكفي هذه الإشارة ليعرف أو أعرف كل شيء عن الشخص.

بدأنا نشاطنا الأدبي والاجتماعي خارج النادي وبالطبع النشاط السياسي أيضاً فهذه الجمعيات الصغيرة أخذنا في بثها سرىً وكان الغرض من تكوينها هو التوعية وإشعار الشخص بأنه مرتبط بعمل مقدسه ويحترمه وأن نعرف بهذه الوسيلة عدداً من الشبان نظمنا إليه وإلى استعداده للعمل الجاد الحازم.

ومن هذه الجمعيات جمعية كان فيها الأخ عبد الرحيم فرحان ومحمد خليل بيرم ولعلّه من الطريف أن نقص قصتها لأنها ذهبت في طريق لم يكن في حسابنا ولكن رمتنا فيه الصدفة وسرنا فيه شوطاً.

وكان عبد الرحيم فرحان في نفس الوقت يعمل من جانبه مع جمعية فيها رجل كبير من رجالات سنة 1924م ونقل عبد الرحيم إلى كسلا واستقر هناك يعمل بنشاط وتعرف على إخوان كثيرين وعرف فيمن عرف شخصاً ربطه ببعض الإيطاليين وكانت الحرب آنذاك قد نشبت وكان يهيم إيطاليا أن تجد لها أعواناً في السودان قبل دخولها فيه.

وكتنا نحن نريد أن نستفيد من هذا الظرف ونسلح أنفسنا وأدخلنا في روع الإيطاليين أننا قوة وأن هناك جمعية كبيرة على استعداد لإقامة ثورة ضد الإنجليز في السودان ويهيم الإيطاليون أن نشغل الإنجليز في السودان وبدأت الاتصالات والمقابلات السرية وكان للإيطاليين شركة طيران بالخرطوم تسير بين إيطاليا والخرطوم والحبشة وكان جميع الطيارين من الحربيين أو الذين اشتركوا في حرب الحبشة وإيطاليا ولكنهم كما ظهر لنا كانوا يجهلون كل شيء عن السودان.

كانوا يريدون أن يعاونونا في حركتنا ولكنهم خائفون لأننا قلنا لهم بوضوح أننا لا نريد منهم إلا السلاح ولا شيء غيره وكانوا في خوف ويريدون أن يساعدونا بطريق

آخر. بالمال... وشعرنا أنَّهم يريدون استخدامنا ونريد نحن في نفس الوقت استخدامهم. كان مندوبهم في الخرطوم يقابل محمد خليل وكنت أنا ومحمد خليل في الرئاسة والأعضاء نتشاور قبل المقابلة ودائماً نكون بالليل في الخرطوم نتشاور فيما سيدور من حديث ويذهب محمد ثُمَّ يأتيني بما تمّ. وكان عبد الرحيم في كسلا على اتصال بنا ويعرف سير الحوادث وكان هو أيضاً معنا في أننا لا نطلب منهم إلا السلاح وهم بدورهم يدأرون ويحاورون حتّى قالوها صريحة إنهم على استعداد لمساعدتنا بالمال على أن نعطيهم بعض المعلومات الآن ثُمَّ يستمرون معنا فيما بعد إذا ما بدأت الثورة في تزويدنا بالسلاح وهنا انكشفوا لنا.

وكان في كسلا مندوب آخر يتباحث مع فرحان ويلج عليه ويقول إنَّ الخرطوم ما زالت على موقفها وطلب من عبد الرحيم أن يتصل بالخرطوم وأن يلج على الرئاسة أن تبدأ العمل وهم لا يعلمون أنَّ الرئاسة هنا أنا ومحمد خليل وأنَّ الأعضاء عبد الرحيم وفرحان.

وأخيراً الحوار في الاتصال بالرئيس والتباحث معه لأنَّ الأمر خطير والوقت لا يتسع لمحادثات طويلة واتصل عبد الرحيم بمحمد خليل وكان عبد الرحيم قد وعد أن يتصل بالخرطوم وأنَّ الرئيس سيحضر وتحدّث عبد الرحيم مع محمد خليل واتفقنا في سرعة في الليل على إرسال الشخص الكبير وقام صباح اليوم الثاني بالقطار وكان على عبد الرحيم في كسلا أن يدرس الموضوع وأن يوجهه.

وفعلأ ذهب عبد الرحيم مع الرئيس المزعوم وأفهمه بأن يصبر على الحصول على السلاح وقال له إياك أن تأخذ منهم أيّ مال مهما ألحوا لأنّه سيكون طعماً. وقاما في الخفاء طبعاً من كسلا إلى الحدود وأخذاً بطائرة إلى مكان مجهول وهناك ذهب الرجل الكبير إلى المفاوضة ووقف في الخارج عبد الرحيم الذي كان يمثل دور سكرتير الرئيس.

وتباحث الرئيس وخرج وفي يده شنطة كان داخلها بعض المال يقول عبد الرحيم إنّه لا يقل عن الألف جنيه وأخذاً في طائرة إلى الحدود ومعهما شخص وهو الوسيط إلى كسلا وقبل أن يجد عبد الرحيم الوقت ليعرف كل شيء كان الرئيس المزعوم قد قام بسيارة إلى الخرطوم وترك عبد الرحيم في ظلام.

وجاء الرئيس إلى الخرطوم ولم يتصل بمحمد خليل بل سافر إلى الغرب وعمل تاجر

أبقار وانقطعت الصلة بينه وبينهما منذ ذلك الحين واحتفظنا بهذا المقلب سرّاً إلى اليوم. أمّا عبد الرحيم فقد حاول من جانبه أن يحصل منهم على سلاح وحصل بالفعل على بعض البنادق وذهب بها إلى الصحراء في مكان بعيد ثمّ دسّ بها تحت التراب ليستفيد منها عند الحاجة. وأخيراً نقل عبد الرحيم وجاء يبحث عن الأمانة فلم يعرف لها مكاناً.

لم نستفد من هذه الجمعيات الصغيرة في عمل موحد منظم ولكنّها عرفتنا بالناس واستفدنا من هؤلاء الناس في الأعمال التي أتت بعد ذلك وكان من السهل علينا أن نتعاون مع كثيرين في سهولة ويسر لأنّ مجرد إشارة من واحد من أعضاء أيّ جمعية إلى أحد بأنّه « فاهم » جعلنا نوليه الثقة ونضمّه للعمل الذي نحن بصدد اجتماعياً كان أو سياسياً.

جمعية القراءة

Reading Society

هذه الجمعية أنشأها الابروفيون فيما بينهم لأغراض سياسية وأدبية متعدّدة، كانوا يختارون كتاباً عربياً أو إنجليزياً ويجتمعون في الأسبوع مرتين كل مرّة في منزل واحد منهم. يبدأ القراءة أحدنا بعد أن يتولّى آخر تلخيص ما قرأناه في المرّة الماضية وبعد القراءة تدور مناقشة فيما قرئ. وقد قرأنا بهذه الطريقة كثيراً من كتب الأدب القديم والحديث وكثيراً من كتب السياسة باللغتين العربية والإنجليزية وكان ممّا قرأناه كتاب اللورد لوقارد المسمّى Dual Mandate وهو إنجيل الإنجليز في الإدارة الأهلية وتكوينها وتطويرها وقد وضعه صاحبه وطبقت سياسته في نيجيريا وكان الإنجليز يهتدون به في إدخال هذا النظام نظام الإدارة الأهلية أو ال Native Administration في السودان.

لهذه الجمعية قصة، فقد خرجنا من كلية غردون ونحن نعلم أنّ تعليمنا قاصر وإنّا لم نحصل على التعليم الجامعي الذي كان الحلم به آنذاك حلماً بعيداً وكان

واجبنا وقد وضعنا في أول الطريق أن نسير فيه إلى نهايته بوسائلنا ونملي معلوماتنا باجتهادنا فكنا لا نصرف الوقت إلا في القراءة وكان الواحد منا لا يتحدث في الترام إلى أحد بل كان يناجي كتابه الذي لا يفارقه وكان الطريق من أبي روف إلى الخرطوم يأخذ ساعة من الزمن وكذلك الرجوع فكانت هذه الساعات كسباً جديداً من الزمن لا نصرفه إلا في القراءة.

وكان لنا بمصر زبون من أصحاب المكتبات نرسل له كشفاً بما نريده من الكتب ليعده ويرسله مع آخر الشهر محولاً عليه وكنا ننتدب بعد كل أربعة أو خمسة شهور أحد أفراد الجمعية ليقوم بمهمة الحصول على الكتب التي يختارها كل فرد ويرسل بها إلى صاحب المكتبة ويتولى جمع القيمة المطلوبة من كل فرد آخر الشهر ويستلم الكتب ويوزعها على أصحابها.

وبهذه الطريقة أمكننا أن نقرأ وأن ننشئ مكتبات صغيرة تحوي عدداً من الكتب القيمة.

نحن والشيوعية

وكان بعض الإخوان يسمي جمعية الأبروفيين هذه بالفابيين Fabian لنزعاتهم الأدبية وأفكارهم الاشتراكية وقليل من كان يعرف ما هي الفابية وما هي الاشتراكية وأي فرق بينها وبين الشيوعية.

وأفراد هذه الجمعية أول من بدأ قراءة الشيوعية قراءة صحيحة واتصلوا بالمكتبات الخاصة والتحقوا أعضاء في نادي Left Book Club الذي كان يزودنا شهرياً بالمجلات التي يصدرها والكتب أيضاً وقرأنا مرة عن النقابات والاتحادات والحريات العامة وأخيراً كان في مبادئ الاتحاديين عندما كُونوا حزبهم كان في مبادئهم الكثير مما استقوه من ال Sovei Communism وهو كتاب ضخّم حوي كل ما عند الاتحاد السوفيتي من آراء ومبادئ وخطط اقتصادية واجتماعية.

ولم نفكر في أن نكون شيوعيين أو نكون عملاء للشيوعية في بلادنا ولكننا أخذنا منها ما رأيناه مناسباً لبلادنا وأوضاعهم وتقاليدها. استفدنا مما قرأنا ولم نكن أواني

نصب فيها الآراء والأفكار المستوردة ثم نحفظها في أمانة وحذر، لقد كنا نتصرف لأننا نعرف واقع بلادنا وما ترمي إليه الدعوة التي ظهرت وتريد أن تستخدم العالم وتطغى عليه.

وليت الذين يريدوننا أن نكون شيوعيين قلباً وقالباً كانوا أحراراً في أفكارهم يستطيعون أن يتصرفوا ويستطيعون أن يختاروا ما يصلح لهم ولبلادهم لا مجرد ببغاوات تردد وقروداً تقلد وبسطاء يبهرهم البريق واللمعان فيبعدهم عن الجوهر. نعم قرأنا الشيوعية قبل أكثر من ثلاثين عاماً ولكننا ما زلنا أصيلين لا عميلين ولا مفتونين بالجديد متنكرين للأسس القويمة التي قامت عليها هذه الأمة العربية المسلمة ذات التراث الخالد والتاريخ المجيد.

وحكومة السودان ما كانت تتجاهل هذه الاجتماعات ولا تهملها وإذا أهملتها فستجد من المتطوعين لخدمة الاستعمار من يسعى وراء تلك الاجتماعات ولمعرفة ما يدور فيها وحمل أخبارها إلى سادته عن طريق مكتب المخابرات.

وقد وقع في يدنا «زر» من تلك الأزرار وكُنّا نسمي هؤلاء الذين يتجسسون على المواطنين ويرسلون أخبارهم إلى الحكومة كُنّا نسميهم «المزريين» وقع في يدنا بطريق الصدفة خبر مكتوب أرسله مخبر إلى مكتب المخابرات أمّا طريقة حصولنا عليها فإنّ المرحوم مقابلي حسين شريف كان صديقاً للسيد حمّاد توفيق وكان مقابلي موظف في البريد ولاحظ أنّ هناك خطابات ترسل إلى صندوق بريد معين دون ذكر اسم وأحياناً ترسل إلى شخص سوداني بعنوان ذلك الصندوق ودفعه الفضول إلى معرفة سر هذه الخطابات التي ترسل برسم صندوق البريد دون ذكر اسم شخص معين ومد يده في يوم من الأيام إلى أحد الخطابات وكشف سره فإذا هو رسالة للمخابرات تخص جماعتنا وكان التوقيع رقما هو «226».

وسلم المرحوم مقابلي الخطاب إلى حمّاد الذي سلمه إلينا وكان الخطاب يحوي عجباً. رفع المخبر رقم 226 إلى المخابرات يقول تحت عنوان «الاحتفال بالعام الهجري».

لقد ألقى المهندس علي نور قصيدة حماسية سياسية وعلي نور هذا يعتمد على الفيلين الفيل الأصغر والفيل الأكبر «يعني بالفيل الأصغر مولانا الشيخ أحمد السيد الفيل والفيل الأكبر الشيخ حسين الفيل» ويقول المخبر «إنّ علي متزوج بنت الفيل

الأصغر ثُمَّ بسرسرسل فيقول وعلي نور هذا يعمل مع جماعة فيها الشيخ القرشي القاضي السُّرعي والشيخ عبد الله عبد الرحمن الأمين والشيخ الأزهري» وحلَّ كلا من هؤلاء وذكر له حادثة أو تاريخاً معيناً « ثُمَّ قال وهذه الجماعة توجهها جماعة أخرى هي من أخطر الجماعات التي تعمل في العمل السري وعلى رأسها عبد الله ميرغني ومكاوي سليمان وخضر حمد وإبراهيم يوسف وحسن أحمد عثمان والنور عثمان وتجتمع اجتماعات منظمة ولكني لا أعلم إلى هذه اللحظة ما يدور في تلك الاجتماعات وسأعمل جاهداً للاندماج في هذه الجمعية أو التقرب إلى أفرادها حتى أعرف أسرارها فأحملها إليكم.

ولم يقف المخبر الهمام عند هذا الحد ولكنه حرَّض الحكومة علينا وقال إنَّ هذه الحركات التي يقوم بها هذا النفر الطائش هي نفس الحركات التي سبقت حوادث سنة 1924م وإن الحكومة الرشيدة هي التي تضرب ضربتها قبل أن يستفحل الأمر ويشتد الخطر وتقوى الفتنة.

وكانت اجتماعات القراءة هذه تجذب إلينا كثيراً من الإخوان الذين تستهويهم القراءة والبحث وكثيراً ما زارنا الأستاذ محمد أحمد أبو رنات والدكتور إبراهيم أحمد حسين وغيرهما ممن لم يكونوا من الأبروفيين ولكنهم يعجبون بنشاطهم الأدبي والفكري وإن كانوا لا يتفقون معهم في السياسة.

وللحقيقة والتاريخ فإنَّ أبا رنات كان متحمساً للإدارة الأهلية منذ ذلك الزمن وكان يأتي لمناقشتنا فيها ولعلَّ إيمانه هذا هو الذي جعله يحاول بعد ربع قرن من الزمان أن يرجع عجلة التاريخ ويوصي لحكومة الجيش بالتنظيمات التي اقترحها مؤخراً وقام على أساسها المجلس التنفيذي بعد أن سار السودان في النظم الديمقراطية ووصل إلى البرلمان وحقق الاستقلال. وهذه النظم التي أوصى بها أبو رنات حكومة الجيش لم تكن أفكاراً أصيلة ولكنها مستوحاة من أحد الإنجليز الذين كانوا يعملون في حكومة السودان وعمل قبلاً في حكومة نيجيريا قبل الاستقلال.

والعجيب في تلك التنظيمات أنَّ السودان قد تخطاها منذ عشرين سنة ولم يعد في حاجة لأنَّ يدرب من جديد على نظام المجالس المحلية ومجالس المديرية والتي يكون بعضها بطريق الانتخابات والبعض الآخر بطريق التعيين.

وجمعية القراءة هذه جذبت إلينا في يوم من الأيام الأخوين عرفات محمد عبد الله

ومحمد أحمد محبوب وألفنا جمعية تحت اسم جمعية الآداب والفنون والمناظرة على ما أظنُّ ولكنَّها لم تمش طويلاً وكان سبب موتها دخول الأستاذ إدوارد عطية فيها. فقد كان الأستاذ إدوارد عطية وهو رجل المخابرات المعروف - وكان عمه كذلك - كان على صلة بالسادة عرفات ومحبوب وجماعة الفجر فيما بعد وكانوا يثقون إلى حد ما في إدوارد عطية ويعتقدون أنَّه رجل لا يخلو من وطنية وإن وظيفته شيء وأفكاره الخاصة شيء آخر وإن صلتهم به جعلتهم يظنون به خيراً بل ويدافعون عنه. ولم نشعر إلا بإدوارد عطية عضواً في الجمعية حضر اجتماعاً لها في منزل السيد عرفات وهزنا نحن الأبروفيين هذا الانضمام وبدأنا نناقشه بمفردنا وانتهدنا إلى أنَّه ليس من المصلحة في شيء أن يكون إدوارد في هذه الجمعية وبدأنا نحارب وجوده. وانفردنا مكايي وأنا بالحملة في داخل الجمعية وخارجها وانقطعنا عن حضور اجتماعاتها وكان آخر اجتماع لها منزل الأخ إبراهيم يوسف وكانت له محاضرة عن التعليم والتعلم وكنا نقول إنَّ مقبرة الجمعية ستكون منزل إبراهيم وقد كان فعلاً. فقد وصلت الأنباء إلى إدوارد بأنَّ الأبروفيين لا يثقون فيه ولا يريدونه في الجمعية ولذلك فقد فكَّر في أن يبعد عنها وحمل هذا النبأ إلينا الأستاذ محبوب كما رواه له إدوارد عطية وكفي الله المؤمنين القتال.

ولإدوارد هذا نشاط كان يجمع إليه بعض الشبان وكان منهم غير من ذكرت الدكتور منصور حسيب وأمين زيدان وكانت هذه الاجتماعات موضوع حديث بين مختلف الأوساط الوطنية لمجرَّد أنَّ على رأسها إدراود عطية وهو رجل معروف بولائه للإنجليز وقد تجسَّس أخيراً بالجنسية الإنجليزية وأولاده من زوجة إنجليزية. لم يفصح عن الشخصية رقم 226.. وهذا المهم للمصلحة الوطنية والتاريخية.

السودان أولاً

كان همي الأول وأنا انتظم في سلك العمل الحكومي أن استغل إجازاتي لأجوب السودان وأتعرَّف على أحوال أهله وعلى بلاده المتعددة وعلى عادات الناس وأخلاقهم

ولذلك كانت أولى رحلاتي إلى الفاسر ماراً على كردفان حتى وصلت الفاسر.
كان السفر بالجمال وكُنّا نستبدل الجمال ونسافر بالواري فهي أسرع وأقل مشقة.
لقد علمت الكثير في تلك الرحلة وتعلّمت منها أشياء ما كنت لألتم بها لو كنت بقيت
في العاصمة المثلثة حتى يصبح في اعتقادي أنّ السودان كله هو العاصمة المثلثة.
لقد مررت على قبائل شتى لها عادات غريبة تعيش عيشة بدائية وبدوية يحسبون
على الإسلام وهم لا يعرفون منه إلا اسمه وكم وجدت مسلمات متزوجات من
مسيحيين أمام سمع وبصر قبائلهن الذين يتمسحون بالدين ويتبعون الطرق الصوفية
وعرفت كيف استعبد بعض نظار القبائل قبائلهم بل جرّدوهم بالاتفاق مع الاستعمار
من كل سلاح.

عرفت كيف كانت تتحرك الحكومة بكامل هيئتها لتجمع الناس باسم الدين
وترسلهم ليساعدوا بعض الناس في جني القطن كما عرفت الأدوار التي يلعبها
المفتشون والمديرون في السياسة الداخلية والخارجية وكيف يحركون رؤساء العشائر
لتأييد ما يريدون تأييده أو رفض ما ترغب الحكومة في رفضه تعلّمت كيف كان كل
مفتش حاكماً مطلقاً في منطقته يحكم ولا راد لحكمه وله أن يطرد السوداني ويقول
له « اخرج من بلادي » فغدا الدخيل أصيلاً وأصيل دخليلاً.

وذهبت إلى الشرق ووصلت إلى أول قرية في اريتريا وعرفت كيف كان الإيطاليون
يذلون أهل البلاد كان على كل سكان أسمرأ أن يقفوا احتراماً للعلم الإيطالي إذا ما
رفع في السادسة صباحاً أو أنزل في السادسة مساءً وكان كل موظف حاكماً بأمره
يضع من يشاء في السجن دون تحقيق ولا يُخرّج هذا السجين من السجن إلا إذا
تذكّره من زجّ به هناك وأخرجه. وإلى جانب هذا نشروا بينهم الخمور وبيوت الدعارة
فالخمر يُباع في كل مكان كما يباع السكر أو الشاي في السودان.

وعندما انتهى اليوم الذي قضّيته هناك وخرجت من تسني سالماً كنت أسأل
الله في كل لحظة ألا يزيد عدد السودانيين الذين يدخلون اريتريا ويرون كيف يذل
الاستعمار الإيطالي مواطني اريتريا فيهن في نظرهم ما يلقونه من أهانه من الإنجليز.
وبعد أن طفت أكثر بلاد السودان فكّرت في الجنوب.

كان السفر إلى مصر والسفر إلى الجنوب تقف في طريقهما أسباب واحدة. فأول
سؤال هو مثلاً لماذا تذهب إلى مصر فإذا قلت للعلاج قالوا يمكنك أن تتعالج هنا

وسنرسلك إلى أحسن طبيب وبالتالي يحاولون إقناعك بكل الوسائل حتى تعدل عن الرحلة وإذا عجزوا فهناك إذن السفر ولم يكن لنا آنذاك جوازات إنما هي أرائيك يملؤها المسافر وتلصق عليها صورته وإذن السفر هذا يلف كل مكاتب الحكومة ويصل إلى المريض بعد وفاته وإلى الموظف بعد انتهاء إجازته.

والسفر إلى الجنوب كان بالمثل ولو أن طلب السفر إلى الجنوب نفسه كان نادراً. فكّرت وبعض الزملاء أولاً أن نساfer إلى مصر وأن نذكر في طلب الإذن أننا سنذهب للفسحة وكانت هذه حيلة طيبة لأن كلمة الفسحة هذه لا علاج لها إلا أن يقولوا «أبينّا» لسنا مرضى ولسنا مرافقين لمرضى ولكن نريد أن نرى مصر ونتفصح فيها، هذا كل ما في الأمر.

كانت الحكومة تمنح كل موظف تصريحاً بالمجان إلى أيّ جهة في السودان ومعنى ذلك أن تمنح هذا التصريح إلى الشلال.

ودهبنا إلى مصر جماعة وكان مظهرنا ولبسنا وتصرفنا ملفتاً ورأينا الدنيا لأول مرّة ولكن هذه الحيلة لم تعجب حكومة السودان – وما كادت إجازاتنا تنتهي بل قبل أن تنتهي ونحن ما زلنا في مصر علمنا أن الحكومة ألغت القانون الذي يمنح التصريح بالمجان لأيّ جهة وحصرته في أن يكون لوطن الموظف فقط.

الجنوب

وبعد أن انتهيت من شمال السودان ومصر وغير مصر فكّرت في السفر إلى الجنوب. وكان التفكير نفسه غريباً حتى بالنسبة للسودانيين أنفسهم وكانوا يسألونني ماذا أريد في الجنوب وماذا سأرى وكنت أقول إنه جزء من السودان وقد رأيت جميع أجزاء السودان إلّا هو.

كتبت في طلب الإجازة إنني سأقضيها في الجنوب وكان ذلك في سنة 1938م وكان قانون المناطق المقفلة مازال قائماً يطبّق على الأجانب كما يطبّق على الشماليين وأرسلت المالية طلبي إلى مكتب المخابرات أو السكرتير الإداري وأصبحت في أسئلة وأجوبة لا حدّ لها.

لماذا أريد أن أسافر إلى الجنوب - ومن أعرف هناك- أين سأنزل - كم من الزمن سأمكث - متى تريد أن تسافر - وهل من الضروري أن تسافر إلى الجنوب. كل هذه الأسئلة سألني إياها إدوارد عطية وظننت بعدها أنه لم يبق إلا أن استلم شهادة الإجازة وأسافر ولكن طال انتظاري وأرجأت أنا أيضاً تاريخ بداية الإجازة وأخيراً جاء الفرج في صورة أورنيك أشبه بالأرانيك التي تستعملها عند السفر خارج السودان وأرسلت صورة من هذا الأورنيك إلى مدير الاستوائية ليعلم سلفاً إنني سأحضر وكنت قد اتفقت مع الأستاذين الهادي أبوبكر وبشرى عبد الرحمن صغير ولكن ظروفهما لم تسمح لهما بالسفر فقد سبقت أيضاً المعلومات وفيها إنَّ معي في الرحلة الأستاذين وإليك صورة من الأورنيك لتعلم أنَّ السودان كان سودانيين والدخول من الشمال إلى الجنوب لا يكون إلا بهذه الطريقة أمَّا الدخول إلى الشمال من الجنوب فدونه خרט القتاد. ومع هذا فعندما قال النحاس باشا أنَّ هناك قانوناً يحرم السوداني الشمالي من الدخول إلى الجنوب إلا بأذن خاص أنكر الحاكم العام بجلالة قدره وكذب على الله والناس والتاريخ.

طلب لمركز مقفول

إذن يصدر تحت قانون المراكز المقفولة 1922م

اسم وعنوان الطالب

الجنسية

بأي صفة يبقى أو هو باق في السودان

مدة سريان تلك الصفة

الوظيفة

اسم المركز المقفول المطلوب الإذن بالدخول فيه (يذكر ذلك بالتحديد)

طريقة السفر

تاريخ السفر

مدة الإقامة

الغرض من الزيارة

إذا كانت الزيارة للعمل أذكر نوع العمل

اسم وعنوان أي شخص يعرفه الطالب هناك

ملأت كل هذه الخانات أو أجبت على كل هذه الأسئلة وجاءتني الموافقة ولكن قيل إنني لا يجب أن أبارح جوبا إلى أي مركز إلا بأذن المدير وأن المدير على علم بذلك وأن صورة من هذه الإذن قد أرسلت إليه.

ومع ذلك فقد سافرت بالباخرة إلى جوبا في ثلاثة عشر يوماً قرأت أثناءها حتى مللت القراءة لأن المحطات ليس فيها ما يرى إلا كل ما يحزن فقد بدأ العراء يلاقينا بعد أو قبل كارشول وكلما وقفت الباخرة نزلنا إلى الشاطئ لنرى الناس ولا نستطيع أن نتفاهم معهم ويأتي القسس لمقابلة الوابور لاستلام حاجياتهم وحولهم الطلبة. وكان القسس هم الحكام يأمرهم الوابور ومهندسه متى يقف ومتى يتحرك بل بلغت سلطتهم فوق سلطة المدير.

كان يغضبهم أن يروا شمالياً يتصل بالأهالي أو يحاول أن يتحدث إليهم ولعل مصدر الخوف هو انكشاف أمرهم لأنهم كانوا يخدعون رئاستهم كما يخدعون الجنوبيين. كان هم المبشر أن يجمع عدداً من أبناء الجنوب يدرسهم كراهة الشمال والعرب ويُعلّق فوق صدورهم الصلبان ويأخذ لهم صوراً يرسلها على أن هؤلاء قد اعتنقوا المسيحية وإنه بذلك يعتبر ناجحاً في عمله.

وفي أول محطة رأيت أحد أبناء الشلك يلبس اللاوو وعلى عنقه صليب فسألته عنه فقال بالعربي « بتاع القسيس » أي أنه شيء لا يهمه هو في كثير ولا قليل ولكنه يخص القسيس فهل كان يا ترى ضمير هذا القس مرتاحاً يشعر بأنه خدم المسيحية وخدم هذا الوثني بأن جعله يعتنق ديناً ويؤمن بالله ويهتدي إلى الخير؟

وفي تلك الزيارة رأيت الكتب التي تدرس ويعلمون عليها الأولاد القراءة والكتابة هل كانت كتباً دينية أو كانت معلومات عامة أو كانت تتعلق ببلد وما فيها وما حولها وكيف يستفيد من تلك الأرض الطيبة؟ لا لم يكن في تلك الكتب شيئاً واحداً ممّا ذكرت بل كانت كلها تتعلق بالإسلام وسب الإسلام واتهام محمد بالكذب وقطع الطريق وسفك الدماء وإنه من العرب وأن غرضه وغرض دينه هو العرب واحتقار غيرهم واستعبادهم وقد حاولت جاهداً أن ادفع للمراسلة جنياً كاملاً ليعطيني الكتاب ولكنه أبى ولم ياب إلا خوفاً ممّا سيصيبه إذا عرف أن هذا الكتاب تسرّب عن طريقه إلى

نحصى مثلى.

وعرف في تلك الرحلة كيف يُجلد من يحاول أن يلبس لباساً بل يجب أن يسير عارياً كما يسر بقية أهله وعشيرته.

لقد استطعت أن أكشف الكثير وأن أكتب الكثير عن تلك الرحلة. وسافرت إلى الكرمك والروصيرص عن طريق الباخرة من السوكي إلى الروصيرص وعن طريق السبارة من الكرمك إلى سنار وفي كلا الطريقين عرفت أن أرض السودان استغلها المهاجرون من نيجيريا وأن القرى التي تمتد على النيل من السوكي إلى الروصيرص الأغلبية الغالبة من سكانها هم أهل نيجيريا.

وفي الكرمك شهدت آثار العدوان الإيطالي وكيف حطموا المتاجر ونهبوا الخزائن وقتلوا الأبرياء وكيف يعيش الناس هناك على خور يابوس يحاولون غربة الماء للحصول على تراب الذهب وعرفت بقايا قبائل شمالية هي من يسمونهم بالوطاويط فسماتهم وشلوخهم تدل على أنهم من الشمال ومن بقايا الجعليين الذين نزحوا مع الملك نمر لأنهم مازالوا يشيرون إلى الشمال على أنهم من هناك. لغتهم لهجة عربية هي خليط بين العربية والرطانة ويرطنون في نفس الوقت لغة البرتا.

وفي هذا السودان أشياء عديدة لمن يستطيع أن يبحث ويدرس ويرجع إلى التاريخ ففي اللهجات والعادات والتقاليد الكثير الذي يشعرك بأن السودان وحدة في ذاته ومرتبطة بالبلاد العربية في المحيط الواسع.

وكم تمنيت آنذاك أن أستطيع أن أنقل اللهجات والأغاني والرقصات ولكن لم تكن وسائل اليوم قد عرفت وأرجو أن تهتم الإذاعة بإرسال بعثات لأقاليم السودان المختلفة وتنقل إلى الناس ما بُعد عنهم وحال بعد الشقة دون سماعهم به أو رؤيتهم له.

الطبيب السراجي

عرفنا الأستاذ الطبيب منذ عهد الدراسة فقد كنّا نزوره أحياناً ونحن في السنة النهائية من كلية غردون واستمرت العلاقة بيننا حيناً وتفرقت حيناً خصوصاً وأن بعضنا

قد أبعدتهم ظروف العمل عن العاصمة ولكن عندما تجود الظروف باجتماعنا في أم درمان لا نكاد نقطع عن داره أو ينقطع عن دورنا وكانت مجالسه مجالس أدب وعلم وفضل لا يعرف العبث ولا يريد أن تضيع لحظة من لحظات الحياة في غير علم وتعلم. وأكثر وقت قضيناه معاً كان في سني الحرب فالثورة على الإنجليز والشماتة فيهم وتتبع أخبار الحرب والوقوف إلى جانب النازية وقلة وجود المذيع إلا عند أفراد، كل هذه كانت من الأسباب التي وثقت من أواصر الصلة.

والطيب السراجي لا يعيش إلا في الأدب القديم والتاريخ القديم والشعر القديم ولا يتأثر إلا بكل ما هو قديم فأحببنا العربية وذهبنا في تتبع أخبار العرب وسيرهم وتاريخهم وشعرهم.

ومجالس الشيخ الطيب كانت مجالس علم بحق فهو لا يترك شاردة ولا واردة وإذا تحدثت تدفق وانحدر كالسيل فهو لا يعرف أين يقف بل لا يريد أن يقف ويقول ما دام هناك علم وما دام هناك طريق إلى هذا العلم ورغبة في الحصول عليه فلماذا لا نسترسل فيه والحديث ذو شجون.

لا شك في أننا أفدنا كثيراً وما من لحظة تمر إلا انتفعنا منها سواء في التاريخ أو اللغة أو السيرة. وقطعنا الشهور العديدة ونحن لا نقرأ إلا القديم ولا يلذ لنا إلا العويص من اللغة حتى حاولنا أن نحفظ أراجيز العرب ونتغنى بأراجيز رؤية العجاج ثم سرنا نحاول قراءة المفضليات التي يقول الأستاذ إنها ما زالت بكرة وإن عالماً لم يجزؤ على محاولة تفسيرها وإن ما فعله الأستاذ هارون وزميله إنما كان خداعاً فقد قاما بشرح السهل المعروف وتجاوزا الصعب.

وذهبت إلى مصر ثم جاء الأستاذ السراجي وحاولنا أن نقدّمه إلى رجال المجمع اللغوي وأن ندخله عضواً يمثل السودان وكتبت مذكرة ضافية عن الأستاذ ثم قدّمته للمجمع وباسم النادي السوداني. وذهبت يوماً ومعني الأستاذ الكبير توفيق أحمد البكري لنقابل الأستاذ أحمد أمين وكان مديراً للإدارة الثقافية بالجامعة وتحدثنا معه في شأن الشيخ الطيب وكّم أدهشنا وسرّنا قول الأستاذ أحمد أمين عنه. لقد قال إنه رجل نادر لو لم أره لما كنت أصدق ما عرفته عنه إنه من النوع الذي يحمل علمه بين حنايا ضلوعه لا يرجع إلى مرجع ولا يستشير موسوعة ثم أخذ يطنب في مدحه والثناء عليه وتقويم علمه ولكن أظهر أسفه لأنه لا مجال لقبول الأستاذ عضواً في

المجمع لأنَّ العضو تقدمه للمجمع مؤلفاته فهو لا يسأل ولا يمتحن وكما علمت فإنَّه ليس للأستاذ مؤلف أو مؤلفات تقدمه للأعضاء. ولكن يجب الانتفاع بهذا الرجل النادر المثال.

والتمسنا رابطة الشعراء والأدباء التي كان يرأسها الأستاذ دسوقي أباطة وهياً له الأستاذ كامل كيلاني اجتماعاً مع دسوقي باشا وتلامذته ولكن الأستاذ صدم منهم من أول لحظة لأنَّهم سألوه هل هو من الكويت أو البحرين فلم يعجبه السؤال واستنكر عليهم أن ينسبوه إلى بلد غير السودان ثُمَّ انصرف عنهم إلى الحديث مع الأستاذ كامل كيلاني.

وكلما حاول كامل كيلاني أن يلفت نظره إلى الباشا وبقية الأدباء كان يقول له أين العلماء؟ هؤلاء «قش».

وكم شكوته لأصدقائنا وحاولت وحاولوا معي أن يفهموه أنَّ العلماء في مصر يتبادلون الثناء والتقريظ وأنت دائماً تبدأهم بالنقد والنقد الذي يكشف حقيقتهم ويقلل من قيمتهم فكان يقول رحمه الله هكذا خلقت جلفاً لا أستطيع أن أغير أهابي. وكانت صراحته هذه وحرصه على ذكر الحقيقة هي التي أوصدت أمامه الأبواب فلجأنا إلى دار الكتب وكان قد تعرَّف به أستاذ فاضل يدعى عبد الله أمين عرف الشيخ الطيب على حقيقته وحاول أن يصقله نوعاً ما حتَّى يجد له باباً وبدأ الأستاذ يأخذ بعض المخطوطات ويقرأ منها ويصحح ما فيها من خطأ علمي أو تحريف أو تصحيف. وعاد إلى السودان فما طابت له الإقامة في مصر وعدنا سيرتنا الأولى نقرأ كل ما هو عربي صميم ونجد في السراجي المعين الذي لا ينضب.

ومات الشيخ الطيب ولكن كيف مات ولماذا مات فذلك سر ما زلنا نعجز عن كشف النقاب عنه لقد مات الأستاذ مقتولاً وما كان الأستاذ يوماً ما منذ أن عرفناه يحمل الحقد أو يذكر الناس بسوء أو يتتبع الهفوات بل كان قليل الاتصال بالناس قليل الحديث وإذا تحدَّث فكانتْما يهمس يهمساً.

عرفناه عفواً نظيفاً مؤمناً ما مرَّت بلسانه كلمة أحس بأنَّها خارجة عن الحدود إلَّا كان لسانه يسبق بالاستغفار. كان معي قبل موته أو قتله بلبتين فقد كان يفكر في أن يتزوج لأنَّه كان فارغاً كما يقول.

إنَّها حكمة الله أرادت لهذا الأستاذ الذي كان يسبح وحده والذي كان يفخر أماننا

دائماً بأنه ليس هناك ابن أنثى أعلم منه بهذه الحروف الثلاثة وما حوت ع. ر. ب. أراد الله له أن يموت هكذا موتاً شاذاً غريباً كما كان هو في عمله ومعرفته وحبّه للعرب وللغربة شاذاً وغريباً ونادر المثل.

رحم الله أستاذنا بقدر حبه للغة القرآن وحرصه عليها وإخلاصه لها وحث الناس عليها ورحمه الله بقدر ما كره الاستعمار والنفاق والخداع.

لجنة العشرة

عندما أضرب طلبة كلية غردون سنة 1931م إضراباً شاملاً وكان هذا الإضراب في حد ذاته ظاهرة غريبة وتحدث لأول مرة كان مثار كثير من الأحاديث في مختلف الأوساط كما كان سبباً ليعيد الإنجليز النظر في سياستهم التي كانوا يسلكونها مع السودانيين عامة.

والإنجليز مع حذرهم الشديد وأيديهم الكثيرة وأذانهم المنتشرة في كل مكان فوجئوا بهذا الإضراب وعجبوا كيف دُبر وتمّ دون أن يكون لهم علم به قبل حدوثه وكان لهذا الإضراب أثره في تغيير سياسة الحكومة تغييراً شاملاً. كانت صلة الود مقطوعة بين الأساتذة الإنجليز والطلبة وكان الأساتذة الإنجليز والمشرفون على الداخليات منهم لا تربطهم بالطلبة إلا صلة الفصل وبعدها مظاهر التحكّم والاستبداد ليتدربوا كيف يكونون أيّ الإنجليز حكاماً في السودان. وكذلك كان الحال بين الإنجليز الآخرين سواء أكانوا في السلك الإداري أو القضائي.

وعندما حدث الإضراب أشعرهم ذلك بالخطأ الذي كانوا واقعين فيه وأخذوا في سلوك طريق جديد وبدأوا بسياسة جديدة هي سياسة التقرب إلى السودانيين في كل المجالات. ففي صفوف الكلية بدأوا يخلقون صداقات وأخذ المشرفون على الداخليات يزورون هذه الداخليات في أوقات منظمّة ويختلطون بالطلبة في أوقات الفراغ. وفي دواوين الحكومة أوعز إلى كبار الموظفين من البريطانيين أن يخلقوا صلات

ود وصداقه مع السوداسن ومع الشباب على الخصوص وبدأت حفلات الشاي تعقب لعب السس والى كان يدعو لها هؤلاء الموظفين الكبار من البريطانيين.

وبرجع فل هذا إلى الإضراب وأسبابه. لقد قرّرت الحكومة أن يُعَيّن خريج الكلية خمسة جنيهاً ونصف بعد أن كان يُعَيّن بنمائية جنيهاً ولم ير الطلبة ولا أبائهم هذا الرأي الذي بُزِعَ به الإنجليز وهو حالة البلد المالية.

ودبّر الطلبة أمرهم وفاجأوا الجميع بذلك الإضراب الشامل الذي هز السياسة البريطانية في السودان وأشعرها بأن هناك روحاً جديدة بدأت تدب في النفوس وفتح السودانيون من مختلف الطبقات لتتبع تطوّر الإضراب وقامت محاولات لتثني الطلبة عن إضرابهم كما قامت محاولات أخرى لتأييد الإضراب وهناك من حاولوا معالجة الأمر بالحكمة والعقل.

فاجتمع الخريجون في ناديهم بعد أن دبّروا لهذا الاجتماع وكان أول اجتماع يحدث من نوعه: أولاً لأنّ الاجتماعات نفسها لم تكن الحكومة تشجّعها أو ترغب فيها وثانياً: لأنّ الأمر الذي عقد الاجتماع من أجله لا يخلو من خطورة وكان هذا الاجتماع بعد الاجتماعات المتعدّدة التي عُقدت لدراسة موضوع الإضراب ومعالجته. وتحول الشعور العام بعد ذلك لأنّ يجتمع الخريجون ويدرسوا الموقف من نواح مختلفة ويتقدّموا للحكومة بمطالب يكون فيها الحل لمشاكل المجتمع المختلفة.

وكان الخوف من فشل الاجتماع هو الذي يشغل أذهاننا فدبرنا الأمر وسهرنا إلى ساعات الصباح الأولى نتحدث عن الأشخاص الذين ننتخبهم والمواضيع التي يجب أن يطرقوها مع الحكومة وما هو النوع المطلوب من الرجال أهو النوع المتطرف أم النوع المتزن الذي لا تنفر منه الحكومة ولا يزعجها أن يكون على رأس مثل هذا الأمر وهل نعبد أولئك الذين نعرف صلتهم بالحكومة وولاءهم لها أم إنّه لا بأس من إدخال بعضهم؟ واختلفنا مع بعض الكبار فمنهم من يقول يجب إدخال زيد وعمرو لأنّ في دخولهم إسكات لحركة النوع الخبيث الذي لا يسره أن يتفق الناس ونحن نقول لا فإنّ أمثال هؤلاء يجب إقصاءهم من مثل هذه الأعمال وبعد لأي وصلنا إلى أن ندخل بعضهم واخترنا في اجتماع عام عشرة من كبار الخريجين ليقابلوا الحاكم العام ويرفعوا إليه مطالب الخريجين أو ما يدور في أذهانهم من آمال في حكومتهم. ولا أريد أن أذهب في تفصيل ما حدث في اجتماع اللجنة مع الحاكم العام

وكيف تردد في - مقابلتهم أولاً ثم رأى أن يجتمع بهم- وما تمخض عنه الاجتماع. والحققة إنّه لم يزد على اجتماع واحد سماه الإنجليز Interview قابل وفدنا الحاكم العام في هذه المقابلة ورفعوا له أمور لا نظن أنها كانت مدروسة لأنها كانت متواضعة جداً. وقد حصلنا بطريقتنا الخاصة نحن الذين كنّا وراء هذه الحركة أكثر من سوانا أعني بذلك الأبروفيين لقد حصلنا على ما دُون في هذه المقابلة وجاء فيما دُون أن الموفدين طالبوا برفع مستوى الموظفين السودانيين وإفساح الطريق أمامهم للترقية إلى وظيفة الباشكاك B. K. كما أنهم تحدّثوا في وظيفة واحدة لا تثنى ولا تغني عن جوع وأعني بها وظيفة القضاة التي يملؤها إلى ذلك الوقت قاض مصري. وكان الإنجليز يهتمهم جداً أن يطالب السودانيون بهذه الوظيفة حتّى ينتهوا أيّ الإنجليز من آخر وظيفة لمصر في السودان.

وعند إطلاعنا على هذه المذكرة التي دُونت فيها المقابلة وما دار فيها سكتنا عن الأمر وتركنا لجنة العشرة تموت موتاً طبيعياً أو تموت بالإهمال وكانت هذه أول تجربة لعمل عام.

وأذكر أنّ التجار قد ساهموا بدورهم في هذا الأمر ورفعوا مذكرة إلى الحكومة يؤيدون موقف الخريجين تأييداً غير مباشر ويعارضون فيها قرار الحكومة الخاص بتخفيض مرتب الخريج ويشرحون الظروف المالية وكيف إنّ هذا المرتب الضئيل يعيش عليه جيش من الأهل والأقارب الذين لا عائل لهم إلا هذا الموظف بمرتبه الضئيل. وكانت الاجتماعات تعقد في منازل بعض التجار أذكر منهم السيد سيد أحمد سوار الذهب والشيخ المهدي أحمد وهو كان أوفر التجار ذكاء وكان يتولّى الكتابة ويراجع المذكرة ولعلي أرجع إلى هذا الموضوع أيّ موضوع التجار والأعيان وتعاونهم مع الخريجين في مكان غير هذا لأوضح مدى ما قامت به هذه الطبقة في طور النهضة الأولى التي أيقظت الشعور وألهبت الحماس للعمل الوطني الكبير.

لم تكن محاولة لجنة العشرة محاولة ناجحة لأسباب عديدة منها عدم التجانس بين أعضائها ومنها بعض الأعضاء جاء بهم الاجتماع ولم يكن لهم سابق اهتمام بالأمر وبعضهم كان من الموالين للحكومة بحيث يبلغها ما يدور في الاجتماعات أولاً بأول وكذلك كان فقدان الثقة بين الأعضاء أكبر عامل في بث روح التخاذل والخوف والتردد ولم يصدقوا إنهم قابلوا الحاكم العام واستمع إلى ما عندهم حتّى شعروا بأن مهمتهم

انتهت أما بحس فعندما علمنا بالطريقة التي سلكوها والمطالب التي تقدّموا بها شعرنا بأنّه من الخير أن ننهي مهمة هذه اللجنة عند هذا الحد ولا خير في استمرارها وقد نحت هذا المحي الضيق والذي خيب آمالنا فيها.

خليل فرح

توفي سنة 1932م المرحوم خليل فرح و خليل فرح ما كان فتّاناً بالمعني المفهوم اليوم أيّ أنّه مغن ولكنّه كان أديباً وشاعراً ووطنياً وكان قد وهب صوتاً جميلاً وذوقاً رفيعاً فكان يضع شعره ثمّ يلحّنه ثمّ يؤدّيه هو بنفسه ولنفسه وخاصة أصدقائه ولو لا أنّه ملأ أسطوانتي « عَزّة » و « عُبْدَة » لما عرف الناس هذا الفنان والشاعر والأديب الذي حصر نفسه بين خاصة أصدقائه ولو أنّهم على قلتهم من الشخصيات اللامعة التي تتذوق الأدب الرفيع والفن الرفيع.

و خليل قريب الشبه بالمرحوم البكباشي تميم الذي كان يعيش للموسيقى وبالموسيقى حتّى أنّه لا يعرف أحداً ولا يتصل بأحد غير هذا العود الذي يحتضنه ويناجيه صباح مساء ويستمد منه الغذاء الروحي فالشبه قريب بين المرحومين تميم و خليل في حبهما للموسيقى وعكوفهما عليها.

ولما توفي خليل فكرنا في أن نقيم له حفل تأبين تكريماً لذكراه واعتزافاً بفضلته على الفن والموسيقى والأدب ولكن لهذه الحفلة أو التفكير فيها قصة طريفة لا بدّ من ذكرها.

كان المرحوم خليل فرح في مستشفى النهر مريضاً وما كنّا نعرف شيئاً عن تطوّر المرض معه وأنا شخصياً لم أر خليلاً في حياتي ولكنّي كنت أسمع وأسمع عنه وأحفظ بعض أغانيه التي يرويها المطربون.

وفي يوم من الأيام خرجت من مكتبي في المالية إلى المكتب المجاور حيث الأخ محمود إبراهيم وكنت أترنم ببيت من شعر خليل عندما وقفت عند مكتب الأخ محمود وقلت له إنّ خليلاً مريض ولا يعرف أحد متى يكتب له الشفاء بل ربما انتهى

في رقدته هذه ألا ترى معي أنه يكون تكريماً حقاً أن يحتفل به في حياته ليعرف إلى أي مدى يقدره هذا الوطن الذي أحبه وأنشد في حبه القصائد، ليعرف مدى تقدير هذا الوطن له؟ وأيد الفكرة محمود واتفقنا على أن ندعو لها من التو والساعة أنا في أم درمان وهو بالخرطوم وصممنا على تحقيق هذه الفكرة.

كان الوقت بين الثانية عشرة والواحدة وكان هذا هو الوقت الذي فارق فيه خليل الحياة ولما خرجنا من المكاتب سمعت في الترام أن خليل فرح توفي حوالي الساعة الثانية عشر وعجبت لهذه المصادفات.

وعندما جئنا إلى المكاتب اليوم التالي والتقيننا أنا ومحمود كان كل منا أشد دهشة من صاحبه وتحول التفكير في الحال إلى إقامة حفل تأبين بدلاً من حفل تكريم. ودعونا السادة خليل بتيك والبارون وعرفات ومكاوي يعقوب وتكونت منا لجنة التأبين.

وأقيم حفل كبير يليق بشاعر ووطني كبير يتبارى فيه الخطباء والشعراء ومثل شعراء الأغاني شاعر الجمال حدباي الذي أنشد قصيدته بصوت حزين أبكى الحاضرين. ثم جمعت تلك الكلمات وطبعت في كتيب تخليداً لذكرى خليل.

عبيد حاج الزهين

وفي العام نفسه مات في المنفي المرحوم عبيد حاج الأمين ومن لا يعرف عبيداً؟ ومن كان مثل عبيد في وطنيته وفي إخلاصه وفي ثباته وفي إيمانه وفي شجاعته؟ كان بطلاً وكان فدائياً وكان صلباً هابه الاستعمار على صغر سنه وحسب له كل حساب وهو في قبضتهم ورهن سجونهم ما كان كثير الكلام ولا كان يحب الإعلان بل كل صامداً في إيمان عميق إيمان لازمه حتى الموت وقد حاول الإنجليز بمختلف الوسائل والإغراءات والوعد والوعيد أن يسمعوا منه كلمة واحدة لا غيرها فينتهي كل شيء ويعود إليه الاطمئنان والاستقرار وترد غريته ووظيفته لم يطلبوا أكثر من أن يقول أسف "sorry" لما حدث منه. ولكنهم ما نالوا منه إلا ما تناله الريح من

الصخرة العلىاء الصماء.

مات عبيد في بحر الغزال بالحمى السوداء نتيجة للإهمال المقصود في العلاج ودفن في ثرى الجنوب الحبيب وبكاه الناس في الجنوب كما بكوه في الشمال ولكنّه في الشمال كان بكاء الرجال من غير دموع ولا صوت بكاء بالوعد لأنّ ينتقموا لعبيد وأنّ يسلكوا الدرب الذي سلكه عبيد وأنّ يحرّروا هذا الوطن الذي مات من أجله عبيد. ولعلّ المناسبة التي جعلتني أذكر تأبين المرحوم خليل فرح هي مناسبة محاولة تأبين المرحوم عبيد حاج الأمين.

اجتمعنا في نادي الخريجين بأمر درمان عدد من الناس جمعت بينهم فكرة إقامة تأبين للمرحوم عبيد تأبيناً يليق به وبالطريقة التي مات بها وبالهدف الذي ضحى بحياته من أجله.

اجتمعنا الاجتماع الأول في غرفة صغيرة وكان عددنا ليس كبيراً وتحدّثنا في الموضوع واتفقنا عليه وعلى أن نجتمع مرّة ثانية. وفي المرّة الثانية جاءنا عدد أكبر وأخذنا في الحديث وإذا القول يسوقنا إلى أنّ الحكومة لا توافق. وفي الاجتماع الثالث جاءنا من يقترح أن نقيم لعبيد حفلاً تأبينياً صامتاً. وشعرنا بأنّ عدداً ممن كان نعتمد عليهم قد بدأ يتردّد فقلّت إننا أقمنا بالأمر حفلاً لتأبين المرحوم خليل وكان حفلاً محترماً وشتان بين الشخصين وبين الغرضين والهدفين الذين من أجلهما ماتا. فإمّا أن نقيم حفلاً يتمشى مع المناسبة وإمّا فالخير لنا ألاّ نؤسّي إلى جلال المناسبة بإقامة حفل مسخ صامت أبكم لا ينطق. وشعرنا بأنّ الجانب الميّال إلى ترك الحفل كان أكثر. وكان واضحاً أنّ هناك عدد من المثبّطين ومن المرجفين الذين فتّوا في عضد المتحمّسين.

وخرجنا من الاجتماع وفي النفوس ما فيها من ألم وحسرة لأنّ يمرّ حدث كهذا دون أن يُسجّل وأنّ يموت بطل كعبيد دون أن يذرف القلم عليه دمعة أو دمعات. وكنا نحس أنّ مكتب المخابرات قد أهتّم من أوّل يوم وأخذ يهدّد أناساً ويرسل أناساً بغرض فشل المشروع وقد أراد الإنجليز أن يحاربوا عبيداً حيّاً وميتاً. ولكن هل مات عبيد وهل ماتت ذكرى عبيد وهل انطفاّت الشرارة التي وضعها عبيد وإخوان عبيد؟ لا لم تنطفئ ولكنها اشتعلت وغدت ناراً ذات لهب قضت على الاستعمار وقوضت أركانه.

رحم الله عبداً وإخوان عبيد فإنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

الصحافة

لم تكن في السودان يوم أن خرجنا إلى الحياة العامة صحافة وكانت هناك جريدة حضارة السودان التي شجعت على قيامها الحكومة ومنحت امتيازها إلى السادة الثلاثة السير السيد علي الميرغني والسير السيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي وصدرت جريدة شبه رسمية ولو أنها تسمح بنشر بعض المقالات ولكنها لا تُعبر عن رأي الشعب ولا تهتم إلا بما تريده الحكومة. كانت هي صوت الحكومة تدافع عن سياستها وتحمي ظهرها من أي هجوم خارجي وفي نفس الوقت تُوهم العالم أن بالسودان صحافة.

ورئيس تحرير الحضارة تختاره الحكومة ممن تثق بهم أو على الأقل ممن تطمئن إليهم وتعتقد أنهم لا يثيرون عليها المشاكل أو يفسحون صدر الجريدة إلى مشاغب أو ثائر.

عندما خرجنا إلى الحياة العامة وجدنا أماننا الحضارة وحدها ولم تكن الحضارة تشجع على الكتابة بالنسبة لوضعها الذي أشرت إليه ثم ظهرت في سنة 1933م جريدة متلقى النهرين أصدرها المرحوم سليمان داوود منديل وكنا نكتب فيها بعض المقالات التي لا تمس السياسة من قريب ولا بعيد وكنت أكتب فيها النقد على الروايات التي تمثل أي ناقد مسرحي وكانت بالبلد آنذاك نهضة مسرحية طيبة تقودها أندية الخريجين في أم درمان والخرطوم وفرقة المدرسة الأهلية التي كانت بادئ الأمر بإشراف المرحوم صديق فريد وكانت هناك عدة مسارح منها مسارح الأندية ومسرح الفضيلة في أم درمان ومسرح الأقباط ومسرح النادي المصري هذا إلى جانب المسارح المؤقتة التي تقام لأيام ثم تزول.

لم يكن للصحافة أثر محسوس إلا بعد ظهور الجرائد والمجلات الأخرى التي كانت أكثر جرأة من جرائد الحكومة كالنهضة - السودان - النيل والفجر.

في سنة 1931م أصدر المرحوم محمد عباس أبو الريش مجلة النهضة السودانية وقد سلكت مسلكاً أدبياً خالصاً والأدب دائماً هو الشرارة وهو الوسيلة لنشر الوعي والمعرفة وكان الذين يعاونونه بعض الشبان في مقدمتهم عرفات والمحجوب ومحمد عشري وعدد كبير من أدباء ذلك العهد. وكنت أكتب في الاجتماعيات باباً خاصاً تحت عنوان « الواقع » وإمضاء « محتار » فقد كانت حيرة ما بعدها حيرة في واقعنا آنذاك وكتبت في القصة والأدب والشعر ولكن كل ذلك كان تحت إمضاءات مستعارة.

وهناك حقيقة يجب أن أوضحها وهي أنني لم أكتب مطلقاً تحت اسمي السافر وكانت جميع كتاباتي وفي كل الجرائد والمجلات التي ساهمت في تحريرها ألجأ فيها إلى الإمضاءات المستعارة حتى إني مع مرور الزمن عدت لا أعرف هذه التوقيعات لكثرتها. ففي النهضة كان لي باب الواقع الذي أحرّره أسبوعياً تحت توقيع « محتار » هذا إلى جانب المقالات والقصص التي أكتبها تحت توقيعات مختلفة وفي السودان كان لي باب ثابت تحت عنوان « الهدف » والتوقيع « طبجي » وفي الفجر كنت أحرر باباً ثابتاً أيضاً تحت عنوان « حقائق من سينما الحياة » والتوقيع « مصور » وكتبت في الفجر في باب القصة الاجتماعية تحت توقيعات مختلفة. وفي صوت السودان تحت هذا رأيي، ولي شعر أوقعه بإمضاءات عدة وذلك في النهضة.

وما كنت أفضل الإمضاءات المستعارة على الاسم الصريح لأنني أومن بأن شخصية كاتب لها أثر كبير على القارئ فكثيراً ما يقرأ لك القراء لأنهم يعرفون من أنت وربما يريدون تشجيعك ولا تستطيع أن تعرف الحقيقة من وراء هذه المجاملات وعين الرضا دائماً لا ترى العيوب والأخطاء وقد يحدث العكس فالشخص الذي لا يستلطف الكاتب قد لا يقرأ أفكاره مطلقاً لمجرد أن هذا الرأي أو هذا المقال كتبه فلان المعروف لديه وعين السخط لا تبدي إلا المساوئ.

وهناك الحكمة القائلة « لا يعرف الحق بالرجال ولكن أعرف الحق تعرف أهله » كنت أفضل أن يحكم الناس لي أو عليّ وهم يجهلون من أنا وسيجعلون حكمهم صريحاً وسليماً لأنه لا يتأثر بالعواطف.

وقد حرمتني هذه الإمضاءات المستعارة أن أعد في جملة الأدباء أو الكتاب إذ لا يعرف ذلك إلا القليل ولكن هذا في نظري ليس حرماناً.

وقد قرأت في كتاب نشره أحد الأساتذة عن تاريخ الثقافة السودانية أو الأدب

السوداني ووجدت أنه اقتطف لي ثلاث مقالات يامضائها المستعارة وهو بالطبع لا يعرف من كاتبها ولكنه نقلها لأنها تُصوّر جانباً من أدب ذلك العهد أو تُصوّر الاتجاه الفكري وقد سررت لذلك ولم أسف على أن تلك الكلمات لم تكن مذبذبة باسمي.

سارت النهضة وكانت مسرحاً للأقلام الناشئة كما كانت مجالاً للكُتّاب والشعراء الذين استطاعوا أن ينشروا للناس عن طريقها آراءهم في الأدب وفي الاجتماع وتعتبر سير المجلة بعد مرض صاحبها الذي كان حريضاً على صدورها كما كان وطنياً مخلصاً ولما مررت عليه في عهدها الأخير لأدفع له بمقالي وجدته راقداً على عنقريب وهو يقرأ المسودات ويصححها بالرغم ممّا يقاسيه من الآلام التي أودت بحياته وتطوّعت أخيراً فأصبحت أراجع المقالات وأرسل منها ما أرى نشره إلى الرقيب وأراجع المسودات بعد رجوعها من المطبعة ولكن لمّا اشتدت وطأة المرض على المرحوم محمد وقفت المجلة قبل وفاته بأيام قلائل.

لست بالطبع أريد من هنا أن أؤرخ للصحافة فأتوسّع في الكلام عن النهضة ولكنه حديث يتصل بي وبعلاقتي بالصحافة التي ساهمت فيها والتي تُصوّر أنواع النشاط الأدبي الهادف والذي تطوّر إلى الحياة السياسية والحركة الوطنية التي انتظمت بعد تنبّه الشعور وزاد الوعي بفضل تلك الأقلام التي كانت تبثّ الروح الوطنية في البلاد.

وجاءت بعد ذلك جريدة السودان وجاء دوري معها فقد عرف القراء «طبعي» في كلماته القصيرة تحت عنوانه في «الهدف» وكانت تلك الكلمات القصيرة قد مشت من القراء مكاناً حسّاساً فكانوا يقرأونها في شغف واهتمام ويصرون على قراءتها لأنها كانت تُعبّر عمّا في نفوسهم وكانت تصرّح بما يضمرون فكانت ترجماناً صادقاً. أعجب القراء بها وأخذوا يتحدثون عمن يكون كاتبها وكانت طريقتي في الحياة تبعد عني الشبهة فكنت كثير الصمت لا أتحدّث مع أحد في الترام وأقطع الطريق أنصفح الكتب والمجلات وكان مظهري يبعد عني الظن بأنني أكتب تلك المقالات ومع الأيام عرف بعض الناس إنني أكتب تلك المقالات وبدأت تصلني الاستفسارات من الأقاليم والأسئلة فأصرفها في لباقة فلا أنفي ولا أؤيد وهكذا حتّى علم الكثيرون أنني الكاتب وكان قد مرّ على تلك المقالات أكثر من عام وهي توالي الظهور مرّة أو مرتين في الأسبوع حسب صدور الجريدة.

والشيء الذي أقرره الآن بعد مرور الثلاثين عاماً أن تلك المقالات إذا تصفحها أيّ

قارئ اليوم فقد لا يجد فيها شيئاً يغري بها هذا الإغراء ولكنها كانت وفي تلك الأيام كلاماً خطيراً وسياسة عميقة فقد كانت في عُرف الناس تطرق مواضيع خطيرة حتى أن بعض الناس بدأوا يقولون لماذا لا تعتقل الحكومة هذا الكاتب وتشكك آخرون فقالوا لا بد أنه على تفاهم مع الإنجليز وإلا لكان مكانه السجن.

والحقيقة أن الطريق لم يكن ممهداً ولكن رئيس التحرير كان رجلاً جريئاً ووطنياً مخلصاً وكاتباً شجاعاً. كان أحد صاحبي «السودان» ورئيس التحرير الشيخ عبد الرحمن أحمد أطال الله في عمره ومُتَّعَه بالصحة وكان من وقت لآخر ترسل إليه المخابرات لتسأله عن مقال من تلك المقالات وتحاول أن تعرف منه اسم الكاتب ولكنه كان يقول لهم إنه على استعداد لتحمل المسؤولية وحده.

سألوه مرة عن مقال كُتِبَ عن طريقة جمع العوائد وكيف يتفنن بعض الإداريين في القسوة على الناس في جمعها ممّا أدى إلى موت أحد المعتقلين بسبب هذه العوائد وكان ذلك في مدينة الأبيض. صدرت الجريدة وقرأت أجهزة المخابرات المقال - وكانت قد رُفِعت الرقابة في تلك الأيام على الصحف. ثم أرسلت إلى الشيخ تسأله بهذه الطريقة سيعرض جريدته إلى المحاكمة بل إلى الإيقاف.

وجاءني الشيخ بعد أن أدلى بدفاعه ولو إنه كان لا يركز على حقائق ثابتة ولكنه دفاع ولد في التو والساعة. جاءني الشيخ وقصّ عليّ ما دار فقلت له إليك الحقائق وذكرت اسم الشخص الذي مات وسبب الموت وهو الالتهاب الرئوي الذي أصيب به لأنه كان محفوظاً في زريبة أمام المركز مُعَرَّضاً لبرد الليل والصباح وشمس النهار دون وقاية. وذكرت له المكان واسم الإداري وتاريخ الحادث ورجع الشيخ إليهم هذه المرة متحدياً ورمى إليهم بالحقائق وصمتوا بعدها صمت أصحاب القبور.

وفي مرة ثانية كتبت مقالاً عن مساوئ التبشير في الجنوب وكنت قد حصلت على كتاب من مكتبة جوبا. لا يحوي إلا السب والتحقير للإسلام والكيد لنبي الإسلام. جئت بالكتاب من جوبا - والذهاب إلى جوبا نفسها له قصة فقد كان قانون المناطق المقفلة يُطبَّق علينا تماماً.

جئت بالكتاب وترجمت مقدمته ونشرتها كمقال افتتاحي في الجريدة وثار القراء وثار قبلهم مكتب المخابرات وجيء بالأستاذ متهماً بخلق الأكاذيب ولم تكن الإشارة إلي هذه المرة لأنّ المقال لم يُكتب تحت التوقيع المعروف.

وجاءني الأستاذ أيضاً وحكى ما حدث وكيف كان موقفه قوياً صلباً وقويت أنا موقفه بأن دُفعت إليه بالكتاب وذكرت له المكان الذي يباع فيه وطلبت منه أن يتحداهم إذا كانوا يقولون إنَّ الترجمة غير آمنة. وفعلأ ذهب الشيخ عبد الرحمن وفي يده الحُجة رُمى بها أمامهم فأسكتهم وعلمت فيما بعد ومن صديقي محمد مصطفى الخزرجي الذي أهداني الكتاب أنَّ المديرية هناك جاءتْها التعليمات لمصادرة الكتاب وصودر من مكتبة جوبا التبشيرية.

وفي مرّةٍ ثالثة نشرت كلمة عن أبطال سنة 1924م وعن علي عبد اللطيف بالذات وقلت لماذا يعاني هو وأصحابه آلام السجن والتشريد وقد عادت المياه إلى مجاريها وها هو ذا الجيش المصري يعود إلى السودان وها هي ذي المعاهدة تعترف بمشاركة المصريين في حكم السودان. وعلى أثر ذلك المقال قامت مظاهرة في مصر من الطلبة وارتعدت فرائض المستر بني الذي جاء بالشيخ يسأله عن الكاتب فقال الشيخ إنَّه لا يعرف كاتباً وإنَّما هذه المقالات تأتية بهذا التوقيع وهو ينشرها ويتحمل مسؤوليتها فقال له المستر بني إنَّه يعرف الكاتب وهو موظف بالمالية وسيضطرون مرّةً إلى محاكمة الكاتب والناشر فمن الخير لكما أنْ تعرفا الحقيقة ولا يمكننا نسكت أكثر ممَّا سكتنا. وقال له الشيخ عبد الرحمن ما الذي حدث حتَّى تفقدوا أعصابكم إلى هذا الحد فقال المستر بني حدثت مظاهرات في مصر وأخشى أنْ يحصل ضرب في السودان فقال له الشيخ وهل تركتم في الناس إحساساً يدفعهم إلى هذا التصرف لقد أممتم الشعور بما فيه الكفاية للقضاء على هذه الأمة.

وخرج الشيخ من عند المستر بني وهو مشفق عليّ من غضبهم وقال بالحرف «أئنّي يا ابني مُستهدف وقد فني عمري ولا أخشى شيئاً مطلقاً ولكنّي أخشى عليك وأنت شاب وأمامك مستقبل» فشكرته وقلت له إنَّ كنت أنت على استعداد لأنْ تكون الهدف وأنت في هذه السن فما بالك بشاب نذر حياته لهذا الوطن. سأكتب وليفعلوا ما يشاءون. وبمناسبة الحملة على المبشرين اقتطفت شيئاً من مذكراتي فقد كنت أدون أحياناً بعض الحوادث.

34/12/12 - ذهبت صباح اليوم إلى إدارة جريدة السودان فاختلى بي الشيخ عبد الرحمن أحمد وحمل إليّ غضب «الجماعة إياهم» أي مكتب المخابرات من

تلك الحملات التي أوجعها على المبشرين فقد أحسوا بأنّها في الصميم وقالوا إنهم لا يكرهون النقد ولكن ليس بهذه الشدة ويقولون أيضاً إنّ هناك طريقة أخرى لمحاربة المبشرين عن طريق الشكوى إلى المأمير والمفتشين، ويتجاهلون أنّ شكوى من هذا النوع لا تجدي فتيلاً لأنّ مصيرها إليهم ولهم أنّ يتصرّفوا فيها كما يشاؤون. ويُهدّد المستر بني بأنّه يعرف صاحب الهدف وخير له أنّ يخفف من شدته. إنّهُ جبن الظالمين وخورهم يرتجفون لأخف هجوم ويخشون كل صيحة حتّى أنّهم يعدّون هذا المس الخفيف نقداً قاسياً وثورة عليهم.

وهناك كثير من المقالات لم تر النور لأنّها كانت تحجز في مكتب المخابرات وهو الذي يشرف على ما ينشر في الصحف ومن تلك المقالات خطاب مفتوح أرسلته إلى الحاكم العام وكان الحاكم العام قد عيّن حديثاً وكان الناس يتحدثون عن التغييرات المنتظرة في السياسة وأنّ هذا الحاكم ما جاء إلّا لأنّ الإنجليز يريدون أنّ يسلكوا سياسة جديدة فيها خير كثير.

ولعلّه من الخير أنّ أنشر الآن هذا الخطاب الذي لم ير النور وقد ذهب مع مواد العدد ولم يعد ومعنى ذلك أنّه غير مرغوب في نشره وها هو الخطاب:

إلى صاحب المعالي حاكم السودان العام:

أحييك تحية محكوم لحاكم مصدرها قلب فتي مُفعم بالأمال الزاهرة لخير هذا الوطن المتسامح الكريم.

أسكتتنا رهبة الحكم زمناً طويلاً يا صاحب المعالي، وكل شيء في الوجود إذا فات حده انقلب إلى ضده. فنطقنا الآن بعد صمت طويل، وتحدّثنا بعد خور انقلب إلى هذه الشجاعة المحتشمة التي أرجو أنّ يتقبلها معاليكم بقبول حسن.

يقصون علينا في باب الطرف والملح أنّ رجلاً ممن عافهم الحظ السعيد وأصبح يتعثر في طريق ملتوية من طرق الحياة الشائكة المظلمة نام في ليلة من الليالي وهو متعب مكدود متبرم بالحياة فرأى في نومه أنّه وهب مالا طائلاً تضخّمت به الزكائب والصناديق وطلب إليه أنّ يتولّى حمل تلك النعمة الوافرة إلى داره ولكنّه على ما يظهر كان من أبناء النكتة الذين يبذلون العمر كاملاً من أجل ملحة طريفة فأبى عليه ظرفه إلّا أنّ يطالب بأجر الحمال الذي سيتولّى حمل تلك الزكائب وإلّا فهو يرفض

الهبة بأكملها غير آسف عليها. وفي هذه اللحظة التي كان يسوق فيها الدلال في عالم الأحلام استيقظ من نومه المعسول وعاد إلى ذاكرته كل شيء من عالم الحقيقة فلم يكن منه إلا أن أغمض عينيه مرّة ثانية وقال في صوت مسموع « طيب هات » ولكن هيهات فلم يجد في قبضته إلا أصفاراً مكعبة.

وحالنا يا صاحب المعالي لا يختلف عن حال هذا الرجل المنكود غير أنه أُعطي فأبى واستكبر، أمّا نحن فأعطينا وبنينا القصور الشاهقة من الآمال المعسولة وكنا نقدم لأنفسنا ونرفض ما نقدّمه طامعين في أكثر منه ولما أنّ صحونا من غفوتنا إذا بنا أسوأ حالاً ممّا كنا وإذا الأصفار المكعبة ملء اليدين تُنثر علينا في كرم يطاطئ الرأس أمامه حاتم الطائي وعند ذاك ذرفنا دموع الخيبة على هذا الحلم الفاشل.

استبشر الناس خيراً يوم مقدّم معاليكم إلى هذه البلاد وتحدّث الموظف عن القوانين الصارمة التي سيحال بينه وبينها والتي كان ينتفض لذكرها انتفاض العصفور بلله المطر. ونقل التاجر إلى الزارع والزارع إلى الصانع إنّ الفرج منهم قاب قوسين أو أدنى فأملنا وعقدنا الآمال وعشنا هانئين هادئين ولكن كان كل ذلك في الخيال بل كان حلم الإنسان الجائع. وها هو ذا عام كامل يلم أمتعته مُرمعاً الرحيل ليلحق بإخوان له من قبل مروا علينا ونحن نتقلب في ذلك الحلم اللذيذ وفتحن أعيننا بعد هذا العام فإذا بالأحلام تتبدد وإذا بالظلام سائد على الربوع وإذا الأنئين المكبوت ينخر الصدور.

قالوا إنّ في جعبة معاليكم رجوع الجيش المصري للسودان وإنّ الحربية ستفتح أبوابها للطلاب وأنّ الوطني ستكون له الصدارة على غيره وأنّ قانون الدرجات لا يولد في ساحة الوجود وأنّ قانون الإجازات وامتنياز السفر كُتب لهما الفناء وأنّ الإدارة الأهلية ستذهب مبكياً على شبابها وأنّ.... وأنّ.... إلى آخر القائمة.

والآن هل تحقق شيء من هذا كله؟ أظنّ الجواب على هذا السؤال أسهل من تجرع كوب من الماء المثلج في محارة القيظ وسجد الكثيرين يرفعون أصابعهم يودون الرد عليه بكلمة واحدة هي « لا ».

السودان يا صاحب المعالي أمة فتيّة تريد الحياة الحقيقية وقد أثقلت كاهلها قيود ثقيلة وأملها عظيم في أن يكون على يديكم تحطيم السلاسل ولا نريد أن تطل علينا هذه الأربعون عاماً فنضحك من أمة قامت على شؤونها إنجلترا هذا العمر الطويل وهي

مازلت هزيلة لا تقوى على الوقوف.

لقد كان لطبجي أنصار عديدون يتلقفون الجريدة في الأسبوع مرتين ليقرأوا له. وشعرت بفضول الناس بدأ يتزايد حتى عرف الكثيرون من هو طبجي وكنت إذا ما سافرت ووقف القطار في إحدى المحطات وعرفني أحد الناس أسرّ الخبر إلى غيره ويجيئون في الحال يحومون حولي ويتطلعون إليّ كأني شيء غريب وما أقسى احتمال عيون الناس وهم ينظرون إليك وبعضهم يشير إليك حتى يعرف من معه من يريد.

وحدثت أشياء طريفة فقد كان كثير من الناس يتصوّر طبجي على هيئة مخصوصة مستوحين عمل الطبجي الذي يجب أن يكون ضخماً قوياً يحمل المدفع على كفه ويصوب القذيفة في إحكام. وقد عانيت من هذا الخيال وسمعت المدح في قالب الذم وسمعت ثناء في قالب تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

وفي مرّة كنت مسافراً إلى الأبيض وقام القطار من كوستي وركب معي أحد موظفي السكة الحديد وكنت أحمل كتاباً عليه اسمي فتناول الراكب الكتاب وقرأ الاسم ثم أخذ ينظر إليّ في استغراب وسألني هل هذا الكتاب لك فقلت نعم فقال وهل أنت فلان قلت نعم وقلتها في خوف شديد لأنني توقعت السؤال التالي وهو هل أنت طبجي، فقلت ربما فسّر ودبّر في نفسه خطة. فما كاد القطار يصل تندلتي وكان لي فيها أهل وإخوان جاء بعضهم لمقابلتي فإذا بي أفاجأ بعدد كبير من الناس بعضهم يسلم عليّ في حرارة وبعضهم يقف متفرجاً على البعد كأنما جاء ليشاهد خلقاً غريباً.

وحدثت لي مثل هذه الاحراجات كثيراً وسمعت كلمات المدح والثناء ووصلتني خطابات الإعجاب وبعضها نشر وكم من قصائد قومية جاءت إلى الجريدة تحيي القلم الجبار والكاتب الذي كذا.. والذي كذا.. وبَيْتُ في نفسي أمراً... لقد خشيت الغرور وخشيت أن أظن في نفسي أنني كاتب وكاتب كبير وأن النفس لأمارة بالسوء ولذلك قرّرت أن أوقف الكتابة تحت هذا العنوان وأوقفتها فجأة ودون إنذار.

وثار جدل طال بين بعض القراء فبعضهم أخذ يتساءل ماذا جرى لطبجي ولماذا لا يكتب وطنّ البعض إنني مُنعت من الكتابة رسمياً وقال آخرون إنّ ذخيرتي قد نفدت وقال البعض إنّ طبجي قد كبر وبلغ من العمر عتياً. وكتبت سيدة محترمة

تقول دونكم الميدان لقد رمي طبعي في الهدف ما شاء الله أن يرمي وقد تخلى عن المدفع أفلا يوجد طبعي آخر يوالي الضرب في الهدف.

أما أنا فقد واليت الكتابة في نفس الجريدة وتحت عنوان آخر وبتوقيع جديد هو «قارئ» إلى أن أوقفت هذه الكتابة رسمياً. وللحقيقة فإن طبعي لم توقفه الحكومة ولكنه أوقف نفسه واستمر يكتب تحت توقيع «قارئ» إلى أن أوقفته الحكومة.

كان ذلك سنة 1936 عندما بدأت المفاوضات بين مصر وإنجلترا عن السودان فكتبت كلمة تحت عنوان «صخرة المفاوضات» وقلت إن السودان الذي يتفاوض على مصيره المتفاوضون أهو كم مهممل؟ أليس له رأي؟ ثم طالبت بأن يكون للسودان رأي وأن لا يؤخذ من العمد والنظار والأعيان الذين تجمعهم الحكومة في كل يناير لتغلق عليهم النياشين والكساوي المزركشة بل يجب أن يكون الرأي للمتعلمين. وكان رئيس التحرير غائباً ولم يتحمل شريكه الثاني مسؤولية الكلمة فأخذها إلى الرقيب الذي استبقاها عنده.

وبعد يومين أو ثلاث من ذلك التاريخ أرسل السكرتير المالي ليقول لي إنك تكتب في الجرائد وتكتب في السياسة والقانون لا يسمح بذلك وأنت موظف... قلت إنني أكتب في الجرائد منذ أن تخرّجت ولم أسمع أحداً ذكر لي أن ذلك ممنوع وثانياً ما هي السياسة التي كتبت فيها قال «صخرة المفاوضات».

ثم أخذ يقول إنه نفسه كموظف لا يستطيع أن يكتب وإذا أراد كتابة مقال في التنس أو الهوكي فلا بد من أن يرسله إلى مكتب المخابرات وبعد أن يوافق على نشره ذلك المكتب يرسل للنشر.

وقال إنه جاء بي ليؤكد لي أن الكتابة في السياسة ممنوعة منعاً باتاً وإذا أردت أن أكتب شيئاً فيجب أن أحرره من ثلاث نسخ أرسل واحدة لمكتب المخابرات وأخرى له بوصفه رئيسي المباشر وثالثة للجريدة وقال إنه لا يريد أن يحرّج كما أحرّج الآن فقد كتب إليه مكتب السكرتير الإداري يقول له إن أحد موظفيك يكتب في السياسة وربما طالبوني باتخاذ إجراء خاص معك وأنا لا أريد ذلك.

خرجت منه بفهم هو إنني ممنوع من الكتابة في السياسة وإذا كتبت في أي موضوع يجب أن أخذ موافقة الرقيب الذي في مكتب السكرتير الإداري أو المخابرات ومعنى ذلك إنني لا أكتب شيئاً ولو كنت أكتب ما يوافق عليه الرقيب لما قرأ لي قارئ.

وبعد لحظات أرسل إليّ السكرتير مئة أخرى ليقول لي إنه ذوّن ما دار بيننا في مذكرة وستحفظ هنا حتّى لا أنتهز فرصة غيابه في إجازة وأكتب وليكن في علمي أنّ من سيأتي مكانه سيكون ملماً بكل ما دار وكذلك مكتب السكرتير الإداري.

ولكن هل وقفت بعد ذلك؟ لم أوقف الكتابة ولكن عدّلت عن إمضاء «قارئ» الذي جاء لي بالكارثة ومارست الكتابة تحت توقعات أخرى عديدة وأحياناً تنشر المقالات دون إمضاء كأنها صادرة من إدارة الجريدة.

وجاءت أخيراً مجلة المؤتمر التي كنت عضواً في هيئة تحريرها كما كنت مسؤولاً عن باب الشؤون العربية في المجلة هذا إلى جانب المقالات الأخرى التي أساهم بها في المجلة.

والذي يمارس الصحافة يوماً لا يسهل عليه أن يطلقها إلى الأبد فهي هواية لذيدة يندفع إليها الشخص دون أن يرغب بل الحقيقة أنّ الأحداث هي التي تحرك في نفس الكاتب هذه الرغبة فيندفع إلى الكتابة.

ولهذا فما زلت أمارس الكتابة في صحافة الحزب في فترات وأحياناً في غير صحافة الحزب حسب جاذبية المواضيع وأهميتها.

شوقي والفيل

أو

Feelsit & Shawgist

تلك ألفاظ أخذت طريقها إلى أذهان الناس جميعاً وأصبحت علماً على حركة قام بها بعض أفراد النادي قامت حتّى أصبحت خلافاً يتصدره كبار الخريجين في نادي الخريجين بأمر درمان.

لقد نُسبَ الذين يؤيّدون المرحوم محمد علي شوقي إليه فأصبحوا شوقيين أو بالإنجليزية Shawgist وكذلك نُسبَ الذين يؤيّدون المرحوم الشيخ أحمد السيد

الميل إليه فأصبحوا Feelsit أو فيليبين. كان أساس المعركة تلك الحفنة التي سميت فيما بعد بالأبروفيين والتي حاولت أن تخلق حركة جديدة في النادي وتغيير الأوضاع القديمة وزحزحة أولئك الذين كانوا يسيطرون على النادي سيطرة تامة ولأعوام عديدة. وكنا نحسب أن تلك الحركة التي قمنا بها لا تجد تأييداً كبيراً إلا من بعض الشبان ولكن كان ظننا خاطئاً فما مضى عام وآخر وجاءت حملة الانتخابات إلا وشعرنا بأناس يتصلون بنا ويحاولون في الظاهر تأييدنا ولكن في حقيقتهم يريدون استخدامنا فهناك خلافات طائفية تتوارى وراء المجاملات ولكنّها لم تمر على امتحان يكشفها على حقيقتها. جاء بعض إخواننا ليقولوا إن فلاناً وفلاناً من كبار الخريجين يؤيدونكم وأخذت رسلهم إلينا تترى الواحد بعد الآخر ونحن في الميدان وحدنا وهم من وراء ستار يريدون الغنيمة دون أن يغشوا الوغى.

وقلت لزملائي يوماً ما إننا لا نؤمن بهذا العمل وإذا كان كبار الخريجين من هذا الجانب يريدون العمل فليظهروا وليعملوا كما يعمل الجانب الذي نقف ضده وإلا فليتركونا ولا نريد من أحد رأياً ولا مشورة ولا نريد أن نكون قطط لأحد.

وحمل هذا الحديث إلى أولئك الكبار بل واجههم به بعض الذين ينقون فيهم وشعروا هم من جانبهم أنهم يجب أن يعملوا وأن يظهروا وبدأت الحركة تتسع حركة المعارضة للجنة النادي وأخذ الجانبان يجندان الأنصار والمؤيدين وعلم أن المعارضة على رأسها المرحوم الشيخ أحمد السيد الفيل لا لأنه كان يعمل فعلاً ولكن لأن المعارضة رشحته لرئاسة النادي. وقد كان في المعارضة من يصلح للمهمة أكثر منه لأن المرحوم الشيخ الفيل كان مركزه حساساً وكان لا يغشى المجتمعات كثيراً ولكنهم فضّلوا أن يقدموه لعلمهم يكسبون باسمه أكثر.

وهنا يجب أن أشير إلى أن الأبروفيين لم يكن لهم النشاط المطلوب لأن الأسس التي قامت عليها هذه الحركة أخيراً لم تكن أسسهم وشابها شيء ما كما أن هذه المجموعة أوكلت الأمر في الدعاية والعمل لأناس يغلب الطابع الطائفي. ساير الأبروفيون الحركة ولكنهم لم يكونوا كسابق عهدهم هم كل شيء فيها.

وكما قرب موعد المعركة كلما زاد حماس الجانبين في جمع المؤيدين فانتعشت خزينه النادي وكثر رواه وزاد الحماس له وجذبت تلك الحركة حتى الذين لا شأن لهم بالنادي ولا يجوز لهم الانتساب إليه وخرج الحماس والتحرّب إلى خارج النادي

بل إلى جماهير الشعب وأصبح عصبية وطائفية أكثر منه منافسة على لجنة النادي. وعلمتنا التجارب أنّ الذي يكون في يده المكتب لا يُغلب لأنّه يكون دائماً على بينة من قوة خصمه بينما لا يكون خصمه في موقف يعرف منه قوته. وحمل الحماس والاهتمام بالمعركة بعض المحتشمين حملهم على الظهور وعرف الناس من يقف مع كل جانب.

وحلّ اليوم الموعود وكان جانب الشوقيين أكثر ففاضوا على الفيليين ولم يحتمل الفيليون النتيجة وكانوا يتهمونا بالتزييف فقرروا الانسحاب من النادي كتلة واحدة. قلت فعلاً إنّ الأبروفيين لم يكونوا من المتحمسين للمعركة بعد أنّ أخذت طابعاً لا يتمشى مع أفكارهم ولكنهم لم يتخلّفوا عنها وقد قامت أساساً بنشاطهم وتفكيرهم فلما قرّر الجميع الانسحاب انسحب الأبروفيون مع غيرهم.

أمّا أنا وقد كنت في أول الأمر من رأى الذين يطالبون المحتشمين من كبار الخريجين بالعمل وعدم التردد فقد جمّدت نشاطي أيضاً عندما أحسست بالاتجاه الجديد والذي صبغ المعركة بغير الصبغة التي كنّا نريدها لها وكنت أكثر بعداً عن المعركة من الآخرين فلم أحضر اجتماعاتهم منذ البداية وكذلك عندما قرّروا الانسحاب لم انسحب وكنت أعتقد أنّه رأي خاطئ فالجانب الآخر جمّد عدداً من النخبين ليستعين بهم في المعركة وكلهم ممن لا يهتم بالنادي ولا حاجة له به وسيمر شهر أو شهران ثمّ ينقطعون عنه أمّا جانب المعارضة فقد كان يعتمد على المتعلمين الذين يغشون النادي وفي إمكانهم الاستمرار فيه.

ومن جهة أخرى كان الجانب الآخر قد دفع مبالغ طائلة ليحصل لناخبيه على حق الانتخاب ولن يستطيع أنّ يداوم على دفع الاشتراكات بأسمائهم لمدة ستة أشهر مثلاً.

وكنّت أرى أنّ يستمر المعارضون في انتسابهم إلى النادي في مدى ستة أشهر يستطيعون أنّ يسيطروا على النادي ويمكنهم انتخاب من يريدون ولكنهم في ثورة الهزيمة أثروا الخروج وبقيت عضواً في النادي ذلك العام ولم يخب ظني فبدأ النادي يقفر من الرواد وما جاءت نهاية العام إلّا وكان عدد الحاضرين للاجتماع العام سبعة وعشرين عضواً انتخبوا من بينهم عشرة أعضاء للجنة النادي.

أين الباقي من الثلاثمائة وستين عضواً الذين فازوا بالانتخابات؟ لم يعد لهم وجود لأنهم قد جئ بهم لمهمة خاصة وعاجلة ثم تفرقوا.

لقد كانت هذه الحركة هي بداية ظهور الخريجين في صفوف الطائفية ظهوراً واضحاً. فقد كانت الطائفية تعتمد على كبار الخريجين أو في الحقيقة على كبار الموظفين وكان كل من السنيين يحرص على أن يكون حوله عدد من هؤلاء ولكن بعد حركة النادي زاد عدد المنشقين وتعمق الخلاف حتى أصبح تقليداً ونفر كثير من الخريجين من النادي وأبوا العودة إليه بالرغم من اللجان المحايدة التي كونت والتي حاولت أن تتصل بمن هم خارج النادي وتزيل الأسباب التي تدعوهم إلى البعد عن النادي أو عدم الرجوع إليه.

وعندما جاءت فكرة المؤتمر لم يكن الطريق أمامها ممهداً لأن الخريجين كانوا قد عبث بهم الخلاف وفرقهم أيدي سباً ولم يبق المؤتمر إلا بعد جهد كبير بذله بعض المتحمسين من صغار الخريجين باتصالهم المباشر بالخريجين الكبار الذين نفروا من النادي واعتبروه سبباً في الفرقة التي اجتاحت صفوف الخريجين.

الطائفية

لا أريد أن أتحدث عن تاريخ الطائفية في هذا البلد ولا آثارها ولكنني أتحدث عنها فيما يخص هذه المذكرات وأدوّن ما شاهدته أو شاركت فيه أو مرّ عليّ مروراً. والحقيقة أن مجموعة الأبروفيين وهي المجموعة التي شاركتها كثيراً من الأعمال لم تكن تؤمن بالطائفية ولا تقرها مع أن هذه المجموعة ينتمي جميع أهل أفرادها إلى إحدى الطائفتين الكبيرتين - الختمية والأنصار - ولكن فهمهم للحياة وإشفاقهم على مستقبل هذه البلاد ودرسهم للماضي وما تعلموه منه من دروس جعلهم يؤمنون تمام الإيمان أن الطائفية هي وكر الاستعمار وسنده وفي نفس الوقت سلاحه الذي يحارب به في ميادين عديدة.

كانت للطائفية كل شيء في نظر الحكومة وهي تريد بذلك أن تقوي من شأنها لتحقر أو تصغر من شأن الطبقة المتعلمة وكان الاستعمار يُشجّع الطائفية ضد بعضها

البعض يبتسم يوماً لهذا ليقطب في وجهه غداً ليبسّم في وجه الآخر. يرفع هذا يوماً ليثير ذاك ثمَّ يعود ليصالح هذا ليخاصم ذاك وهكذا كان الاستعمار يضمن لنفسه الاستقرار فقد شغل الناس بأنفسهم عنه.

وكانت الطائفية على أشدها في سنة 1934م وسنة 1935م وسنة 1936م وكانت ميادينها التي يبرز فيها الخلاف عديدة وكان الخلاف لا يقوم إلا بين الطائفتين سالفتي الذكر وقد مرّت أعوام كان مجال الاحتفال بالمولد النبوي الشريف هو محك هذا التنافس ومثار تلك الخصومة وكم من الأموال كانت تصرف في الإضاءة وفي الأعلام والزينات وكان كبار رجال الطائفتين يتقدّمون هذه الاحتفالات ويبدلون من حماسهم وجهدهم الشيء الكثير وكل ذلك لتظهر كل طائفة بمظهر العظمة والفخامة يوم يزور الحاكم العام ميدان المولد في الليلة الأخيرة.

ويتمثل الخلاف في أوجه النشاط المختلفة حتّى نزل إلى الخلافات بين أفراد العائلة الواحدة. وجمع زعيم كل طائفة جماعة حوله يشد بهم أزره ويبرزهم عند الحاجة كما تبرز البضاعة على فترينات العرض وكان مع الأسف في هذه البضائع الإنسانية عدد من المتعلمين أو في الحقيقة قُل من كبار الموظفين الذين يعني التفاهم حول زعيم من هذين الزعيمين شيئاً عند الحكومة.

أصبح هؤلاء المتعلمون أو الموظفون الكبار حاشية للسادة جمهوراً للطائفية وصبغت هذه الصبغة انتخابات نادي الخريجين في يوم من الأيام حتّى قضت عليه وفّر الناس من حوله ونزلت العضوية فيه إلى أقلّ من ثلاثين عضواً يحضرون الاجتماع العام وهم كل مشترك في نادي الخريجين الذي كنّا نأمل مع رئيسه الأول إنّه سيلعب دوراً مهماً في تاريخ هذه البلاد.

وكان الشباب منقسماً إلى قسمين قسم جمع الذين لا يهمهم شيء فبعدوا عن الطائفية لا عن فهم ولا لسبب محدّد كما جمع المؤمنين بخطر هذه الطائفية وما ستجرّه على البلاد من بلاء وما تستمده الحكومة من قوة وسند من هذه الطائفية والتناحر فيها أمّا القسم الثاني فهو قسم أولئك الذين انساقوا مع الطائفية عن جهل «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» أو أناس ينتفعون من كل خلاف ويريدون استغلاله لفائدتهم الشخصية.

وخلاصة القول إنّ الطائفية لم ينج منها إلا القليل حتّى الأبروفيين فقد جرفهم

التيار في انتخابات سنة 1934م ولكنهم تابوا سريعاً إلى رشدهم ووقفوا منها بعيداً لدرجة أنهم رفضوها رفضاً باتاً عندما أرادت إحدى الطائفتين أن تختفي وراءهم وأن تسندهم كحزب سياسي بعد أن كوّنوا حزب الاتحاديين فيما بعد.

كانت الطائفية قوية أو قل هي البلد كلها تجمعت في كتلتين تعملان ضد بعضهما وكان من العسير محاولة الكلام في هذا الموضوع ولكنني حاولت مرّة مهاجمة الطائفية هجوماً خفيفاً ملتوياً نوعاً ما وكانت تلك المحاولة جرأة ما بعدها جرأة.

كتبت مقالاً عنوانه « لماذا المتطاحن » وقد لا يكون هذا المقال من القوة بحيث يعجب رجل اليوم ولكنه كان يعتبر كما ذكرت جرأة شديدة جاء المقال يقول:-

« لست أطرق موضوعاً جديداً إنَّ تحدّثت في هذه الكلمة عن هذه الحزبية التي غمرت السهل والجبل وتغلّغت في صميم الحياة حتّى أفسدتها هذه الحزبية الفاسدة التي يرتاح لها أناس كئُمنى النفس بأن يكونوا غير الناس، ويروج لها رجال أعماهم جهلهم بأساليب الحياة وعجزهم عن الأخذ إلّا بالقشور وآخرون هم حثالة المتعلمين أعجزتهم الحيل عن الحياة الهادئة الشريفة فأخذوا على أنفسهم أن يكونوا أتباعاً للباطل وأنصاراً لكلّ عدو يريد الإفساد ويفني حياته في سبيل إذلال هذه الأمة حتّى يسمّوها بسمّة لا تشرفها. لماذا يتطاحن هؤلاء القوم ولماذا يحشدون الأنصار والأتباع ولماذا يرغب شخص بكامل عقله ووافر إدراكه أن يندمج في هذا الركب الضال؟ هل هناك من غاية نتسابق عليها للفوز بها فنهنأ بنشوة الظافر وإجلال المنتصر؟ لست أرى هذه الغاية التي نتسابق إلى الوصول إليها وليت الذي يعرف يفصح أو يبين.

كئُنا إذا ما تحدّثنا قبل اليوم عن هذه الحزبية سلكننا سبيل التلميح رحمة بما يُنسب إليهم هذا العمل وإشفاقاً على سمعتهم من أن تخذش وكئُنا نلتمس الأعذار لهؤلاء الزعماء ونحسب الأمور تسير على غير رغباتهم لأنهم في نظرنا أعلى نفساً وأكبر مطمحاً وأكثر ترفعاً عن الأعمال الصبائية ولكن هل بقي بعد الآن مجال للتلميح وهل بقي بعد الآن مجال لتلمس الأعذار والجري وراء المخارج؟ لا ليس لذلك ضرورة ومن يرم بنفسه في مواطن الشبهات يجب أن يتهم بما هو جدير به. يهمننا كثيراً أن تكون لهذه البلاد زعامة تتركز عندها محبة الشعب وتقديره ويهمننا أن تكون هذه الزعامة محور الحركة النافعة المجدية للبلاد كما يهمننا أكثر من هذا وذاك

تكون هذه الزعامة مكتسبة بحق لا مجال فيها للأعيب الصبية وخداع الماكربين وإذا كان لكل بلد زعامته ولكل مصر قاداته فلسنا أقل من أن تكون لنا زعامة نسير تحت لوائها بشرط أن تكون زعامة جريئة صريحة. ولكن هل تتكوّن الزعامات بهذه الطريقة الملتوية وهل يبني الزعيم كما تبنى الأصنام.

كثنا مثلاً سنين عديدة نحس بوجود هذه الزعامات في البلد وكثنا نرضى بها ونقدرها ما دامت تقوم على أساس معروف وتسلك سبيلاً محدداً واضحاً هو للدين أقرب منه إلى أي شيء آخر وسكتنا على وجودها مع إيماننا بأنها لا تتصل بالدين إلا بأسباب واهية أساسها التبرك وهو كل مافي الدين من خضوع واستسلام إذا كان الدين قد أتى لإخضاع النفوس وإذلالها أو إشعارها بأن الله لا يقبل التوبة من عباده إلا عن طريق البابوات وحرّاس أبواب الرحمة والغفران.

وإذا ما تبدّل الحال وتطاول أصحاب هذه الزعامات إلى أكثر منها وأخذوا يعملون جادين لجلب الأتباع ويتنازعون أفراد الأمة كل يريد منهم تبعاً له وأنصاراً مؤيدين - أليس من حقنا في هذا الوقت أن نتساءل بيننا وبين أنفسنا وأن نسأل هؤلاء القادة إلى أين المسير؟ وأي مغنم سيعود على هذه البلاد؟ بل أي أجر سيكون جزاءنا لهذا العداء الذي نشيره بيننا وبين بني ديننا ووطننا؟

إن كانت الزعامات دينية فالدين واحد والله واحد والنبي الكريم وخلفاؤه من بعده لم يتركوا نقصاً نحاول تكملته وإذا كثنا ندين بدين واحد ونعبد رباً واحداً ونسعى إلى غاية واحدة فليس هناك خلاف وليس في الطريق مجال للدس والإيقاع.

ومن أراد الزعامة الدينية الحقيقية فالدين جاء بالرجولة الكاملة ودعا إلى الحرية والإخاء والمساواة كما فرض علينا العمل المتواصل لإعلاء كلمة الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحرر من كل قيد مذل.

فإذا أراد أحد أن يكون زعيماً دينياً وجب علينا أن نقيسه بهذا القياس أي مقياس الدين الصحيح فإن أوفى كانت الطاعة واجبة وإن لم يكن كما نريد ويريد الدين فليبحث لنفسه عن ميدان آخر.

يتضح ممّا تقدّم أنّ الدين لا يبرّر هذا التطاحن وهذا العداء وأنّ الدين لم يدع إلى التفرقة والاستبعاد والتسخير وأنّ استخدام الدين كوسيلة للوصول إلى المطامع والغايات الخاصة لم يعد لعبة خفية على العقول كما كانت قبلاً.

وأما إذا كان هؤلاء المتطاحنون يجرون وراء زعامة سياسية فللسياسة نظمها ومبادئها وجهادها فليوضحوا للأمة برامجهم وطريق جهادهم لخيرها وسعادتها وحينذاك سنكون لهم الجنود المطيعون وسنتفانى في الطاعة والولاء ما دامت الغاية واضحة وسينصبُّ عداؤنا على من يستحقُّه من الذين لا يرغبون في خيرنا ويقفون حجر عثرة في سبيل تقدُّمنا وعلى الطبقة المتعلِّمة التي نامت طوال هذه الفترة أن تنتبه من غفوتها إذ لا مجال للنوم بعد اليوم».. انتهى المقال

هذا مثل من بوادر شعور الخريجين بأنهم يجب أن يفعلوا شيئاً وأنَّ صمتهم سيمهد الطريق للطائفية والقبلية التي تستحوذ عليها الحكومة الاستعمارية تمثِّل الإرهابات التي سبقت شعور الخريجين بالإهمال من جانب الحكومة ومحاولة أخذ الرأي والمشورة من غير أهل الرأي وهم المتعلمون. هذه هي الإرهابات التي سبقت قيام المؤتمر.

تطوير الغناء سنة 1935م

كُنَّا كشباب نتذوق الأغاني ونسعى وراء حفلاتها ونحضر ليلاتها وكان هذا دأبنا ونحن طلاب علم. كان يوم الخميس اليوم الذي نسرح فيه إلى أم درمان وكُنَّا نعلم سلفاً أين يغني سرور أو كرومة وما نكاد نصل منازلنا حتَّى نستعد للهجرة لمكان الغناء وقد تكون هجرة صحيحة لأنَّنا أحياناً نسير من أبوروف إلى أطراف الموردة ونعود ليلاً وفي ساعات متأخرة من الليل وعلى أرجلنا نقطع تلك المسافة ونحن في نشوة الطرب.

وفي المدرسة كان التلاميذ يهتمون بالأغاني ولكل منَّا نوتة يدوِّن فيها أحدث ما ظهر من قصائد الشعراء وكانت كلها قصائد تستحق التدوين ففيها أصالة وفيها إحساس وفيها فضيلة وفيها رجولة، فأغاني الحقيقة مازال الناس يستطيعون سماعها واستطاعت هي أن تبقى مع الزمن رغم أنَّ الأغاني الحديثة كثيرة ومتنوعة ولكنَّها كانت أخذت منها وأصلب جزلة المعاني غزيرة المادة فيآضة الشعور.

نعم أغاني الحقيبة هي الأغاني التي كنّا نعيشها ونستمع بها ولا يفوتنا منها مقطع أو بيت.

وعندما خرجنا إلى الحياة العامة تطوّر ذوقنا وأخذنا نسمع الأغاني المصرية ونقتني الأسطوانات العديدة لعبد الوهاب وأم كلثوم وشعرنا بالفارق بين أغانيها والأغاني العربية عموماً، ومصر كان كلّ ما فيها يطفئ على ما عندنا، فالصحافة والسياسة والأدب والفن وكل شيء في مصر انسحب تلقائياً إلى السودان بل وإلى البلاد العربية جميعاً. وهذا ما جعل أثر مصر ظاهراً على كل البلاد العربية والمسلمة.

اتّجهنا نحو الفن المصري تغذينا الصحافة المصرية وأخيراً السينما المصرية وهذا الإحساس بالفارق بين ما عندنا وما نسمعه جعلنا نفكر في كيف نطوّر الأغاني السودانية.

لقد كانت أغانينا مرتبطة بالرقص ولذلك فهي تلحن على نوعين أحدهما يناسب الرقص الثقيل والآخر الرقص الخفيف ولا فكاك من هذين اللحنين وقال العارفون إنّ الأغاني السودانية ينقصها التنوع وحسبنا أنّ ذلك ربما عولج عن طريق الشعراء فعملنا على أنّ يكون التنوع في القصيدة نفسها في بحورها وقوافيها فلعل ذلك يسوق الملحن إلى التنوع أيضاً في الموسيقى ولكن الملحن هو المغني والمغني جاهل لا يعرف من الفن إلا الإحساس به والحنجرة التي يعجب بها السامعون. وثقافتنا في الفن ضعيفة بل معدومة وفاقد الشيء لا يعطيه فكيف نطوّر الأغاني واللحن ونحن لا نعرف الألحان ولا الموسيقى.

كان المرحوم البكباشي محمد تميم فتّان حاذق عشق الموسيقى وعاش معها ولها تجده في كل وقت ممسكاً بعوده ويناجيه ولكّنه كان متأثراً بالأغاني المصرية وكان لا يعالج الأغاني السودانية إلّا نادراً.

اتصلنا به وقامت بيننا صداقة وأخذنا نزوره ويزورنا وهو نادراً ما يخرج من داره ولكّنه إذا عرف أنّ أسطوانة جديدة عندك لا يتردّد في أن يزورك وأن ينتظرك بالمنزل إن لم يجدك.

كنت في مصر واتصلت برجل فاضل يمتّ إلى الأستاذ محمد أمين حسين بصلة القرابة وتحدّثت معه في موضوع الأغاني السودانية وكيف يمكن تطويرها أو تلقيحها حتّى تكون عربية ويتذوقها العربي أينما كان لأنّ أغانيها غنية بالمعاني ولكّنها فقيرة

في اللحن وكان هذا الرجل الفاضل له صلة بمعهد فؤاد الأول للموسيقى الشرقية الذي أصبح فيما بعد معهد الموسيقى الشرقي. واتفقنا على أن نكتب قصيدة سودانية على النوتة كما هي لا نغير فيها ولا نبذل ثم نرسلها إلى المعهد وهم بعد سماعها يحاولون تعديلها بما لا يخرج بها عن الذوق السوداني وفي نفس الوقت يقربها من اللحن العربي. وحسبنا أننا بذلك نستطيع أن نطور أغانينا وأن نجعلها تخرج خارج حدود سوداننا الصغير إلى العالم العربي الواسع وتكون رسولاً للسودان العربي في البلاد العربية.. وفعلنا اخترنا القصيدة ومطلعها: يا غزال الروض فيك

يا غزال الروض فيك تفدك الروح أظهر لا تبالي

وكتبها المرحوم البكباشي تميم بالنوتة وأرسلناها إلى المعهد وهناك حلوا رموزها ثم أدخلوا فيها ما استطاعوا إدخاله وزدّت إلينا ولكن كان التغيير طفيفاً جداً وقال المسؤولون في المعهد إنهم لم يغيروا فيها كثيراً خوفاً من أن تخرج على الذوق السوداني وما أدخلوه فيها ليس له أثر يذكر ثم قالوا إن الوسيلة الوحيدة لتطوير أغاني السودان هي إرسال شاب متعلم له هوايته وله علم بالأغاني يتعلم في المعهد ثم يحاول تلقيح الأغاني السودانية وتقريبها إلى الذوق العربي. واشتروا أن يكون تعليمه ثانوياً على الأقل لأنه بذلك يستطيع أن يقرأ كتب الموسيقى في الشرق والغرب ويفهمها.

وهنا يقف حمار الشيخ!! فمَن من الشباب المتعلم في ذلك الوقت أي في الثلاثينيات يرغب في أن يتعلم الموسيقى وعجزنا تماماً عن إيجاد الشبان أو الشاب الذي يمكن أن يُستخدم في هذا الصدد.

وظهر إسماعيل عبد المعين فيه رغبة وعنده علم أو إلمام بالموسيقى ولكنه لم ينل من العلم شيئاً ولكنه كان هاوياً وكان يجيد إلى حد ما العزف على العود فأخذنا نشجعه إلى أن يرغب في الهجرة إلى مصر ثم لحق به بعد سنوات سيد خليفة ولكن كلا الشابين لم يخدم الغناء السوداني إماً عن عجز أو عن ضعف وسبب الضعف هو أنه بدلاً من أن يرتفع بالجمهور نزل هو إلى مستوى الجمهور وهذه وضحت في سيد خليفة أكثر من إسماعيل عبد المعين. كنّا ننتظر من هؤلاء أن يهضموا الموسيقى

الشرقية والغربية ثم يؤدوها موسيقى سودانية حيه تستطيع أن تركز عملها في عالم من الموسيقى الغربية وأن يطوعها للذوق الشرقي أو يدخل منها ما يستسيغه الشرقي وفي نفس الوقت لا يفسد عليه موسيقاه بل يزيد بها حلاوة ويكسيها ذبوعاً وانتشاراً في العالم.

وإسماعيل درس الموسيقى وتذوّقها ولكنه بعد عن الذوق السوداني لسببين أولهما قلة محصوله من العلم الذي يكيف به الأوضاع التي هو فيها وثانياً لأنه يصّر على أن يؤدي ألحانه هو بنفسه ولو أن صوته لا يساعده. وما زالت الأغاني السودانية لا شرقية ولا غربية وإنما هي نسيج قائم بذاته يميل أحياناً إلى الموسيقى الحبشية وأحياناً إلى الهندية.

ومما لا شك فيه أن الموسيقى تطوّرت كثيراً وبقدر ما تطوّرت الموسيقى هوى مستوى الشعر والشعراء والمغنيين واستمعنا إلى أصوات لا هي للنساء تنسب ولا هي بالرجال تليق مائعة متكسرة. وشهدنا الحركات المخنثة التي تأنف المرأة من أن تأتيها وحسب هؤلاء المغنون أن الحسن في الخطأ فسمع المغني وأنت لا شك في أنك تسمع امرأة كبيرة لا تحسن نطق الكلمات الحديثة أو إذا نطقتها فكأنها تشبه بالرجال ولذلك تنفر منها.

وكان المغني في عهدنا الماضي مثال الفتوة والرجولة والمرح إذا التمسته في الشدائد وجدته وأن تلتسمه في لحظات المرح والسرور وجدته عف اللسان نظيف الثياب عالي الهمة لا يتناول من غنائه أجراً ولا طعاماً أو شرباً بل يجلس أمام «البنات» كأنه يجلس في حضرة ملك ولذلك سمّاهن « ستاتنا العزاز».

ومن أظرف ما سمعت أن فتاة سئلت عمّا في التلفزيون فقالت لا شيء غير رجل يغني كالمرأة وامرأة تغني كالرجل. وهذا ما جعل الحقبة دائماً في الصدارة أشعارها باقية على مرّ الأيام بينما تموت القصائد الحديثة في مهدها.

ومحاولة تطوير الأغاني السودانية وتهذيبها لم تقف عند هذا ولكننا أخذنا نضع القصائد ذات الاتجاه الخاص وساهم كثير من الشعراء في تزويد المغنيين بقصائد جيدة لحن بعضها وذاع وحال دون ذبوع بعضها عجز الملحنين فكم من قصيدة جيدة قال لك المغني وهو الملحن في نفس الوقت قال لك إنها لا يمكن تلحينها! ونعرف نحن السبب لأنه لا يستطيع أن يلحن إلا على نوعين إما ثقيل أو خفيف وإذا خرجت

القصيدة عن ذلك أو عجز هو عن تطويعها لهدّين اللحنين قال لك إنّها لا يمكن تلحينها.

وكانت القصائد الموجهة هذه ترمي إلى غايتين أولاهما محاولة الخروج من قيد اللحن المحلي المعروف والثانية إدخال معان جديدة عن الوصف والغزل وتهدف إلى أفاق بعيدة أدبية وسياسية ووطنية. ولا أريد هنا أن أعدّد بعض هذه القصائد لأنّ أصحابها قد لا يريدون الاعتراف بها أو إعلان صلتهم بها حتّى لا يقال عنهم إنّهم كانوا «صياغاً» على حد الوصف السابق للمغنين وعشّاق الطرب ورواد الموسيقى.

هذا مجال من المجالات التي كنّا نعمل فيها فما كانت السياسة وحدها أو الشئون الوطنية وحدها هي التي تستحوذ على جهدنا وتفكيرنا ولكنّا نعلم أنّ النهضة يجب أن تشمل جميع الاتجاهات فالرياضة والموسيقى يجب أن تنال منّا نصيبها والاهتمام بها مثل أنواع الحياة الأخرى.

الرياضة

وعلى ذكر الرياضة فلا بد من الحديث عنها في عهدنا الأول ومجهودنا في تشجيعها ومحاولة تطويرها والأساليب المختلفة التي اختطها شباب عهدنا إلى خلق جيل رياضي ونهضة رياضية.

وكانت الرياضة هي وحدها هي الهدف ولكن كل نوع من أنواع النشاط وراءه غاية سياسية أو وطنية.

ولا أحد ينسى ذلك اليوم الذي سار فيه نادي الهلال في مسيرته التي تعود أنّ يقوم بها كل يوم جمعة تقدّمه موسيقاه ويسير الشباب الرياضي في خطوة عسكرية منتظمة. سار في مسيرته كعادته ولكنّه عندما جاء بالقرب من منزل المرحوم عبيد حاج الأمين وكان قد توفي حديثاً وقف ذلك الطابور وحياً ذكرى الشهيد وهو يعلم أنّ ذلك يغضب الحاكمين أشد الغضب.

لم تكن الرياضة وحدها هي الهدف ولكن كانت الرياضة وسيلة من وسائل التجمّع وميداناً لبثّ الروح وإذكاء الشعور وتبصير الشباب بالمهمة الكبرى والواجب الأول وهو

حرية هذا الوطن وإعداد الأمة لبوم نبذل فيه النفوس قرباناً لهذه الحرية.
 ما كنت رياضياً ولكن لم يمنع اهتمامي بالرياضة وتشجيعي لها لأنني أعرف ما وراءها
 وما كان يدور في بعض رؤوس رعاتها وحماتها.
 لست حسن الصلة بنادي الهلال والمريخ ولعلي أول من طبع للهلال ظروفاً وجوابات
 في مصر عليها الهلال وأهديتها لهم وكذلك نادي المريخ فاللائحة النحاسية التي كانت على
 باب الدار إلى وقت قريب هي هديتي لهذا النادي وكان ذلك على ما أذكر سنة 1935.
 وكان الكاتب الرياضي الوحيد آنذاك هو «سيد» أعني سيد عبد الله المغربي زميلي
 في مكتب المعاشات. كان يعرف اهتمامي بالرياضة ومتابعتي لأخبارها وأمالي في أن
 تتجه تلك الحركة إلى بناء الخلق والأجسام والعقول وأن يتسع مجال الرياضة نفسها لا أن
 ينحصر في كرة القدم وأن تتوثق عرى الصداقة بين هذه الفرق وترتفع بمستوى الشعب
 الرياضي وترتقي فيه الخلق الرياضي.

كان سيد يعرف في هذا الاهتمام ولذلك أفسح لي المجال في بابه الذي اختص به
 من جريدة السودان ووجه إلي أسئلة تحت عنوان حديث مع الرياضي الملثم استطعت
 أن أدلي فيه ببعض الآراء والتوجيهات التي أحرص عليها ويحرص عليها الكثيرون من
 المخلصين الذين يعملون على تهيئة العقول وتعبئة الشعور العام.
 كانت الأسئلة متفقاً عليها حتى تمس المواضيع التي نريد الإفصاح والتوجيه إليها
 فمثلاً سألني يوم 1937/9/7م على صفحات جريدة السودان أسئلة عدة أشير إلى بعضها
 لعلها توضح الغاية التي كنّا نرمي إلى الوصول إليها عن طريق الرياضة لا نريدها مجرد
 رياضة أبدأ.

كان السؤال الأول لماذا تهتم بأخبار الرياضة الآن وقد تركتها منذ عهد الدراسة؟
 فأجبتة ولم لا أهتم للرياضة وبها والرياضة حركة الشباب في كل زمان ومكان وهل
 الشباب إلا قلب الأمة النابض وجندها الباسل الذي يهب الحياة رخيصة في سبيل الوطن
 - وهل العقل السليم إلا في الجسم السليم.

لا حياة لأمة من غير عيش ولكن سوء الطالع الذي أصبح وفقاً على هذه الأمة حرمة
 من هذه النعمة ولكنني قوى الأمل في أن نعوض ما فقدناه عن طريق الرياضة ومازلت
 قوى الأمل في هذه الأندية الرياضية أن تخلق لنا الجيش الوطني. ولست أذهب مع
 الخيال في هذا الأمل فإذا علمنا أن بالعاصمة وحدها ما يربو على المائة ناد أو فرقة ولو

فرضنا إنَّ كل نادٍ مكون من تيم واحد وهو اثنان وعشرون شاباً كان عندنا 2200 شاب قوبي العضلات سليمي الجسم فإذا وجدت هذه الفرق من يخلق منها وحدة متحدة قوية تقوم برحلات خلوية تتدرَّب فيها وتخرج إلى هذه الرحلات في زي رياضي خاص تتقدَّمها موسيقاها وتتدرَّب على الرياضة بأنواعها المختلفة من رماية وعدو ومصارعة وموانع وملاكمة ومصارعة يابانية وقبل كل ذلك سادتها الروح الرياضية روح المحبة والتعاون والنظام والطاعة وحذا حذوها شباب المديریات الأخرى لا شكَّ في أنَّك ستوافقني على اهتمامي وأملِي في الرياضة.

ووجَّه إليَّ سؤالاً آخر عن الاتحاد الرياضي وكان هذا الاتحاد يستغل هذه الأندية الرياضية استغلالاً فاحشاً ويتسلَّط عليها تسلط الاستعمار ويرأسه الإنجليز كأنَّه أحد مكاتب الحكومة وكنت حانقاً على هذا الوضع ولكن كنَّا كلنَّا آنذاك في أفواهنا ماء.

كان السؤال ما هي نظرتك للاتحاد الرياضي القائم؟ وكان الرد لا أنكر أنَّ للاتحاد محاسن ولكن لا أظنُّ إنَّ في جريدتك متسعاً لذكر كل أو بعض مساوئ هذا الاتحاد.

الاتحاد يقوم على أكتاف الأندية الرياضية الوطنية فهل لهذه الأندية الصدارة فيه؟ إنَّ الاتحاد عبارة عن مكتب حكومي بكلِّ ما في مكاتب الحكومة من السيطرة والاحتكار والرياسة والسلطة. فهؤلاء الأعضاء الذين يعينون وهم من رجال الإدارة من مدير المديرية إلى مفتشي المراكز الثلاثة إلى أفراد الجاليات الأجنبية مع أنَّ الجاليات ليس لها فريق واحد يعرفه الجمهور أقول هذه الشخصيات المعينة رسمياً وإلى جانبها ممثلو الجاليات الأجنبية تُكوِّن أغلبية عالية ولا يكون حال الوطنيين معهم إلَّا حال الأيتام في مأدبة اللنام. وهذه المباريات النهائية المحتكرة للأجانب وتوزيع الإيراد بتلك الطريقة المجحفة التي تجعل أصحاب الحق الشرعي أيَّ (الأندية) لا يحصلون إلَّا على القدر اليسير.

ولجنة الحكام التي يرأسها شخص لا يعترف له الرياضيون ولا جمهور الرياضة بأنَّه يصلح لأنَّ يكون مجرَّد حكم فضلاً عن أنَّ يكون رئيساً للحكام وفي الوطنيين من هو أكفأ منه.

هذه الأسباب وغيرها هي التي تجعلني أصف الاتحاد بأنَّه مكتب حكومي ومكاتب الحكومة لا أثر فيها للمساواة أو الإخاء التي هي أساس الرياضة.

ثمَّ ماذا فعل الاتحاد أو يفعل للرياضيين الذين يصابون في ميدان الرياضة فهل يعينهم

بشيء؟

وهل يتولَّى دفع نفقات علاجهم في المستشفيات وماذا فعل الاتحاد إزاء المرحوم يوسف رجب الذي مات في ميدان الرياضة فهل خُلد ذكره أو رضي بقبول الكأس الذي قُدِّمَ لتخليد ذكره بينما يقبل كأساً يحمل اسم المستر همفري الذي لا يمكن أن تقاس خدماته للرياضة بخدمات المرحوم يوسف رجب. كل هذه يجب أن يفكر فيها الرياضيون وينصفوا أنفسهم من الاتحاد إن لم ينصفهم الاتحاد.

تلك صورة من الاهتمام بمرفق من مرافق الحياة كان له شأن وكان الاهتمام به وتقويته للروح الوطني العام وجزء من التعبئة العامة للشعور السوداني وإيقاظ الحماس الوطني ولا بد لمن يريد أن يعي شعور أمة وأن يهيئ لنهضة أن يطرق كل باب وأن يجمع في يده كل الخيوط وأن تكون الفئات جميعها له بها صلة أو في نفوسها له اهتمام أو احترام. ويخطي الذين يظنون أن ما وصلنا إليه جاء اعتباطاً أو مفاجأة أو يدعون أن النهضة التي قامت كان لزيد أو عبید فضل فيها ولكنها نتيجة جهاد متواصل ولعدد كبير وكبير جداً من العاملين الصامتين كل في ميدانه يعمل ولا ينتظر شكراً ولا صيتاً.

الهدسة النهائية

من الأعمال التي أعتزُّ وأفخر باشتراكها فيها والتي أعطيتها جزءاً كبيراً من نشاطي واهتمامي والتي أخذت منها شخصياً فائدة لا تُقدَّر بثمن، هذه المؤسسة التعليمية الوطنية الأولى والتي انعقد عزم السودان كله على تأسيسها يوم شعر السودانيون بأنَّ التبشير يريد أن يملئ عليهم إرادته وأنَّ ينتزع دينهم وعقائدهم ثمناً للعلم الذي يقدمه لأبنائهم.

عرفت في هذه المؤسسة مع صغر سني عند التحاقني بها رجالاً هم خيرة رجال البلد وأعيانها الذين حنكتهم التجارب وصهرتهم الأحداث ما كنت أحلم أن أزامنهم أو أرتبط بهم إلا عن طريق هذا العمل الوطني المجيد. عرفت فيمن عرفت في هذه المؤسسة الرجل الذي لا يُعوَّض جناب البكباشي

محمد نور، ذلك الرجل الذي كان مثلاً أعلى للإخلاص والأمانة والشعور بالواجب، الرجل الذي كانت المدرسة الأهلية أقرب إلى قلبه من أبنائه وكان اهتمامه بها قد فاق اهتمامه بأيّ أمر آخر في الوجود. نشأت على يديه وتوجيهه ونماها بكياسته وإخلاصه وجمع حولها قلوب الرجال بحنكته. كان يفعل كل ذلك في صمت ودون أن يذكر نفسه أو ينتظر من أحد شكرياً أو ثناء.

وعرفت أيضاً أعيان أم درمان الذين يفيضون غيرة ووطنية، الرجال الذين إذا علموا قالوا وإذا قالوا فعلوا ما قعدت بهم قلة محصلوهم العلمي عن تأدية واجبهم نحو أمتهم بل كانوا دائماً في المقدمة ساندوا الأعمال الوطنية بمالهم وجاههم وحرصوا على أن يسهموا في نهضة البلاد التعليمية.

تخرّجت من كلية غردون في أول 1929م والتحقت بلجنة المدرسة الأهلية سنة 1930م والتحقت بلجنة المدرسة الأهلية 1930م عضواً فمساعداً للسكرتير فسكرتيراً مكثت أعمل فيها إلى 1945م يوم غادرت السودان إلى الجامعة العربية. التحقت بالمدرسة الأهلية وهي مدرسة وسطى واحدة ذات أربعة فصول وفارقتها وهي ثلاث مدارس وسطى كاملة وبدء في إنشاء الثانوي.

ولست أنسى ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى المدرسة لأودع المرحوم البكباشي نور وأنا في طريقي إلى القطار ذاهباً إلى جامعة الدول العربية. فقد كانت لحظات هزت مشاعري ورضيت بها حمداً وثناءً وتقديراً لكلّ ما قمت به من عمل في تلك المؤسسة التعليمية.

لقد تمثى لي الرجل الكبير كل خير وانحدرت من عيني الرجل العظيم دمعات شعرت بأنّها دموع التقدير والاعتراف بجهد المتواضع إلى ما كان يقوم به وأنها أيضاً فيض من حب وحنان هذا الأب والرجل العامل الذي يحب العاملين.

وكنا كلما فتحنا فصلاً جديداً بداية لمدرسة جديدة يصادف عقبات وتهديدات من جانب مصلحة المعارف التي كانت تحرص على عدم التوسع استناداً على عدم وجود المدرسين المؤهلين. وكنا نعمل بوحى الحاجة الملحة للتعليم فقد يحدث أن تكون لجنة القبول للمدرسة الوسطى فيتقدّم 250 طالباً المفروض أن يقبل منهم 40 طالباً ونظر بالباقي. كنّا نحس بمسؤوليتنا نحو هذا العدد الكبير من الأطفال الذين أغلقت في وجوههم أبواب المدارس الحكومية وهم أهل للتعليم وكان البكباشي نور

رئيس لجنة المدرسة فقد كان الرئيس الفخري هو السيد إسماعيل الأزهرى مفتي الديار السودانية. كان البكباشي نور جريئاً لا يتردد في أن يقول لي وأنا سكرتير لجنة القبول أن أقبل فضلاً آخر ما دامت عندنا غرفة صالحة ونقبل الفصل الجديد دون إذن المعارف ونترك المعارف أمام الأمر الواقع فقد قبلنا التلاميذ ولها إن شاءت أن تطردهم.

وقد حدث عندما فكرنا في إنشاء المدرسة الثانية أن قبلنا فصلين دون إذن المعارف وفي اليوم الثاني جاء إلى المدرسة المستر ولجز وكان مديراً للمعارف وأبدى غضبه وثورته لتصرفنا فما كان من البكباشي نور إلا أن قال له نحن قبلنا التلاميذ فأذهب أنت مدير المعارف وأطردهم من الفصل أمّا نحن فلن نرجع عن فعلتنا وتراجع المستر ولجز وقال إنه إذا حدث أن فعلتم هذه الفعلة مرة أخرى فلن يتردد في سحب رخصة المدرسة.

ومرّت الأعوام وأصبحت المدرسة مدرستين وبدأنا نحس بالحاجة إلى فتح مدرسة ثالثة وفعلاً سلكنا نفس الطريق وفتحنا المدرسة دون إذن المعارف ولسان حالنا يقول لتفعل القوة بنا ما تشاء. وكان وراء هذا العمل كله ذلك الرجل المخلص الجريء المرحوم البكباشي محمد نور.

كيف قامت المدرسة الأهلية

قصّ عليّ جناب البكباشي نور كيف قامت المدرسة الأهلية فالمعروف أن المدرسة قامت عقب إصرار الإرسالية الأمريكية تعليم أولاد المسلمين الديانة المسيحية وطالبت أولياء أمورهم بكتابة إقرار بموافقتهم على تعليم أبنائهم المسيحية أو سحبهم من المدرسة فتحتمس الناس وانشأوا المدرسة الأهلية. هذا هو التاريخ المعروف ولكن الشيء الذي لم يعرف هو المعارك الحقيقية التي دارت حتّى ظهرت هذه المؤسسة إلى الحياة.

قال لي البكباشي نور وقد كان وكيلاً لمفتش مركز أم درمان إنه كان في إجازة

يوم ثارت ثورة الأهالي على مطلب الإرسالية وفكروا في إنشاء مدرسة أهلية وكان هو يبني منزله المعروف في أبي روف وجاءه جماعة من المواطنين يستشيرونه في حركتهم ويطلبون مساعدته أو تأييده ولكنّه حدثهم حديثاً عائماً خرجوا منه بأنّه ليس متحمساً للموضوع ولم يكتموا هذا الشعور بل ذهبوا إلى السيد ثابت نائب المأمور وقصوا عليه ما دار ولاموا له البكباشي وموقفه منهم.

ولما جاء السيد ثابت وروى للبكباشي ما حدث أيّد البكباشي قولهم وقال إنّهُ وقف منهم هذا الموقف لأنّهم ليسوا بالنوع الذي يقف مع ما يطلب وإن الحكومة ستردهم ويقبلون ردّها لذلك لم يشأ أن يتورط معهم ولكنّه سيعمل بوسائله.

وفعلاً قدّم هذا نفر طلباً للحكومة يطلبون فيه التصديق لهم بفتح مدرسة لتعليم أبناء المسلمين الذين لا يريدون أن يتعلّموا المسيحية في مدرسة الأمريكيان وردّت الحكومة معذرة بأنّه لا يوجد مدرسون وأنّ الحكومة نفسها عاجزة عن فتح المدارس لقلّة المدرسين وسكت نفر على هذا الرد وتوقع الناس للفكرة الموت النهائي.

وعاد البكباشي نور إلى العمل ودعا إليه كل من كان يعلم إنّهُ يحمل الأخبار إلى المفتش يومياً وطلب من كل منهم أن يروي للمفتش أنّ في البلد ثورة غضب لأنّ الحكومة لم توافق على قيام مدرسة أهلية. وعندما تأكد من أنّ كل مخبر أدّى الرسالة تماماً « طلب مكتب » على لغة العسكريين وذهب إلى المفتش ليقول له إنّهُ كوكيل له ومسؤول عن الأمن في البلد في ثورة لأنّ الحكومة حالت دون الأهالي وإنشاء مدرسة أهلية وكأنّما تريد الحكومة أن تقول يجب أن ترسلوا أولادكم إلى مدارس المبشرين ليعلموهم المسيحية واستمع المفتش إلى الكلام في اهتمام بالغ وقال له إنّهُ أيضاً لديه معلومات تقول هذا القول ولكن ما العمل؟ فقال له البكباشي يجب أن تتصل بالسلطات العليا للاهتمام بالأمر وإلا أفلت متناً حبل الأمن وأقرّ المفتش الرأي ووعدّه خيراً.

وفي اليوم الثاني طلب المفتش من جناب البكباشي أن يختار له شخصين أو ثلاثة من عقلاء البلد ليجتمعوا مع السكرتير الإداري والسكرتير القضائي ومدير الخرطوم لبحث هذا الموضوع.

قال البكباشي هداني التفكير إلى السيدين إسماعيل الأزهري مفتي السودان والشيخ أبو القاسم هاشم شيخ العلماء وكان يعلم أنّ بينهما شيئاً من التنافس أو

الغيرة ولا يمكن أن يتفقا على رأي وهذه التفكير أيضاً أن الحديث سيدور حول اقتناعهم بتأجيل فكرة المدرسة على الأقل لصعوبة الحصول على المدرسين فإذا وافق أحدهما لا يوافق الآخر.

وتمّ الاجتماع وحضره المفتش والبكاشي نور مع السكرتير الإداري والسكرتير القضائي ومدير الخرطوم ولم يخرج الحديث عن محاولتهم إقناع المجتمعين بعدم جدوى الطلب ما دام العنصر الأساسي وهو المدرسون غير متوفر.

واقنع أحد الشيخين وقال إنّه المخرج من هذا المأزق هو أن ينصح للناس بعدم إرسال أولادهم إلى مدارس المبشرين وإن علماً يسلبهم دينهم لا خير فيه ولا جدوى منه.

ونار الشيخ الآخر وقال إنّه لا يلعب بدينه وأنّ الذين أرسلوا أولادهم لمدارس المبشرين ليس لهم عقول تفهم حتّى تستمع إلى النصح وأنّه لا يوافق على هذا الرأي وقام على الفور يريد الخروج ويردد في ثورة إنّه لا يلعب بدينه.

وتوتر الجو ودفع المفتش البكاشي نور ليلحق بالشيخ ويرده للاجتماع حتّى لا يفشل المؤتمر وحاول البكاشي وأعاد الشيخ وتحدّث الرسميون حديثاً هادئاً ووعدوا أن يدرسوا الأمر ويرسلوا لهم بالرأي الأخير.

ولم تمر أيام ثلاثة حتّى جاء خبر إلى المفتش يقولون له فيه لا مانع من أن يتقدّم الأهالي بطلب لإنشاء المدرسة وأنّ التصديق سيمنح لهم حالاً وتمّ بالفعل تقديم طلب جديد ومن أشخاص غير الأوائل وتمّ التصديق بإنشاء المدرسة.

نشبت أزمة ثانية كان لحكمة الرجل أثر كبير في حلها والأزمة يوم اختارت اللجنة مكان المدرسة الأهلية الحالي لتنشأ فيه المدرسة وأخذت الحكومة تماطل وتعرض عليهم أمكنة أخرى غير مناسبة بل لا يمكن أن يقوم عليها بناء لسوءها وكثرة ما فيها من حفرة.

وفكر البكاشي ثمّ أهدى إلى رجل من الأثرياء المعروفين بالحرص على المال وكانت عنده قطعة أرض كبيرة في مكان يصلح لمدرسة وتفاهم معه على أن يكتب خطاباً يقول فيه أنّه وهب هذه الأرض لتقام عليها المدرسة بعد أن تأكد من البكاشي إنّه هذا مجرد كلام ولن يكون حقيقة وفعلاً استكتبه الهبة - وقد رأيت هذه الورقة فعلاً وبمناسبتها قصّ عليّ البكاشي قصتها.

وحمل الورقة وذهب إلى المفتش يقول له إنَّ البلد ثائرة وأنَّ الأماكن التي تعرضها الحكومة لنقام عليها المدرسة غير صالحة وأنَّهم صمَّموا على رفض أيِّ أرض من الحكومة ولتعلم إلى أيِّ حد وصل حماس الأهالي، أسالك أولاً من أكثر الناس حرصاً على المال كما يعرف من رجال أم درمان فقال المفتش أعتقد أنَّه فلان فقال البكباشي ألا يذهلك أنَّ تعلم أنَّ الحماس بلغ بهذا الفلان أنَّ يتبرع بقطعة أرض مساحتها كذا ألف متر لتقوم عليها المدرسة وتستغني البلد عن أرض الحكومة؟ فاستنكر المفتش أنَّ يصل الحماس هذا الحد فقَدَّم له البكباشي الورقة.

وفي اليوم الثاني أيضاً جاء تليفون من الخرطوم إلى المفتش أنَّ يعطي لجنة المدرسة أيَّ قطعة يختارونها في أم درمان.

فتحت المدرسة في منزل تبرع به الرجل العظيم أحمد حسن عبد المنعم وهذا أيضاً رجل له حماس الشباب وثورتهم وكم سمعت منه كلمات نارية يحثُّ فيها زملاءه التجار إلى البذل لهذه المؤسسة حتَّى تصبح جامعة شامخة.

افتتحت المدرسة هناك ووضع الحجر الأساسي للبناء الجديد في سنة 1927م ولمَّا التحقت بها عضواً سنة 1930م كانت مدرسة وسطى كاملة ذات أربع فصول وعُشت معها الخمسة عشر عاماً الأخرى فزاملت ترابها وغرفها وموظفيها والمدرسين والنظار والتلاميذ والخريجين منها أيضاً. لم يكن عملي فيها محدداً فقد كنت أعمل هذه الفترة سكرتيراً ولكن عمل السكرتير يتناول الإشراف على المدرسة من حيث مبانيها ونظافتها وصيانتها كما تشمل اختيار المدرسين وتعيينهم وإعداد الأدوات المدرسية كما تشمل قبول الطلبة الجدد والجري وراء معرفة مصير الذين تخرَّجوا منهم وكم قبل في الثانوي وكم منهم يبحث عن عمل وكيف تعينه على إيجاد العمل في دواوين الحكومة.

وعندما يتخرَّج التلاميذ لا تنقطع هذه الصلة فهناك جمعية خريجي المدرسة الأهلية التي أُرِدها لتكون حلقة اتصال بين المدرسة والخريجين وحتَّى تخلق فيهم نحوها روح البنوة وعطفها نحو هذا النبع الوطني الذي أخذ بأيديهم وقد ضاقت بهم مدارس الحكومة. هذا إلى جانب التفكير والعمل على إيجاد المال فالحفلات التمثيلية كانت مصدراً من مصادر التمويل فكم أقمنا الحفلات ومثلنا الروايات لا في العاصمة وحدها ولكن في الأقاليم أيضاً.

وفي هذه الحفلات ما كنَّا ننسى الواجب الوطني فالروايات نفسها يجب أن تكون

موجهة وذات مغزى والأغاني والمنولوجات التي تلقى بين الفترات لا تخلوا أيضاً من المعاني الظاهرة والخفية التي ترمي إلى خلق الوعي الوطني وتقويته وتوجيهه. وقد حدث أن مثلنا على مسرح نادي الخريجين بأمر درمان رواية لصالح المدرسة ونظم السيد يوسف مصطفى التني في الفؤاد ترعاك.. غناه كل من حسن التني وفوزي حسون على المسرح وكان نشيداً قوياً يفيض وطنية هزّ مشاعر المتفرجين فعلاً صياحهم وتصفيقهم.

وما كاد يصبح الصباح حتّى أسرع المخبرون إلى المفتش يروون له ما حدث في صورة مشوهة ومبالغة مغرضة.

وفي الجانب الآخر نهض المرحوم البكباشي نور ليقوم بواجب آخر يعزز ما قمنا به في الليل. مرّ عليّ صباحاً بالمنزل ليعرف الحقيقة واستمع إلى القصيدة ثمّ طلب منّي أكتب له المقطع الذي يقول:

**بديني بعزّز وأبشّر
ما بخش مدرسة المبشّر
وعندي معهد وطني العزيز
ما بهاب الموت المكشّر**

ثمّ طاف على من عندهم بنات في مدارس الإرسالية في أبي روف والموردة وقرأ عليهم ما قاله الشباب وعاب عليهم إرسال بناتهم إلى مدارس الإرساليات وبعد أن انتهى من طوافه ذهب إلى مكتبه. وما كاد أن يستقر فيه حتّى أرسل له الميجر برامبل يسأله عمّا حدث ليلة أمس فقال له لم يحدث شيء سوى أنّك لم تحضر للحفل وقد دعيت، فاعتذر بأنّه كان معزوماً ونسي أن يحمل التذكرة ولم ير أن يحضر متأخراً وقال للبكباشي سمعت أنّكم «عاوزين تعلموا دشمان مع المبشرين» فقال له البكباشي من أين لك هذا؟ إذا سألتني كنت عرفت الحقيقة. إنّ السكرتير أطلعني على كل شيء وما قال الشبان ليلة أمس هو هذا وأخرج له الورقة التي بها المقطع وقال للمفتش إنهم قالوا «مش راح نخش مدرسة المبشرين وعندنا المدرسة بتاعتنا» والأ تذكّر أنت إنّ هذه المدرسة قامت عشان أولاد المسلمين ما يروحوش مدارس

الإرسالية؟ فاعتذر المفتش وقال إنه وصلته الأخبار خطأ وانتهى الأمر بكل بساطة وفي سلام.

ونمت المدرسة وأصبحت أمًا للمدارس الأهلية وعندما جاء المؤتمر لينشيء المدارس الوطنية، كانت المدرسة الأهلية هي التي تزود تلك المدارس بالنظار والمدرسين أحياناً وكانت سنداً قوياً للمؤتمر في نشر التعليم الأهلي.

لم تكن مهمة رجال المدرسة القائمين على أمرها سهلة ولا هينة فلاستعمار الذي من ديدنه أن يعطل كل تقدّم كان حرصه الأول على تعطيل التعليم وتضييق نطاقه وكان هؤلاء السادة يعلمون ذلك ولكنهم كانوا أيضاً لما جبلوا عليه من وطنيه صادقة وإخلاص أكيد يحاولون بمختلف الطرق الوصول إلى غاياتهم وتذليل كل صعب يعترض طريقهم وكان كفاحهم في نشر التعليم والأخذ بيد الفقراء من النابهين لا يقل خطورة ولا صعوبة من كفاح السياسيين الذين يعملون في ميادين أخرى هدفها جميعاً النهوض بهذا الوطن الحبيب. ويسعدني أن أذكر في هذه المناسبة المرحومين السيد إسماعيل الأزهرى - الشيخ أحمد حسن عبد المنعم - الشيخ سيد أحمد سوار الذهب - السيد عثمان صالح - الشيخ بابكر الشفيع - الشيخ الأمين عبد الرحمن - الشيخ حسين تربال - الشيخ عمر إسحق - الشيخ حامد محمد علي ومن الأحياء أطال الله في أعمارهم الشيخ محمد الحسن دياب (توفي) - والسيد حسن الطاهر والسيد الدرديري محمد عثمان - والسيد ميرغني حمزة - والسيد عثمان حسن عثمان - والشيخ محمد أحمد البرير وهو أحد أمناء المدرسة.

في سنة 1934م وفي العطلة الصيفية لطلبة كلية غردون فكروا في إنشاء مدرسة ليلية يعمل فيها الكبار ويؤدون بذلك واجباً وطنياً أثناء عطلتهم الصيفية وجاءوا إلى المدرسة الأهلية يطلبون التعاون فأعطيناهم الفصول والنور وفتحت الفصول لتتلقى الطلبة من مختلف الطبقات والأعمار فهذا شيخ في الستين يريد أن يتعلم كيف يقرأ ويكتب وهذا تاجر شعر بحاجة إلى العلم فجاء يطلبه ليلاً ما دامت مطالب الحياة تشغله نهاراً وهذا عامل وهذا صانع كلهم جاءوا إلى المدرسة التي يديرها شباب الكلية مجاناً لتعليمهم. وانتظم الدرس وكنا نمر عليهم ليلاً لنعرف إن كانوا في حاجة إلى أي مساعدة.

ولما انقضت العطلة الصيفية لم يهن علينا أن نقفل أبواب هذه المدرسة الليلية وأن نغلق باب الأمل الذي انفتح أمام هؤلاء المحرومين وعزمنا على أن نتولى أمر المدرسة وتسلمناها فعلاً لنديرها بعدهم.

وكنا نرمي من وراء ذلك إلى غرض بعيد هو أن نربط أسبابنا بأسباب هذا الشعب الذي عمل الاستعمار جاهداً على أن يبعد بينه وبين المتعلمين وظهر الفاصل العميق الذي يفصل بين المتعلمين أو الأفندية وطبقات الشعب الأخرى وانكمش أفراد الشعب وأصبحوا يرون في الأفندية طبقة أرستقراطية تلبس البزنيطة وتلعب التنس وتغشى أنديتها الخاصة ولا صلة بينها وبين هذا الشعب التائه.

شعرنا بأنها الفرصة لنخلق صداقات بين هؤلاء المواطنين وأن نكسب ودهم وعطفهم وثقتهم عن طريق هذه الصلة الكريمة وبما نقدّمه لهم من جهد.

وبدأنا نتوسع في المدرسة واكتملت فصولها إلى أربعة ندرس فيها مبادئ القراءة والكتابة والدين الإسلامي والجغرافيا والتاريخ ومبادئ الصحة ونعين بعض طلبة المعهد بدورس في الرياضة لأنها كانت تنقصهم ولا يدرسونها في المعهد وقد أتم كثير من طلبتنا هذه الدراسة ومنحناهم شهادات وقّع عليها بامضائه ناظر المدرسة الأهلية آنذاك المرحوم الشيخ أحمد العاقب.

واكتسبنا بذلك صداقة الكثيرين من أفراد الشعب واكتسبنا أيضاً ثقّتهم في كل عمل قمنا به بعد ذلك سياسياً كان أو اجتماعياً واستطعنا خلال تلك الدروس أن

نعمق الفهم الوطني وأن نزيل الحجاب الكثيف الذي وضعه الاستعمار بين المتعلمين والشعب فعرف أفراد الشعب أنَّ هذا الأفندي منهم وإليهم وأنه يحبهم ويريد لهم الخير وأكبروا فينا هذا الجهد الذي نبذله لتعليمهم وتنقيفهم والحقيقة أنَّ الدروس لم تكن دروساً في القراءة والكتابة فحسب ولكنها كانت دروساً وطنية ترمي إلى توثيق الصلة بين هذا الشعب وبين المتعلمين من أبنائه.

وما زلت أنا وإخواني العديدين الذين كانوا يعملون في هذا الميدان نعتز بالصدقات التي نشأت بيننا وبين أولئك المواطنين الذين كانوا ينظرون إلينا نظرهم إلى المرشد والمعلم. هؤلاء وأولئك الذين كنّا نمر عليهم في كل شهر مرّة في حوانيتهم نطلب منهم القرش للملجأ كانوا جميعاً عدتنا وسندنا في الأيام التي تلت ذلك والتي بدأنا فيها نعمل في السياسة الوطنية فما أحوجنا إلى حديث أو شرح حتّى نكسب ثقتهم وتأييدهم ولكن الثقة متوفرة والإيمان بإخلاصنا عميقاً فأيدونا عن فهم وإيمان.

ملجأ القرش

من ضمن أوجه النشاط الذي انصرفنا إليه مشروع ملجأ القرش وهو المشروع الذي قام وعاش إلى اليوم وقليل من الناس من يعلم كيف قام. والذي يعرفه الناس إنَّ الفكرة فكرة عبد الفتاح المغربي والحقيقة أنَّ الفكرة اشترك فيها مع عبد الفتاح رمضان عبد الرحمن ويكاد يكون هو الذي قرَّبها إلى التنفيذ ودفع بنا إلى العمل على إنجاحها.

لقد كان عبد الفتاح المغربي ينوب عن الشيخ أحمد عثمان القاضي في تحرير الحضارة فكتب مقالاً قال فيه أنه شاهد في المنصورة ملجأ يضم الإيتام ويقوم على نظام حسن ويعلم الأطفال تعليماً صناعياً وفي اعتقاده أنَّ مثل هذا الملجأ لا يكلف أكثر من مائتي جنيه ووقف عند هذا الحد مجرد إعجاب بما رأى ذكره كخبر في الجريدة.

وجاء رمضان عبد الرحمن وكتب مقالاً عنوانه « ملجأ يتكون من قرش » وعلّق على حديث الأستاذ عبد الفتاح ثمّ اقترح أنَّ يعمل ملجأ كالذي أشار إليه الأستاذ واقترح

أَنْ يجمع من كل فرد قرشاً وهذه القروش ستجمع المائتي جنيه التي أشار إليها الأستاذ عبد الفتاح في مقاله.

واستهوت الفكرة عدداً من الشباب كانوا بالتزام في طريقهم إلى المكاتب من أم درمان. قرأوا المقال وكان اليوم آخر الشهر ونحن على أبواب صرف المرتبات فاستهوتهم الفكرة وقالوا لم لا ننفذها ثُمَّ اتفقوا على أَنْ يجمع كل منهم قرشاً من زملائه في المكتب واقترحت عليهم أَنْ نجتمع في المدرسة الأهلية عصر اليوم لنعرف النتيجة.

كان بغرفة التزام على ما أذكر محمد عبد الرحمن محمد - خضر حمد- إبراهيم يوسف- عبد الرحمن النور- الشريف كرار محمد - يوسف المأمون - عبد الله ميرغني. وفي العصر اجتمع هؤلاء الزملاء وكانت حصيلتهم 111 مائة واحد عشر قرشاً سلموها لي واختاروني أميناً للصندوق ثُمَّ فُكِّرُوا في زيادة عددهم وفي دعوة الأستاذ عبد الفتاح لينضم إليهم وجاء فعلاً عبد الفتاح ثُمَّ أضيف إلى هذا العدد محمد أحمد محبوب -يوسف التني- عثمان شندي- حسن داود وبدأت الحملة.

كانت تطوف هذه المجموعة الأسواق يوم الجمعة وتأخذ قرشاً من كل دكان كانت تنتهز الفرص في المولد النبوي فتجند الطلبة لهذه الحملة وفي الأعياد كذلك وقبل أَنْ يصل ما حصلنا عليه إلى مائة جنيه حدث إضراب الطلبة في كلية غردون ولم نشعر إلاً والإنجليز يطلبون الأستاذ عبد الفتاح وكُنَّا قد اخترناه رئيساً ويقدمون له عدداً من الأسئلة التي توحى بالإتهام بأننا ربما تصرفنا في الأموال التي في أيدينا لمساعدة الطلبة في إضرابهم الشيء الذي لم يحدث ولو أَنَّ هناك وجهاً لهذا الاتهام. وردَّ عبد الفتاح بما كان يعرفه وفي نفس الوقت أرسل مدير الخرطوم سرفيلد هول إلى الأخ محمد عبد الرحمن الذي كان آنذاك موظفاً بالمديرية وسأله عن المشروع والأموال وأين تحفظ وواجهه بتهمة مساعدة الإضراب ثُمَّ أحاله إلى المفتش الذي بعد أَنْ وجه إليه نفس الإتهام طلب منه معرفة أجناس أعضاء اللجنة فما كان منهم إلاً كتبوا جميعاً «سوداني» رغم أنَّ المفتش بصر على محمد عبد الرحمن لمعرفة القبائل.

وأخيراً اتصل المفتش بإدارة البوستة لأنَّ الأموال كانت محفوظة بصندوق البوستة وعلم أنَّ المبلغ لم ينسحب منه شيء ثُمَّ عاد إلى محمد ليسأله من أين تدفعون

المصاريف؟ فقال له ندفعها من جيوبنا ولم يسعهم إلا الصمت بعد أن فشلوا في وجود ثغرة ينفذون منها. وانتهت التهمة بلا شيء. أمّا احتمال الاتهام فقد كان لبعض الأصدقاء جمعية يدفعون فيها كل شهر خمسة وعشرين قرشاً لم تخصص لعمل معين ولكن ليستفاد منها عند الحاجة وفعلاً استفيد بها في مساعدة الطلبة حال اضرائهم وإبعادهم عن الداخليات وهؤلاء الأصدقاء كان معظمهم في لجنة الملجأ.

استمر العمل في جمع المال للملجأ ومرة أخرى يتصل المخبرون بمفتش المركز ويقولون له إنَّ هناك جماعة تجمع مالا وتتصرف فيه حسب هواها وفاجأنا المفتش وهو الميجر برامبل وطلب منا أن نحضر إلى مكتبه ليلاً ومعنا جميع الدفاتر وفعلاً ذهبنا إليه وقام بدور المفتش الحازم ولكنّه لم يجد شيئاً نلام عليه وخرجنا وهو راض عنّا بل اقترح علينا أن ننتفع ببيت الأمانة الذي أصبح داراً للرياضة لصالح المشروع فيما بعد اقترح علينا أن نصلح من شأنه وأن نستعمله داراً للرياضة لصالح المشروع ولكنّا لم نوافق لأنّ ما كان عليه من أتربة يتكلّف نقلها أكثر من أربعين جنيهاً ونحن لا نملك حق التصرف في المال كما أنّ مجموع ما عندنا كان لا يتعدى المائة والخمسين جنيهاً وكان قد فارقنا الأستاذ عبد الفتاح وأخترنا السيد ميرغني حمزة رئيساً للمشروع.

وسرنا في جمع القرش واتسع العمل واشترك عدد كبير من الشبان وظهر المشروع وحاول بعض الناس الدخول في لجنته وقامت حملات صحفية هجوماً على سيطرة اللجنة التي لم ينتخبها أحد ودفاعاً من اللجنة التي حققت المشروع واعتبرته أمانة في عنقها إلى أن يتم تنفيذه.

وهكذا سارت الأمور إلى أن جاء طور التنفيذ واختير المرحوم البكباشي محمد نور رئيساً للملجأ وقد اختار البكباشي رجالاً جدد استعان بهم في تنفيذ المشروع لأننا كنّا قد عاهدنا أنفسنا والرأي العام على أن نجتمع المال ونترك أمر التنفيذ إلى غيرنا أو إلى لجنة يختارها الشعب الذي ساهم في المشروع.

وأقام ملجأ القرش مدرسة صناعية بدأت بالنسيج والسجاد والأحذية وصناعات الجلود وأنشئ فيه قسم عال للدراسة النظرية حتّى يستطيع خريجو هذا القسم دراسة هذه الصناعات في مصر أو في أيّ بلد آخر ليقوموا مستقبلاً بإدارة الملجأ.

وأحضرنا ناظرًا من مصر هو الأستاذ حسن رشيد نور الذي أدّى لهذا الملجأ أجل

الخدمات وكان شاباً مهذباً وعارفاً بمهمته التي جاء من أجلها وكانت للملجأ موسيقى تغشى الأماكن وتدعي للحفلات وأخذت مصنوعاته من الشنط والأحذية والشبابش تنزل إلى السوق وإلى اليوم تسمع عن شيشب اسمه «الملجة» والملجة هذه تعني في لغة العوام الملجأ أي صناعة الملجأ لأنه أول من ابتكر هذا النوع ثم نشط التجار في استجلابه من مصر.

وترك الشبان الذين أسسوا هذا المعهد تركوا العمل فيه ليتفرغوا لأعمال أخرى لا تقل اجتماعياً، وأهمية عن هذا المعهد الصناعي الذي قام من قرش وكان أساسه الأول مائة وأحد عشر قرشاً وليس هذا كل شيء ولكن ليس هذا مجال التاريخ للملجأ ولكنه حديث عابر عن بعض أوجه النشاط.

وقد استهوت فكرة القرش هذه بعض الهيئات فظنتها وسيلة لجمع التبرعات وعندما ذهبنا إلى مدني لجمع القرش وجدنا أناساً يوزعون تذاكر لتبرعات لجامع في الحوش كتبوا عليها «وملجأ القرش لجامع القرش».

كما أن الأستاذ الكبير الشيخ بابكر بدري عندما نقل مدرسة الأحفاد من رفاعة إلى أم درمان أصدر تذاكر ذات قرشين لمساعدة مدرسته التي لم تكن في حاجة إلى مساعدة لأنها كانت لا تقبل إلا أولاد الأغنياء وأبناء البيوتات كأولاد السادة آل المهدي وبعض الأثرياء وأولاد أسرة بابكر بدري.

وقد حصل صدام كلامي أو صحفي بيني وبين الشيخ بابكر بدري في هذا الموضوع فكتبت في جريدة ملتقى النهرين أهاجم هذه العملية وأبدي دهشتي من أن يتبرع الفقراء لتعليم أبناء الأغنياء وقلت إن المدرسة ملك خاص للشيخ بابكر بدري وأنه لا يجوز التبرع لها كمدرسة عامة لأنها غداً سيرثها أولاده ولن يكون للشعب حق فيها. وعلى إثر هذه الحملة فكر الأستاذ في أن يجعل لمدرسة الأحفاد مجلس أمناء ولكن الغريب إنه هو الذي اختارهم ممن يستطيع أن يملئ عليهم أرواده ويسير في طريقه دون أن يعترضوه أو يوجهوه.

وقد ذكر الأستاذ في مذكراته أو كتابه الذي سب فيه كل الناس ولم يمجّد إلا نفسه ذكر إنه تحدّث معي وإنني كففت عن الكتابة.

والحقيقة أنني أكن معروفاً لدى الشيخ بابكر بدري وكنا في زيارة للمستشفى ومعني الشيخ عبد الرحمن النور وكان الشيخ بابكر إسحق مريضاً بمستشفى أم

درمان وعند خروجنا قابلنا الشيخ بابكر بدري فوقف معه عبد الرحمن وسرت أنا في طريقي فناداني عبد الرحمن باسمي لكي انتظره فسمع الشيخ بابكر الاسم فناداني وأخذ يبحث معي هجومي عليه وعلى مدرسته والطريقة التي سلكها في جمع المال ومنافسته للملجأ وبنفس الأسلوب وقال أثناء النقاش إنه يريد أن يبني مجده فقلت للشيخ إذا كان هذا عزمك فليست هذه الوسيلة لبناء المجد وستعرف رأيي غداً في الجريدة.

وكتبت فعلاً مقالاً في الجريدة أشرت فيه إلى المقابلة وذكرت مسألة بناء المجد ونقدتها وقلت إن كان المجد يبني بالتبرعات التي تجمع من الفقراء لتأسيس المدارس الخاصة فما أهون المجد وما أسهله على كل مخلوق.

وتقابلنا مرة ثانية وفي منزل الشيخ بابكر إسحق يوم احتفل أهله بسلامته ودخلنا أيضاً أنا وعبد الرحمن إلى المنزل لنجد الشيخ بابكر بدري وأول ما رآنا ناداني وعبد الرحمن وأراد أن يستشهد بعبد الرحمن على أنه لم يقل إنه يريد أن يبني مجده وقال له الشيخ عبد الرحمن لا تسألني يا مولاي فإنك إما أخرجتني أو أخرجتك ولكن الشيخ ألح في السؤال فأجاب عبد الرحمن عليه بأنه فعلاً قال إنه يريد أن يبني مجده وانتهى النقاش بالصمت من الجميع.

ولمسألة القرشين هذه دوافع وهي أن خلاف النادي الذي قام بين الخريجين وقسمهم إلى مجموعتين مجموعة على رأسها شوقي والأخرى الشيخ الفيل - كان قسم الشيخ الفيل في يدهم الملجأ ففكر الشيخ بابكر في الاستفادة من جماعة شوقي بجمع القرشين لمدرسته وبذلك استغل نشاطهم وأصحابهم في توزيع تذاكر القرشين. وفي اجتماعات الملجأ سمي الأبروفيون بالأبروفيين فقد كنّا نعقد اجتماعات لجنة الملجأ في المدرسة الأهلية وعندما ينفض الاجتماع يذهب بعض منّا إلى جهة السوق وآخرون إلى جهة أبي روف وكان الذين يتجهون نحو السوق يوسف التني ومحمد أحمد محجوب ويوسف المأمون وعثمان شندي والذاهبون إلى أبي روف هم إبراهيم يوسف - خضر حمد - عبد الرحمن النور - عبد الله ميرغني وكان يوسف التني يقول مثلاً مع السلامة يا أولاد أبي روف وهكذا حتّى إذا ما جاءت حركة المؤتمر عرفت كلمة الأبروفيين أكثر وانتشر خبرها وأصبحت اسماً على الاتحاديين فيما بعد.

أحداث صغيرة في معترك الحياة

لقد كانت لجنة النادي وقفاً على أفراد بذاتهم يعقد الأعضاء كل عام اجتماعهم العام وتعرض حسابات النادي للعام المنصرم بعد قراءة شهادة المراجع القانوني ثم تجري الانتخابات فإذا باللجنة هي التي كانت في العام الماضي لا يحاول أحد أن يدخل فيها دماً جديداً ولذلك فكرنا في إدخال بعض الزملاء في لجنة النادي ولكن مجرد هذا التفكير أثار بعض الناس علينا وجعلهم ينظرون إلينا نظرهم إلى المارقين المتمردين على النظم والتقاليد المرعية ولكن هذا لم يزدنا إلا إصراراً على ما نوبنا عليه وفعلاً جاءت الانتخابات فإذا بنا نستطيع إدخال أربعة أعضاء من بين عشرة وكان هذا العمل إنذاراً ببدء المعركة التي نشبت بين روح جديدة تائرة يريد أن يغير في الأوضاع القديمة وبين أناس اتخذوا من النادي ميداناً لكل نشاطهم في الحياة فلا يريدون لأحد أن يتجرأ فيعدل فيما وضعوه من نظم وإلا لشعر الحكام بأن هناك من يستطيع أن يجرأ على منافسة هؤلاء ومحاولة زحزحتهم من أمكنتهم التقليدية. ونحن لا نريد أن نزحزحهم لمجرد التغيير ولكن نريد أن ندخل بما عندنا من أفكار وحسبنا أننا نستطيع أن نغير الأوضاع القديمة وأن تستولي الروح الجديدة على جو النادي وتسوده، وفاتنا أن أولئك سيستميتون في المعركة لأنها بالنسبة لهم حرب حياة أو موت.

استطعنا في العام الأول أن نلفت الأنظار إلى النادي وإلى معركة الانتخابات فيه وأمكننا أن ندخل أربعة أعضاء من لجنتنا المقترحة.

ولم تمض على هذه المعركة أشهر قليلة إلا وتقدمنا بعريضة إلى لجنة النادي نتهم فيها رئيس النادي نفسه بالعمل على إشاعة سمعة النادي ونطالب بفصله من النادي وفقاً للمادة العاشرة التي تقول «كل من يسئ إلى سمعة النادي يفصل».

وفتحت قضية جرت معها قضايا وأخذ الناس يتحدثون عنها وقامت لجنة الناس بالتحقيق ولكن كان تحقيقاً غير سليم في نظرنا لأن اللجنة أو ستة أعضاء منها بما فيهم الرئيس نفسه من جانب والأعضاء الأربعة الآخرين من جانب آخر، وكانت حركة نلنا منها ما نرمي إليه من لفت أنظار الخريجين إلى ما يجري في النادي وبدأوا

يشعرون بأن أولئك الذين اتخذوا من النادي ميداناً لنشاط خاص وأنهم عرفوا كيف يسيطرون عليه ويديرونه كما يريدون يمكن هزمهم وزعزعة أقدامهم إن لم يكن من السهل اقتلاعهم من أول مرة.

قصة الحضارة

كان يتولى تحرير جريدة حضارة السودان أو الجريدة شبه الرسمية الشيخ أحمد عثمان القاضي والشيخ أحمد عثمان كان قاضياً شرعياً وكان له ماضٍ في الكفاح الوطني قبل سنة أربع وعشرين وبعدها ولكنه كما يبدو ملّ الكفاح أو أخذ منه اليأس مأخذاً كما أخذ من نفوس الكثيرين وحماسهم بعد فشل ثورة 1924م وخروج المصريين. وقد حدث أن يئس كثير من المتحمسين وأثرت في نفوسهم النغمة القائلة بالاستسلام نغمة المثبطين والمتخاذلين الذين كان شعارهم «لقمة العيش» كأنه قد كتب عليهم ألا يحصلوا على تلك اللقمة إلا مغموسة في الاستكانة والاستسلام والتذلل.

مرت أعوام وإذا بالحكومة ترشّح الشيخ أحمد عثمان القاضي لرئاسة تحرير الحضارة وهذا المنصب لا يؤتى فيه إلا بالموثوق به وأمر السكرتير القضائي أن ينقله إلى الخرطوم ليتولى هذا المنصب وكان الترشيح من مكتب المخابرات.

وتولى الشيخ أحمد عثمان تحرير الحضارة ولم يكن لنا به شأن فلا أمل لنا في أن نجعل من هذه الجريدة جريدة وطنية ولا هو كان يكتب إلا في المواضيع التي لا تثير أحداً ويعبر أحياناً عن وجهة نظر الحكومة والدفاع عن مشاريعها وتأيدتها.

وفي يوم من الأيام طالعنا جريدة الحضارة بمقال فيه هجوم على الأمير عمر طوسون. والأمير عمر طوسون كان الصلة الوحيدة الباقية بين مصر والسودان بعد عام 1924م وكان حريصاً على أن يكون دائماً في المقدمة بل جاء وقت كان هو الوحيد الذي يهتم بشئون السودان ويوليها عنايته وكان قد التزم بأن يدفع لكل جامع يبنى في السودان مبلغ ثلاثين جنيهاً كتبرع منه ولعله كان يرى بذلك أن يكون هذا ارتباطاً

عمر رسمي بن المطر بن الشقيف.

وكان الشيخ أحمد عثمان العاصي يذهب إلى مصر ويكرمه الأمير ويعنى به عناية خاصة وكثيراً ما استضافه في قصره بالإسكندرية.

طالمتنا الحضارة كما أشرت بمقال فيه هجوم على الأمير عمر طوسن والأمير في نظرنا له احترامه وله الإكرام مثلاً نحن السودانيين جميعاً لاهتمامه بأمر السودان وقد أهمله الجميع في مصر من رجال السياسة. ولما قرأنا المقال ثار بعضنا ومزق الجريدة وكتب عليها آخر وافضحتاه وجرؤ ثالث فأصرّ على تعليقها في لوحة الإعلانات بالنادي. ولفتت أنظار الناس فأخذوا يمرّون عليها ويقرأون ما بها والتعليق الذي كتب عليها. ولم تشعر بعد يومين إلا وفتح التحقيق مع من أحدث هذا الحدث وتجرأ على جريدة الحكومة وأساء إليها وإلى المحرر وقامت لجنة النادي آنذاك مقام مكتب المخابرات والبوليس وأخذنا كل يوم نجتمع ونتفرّق لتوجّه إلينا التهم ويحاولون أن يشعرونا بالجرم الذي ارتكبناه وما سيجر هذا العمل على النادي من ضرر.

ونشط متلصصو الأخبار وذهبت «الأضرار» إلى مكتب المخابرات ويجيئنا المرجفون في المدينة كل يوم بخبر ويريدون أن يشيروا أعصابنا بما ينتظرنا من عمل من جانب الحكومة واعتبروا أن ذلك العمل عمل سياسي خطير لا تسكت عليه الحكومة.

ويبدو أن الحكومة كانت أعقل منهم وكانت أحرص من أن تخلق من هؤلاء الشبان الطائشين كما كانت تقول أن تخلق منهم أبطال وتجعل لهم مكاناً يلفت إليهم الأنظار. فاستفادت من كل هذه الحركة سواء التي كانت في النادي من جانب الموالين أو التي خرجت من رؤى المرجفين والمخبرين وجمعت ما جمعت من معلومات عن هذه الشلة لتستفيد منها في المستقبل.

وهكذا مرّ حادث الحضارة دون أن يسألنا مسؤول عنه أو يثير حركة غبار كالذي أثارته لجنة النادي المحترمة والتي كانت كاثوليكية أكثر من البابا.

أميل لدفع

وما كادت تهدأ الثورة التي أثارت حول الحضارة وقصتها حتى انفتح باب جديد كان مثار الحديث في المجتمع كما كان مجالاً واسعاً للمرجفين والصائدين في الماء العكر فأخذوا يؤكدون لنا أننا في طريقنا إلى السجن متهمين بنكران الجميل جميل هذه الحكومة الإنجليزية الرشيدة ومتهمين بتشويه سمعتها والدعاية ضدها وليس في مقدورنا أن ننكر كل هذا فقد نشرت الصحافة المصرية ما يؤيد زعمهم كما نشرت صورنا مع الكاتب الذي حمل الأخبار ورواها وعنها نقلت الصحافة المصرية.

وإليكُم القصة - كان الكاتب الألماني الكبير أميل لدفع بعد أن كتب كتابه عن جورج واشنطن وعن نابليون أراد أن يكتب عن النيل ورأى أن يرى النيل ويسير من المصب إلى المنبع ويدرس أحواله ويتعرف على الشعوب التي حوله ولو كان أمر الشعب ثانوياً في نظره كان همه محصوراً في النيل نفسه.

وجاء إلى السودان في طريقة إلى منابع أو جنوبه على الأصح ونزل في القراند أوتيل ولو أنه في الحقيقة كان ضيف الحكومة وكان مكتب المخابرات هو الذي يضع له برامجه وينظم حركاته يسمح أو لا يسمح بمقابلته. ونحن فيما نعلمه عن الكاتب أميل لدفع أنه ألماني غادر بلاده في الحرب الأولى وأوى إلى بريطانيا وبالتالي رجل لا ولاء له لألمانيا بقدر ولائه الذي أعطاه لبريطانيا وقد أوته ومهدت له سبل العيش والعمل ولكن على كل هذا أردنا أن نتصل به أملين أن يكون هذا الكاتب الكبير منصفاً وأن يستمع إلينا وأن يعرف أحوالنا وما نشكو نحن منه في نفس الوقت نُحْمِلُ ضميره ككاتب عالمي رسالة إلى أحرار النفوس فلعلّه يوصلها أو لعلّه إذا ما كتب عن النيل لا ينسى هذا اللقاء.

قرّرنا كعشاق أدب أن نحتفل بالكاتب الكبير وأن نقيم له حفل شاي في الفندق الكبير حيث ينزل واتصلنا مراراً بمكتب المخابرات وكان فيه الأستاذ أدورد عطيه اتصلنا مراراً محاولين مقابلة الكاتب ولكنهم كانوا يخفونه ويزعمون أحياناً أنه في طواف على العاصمة وأحياناً إنه مرتبط وبعد لأي وبعد اتخاذ حركات لا تخلو من عفرتة استطعنا أن نخرجهم ونجعلهم يحددون لنا معه موعداً في برنامجه وأفهمنا

مكتب المخابرات بمكان الحفل ولكن وفي نفس اليوم المحدد وأثناء ساعات العمل في المكاتب أخبرنا أنَّ الفندق الكبير يعتذر وأنه لا يستطيع أن يقيم الحفل وخرجنا من المكاتب وذهبنا إلى لوكندة غردون وكانت مكان العمارة القائمة اليوم غرب دار البرلمان وكُنَّا قد اتفقنا معهم بالتليفون على إقامة الحفل عندهم وأخبرنا الكاتب الكبير بتغيير المحل وذهبنا إلى أن نتم الإجراءات الأخرى وندفع المطلوب ولكن عندما وصلنا وجدنا صاحب اللوكانده أو المشرف عليها يقول إنه آسف لا يستطيع عمل شيء مطلقاً وإن الفندق مشغول بحفلات أخرى.

حاولنا بكل الطرق وحاولنا التهديد ولكن دون جدوى وطلبنا منه إعطاءنا المكان ولا نريد منه أكثر من الليموناده وتنازلنا عن الشاي ولكنه أصرَّ على الرفض.

خرجنا منه وذهبنا إلى فندق اسمه رويال أوتيل شمال شركة ميركانتايل ويبدو أنَّ هذا لم يكن قد وصله أمر من جهة ما إلى ذلك الحين واتفق معنا وبدأنا نعدد له الأصناف التي تُقدَّم وأثناء الحديث جاءته إشارة تليفونية فلما انتهى منها بدأ في الاعتذار.

وخرجنا منه لنذهب إلى لكوندة مغمورة اسمها اليوم في مكان عمارة قرنغلي الآن ويبدو أنه لم يكن عندها تليفون أو أنهم لم يفكروا في أننا يمكن أن نتصل بها واتفقنا معه من سكات ولم نتصل بالكاتب الكبير وقلنا لا داعي لذلك فليذهب إليه أحدنا في آخر لحظة ويحمله إلى هذا المكان وكان الحفل متواضعاً جداً وفي الساعة الخامسة أحضرنا الكاتب إلى مكان الحفل.

الصورة

وبدأنا في الحديث لأنه لم يكن هناك ما يؤكل بل قليل ممّا يشرب واندفعنا كلّنا نتحدث كل واحد يمسك بطرف وكانت معه زوجته فلم نتركها أيضاً وأخذنا نطلعها على الأوضاع الشاذة في السودان ونشكو لها من عبث الإنجليز بالقيم الإنسانية ونعدد الأخطاء ونحدّد المسؤوليات ونتحدث تارة عن الشمال وتارة عن الجنوب والحريات والحكم العرفي الذي يزعج السودان تحت وطأته منذ أنّ وصل الإنجليز السودان. كان الحديث شاملاً وسياسياً كاملاً ولو أنّنا لم نضن على الكاتب والأديب بكلمات نحلي بها المجلس. واندمج الرجل معنا وشاركنا مشاركة جعلتنا نشعر بأننا كسبنا الجولة تماماً وأخذنا من زمنه أكثر ممّا قدر لنا حتّى إنّه خرج من عندنا إلى القطار يقبله إلى الباخرة في كوستي.

وشاعت الأخبار وعلم بعض الناس إنّنا احتفلنا بالكاتب الكبير وكانوا بين مصدق ومكذب وانبرى الشيخ أحمد عثمان القاضي في نادي الخريجين يكذب الحادثة ويروي في ثقة واطمئنان أنّ الكاتب الكبير كان في حفل مع المستر فلان وإنه لم يخرج إلّا إلى القطار وإن من يدّعي أنّه اتصل به أو احتفل به فهو كاذب. وبلغناها كما يقولون وسكتنا. وكنا قد أخذنا مع الكاتب الكبيرة صورة قبل الوداع ووعدنا أنّ يرسل لنا كتبه هدية وقد فعل.

ومرّت الأيام وظهرت الصورة في الجرائد المصرية وظهر معها الحديث مترجم نشره أميل لدفع عن رحلته للجنوب وأثناء الحديث عرج على اجتماعنا به وكال لنا من اللوم والسب والشتّم ما شاء له أدبه الجم ومما قاله عنّا إنّ هؤلاء الشبّان الذين يديرون الحديث بلباقة ويطرقون كل الموضوعات في الأدب والسياسة بلغة إنجليزية سليمة لا يبعد أن يكون أبائهم أولئك الذين جئ بهم في معرض ومبلي حفاة عراة لا يعلمون شيئاً ولا يفقهون شيئاً.

لقد وصل هؤلاء الشبّان إلى ما صلوا إليه ولكنهم لا يقدرّون ما هم فيه ولا يشركون من أوصلهم إلى هذا المستوى بل يريدون أكثر ويطمعون إلى أبعد ممّا هم فيه. وكان يتهمنا في صراحة بقلة الأدب ويعيب علينا هذا الطموح ويستنكر ممّا أنّ

نكون ناكري الجميل. وشربنا نحن العلقة في صمت ولكن لم يسكت الأفاكون «يرضي القتل وليس يرضى القاتل» وقالوا ستحاكمون ويبدو أنكم قلتم الكثير لهذا الكاتب ويكفي ما رواه حجه لمحاكمتكم.

وجاءنا أحد هؤلاء المرجفين يقول إنَّ أحمد خير في مدني قد حُقق معه وإنكم في طريق التحقيق إنَّ لم يكن غداً فبعد غد واتصلنا بأحمد خير نستفسر فإذا به يقول لا شيء مطلقاً وكل ما هنالك أنَّ الصورة التي أخذناها مع الكاتب كانت معه في المكتب وقد عمل لها برواز فرأها المفتش وسأله عن مناسبتها سؤال مستفهم ولم يعلق بشيء.

وعشنا أياماً على أعصابنا نعد الدفاع وننظم خططه ونستعد للمحاكمة ولكن الإنجليز بلعوها وسكتوا ولم يسكت أولئك الذين كانوا كاثوليكاً أكثر من البابا نفسه.

صالح مؤمن

ظهر فجأة وفي حي أبي روف رجل غريب يلبس الملابس البلدية ويعتم بعمامة صغيرة من الولاية ويحتذي صندلاً ويحمل مقطفاً يذهب به إلى السوق ليشترى حاجياته وكان يتحدث إلى الناس بلغة عربية فصيحة ولا يعرف العامية. وكان الرجل أبيض له لحية صغيرة أزرق العينين قال إنه مسلم وأنَّ اسمه صالح مؤمن وأنه اعتنق الإسلام في مراكش وفي يده إعلام من المحكمة الشرعية بأنَّه قد اعتنق الإسلام. وحامت الشائعات حول الرجل الغريب الذي يسكن منزلاً صغيراً بالقرب من شاطئ النيل وغرب منزل أستاذنا الطيب السراج رحمه الله. كان يتحدث الإنجليزية واسع الإطلاع كثير السؤال طاف بلاداً كثيرة ومَرَّ في طريقه على مصر إلى السودان عن طريق الشلال يحدثك عن تاريخ المنطقة التي مرَّ بها حديث الخبير فهو يعرف القبائل وأصولها.

كان رجلاً غريباً فاتصلنا به أولاً لنعرف من هو وثانياً لعلنا نجد عنده علماً ننتفع به وكلما قويت صلتنا به كلما زدنا جهلاً بمراميه. وطارَت إشاعة تقول إنَّه لورنس المشهور وإنَّه جاء مستطلعاً أخبار السودان واتجاهاته السياسية وقالت إشاعة أخرى

إنه لورنس وإنه جاء يعمل على ثورة في وادي النيل وبدأنا نشك في الرجل ونرقب حركاته ونحدثه في السياسة ولكنّه تكشف عن رجل يكره الإنجليز ويمقت الاستعمار ويخوض معنا في السياسة كلما اطمأن إلى الحاضرين.

وبدأ مركز أم درمان يهتم بأمره ويحصى عليه تحركاته ويرسل إليه كل يوم شيخ الربع ليعرف من جاءه وكيف قضى يومه وكان هو يعتذر لشيخ الربع لأنّه لا يعرف اللغة العربية حتّى يتحدّث فيفهم الشيخ ما يقول ثمّ يقول لنا بالإنجليزية إنّ هؤلاء كأمثال الكلاب يلحقون اليد التي تضربهم.

وتوثقت صلاتنا به وأخذنا ندرس عليه مبادئ علم الاجتماع كما بدأنا ندرس معه لغة الاسبرانتو ومازالت عندنا إلى اليوم واطمأن بالنّا إليه وأصبحنا لا نخشى من يكون هو وحتى إذا كان لورنس فليعرف منّا شعور السودانيين على حقيقته وبغضهم لسياسة أهله وحبهم للحرية والانطلاق.

وقد أثار شكوكنا مرّة أخرى إنّ هذا الرجل يدون مذكراته ولكن كان يدون مذكراته ولكن كان يدونها بالاسبرانتو وكان لا يحمل من المتاع إلّا شنطة حديد فيها كل ما عنده من كتب وملابس وفكرنا في أنّ نسطو على شنتطته هذه لنعرف ما فيها ثمّ نردها له وفعلّا بدبرنا أمرنا وكنا على ما أذكر ثلاثة مكايي سليمان وإبراهيم يوسف وأنا. وجاء لزيارته معنا الأستاذ مكي شبكية ومحمد عشري فأخذنا الجميع إلى الشاطئ لجلسة هادئة يتناقشون فيها وتركنا معهم إبراهيم ليصرفهم عنّا وذهبت ومكايي إلى منزل الرجل وقرّرنا أنّ يتسور أحدنا وهو مكايي حائط المنزل وأنّ أرقب أنا الطريق فإذا ما حصل على الشنطة ورفعها إلّى من فوق السور ثمّ لحق بها.

وكانت الخطة مدروسة ولكنّها فشلت في آخر لحظة وبعد أنّ صعد مكايي إلى الحائط فإذا به مطل على الجيران وإذا بهم والدنيا صيف يجلسون جميعاً في حوش الدار فما كان من مكايي إلّا أنّ هوى سريعاً إلى الأرض وقفلنا راجعين إلى القوم دون أنّ ننجح في مهمتنا.

وأخيراً زاد اهتمام الحكومة به وكلما زاد هو في توسيع رقعة نشاطه زاد عدد الزائرين وكان بعضهم ينتهز فرصة النهار وغيابنا عنه فيجيئون إليه سائلين ومستفسرين وهم في الحقيقة حملة الأخبار إلى السادة الحاكمين.

وجاء في صباح يوم الميجر برامبل ثمّ طلبه في مكتبه وسأله عن الاجتماعات التي

تعقد في داره وماذا يدور فيها ومن أين هو وماذا يريد وإلى أين سيرحل ثم تركه. وفي يوم من الأيام ودون إنذار جاءه الأمر بالخروج من السودان وحمل عفشه إلى قطار كسلا وقد اختار أن يخرج عن طريقها ثم كتب لنا بعد وصوله كسلا مندداً بالإنجليز وحكى كيف طلب منه الخروج وفي سرعة وكيف سئل عن ركوبه الدرجة الرابعة وهو أجنبي وعلّق على هذا الوضع ما شاء له التعليق وبثنا في خطابه حقنه وحقده على الإنجليز ووسائلهم في الحكم.

وأخيراً كتب من عدن بعد أن وصل إليها وانقطعت بعد ذلك أخباره نهائياً ولم نعد نسمع عنه ومازلنا لا نعرف من هو ومن أين جاء وإلى أين ذهب ولكن الذي وعيناه أنّه كان رجلاً حراً يكره الاستعمار وينمّي روح التحرر أينما حلّ ولا يهمنا بعد ذلك من يكون.

مؤتمر الخريجين

ضربت قبل هذا مثلاً بالحركات المتعدّدة التي كان الخريجون يصرفون فيها نشاطهم وشملت تلك الحركات جوانب شتى من اجتماعيه وتعليمية الغرض منها التوعية ووحدة الصف وذكرت ما كانت عليه الحال من حيث سلطان الطائفية على البلاد واعتماد الحكومة عليها وعلى القبلية الشيء الذي شجعها على خلق الإدارة الأهلية والاهتمام بها وخلق جو من التوتر بين المتعلمين وزعماء العشائر وظهرت نغمة الاتهام للمتعلمين بأنهم لا يحترمون زعماء القبائل. هذه الأعمال وكثير غيرها جعلت الخريجين يفكرون في شيء ما ولكن لا يدرون ما هو. لم يجتمع تفكيرهم على خطوة بعينها ولكن الشعور كان معبأ والرغبة جامحة في لمّ شعث الخريجين وتوحيد كلمتهم.

ويخطئ من يدّعي لنفسه وحده أنّه أسس أو خلق عملاً عاماً يحسّ بالحاجة إليه كل الناس ويفكرون فيه فالأعمال العامة والحركات الوطنية لا تقوم إلا إذا كان هناك شعور عام مهياً لها. ولست بهذا القول أريد أن أنكر على أحد حقاً ولكنّي قصدت أن أبعد الأناية واعترف أن الشعور الوطني والإحساس بالحاجة إلى التكتل كان موجوداً

في النفوس ولكن على أشكال مختلفة وكانت الأحلام بالمستقبل أيضاً تختلف ولكن الذي لا شك فيه أنه متوفر عند الجميع ومتفق عليه هو الرغبة في توحيد الكلمة أو ربط هذه المجموعات من الناس والتي تعمل في ميادين متفرقة جمعها في مكان واحد أو ربطها بعمل واحد.

وكما كان أناس يفكرون في هذا الشيء الذي يجمعهم كنت أفكر أيضاً وأشرت دون قصد مني إلى كلمة مؤتمر وقد جاءت كلمة كتبته تحت عنوان في الهدف أعلق على الاجتماع السنوي الذي كانت تقيمه كلية غردون وتطلق عليه اسم (يوم الخريجين) وفي هذا اليوم يجتمع الخريجون في الكلية بدعوة منها يشاهدون مباراة في كرة القدم وفي المساء يتعاقب كل منهم يحكي ذكرياته ويتذكر أيام الدراسة ويحيي أساتذته كما يحيي الطلبة ويحثهم على تلقي العلم وحاجة البلاد إليهم إلى غير ذلك. علقت في جريدة السودان على اجتماع ذلك العام بكلمة هذا نصها:

« من حظ الخريجين السعيد أن هيات لهم الظروف عيداً عاماً يحتفلون به كل عام يجتمعون فيه في مكان واحد هو كلية غردون. ومن العام الماضي أخذ هذا العيد أهمية خاصة وأصبح يحضر للاحتفال به كثير من الخريجين من غير العاصمة المثلثة مدفوعين إليه بحب الاجتماع بإخوانهم وتجديد العهد وتوثيق الصلات».

ومما يؤسف له أننا في كل عام نجتمع لنعيد ذكرى الماضي الجميل ونبكي عهد الطفولة الذاهب الذي قطعناه في «ارتشاف البان العلوم والعرفان» وسرحنا فيه على «الميادين السندسية» ثم نعدد الكثير من حسنات «الأم الرؤوم» هذا بعد أن نكون قد شاهدنا مباراة كرة قدم والألعاب الرياضية.

لم نفكر قط في أن نجعل من هذا اليوم مؤتمراً نبحث فيه أمورنا الهامة التي تتعلق بماضي البلاد وحاضرها ومستقبلها ونعرض أعمالنا في بحر العام المنصرم الصالح منه والطالح حتى يكون لاجتماعنا معنى ولعيدنا أثر في حياتنا العامة.

وإذا لم تفكر طبقة الخريجين التي هي روح البلاد وعمد نهضتها. أقول إذا لم تفكر طبقة الخريجين في أمورنا العامة وتخصص لها يوماً واحداً في كل عام كهذا اليوم فلا أظن أحد غيرهم يستطيع أن يفكر أو يعمل. بل من المشين لهذه الأمة المسكينة أن يكون عيد الطبقة المتعلمة من أبنائها خلواً من الحديث في شؤونها والاهتمام بما يرفع رأسها.

وربما يقول قائل إنَّ الخطباء بدأوا في الأيام الأخيرة يذكرون بعض المطالب ويصرحون ببعض الأماني ولكنني أقول إنَّ هذه المطالب التي تذكر لا تتعدى كونها صحيحة بين جدران أربع لا تتخطى أذان قائلها إلى سواهم لأنَّها حديث إلى غير سميع ورجاء ممن ليس في يده عقد ولا حل وهذا ما يجعل الصمت خيراً من أنة مكبوته».

«طبيجي»

نشر هذا المقال في 15 / 7 / 1935م وفي 20 / 7 / 35، 24 / 7 / 35 علق الأخ أحمد خير على هذا الكلام في خطاب مفتوح إلى «طبيجي» وكان قد أراد من التعليق أن يقول إنني يجب ألا أطالب الخريجين بالرغم من تخرجهم من كلية واحدة هي كلية غردون وعدد أنواع الثقافات والاتجاهات الفكرية المختلفة التي خلقتها الظروف في البلد كما أشار إلى الانتهازية وإلى المترددين والواقعين ثمَّ أشار إلى عدم جدوى هذه المقالات التي تنشر في الصحافة «وأنَّ حرية الصحافة في البلاد التي عدت منحة الحرية الصحفية فوزاً لم يدر أساطينها أنَّها جرعة مخدر في كأس من ذهب».

وقال أحمد خير:

«والعلاج لموقفنا الحالي هو اقتراح أرسله إلى جميع من يهمهم الأمر. تمركز التفكير في صعيد واحد لوضع برنامج عملي شامل وتكليف كل فرد بتنفيذ ما يتناسب مع مداركه واستعداداته لا يتطلب ذلك منَّا غير السير بالنادي خطوة أخرى تجعل من داره الحالية وهي مجمع أدب وسمر ولهو، كعبة للنهضة المرومة. وطريقنا لذلك إما حركة استبدادية نحن بظرفنا ووضعنا السياسي أبعد ما نكون عنها أو التعاون الديمقراطي».

فإلى مؤتمر الخريجين:

إلى مؤتمر قوامه صراحة المسالم وروحه أتران العمل وغرضه خدمة القضيتين - قضية الخريجين كطبقة وقضيتهم العامة باعتبارهم جزءاً من هذا الكيان».

وخشي أحمد من أن يقلب مزاح العصر الساخر هذه المقالات التي نكتبها وما فيها من كهرباء كمشيلاتها من محتويات روز اليوسف وآخر ساعة فتصبح من أسباب اللهو والتسلية وتضيع أو تهمل ونخبو كهرباؤها.

وقال أحمد في آخر المقال أيضاً:

« فإلى اللقاء في مؤتمر الخريجين وإلى لجنة النادي أقدم الاقتراح فهل من مشي وهل إلى تنفيذ من سبيل».

لقد قلت سابقاً إنَّ كثيرين كانوا يشعرون بضرورة وجود شيء ما يجمع هذه القوى وينظم أنواع النشاط المختلفة ويوجهها وكتبته وأنا لا أعني المؤتمر إلى أن جاء أحمد خير فكان الرجل الذي علّق الجرس فعلاً وقالها دعوة صريحة إلى تكوين مؤتمر الخريجين بل أشار بأصبعه إلى شيخ الأندية ليتحمل العبء وهو النادي الذي يؤمل فيه أن يلعب دوره في تاريخ البلاد.

أتد أحمد خير هذا المقال بمحاضرة ألقاها في نادي الموظفين بواد مدني وكانت بها الجمعية الأدبية التي لا أقول زوراً أو كذباً إذا قلت إنَّ للابروفيين أثر في تكوينها هناك فقد نقل إلى مدني إبراهيم عثمان إسحق وإسماعيل العتباتي وطه صالح - وصلة أحمد خير بالابروفيين قديمة ثُمَّ نَقَلَ إلى الجزيرة حمّاد توفيق.

وبعد أن ألقى أحمد خير المحاضرة في النادي أرسل نسخة منها لي وأخرى للجنة نادي الخريجين بأم درمان. ومن هنا بدأ التفكير في مؤتمر الخريجين وجد الناس في التفكير والفكرة ووسائل تحقيقها وأغراضها وكانت الرؤوس في الحقيقة خالية من معالم محددة يبدأ منها العمل أو ينطلق. أمّا نحن فما كنّا نهجل ما نريد. كنّا نريد بالمؤتمر أن يكون كالمؤتمر الهندي أو الوفد المصري يتولّى قيادة الحركة الوطنية والسياسية ولكن من يستطيع أن يقول ذلك في ذلك الوقت وإذا قاله فما الفائدة من قوله إلا أن يكون عقبة في سبيل تحقيق الفكرة.

بدأنا بليال أشبه بالليالي الأدبية نقيمها في نادي الخريجين بأم درمان كل يوم خميس يفسح فيها المجال لكل متحدث ليقول كيف يريد المؤتمر وماذا تكون أهدافه وما هي آماله القريبة والبعيدة. وتحدّث الناس، تتلاقى أفكارهم أحياناً وتختلف أحياناً وظهر أن كثيراً من الخريجين لا يفهمون المؤتمر المرتقب إلا نقابة للموظفين تنظر في أحوال معاشاتهم وإجازاتهم وتصاريح السفر والترقيات والدرجات أيّ أنّهم فكّروا في أن يعالج المؤتمر شؤون طبقتهم.

ولكن بالرغم من هذه الأفكار فقد كانت الاجتماعات ناجحة واتسعت دائرة الذين يريدون من المؤتمر أكثر من ذلك ويبنون عليه آمالاً عراضاً.

وكان على رأس النادي أو سكرتاريته السيد إسماعيل الأزهرى وبعض الإخوان

كأحمد محمد يس وعثمان شندي ومكي شبكية وآخرون وكانت حالة النادي سيئة فقد عافه الرواد وبعد عنه كبار الخريجين منذ الخلاف الذي نشب فيه وحاولت لجان كثيرة بعضها محايد أن تجذب الناس إلى النادي مرة أخرى ولكنهم فشلوا.

ورأت لجنة النادي برئاسة أو سكرتارية السيد إسماعيل الأزهرى أن تقوي النادي على حساب المؤتمر، هذه الفكرة الجديدة التي ستستهوي الكثيرين وقالوا يجب ألا يكون عضواً في المؤتمر إلا من كان عضواً في النادي وفهمنا من ذلك أن المؤتمر سيكون جزءاً أو فرعاً من نادي الخريجين أشبه بأي جمعية أدبية وأخذ كل جماعة يحاولون أُنواع آخرين فجماعة النادي يصرون على أن يكون المؤتمر جزءاً من النادي ونحن نقول يجب أن يقوم المؤتمر منفصلاً عن النادي لاعتبارات كثيرة.

وكان من أهم أسبابنا أن النادي قد أصبح مكروهاً لدى كثير من الخريجين ولا يطيقون سماع الحديث عنه فإذا ارتبط المؤتمر به رفضوا هذا المؤتمر، هذا إلى جانب أن آفاق المؤتمر أوسع وأبعد مدى من آفاق النادي كما أن باب المؤتمر قد يفتح لأكثر ممن لا يفتح النادي بابه لقبولهم ولكن كل هذه الأسباب لم تقنع إخواننا أعضاء لجنة النادي الذين يريدون انتهاز الفرصة لإحياء النادي وتقويته ولو أن بعض الخبثاء كان يقول أنهم يريدون بسيطرته على النادي أن يسيطروا تلقائياً على المؤتمر.

وأخيراً أردنا أن نكون عمليين ونقدم للجنة النادي وثائق لا يتطرق إليها الشك فكونا لجنة أسندنا سكرتاريتها للأستاذ جمال محمد أحمد وكان بها على ما أذكر الزملاء إبراهيم يوسف سليمان والمرحوم عبد الله ميرغني وبشرى عبد الرحمن صغير والهادي أبوبكر ومحمود الفكي ودكتور إبراهيم أحمد حسين وخضر حمد.

والت هذه اللجنة على نفسها أن تزور كل خريج كبير أو له مركزه الاجتماعي وتشرح له فكرة المؤتمر وتدعوه إلى المساهمة فيها برجوعه إلى نادي الخريجين فزنا الخريجين في أم درمان والخرطوم والخرطوم بحري وشمبات وبري وتوتي ولم نترك مكاناً في العاصمة المثلثة فيه خريج له مكانته إلا اتصلنا به ورجوانه أن يؤيد الفكرة ويعود إلى النادي لنبدأ العمل.

وانتهينا بعد ذلك الطواف إلى أن إجماع من اتصلنا بهم قد انعقد على تأييد الفكرة ولكن يجب أن تكون منفصلة عن النادي وبدأ بعضهم يشرح لنا نفس الآراء التي كنا قد ننادي بها ونؤيد بها نحن دعوانا أمام إخواننا في النادي - وأخيراً اتفقنا على الدعوة

لمؤتمر الخريجين غير مرتبط بالنادي وعلى أنه هيئة قائمة بذاتها. ولم تخل هذه الحركة أعني حركة مرورنا من طرائف. وأول هذه الطرائف أن أحد الخريجين الكبار طاف من ورائنا على كثير ممن طفنا عليهم وحذرهم من تأييد هذه الحركة ولمح لهم بالإنجليز وأنها قد تكون ضد الحكومة لأنها صادرة من شباب طائش. ومن الطرائف أن أحد كبار الخريجين قال لنا إن مجرد بحث هذه الفكرة يجب أن يكون عشر سنوات على الأقل وأن أحلامنا خرجت عن المقبول. وقال لنا ثالث وهو أيضاً من كبار الخريجين إنه يؤيد الفكرة تمام التأييد ويسأل الله لها النجاح ولكن إذا أردنا لها النجاح فعلاً فعلينا أن نتركه هو نفسه بعيداً عنها وبعيداً عن المجتمعات ولما رأى دهشتنا قال إنه رجل صريح إلى درجة بعيدة وفي المجتمع أناس يسميهم هو الكربون لأنهم يأخذون الكلام كما تأخذ الكربونة ويوصلونه إلى الإنجليز وهؤلاء الناس هو يعرفهم ولا يطبق السكوت عليهم ولا شك عنده في أنهم سيكونون ضمن المؤتمر بل ربما كانوا في المقدمة وعلى هذا فستخلق لكم كل يوم مشكلة. فشكرناه على تأييده وتركناه بعيداً كما أراد.

وذهبنا إلى المرحوم محمد نور الدين وكان يسكن بري ولما شرحنا له الفكرة وطلبنا منه أن يؤيدها وأن ينضم إليها داخل النادي قال - المرحوم نور الدين يضرب دائماً الأمثال لتوضيح وجهة نظره- إن النادي أشبه بماسورة البندقية والمؤتمر كما وصفتموه أشبه بالبطيخة فكيف تريدون أو تحاولون إدخال البطيخة في ماسورة البندقية؟

تكوين هيئة المؤتمر ولجنته التنفيذية

أخذ النادي بعد ذلك على عاتقه مهمة الدعوة وتنظيم الاجتماع العام وتم الاتفاق على أن يكون رسم الاشتراك في الاجتماع العام خمسة قروش واجتمع عدد كبير في نادي الخريجين لا يقل عن العدد الذي جمعناه تسهيلاً لتكوين لجنة العشرة ووقفنا

إلى تنظيم الاجتماع بحيث نجح في شرح البرنامج وكان قاصراً على انتخاب هيئة عامة من ستين عضواً وهؤلاء مع اللجنة التنفيذية التي ينتخبونها من بينهم يصيغون دستور المؤتمر.

ماذا بعد؟

انتخبت الهيئة لجنتها التنفيذية وكانت من كبار الخريجين وكبار الموظفين وكان أصغر من فيهم المرحوم عبد الله ميرغني ثم يأتي قبله إسماعيل الأزهري. وكان أول مهام اللجنة أن تكتب للحكومة تخطرها بقيام هيئة اسمها مؤتمر الخريجين ويطلبون التصديق مبدئياً إلى أن يضعوا الدستور الذي سيشتمل الأغراض والوسائل. وكان هذا هو القانون السائد آنذاك كما أن في كل عام يرسل كشفاً بأسماء لجان النوادي عندما يتم انتخابها.

قلت إن اللجنة كانت من كبار الخريجين وهم في نفس الوقت كبار الموظفين وكانوا لا يدرون كيف ستقبل الحكومة هذا الطلب وهل ستصدق به أم تعتبرهم مخطئين قد شاركوا في عمل الحكومة لا تؤيده أو تشجعه وتجتمع اللجنة ثم تنفض حتى مر أكثر من أسبوعين وخطاب الأخطار هذا لم يرسل.

وكان النظام في مديرية كسلا أن يقضي سعادة المدير وموظفوه الصيف في سنكات حيث تنتقل المديرية إلى هناك ونقل مع المنقولين إلى سنكات صديقي عبد الرحيم فرحان الذي له غرام شديد بالحصول على الأسرار والمستندات ووقع في يد عبد الرحيم خطاب سري للغاية أرسله السكرتير الإداري إلى كل المديرين يعلق فيه على حركة المؤتمر ويوجه المديرين من حيث تصرفهم نحو هذا الوليد الجديد. سرق عبد الرحيم صورة الخطاب وأرسلها إليّ فإذا فيها كما يقول السكرتير الإداري أن على المديرين أن يقابلوا هذه الحركة بأعصاب هادئة لأن هذا القطر لا بد أن يتأثر بالحركات التي قامت حوله في البلاد العربية كمصر وسوريا ولبنان ولا غرابة في أن تنتقل العدوى إلى هنا لأسباب كثيرة تربط السودان بتلك البلاد.

وقال إنه لا يريد أن يجابه حركة المؤتمر بالعداء أو الشك من أول مرة فيخلق لها مكانة أكثر ممّا تستحق ولذلك فهو يوصي جميع المديرين في المديريات ورؤساء المصالح وكبار الموظفين الإنجليز أن يقابلوا هذه الحركة بأعصاب هادئة خصوصاً وأنّ الذين جاء بهم الانتخاب في المقدمة هم من كبار الموظفين المعقولين.

قرأنا الخطاب وسرّ به المرحوم عبد الله ميرغني وقال إنّنا في حيرة وإلى الآن لم نرسل خطاب طلب التصديق لأنّ اللجنة لا تعرف كيف سيكون رد الفعل أمّا بعد هذا الخطاب فلن نخشى شيئاً وقد انكشف لها رأي الحكومة.

وأخذ المرحوم عبد الله الخطاب وحرص على أن يضعه دون أن يراه أحد في مائدة الاجتماع ووضعه قبل الاجتماع بدقائق ووقف بعيداً في برندة النادي يراقب حتّى لا يدخل أحد من غير أعضاء اللجنة فيتناوله.

ودخل الأعضاء إلى القاعة وكان الخطاب كما علمنا من المرحوم عبد الله قريباً من السيد محمد صالح الشنقيطي الذي تناوله وأخذ يقرأه وكلما قرأ سطرأ أبدي دهشته ثمّ أسمع المجتمعين ما كان في الخطاب وفي تلك اللحظة انحلت العقدة وبدأوا يكتبون الخطاب.

كانت أغراض المؤتمر كما قدمت للحكومة في طلب التصديق هي « خدمة المصلحة العامة » وقد كان توفيقاً ما بعده توفيق حيث إنّ المؤتمر جعل هدفه ثلاث كلمات حوت كل ما يفكر فيه المرء من أعمال ويدخل في نطاقها كل عمل ما دمنا نفسره على أنّه للمصلحة العامة.

هكذا بدأ المؤتمر وطرق جميع أوجه الخدمات الاجتماعية وخلق وعياً اجتماعياً وسياسياً وربط بين المتعلمين وعامة الشعب وقضى على كل الدسائس والفتن التي تفنن الاستعمار في خلقها أو إثارتها.

ولأني لا أرمي من وراء هذه المذكرات إلى أن أكتب تاريخ المؤتمر وأعماله بل قصدت أن أذكر شيئاً من نشاطي مع زملائي في المؤتمر وتكوينه اكتفي بهذا القدر وأترك تسجيل أعمال المؤتمر إلى من يريد أن يؤرخ لتلك الفترة من تاريخ السودان. وعلى كل حال فقد ارتبطت حياتي بالمؤتمر منذ أن نشأ فكرة في سنة 1935م إلى أن أزيلت كل العقبات وقام المؤتمر قوياً إلى الأمام في إيمان وثقة وقام بالأعمال النافعة في كل الميادين حتّى استطاع في يوم من الأيام أن يتحدى الحكومة وأن

يقول في المحافل الدولية إنَّ مجهود المؤتمر في خمس سنوات في التعليم فاق مجهود الاستعمار في خمسين سنة.

واتصلت حياتي في جميع تطوراتها السياسية والاجتماعية والتعليمية والصحفية وبالجملة فإنَّ المؤتمر ما قام بعمل إلَّا وكانت لي يد في ذلك ويد لها أثر ظاهر.

وشاء الله أن أكوِّن أحد الثلاثة الذين اختارهم أحزاب الوحدة في مصر ليدمجوا جميع هذه الأحزاب بما فيها المؤتمر في حزب واحد ويضعوا للحزب دستوره وقوانينه وأعضاء هيئته ولجنته. وبذلك سايرت المؤتمر منذ أن كان فكرة إلى أن أندمج في الحزب الوطني الاتحادي.

سار المؤتمر في طريق الإصلاح الاجتماعي والتعليم وكان نشاطه ملحوظاً حتَّى أنَّ ما أنشأه من المدارس والمعاهد وخواص القرآن في خمس سنوات فاق ما قامت به الحكومة في خمسين سنة وكسب المؤتمر فوق ذلك اتصاله المباشر بالشعب وتبنيه لكثير من مشاكل هذا الشعب ودخل في الناحية الاقتصادية فأنشأ شركة للسيما الوطنية وقوى أواصر الود بينه وبين أفراد الشعب.

سار في هذا الطريق إلى أنَّ جاءت سنة 1942م السنة التي رأت فيها حكومة السودان أن ترسل قوة دفاع السودان إلى شمال أفريقيا لتساهم في الحرب ورأينا نحن أنَّ الفرصة قد جاءت لنقدم مطالبنا التي يجب أن ننالها كبلد ساهم في الحرب فإذا ما جاء النصر ونال المحاربون ما يستحقونه ازاء جهدهم الذي بذلوه أن يكون لنا نصيب.

وكانت لجنة المؤتمر في ذلك الحين قد كونت بشكل لم يسبق له مثيل فقد بذل جهد خاص لوقف الدعاية الخاصة التي كانت تجعل اللجنة تمثِّل جانباً واحداً من جوانب المؤتمر.

كانت بعض جماعات المؤتمر على صلة ببيت المهدي وكان همزة الوصل السيد عبد الله الفاضل وكانت تلك الجماعة تستعين بآل المهدي لتكسب مقاعد المؤتمر وكان آل المهدي يأملون في فرض نفوذهم على المؤتمر عن طريق تلك الجماعة وكثنا نحن الأبروفيين لا صلة لنا لا بالختمية ولا بالأنصار وقد قلت في حديثي عن الأبروفيين إنَّ عوائلهم تنتمي إلى الطائفتين.

وتحمَّس بعض الإخوان الذين تنتمي عوائلهم إلى الأنصار أن يحاولوا مع السيد

عبد الله الفاضل ليقف على الحياد في الانتخابات وشرحوا له اتجاهات الأبروفيين وأنهم لا يؤيدون طائفة دون أخرى وأن فيهم من عائلته أنصاره أمثالنا ومنهم من صلة أهله بالختمية ولكنهم لا يؤمنون بالطائفيه.

قام بهذه الوساطة السادة محمد محبوب لقمان وعبد الرحيم وشي وساعدهم السيد عبد الله عبد الرحمن نقد الله لأنه كان صديقاً لكثير من الأبروفيين ويعرف أن تجاههم وطني وليس طائفيًا.

واستطاع هؤلاء الوسطاء أن يجعلوا السيد عبد الله لا يتدخل بنفوذه أو ماله في الانتخابات وجرت الانتخابات وكان للأبروفيين ومن يعطف عليهم أو يرغب في التعاون معهم عدد محترم.

وجاءت انتخابات اللجنة التنفيذية فكانت خليطاً من مختلف الاتجاهات وكان لآل هاشم عدد لا يزيد على ثلاثة أعضاء كما أذكر وهناك محايدون وإذا ما تعاون هؤلاء أمكنهم توزيع المكتب كما يريدون.

ونشط الوسطاء المشفقون وانتهى الأمر أولاً إلى أن يكون الرئيس عوض ساتي والسكرتير خضر حمد.

وفي اليوم الذي سيتم في مسائه انتخاب المكتب التنفيذي جاء إلينا في أبي روف السادة أحمد يوسف هاشم ومحمد عامر بشير فواروي وكان الاجتماع بمنزلي وناقشنا الموقف مرة أخرى وكان تقدير الموقف كما يقول العسكريون هو أن للأنصار في اللجنة شنقيطي وشوقي والسيد عبد الله وإبراهيم أحمد فإذا أردنا الاحتفاظ بهم إلى نهاية الشوط يجب أن نربطهم بشخص يقفون إلى جانبه ولا يخذلونه وفي نفس الوقت نثبت لهم في طول فترة العام أننا نريد عملاً نافعاً وأننا لا ننتمي إلى طائفة معينة.

واتفقنا على أن نختار السيد إبراهيم أحمد للرئاسة وعوض ساتي للسكرتارية وخضر حمد مساعداً له واتضح أخيراً أن الخطة كانت ناجحة وأن تقديرنا للموقف كان صحيحاً.

تم توزيع الوظائف في اللجنة كما أردنا واستطاعت تلك اللجنة أن تعمل أعمالاً مفيدة كثيرة وكان من حظها أن تواجه المشكلة السياسية وأن تتقدم للحكومة بالذاكرة المشهورة التي كان من أهم بنودها « أعطاء السودانيين حق تقرير مصيرهم

بعد الحرب».

لقد حوت المذكرة بنوداً أخرى ولكنّها كانت لا تعد شيئاً بالنسبة للمطلب الأول (المذكرات ملحق).

ونرجع إلى حزب الأمة وطموح سيادة المغفور له السيد عبد الرحمن، بدأ نجم السيد عبد الرحمن يصعد عند الإنجليز وهذا الصعود أزعج الآخرين وحدثت فجوة بينهم وبين الإنجليز وسار السيد عبد الرحمن مع الإنجليز وخشي الإنجليز من حركة المؤتمر ومن اتجاهاته التي ظهرت في المقدمة عند تقديم المذكرة سنة 1942م وعند بحث المصير وفكّروا في إيجاد ترياق لا أقول للحركة الوطنية ولكن أقول لدعوة الاتحاد مع مصر. وأخرج الإنجليز دعوة السودان للسودانيين ذلك الشعار البراق وأعزّو بإنشاء حزب الأمة واختاروا له من اختاروا ممن يضمنون ولاءهم ولوح الإنجليز بالملك للسيد عبد الرحمن وإنه في مقدورهم أن يصلوا به إلى ذلك عن طريق المنظمات الدستورية التي ابتدعوها ووضعوا الخطة على تطويرها بالطريق الذي يؤدي إلى ما يريدون.

وسمعت من عدد من رجال يحسبون على بيت المهدي إيمانهم بأنّ الإنجليز في استطاعتهم أن يقيموا السيد عبد الرحمن ملكاً على السودان ويشيرون إلى أنّ الإنجليز أقاموا عروش الشرق فهذه العراق وتلك الأردن وهذه مصر كان وراء كل هذه التيجان سند الإنجليز.

قام حزب الأمة وبالرغم من شعاره البراق « السودان للسودانيين » فإنّه لم يحذب إليه أحد غير الأنصار وبعض المثقفين وبعض كبار الموظفين من رجال الحكومة أمّا بقية الشعب وعلى رأسهم أولئك الذين كانوا يهيئون المجالس التي تشبه مجالس الأمراء في العهد العباسي فقد انحازوا إلى الجانب الآخر.

ولا يستطيع أحد أن ينافي في الصلة الوثيقة التي كانت بين حزب الأمة والإنجليز والخدمات التي قدمت له حتّى أنّ الشنقيطي وهو قاضي وموظف حكومة سمحوا له أن يذهب إلى هيئة الأمم ليدافع عن آراء حزب الأمة.

كنّا ندعو إلى الاتحاد أو الوحدة مع مصر. ومن الطبيعي أن نتعاون مع من يريد الاتحاد أو الوحدة معه، ولكن حزب الأمة كان يدعو إلى الاستقلال فما معنى التعاون مع الإنجليز وهم الذين يستعمرون السودان فعلاً بعد ثورة سنة 1924م لهذا السبب

كنّا نقول أنّ دعوة الاستقلال دعوة حق أريد بها باطل. ولو دعا خلاف حزب الأمة إلى الاستقلال والمطالبة بإخراج الإنجليز من السودان لما نشب بيننا خلاف ولكنّا بدأ واحدة وشعباً متحداً يطالب باستقلاله. ولكنّا شعرنا بأنّ حزب الأمة يريد الاستقلال من مصر ولا يهمه أنّ يبقى الإنجليز ليدربوا حكومة السودان المقبلة وما كان أمثال عبد الله خليل يخفون هذا الاتجاه.

ودعوة الاستقلال من السودانيّين مجتمعين في ذلك الوقت ربما كان لها خطرهما أيضاً على السودان فحكومة جلالة ملك مصر التي كانت تؤمن بأنّ السودان لها ورفضت أن تتعاون مع وفد السودان إلّا إذا نادى بالوحدة والجلاء لا يعد أبداً جرياً وراء مصالحها ووراء مياه النيل التي كانت يستعملها الإنجليز سلاحاً يخيفون به مصر عند اللزوم لا يبعد أنّ يتفق المصريون مع الإنجليز على السودان نفسه وتخرج إلى الوجود المشاريع التي كانت معدة والتي كانت ترمي إلى تقسيم السودان بين مصر وإنجلترا. ووجود مصر في سياسة السودان حماية للسودان من كثير من الشرور ولو لم تكن لمصر في السودان يد وتطالب بحقوق واستعبد السودان بجنودها لأنفرد الإنجليز بالسودان وأضافوه إلى المستعمرات وكانت معاملتهم لنا لا تفضل معاملتهم لسكان كينيا ويوغندا ولذلك كلما شدنا من أزر مصر ضعفت حجة الإنجليز في العالم ولو أنّهم كانوا على ثقة من ولاء زعماء العشائر وكبار الموظفين الشيء الذي جعلهم يقبلون تقرير المصير. وكانت استجابة حكومة الثورة في مصر لقبول المصير مفاجأة اعتبروها سارة بالنسبة لهم واعتبروا أيضاً براعة سياسية أنّ شدوا مصر إلى الاعتراف بوجود السودان وحقه في تقرير مصيره. والحقيقة أنّ الفضل في هذا التحول يعود إلى محمد نجيب الذي قاد الثورة والذي كان يعرف السودان معرفة حقه وكان لا يقرّ تلك السياسة لا لأنّه لا يعترف بما بين السودان ومصر من صلات ولكنّه كان يريد أن تكون هذه الصلات صلات ود وإخاء ومن القلوب لا بالتسلط وحق الفتح ومجاراة الملك في الأوهام التي ملأ بها رأسه من كان حوله من رجال السياسة أمثال صدقي الذي لم يتردّد في أن يقول إنّّه جاء لمصر بالسيادة على السودان.

المنظمات الدستورية

بدأ الاستعمار كردّ على حركة الخريجين أن يخطط لمستقبل السودان بحيث يطبق جميع الأساليب التي طبّقها في البلاد الأخرى وحتى يضمن لنفسه وجوداً شرعياً مزيفاً كما فعل في البلاد الأخرى أيضاً تقوم هيئة دستورية وتقوم حكومة وتتطاحن الأحزاب على كراسي الحكم والإنجليز من الخلف يحركون الخيوط والناس في شغل عنهم بكراسي الحكم والخصومات الحزبية وكان الاستعمار يخطط حتى يقرّر السودان مصيره بوجودهم ويتحولون من حكام إلى مستشارين يخفتون وراء الحكام الوطنيين الذين سيواجهون بدورهم غضب الشعب وثورته وحقنه.

جاء الإنجليز بالمجلس الاستشاري لشمال السودان – وأنا لا أؤرخ للسودان بل أكتب مذكراتي الخاصة التي ترتبط بالأعمال التي ساهمت فيها فحتى ولو حاولت أن أتى بالمذكرات والمستندات لاحتجت إلى كتب وكتب.

لقد وقف المؤتمر ضد المجلس الاستشاري لشمال السودان ونقده نقداً مركزاً وكان أول تهمة وجهت إليه هو أنه لشمال السودان دون جنوبه وفي الاعتراف به والعمل فيه اعتراف بسودانيين ولا سودان واحد. وقف ضده المؤتمر ورفع مذكرته عنه وأعلن عداؤه له سافراً حتى أنه حرّم على أعضائه الاشتراك فيه وهدد بالفصل بل فصل فعلاً الخريجين الذين تعاونوا مع الحكومة في مخططاتها وعلى رأسها هذا المجلس الاستشاري (قانون المجلس ونقد المؤتمر ملحق).

كانت سياسة الإنجليز الظاهرة والتي خدعوا بها ساسة مصر وأخذوا موافقتهم مع الأسف على الخطوات الدستورية – كانت سياستهم في الظاهر تدريب السودان على النظم الدستورية وتطوير المجالس إلى جمعية تشريعية يتدرّب فيها السودانيون على الأعمال الدستورية ويناقشون بعض شئون بلادهم – الشؤون الطفيفة التافهة- واحتفظوا للحاكم العام بكل الحقوق.

هذا هو الظاهر أمّا ما كانوا يبيتونه في الخفاء فهو أن يقرّر السودان وبواسطة هذه المؤسسات الدستورية المشوّهة وتحت رعايتهم وبوجودهم يقرّر مصيره وتصبح مصر لا حيلة ولا حق لها بعد أن اختار السودان طريقه لأنهم كما قلت يريدون استقلال

السودان عن مصر لا استقلالاً حقيقياً بالمعنى المفهوم.

وتطوّر المجلس الاستشاري إلى الجمعية التشريعية ووقف الوطنيون المخلصون مواقف صلبة ضد المؤسستين وبقدر ما حاول الإنجليز ترغيب الناس في تلك المؤسسات عن طريق التعديل والتحويل بقدر ما اشتدّ عداؤهم للناس لهذه المؤسسات. وكانت انتخابات الجمعية مهزلة تاريخية ودخل من أجل محاربتها الناس السجون واستشهد بسببها شباب مؤمن بربه ووطنه فما خلت مديرية من شهيد أو أكثر من مصابين أو مسجونين. كل ذلك لمعارضتهم لهذه المهزلة.

ولما انتهت الانتخابات واجتمعت الجمعية كان أول من اعترف بفشلها الحاكم العام الذي صرح بخيبة الأمل التي أصابته ومن معه وعبر عن أسفه لأنّ وجوهاً كثيرة كان يأمل أن يراها في ذلك القفص ولكنها لم تخدمها الطعمة وفُضِّلَ دخول السجن على دخول تلك الجمعية.

وقبل قيام الجمعية ومنذ أن بدأ المؤتمر يدخل باب السياسة الصريحة أراد الإنجليز أن يسبقوا الحوادث بعد أن تيقنوا من أنّ هذه الحركة ستفضح أعمالهم في السودان وستظهرهم بمظهر المستغلّ الجشع الذي أخذ كل شيء ولم يفعل للبلد شيئاً وقد دام حكمهم فيها ما يشارف الخمسين من السنين.

تقدّموا بالمجلس الاستشاري ثمّ لجنة السودنة ثمّ بالجمعية التشريعية التي ليس بيدها عقد ولا حلّ ثمّ محاولة تعديل الجمعية المرفوضة والمغضوب عليها وحاول الإنجليز جرّ رجل بعض الأشخاص ولا أقول الأحزاب ووعدوا أنّ يأخذوا بكلّ توصيات اللجنة التي كونوها من أناس عرفوا بولائهم للإنجليز أو لعدم وجود مكان لهم بين المواطنين العاملين في حقل السياسة وخطوا في ذلك الطريق خطوات.

وكل هذه المحاولات باءت بالفشل لأنّ الرأي الذي أجمعنا عليه هو ألا ندخل في أيّ مؤسسة والإنجليز في البلاد أوعى الأقل قبل أن يحدد موعد خروجهم ويسجل هذا الموعد دولياً. وبالاختصار فقد كان الشعار «رفض المؤسسات الاستعمارية ولو جاءت مبرأة من كل عيب».

تعديل الجبهة

108

هذا حدث يجب ألا نمرّ عليه مروراً عابراً خصوصاً وأنّ لحزب الاتحاديين دخلاً في هذا الأمر ولاقي في سبيل ذلك الكثير من الاتهامات والهجوم. والحقيقة أنّ حزب الاتحاديين لم يفكر يوماً في قبول المؤسسات مهما عدّلت وما دام الشرط الأساسي الذي يحدد خروج الإنجليز لم يُقر ويسجل دولياً حسب مبادئ الاتحاديين ولكن أقام بعض كبار الختمية والذين يطمعون في أن يتزعموا جماهير الختمية أقام هؤلاء هيئة سموها الجبهة، هذه الجبهة لا تحوي إلا عدداً لا يتجاوز أصابع اليد ولكن المعروف أنّهم من أقرب الناس أنّ لم يكونوا أقرب الناس إلى قيادة الختمية وقد كانت قيادة الختمية ترجو لهم أن يتمكنوا من تزعم الختمية لو استطاعوا ولكنّها في نفس الوقت لم تساعدهم في ذلك الطريق إلا قليلاً. وسنعود لموضوع كبار الختمية في مكان آخر.

كان رجال الجبهة هؤلاء كلهم ولله الحمد زعماء. زعماء من غير رعية وظنّوا أنّ مجرد كونهم من كبار الختمية أنّهم إذا ما أقاموا جبهة أو حزباً فسيتهافت عليهم المؤيدون من الختمية.

أقام كبار الختمية الجبهة وفكّروا في أن يستغلوا الاتحاديين ومبادئ الاتحاديين فمبادئ الجبهة لم تخرج عن كونها مبادئ الاتحاديين وحسب كبار الختمية أو الذين سيكونون الجبهة أنّهم سيغرون الاتحاديين بالتعاون معهم. بأمل جذب الختمية من الأشفاء إلى هذه الجبهة.

وكبار الختمية هؤلاء من المعقولين إن لم يكونوا كلهم من رجال الحكومة السافرين وهذا وبما أنّ قيادة الختمية أعطت سندها للحركة الوطنية كيدا وحرماً للجانب الثاني فإنّهم لا يستطيعون بحكم كونهم ختمية إلا أن يجاروا هذا الجانب.

ودارت مشاورات بين بعض رجال الجبهة وبعض الإنجليز وأنصارهم على محاولة جرّ الاتحاديين إلى تأييد الجمعية التشريعية إذا ما عدّلت. وكان التعاون قد تمّ ولكن على حذر بين الاتحاديين والجبهة.

والاتحاديون كان فيهم من يطنّ أنّ التعاون مع كبار الختمية هؤلاء سيكون وراءه

كسب شعبي.

بدأت الاجتماعات تعقد في منزل السيد ميرغني حمزة وبحضرها الاتحاديون وأحياناً تعقد في نادي الاتحاديين وظهر في الجو الرأي القائل بتعديل الجمعية وظهر سماسرة التعديل كان فيهم على ما أذكر السيد إبراهيم بدري والأستاذ عبد الفتاح المغربي وآخرون وكانوا يتحدثون كأنهم يستطيعون أن يبدلوا الجمعية التشريعية إلى برلمان في يده التشريع وإقرار الميزانية وتكوين الحكومة وكان الحديث مغرياً لمن كانوا يحضرون ويتأثرون به أمّا باقي الاتحاديين فما كان لهم أذان تسمع هذه الوعود ممن ليس في استطاعته شيء.

وبدأت اجتماعات السماسرة مع مندوبين من الاتحاديين وبدأت هذه الاجتماعات في الوقت الذي آمن فيه الاتحاديون جميعاً أن ليس وراء كبار الختمية أحد وذلك بعد تجربة دخولهم في انتخابات المجلس البلدي فقد رشّح الأشقاء الشيخ يوسف أحمد البشير ورشّحت الجبهة السيد عثمان حسن عثمان وهو من كبار الختمية وكانت النتيجة محزنة تماماً.

وكنت أنصح بأن يترث رجال الجبهة ولا يدخلوا الانتخابات فهم ينزلونها وليس لهم خبرة بأساليب المعركة والاتحاديون كان فيهم الخبثاء الذين أرادوا أن يعرفوا حقيقة قيمة الجبهة عند الختمية. والنصيحة كانت منيّ لله ولأنني لا أريد لإخوان كبار أن يتعرضوا لمثل تلك الهزيمة أمّا اجتماعات الجبهة وبعض الاتحاديين فلم أحضرها مطلقاً وكنّت على ثقة من أن الختمية مع الأشقاء وأنهم لن يتحولوا لمجرد إشارة من القيادة. كان كبار الختمية منهم من هو أبعد الناس عن السياسة. كان فيهم مولانا الشيخ محمد حسن دياب والسيد عثمان حسن عثمان وهذان لا تحتمل أخلاقهما مداورات السياسة ومحاولاتها وأحياناً ألاعيبها وأكاذيبها. وفيهم السيد الدرديري محمد عثمان الذي يظنّ أنه خلّق ليسود ولكن بغير أن يعمل وفيهم ميرغني حمزة وهو الشخص الوحيد الذي بما له من ماض في العمل السياسي وبما له من اتصالات شخصية مع الاتحاديين منذ المدرسة الأهلية وملجأ القرش والمؤتمر استطاع أن يجزّ الاتحاديين إلى هذه الجبهة.

وبطريقة ما تكوّنت لجنة التعديل وكان فيها من الاتحاديين المرحومان حسن عثمان إسحق وعبد الله ميرغني. أدخلوا في لجنة التعديل فمن أدخلهما ومن يمثلان

وهل جاء تهما الدعوة بوصفها من حزب الاتحاديين؟ هذا كله كان موضع خلاف أدى إلى أن يقرّر الحزب في النهاية فصل العضوين وفصل من يقف معهما وكان عددهم جميعاً ستة أعضاء تاب ورجع منهم اثنان وابتعد الآخرون.

وفشلت لجنة التعديل في أن تعتبر العضوين يمثلان الاتحاديين وسارت اللجنة في التعديل واستطعنا أن نحصل على تعديلهم وكانت مفاجأة لا تحتمل أن وجد الإنجليز تعديلهم قد عرفه الاتحاديون وانتقدوه فقرة فقرة وخرجوا إلى أنه أسوأ من الجمعية نفسها فمات التعديل قبل أن يرى النور ولم تحاول الحكومة أن تقول شيئاً وخرجت بالصمت عن لا أو نعم (أنظر الملحق الخاص بنقض التعديل).

قيادة الختمية وكبار الختمية

وعدت في السطور السابقة أن أتحدث عن هذا الموضوع والحقيقة أن كبار الختمية وعلى رأسهم السيد الدرديري محمد عثمان كانوا يأملون في قيادة الختمية وكانوا يعتبرون السيد إسماعيل الأزهرى وحزبه الذين يقودون جماهير الختمية دخلاء على الختمية وأن قيادة السياسية يجب أن تكون في يد كبار الختمية.

وكانت قيادة الختمية ترغب في ذلك وتشجّع ولكنها تريد أن ترى أمامها من كبار الختمية من يستطيع أن يحل محل الأزهرى ومن معه من حزب الأشقاء.

وفكرت قيادة الختمية أن تستعرض كبار الختمية في الحفلات والاجتماعات وأن تشير بطرف خفي إلى الختمية بأن هؤلاء هم أقرب الناس إلى القيادة وبذلك يكون الطريق ممهداً أمام هؤلاء الكبار إذا ما تقدّموا للجماهير تسندهم هذه المباركة الظاهرة من القيادة.

ونشأت فكرة تنظيم شباب الختمية وأسندت رئاستها لأستاذنا المربي الكبير الشيخ محمد الحسن دياب ودرجت قيادة الختمية على استعراض الشباب كل يوم جمعة فكان هؤلاء الكبار وحدهم يقفون خلف مقعد القيادة ليراهم الشباب وهم في مقعد صدق عند قيادتهم.

ولم يفتن كبار الختمية إلى أهمية هذا التقديم أو هذه التزكية ولم ينتهزوا الفرصة

ولا يستطيعون انتهازها فقد قلت إنَّ تكوينهم غير سياسي وأنهم غير جماهيريين. ولعلَّ الحادث الذي ساقصُ نبأه يكشف الموقف ويوضح الحقيقة بعد أن تكوَّن الحزب الوطني الاتحادي أراد كبير من كبار الختمية أن يغري القيادة بسحب الختمية من الحزب وتكوين كيان قائم بذاته وقال الكبير إنَّ أزهرى ومن معه ليسوا من الختمية وأنهم يصعدون على أكتاف الختمية وأنَّ الختمية أحق بهذا المجد من الدخلاء ووعت القيادة ما رمى إليه الكبير وفي يوم من الأيام قالت القيادة لأحد الأذكياء من الختمية اذهب إلى فلان أيَّ ذلك الكبير فإنه يريد أن يحدثك في موضوع وذهب الختمي الذكي وقابل الكبير وأشار إليه الكبير على سند الختمية الذي يستفيد منه الآخرون وحاول أن يوغر صدر الذكي وأن يحمله على الموافقة على أن يكون الختمية حزباً خاصاً بهم واستمع الذكي باهتمام ثمَّ جاء دوره ليرد فقال:

إنَّ أزهرى لم يصعد على أكتاف الختمية ولكنه برز في الميدان وسفر في العمل السياسي وجابه الاستعمار فكسب الناس بعمله وجهاده وأيدته الختمية على هذا الأساس وأنتم أيها الكبراء في بروجكم العالية لا تتصلون بأحد ولا تفتحون دوركم لأحد ولا تقدمون للجمهور ما يغريه باتباعكم فكيف تريدون الرئاسة والقيادة والسيطرة وليس عندكم من مؤهلات إلا التفاهر بأنسابكم أو ختميتكم وانتهى الكلام على أن من يريد أن يقود الختمية يجب أن يظهر في ميدان السياسة وحذر الذكي من أن محاولة زعزعة أزهرى محاولة فاشلة سلفاً.

وذهب الرجل والتقى بالقيادة وقصَّ عليها ما حدث فعَلَّت القيادة على ذلك بقولها إنَّ مثل هؤلاء كمثل قوم موسى إذ قالوا له « اذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون » وأشارت القيادة إلى تلك الاجتماعات الخاصة بالشباب وإلى ما كانت ترمي إليه القيادة من حضور كبار الختمية ولكنهم لم يفهموا القصد ولم ينتهزوا الفرصة. ولعلَّ هذه التحركات المبكرة تفسِّر لنا ما حدث فيما بعد وما كان له من أثر في الخلاف. الشيء الذي سنوضحه عندما يأتي مكان الحديث عنه. وهناك موضوع لا بدَّ من الإشارة إليه فقد جاء الوقت الذي اقتنعت فيه القيادة بفكرة تزعم الختمية للحزب ولكنها لم تفكر في قيام حزب جديد بل كانت تعمل على الاستيلاء على الحزب الوطني الاتحادي وطرد أولئك الذين ليس لهم ولاء للختمية أو قيادة الختمية وسنوضح ذلك في مكانه أيضاً.

النظم الدستورية وتقرير المصير

ونعود إلى الحديث عن التطورات الدستورية التي كانت تعمل على تأييدها حكومة بريطانيا وأخذت في بعضها موافقة حكومة مصر في عهد النقراشي. والإنجليز كانوا يعملون جادين تحت هذين الستارين الأول التطورات الدستورية التي تصل أخيراً إلى برلمان يعتمدون عليه في تقرير المصير والستار الثاني هو الوصول بالسودان إلى الاستقلال لا الاستقلال الحق ولكنه استقلال عن مصر وتحت رعاية وحماية بريطانيا ووضعت الخطط على أن يقرّر السودان مصيره بوجود الإنجليز فيه وبذلك تعاد المأساة التي عاشت فيها مصر من قبل إعلان الاستقلال مع التحفظات الأربعة ووجود الإنجليز كمستشارين يحركون الحكومة كما يحرك لاعب السرك الدُمى واللعب ويواجه هؤلاء المواطنون غضب الشعب والإنجليز في أمان من تلك الغضبة. ولكن عندما أراد الإنجليز أن يجربوا تنفيذ الخطة لم يجدوا الطريق ممهداً تماماً وتقدّم اقتراح الحكم الذاتي بطريقة لا تسر الإنجليز واستطاعوا أن يعدلوا فيه وأن يجدوا من رجال الجمعية من ينفخ لهم في البوق النغمة التي يريدونها ولكن ظهر الخصام بين الحليفين ومرة اقتراح الحكم الذاتي المعدّل بأغلبية طفيفة وتنكر له الإنجليز وسافر سيادة المغفور له السيد عبد الرحمن إلى لندن لعلّه يجد أذنًا صاغية هناك ولعلّه يستطيع أن يشكو حكام الخرطوم إلى رؤسائهم في لندن.

للحقيقة والتاريخ

ربطنا نحن الاتحاديين كفاحنا مع مصر لنصل إلى الاتحاد الذي يحفظ للسودان كيانه وحقه في التصرف في شؤون بلاده ولكن حكومة مصر لم ترض منّا إلا الوحدة وقد نادينا بها لا إيماناً بها وعلى الصورة التي يحملونها لها ولكن رغبة في ربط القضية. وربط الطرف الثاني كفاحه مع الإنجليز على أمل الاستقلال وعلى أمل أن يجد

السيد عبد الرحمن الرجل الطموح ما كان يأمل فيه ولكن عندما جد الجد لم يستطع الإنجليز أن يخاطروا بإعلان الحكم الذاتي دون موافقة الإنجليز وأشار الإنجليز إلى السيد عبد الرحمن المهدي أن يذهب إلى مصر وكانت الأحوال في مصر قد تطوّرت فجأة وتغيرت جميع المعالم والسياسات لأنّ ثورة مصر كانت قد قامت.

زيارة علي ماهر

زار علي ماهر باشا السودان وكان ذلك سنة 1940م وكان رئيساً للوزارة ومعه كل من صالح حرب باشا وعبد القوي أحمد باشا وحاول الإنجليز أن يضعوا له برنامجاً خاصاً لم يتركوا فيه مجالاً للسودانيين أو المثقفين على الخصوص وكان المؤتمر آنذاك يتطلّع لأنّ يثبت وجوده بكل الطرق..

طلب المؤتمر أن يكون له نصيب في تكريم علي ماهر وصحبه وأخذ ذلك مناقشات طويلة حتّى وصل إلى الحاكم العام نفسه واتصل الحاكم العام أخيراً بمندوبي المؤتمر وسمح لهم بجزء من وقت علي ماهر على ألا تكون حفلة بالمعنى المعروف وألا يكون هناك تجمع وأن نكون مسئولين عن حفظ الأمن وأنّ الحاكم العام هو المسؤول شخصياً عن مجيء علي ماهر باشا إلى السودان ولا يريد أن يحدث ما يعكر صفو هذه الزيارة أو يخرج الحاكم العام.

وقبلنا بكل الشروط وقلنا إنّها لن تكون حفلة بالمعنى المعروف وإن الاشتراك فيها لا يزيد على العشرة قروش وأنّ الدعوة لها ستكون للمشاركين فيها فقط. سهلنا لهم المهمة وبسطنا الموضوع إلى الحد الذي أطمأنوا له على أنّ الحفلة ستكون هزيلة وأنّ التجمع فيها لن يكون له أثر وهذا كان كل همهم. كانوا يريدون أن يفهموا علي ماهر ومن معه أنّ مصر ليس لها في السودان شيء.

أمّا نحن فقد أعددنا أنفسنا لحفل ضخم احتشدت له الجماهير وصعدت إلى رؤوس المنازل المجاورة للنادي وأعددنا خطتنا وجاء علي ماهر ولم يحضر معه أحد من الإنجليز ولقيه الناس من مدخل أم درمان إلى النادي وهم يهتفون له ولمصر والسودان. وصل النادي فرأى ما أدهشه وما جعله يتحدّث هو رفاقه حديثاً طيباً وكان

الحفل حفلاً محترماً أغاظ الإنجليز وأثارهم بقدر ما سرَّ كل مواطن وخصوصاً الضيوف. وكُنّا إلى جانب هذه الرسمية قد أعددنا مذكرة لعلّي ماهر باشا (ملحق) فيها مطالب ولم تكن سياسية واتفقنا على أن تسلّم له المذكرة في الشجرة لأنّه كان سيتناول الغداء على ما أذكر في باخرة بين الشجرة والجبل وكان الموعد بأنّ تسلّم له في الغداء وأعددنا كل شيء وسار كل شيء كما أعددناه.

وأذكر أنّه حوالي الساعة الواحدة في نفس اليوم أرسل السكرتير الإداري إلى كل من محمد صالح الشنقيطي وعبد الماجد أحمد ونصر الحاج علي وتحدث معهم السكرتير الإداري حديثاً فيه شدة وفيه لوم وفيه تهديد وكيف أنّ المؤتمر يقدم لرئيس وزراء مصر مذكرة دون أن تكون عن طريق الحاكم العام بل كيف يكون الحاكم العام جاهلاً لمحتوياتها.

وانذرهم السكرتير الإداري بأنّ المذكرة إن لم تسحب أو يوقف إرسالها إلى علي ماهر فإنّ المؤتمر سيحل. وجاءني عبد الماجد وشنقيطي أو نصر، لا أذكر تماماً يسألان عن مصير المذكرة فأفهمتهما بأنّ المذكرة تكون سلمت الآن لعلّي ماهر. واتفقنا على أن يرجعا للسكرتير الإداري ويقولوا له إنّنا سنسعى حتّى لا تقدّم المذكرة لعلّي ماهر وسنرسل مندوباً خاصاً ولكن إذا حدث إنّها سلمت له فهل يرون أنّ نسحبها منه؟ وطبعاً قصدنا الإحراج بهذا الطلب الأخير ووافقوا على أن نسعى وقبلوا متّاهة هذه المحاولة ولكنّهم لم يوقفوا على استردادها بالطبع لأنّ في ذلك ما يوحي لعلّي ماهر بما هنالك وبالضغط منهم.

ومرّت المعركة بسلام وسلمت المذكرة لعلّي ماهر وسيراه القارئ مع الملاحق في آخر هذه المذكرات.

هذا وقد سلّمت لعلّي ماهر مذكرات أخرى عن أعمال الإنجليز في السودان وعن دار الثقافة وكيف أنشئت والغرض من إنشائها وقد نشرت تلك المذكرات فيما بعد. وبمناسبة علي ماهر فإنّه من الخير أن أذكر ما حدث بعد إخراج علي ماهر من الوزارة واعتقاله فيما بعد وكان ذلك سنة 1942م.

عند اشتداد الضغط على الإنجليز أثناء الحرب في العلمين واتهموا علي ماهر وبعض الأمراء المصريين بالتعاون مع المحور وطالبوا بإخراج علي ماهر من الحكم ثمّ اعتقلوه وعندما أخرج من الحكم أرسل له المؤتمر برقية بأسف فيها ويتمنى له الحياة

الطبية بعد تركه الحكم.

كان اجتماع لجنة المؤتمر مساء الجمعة وفي صباح السبت أرسلت البرقية بوصفي القائم بأعمال السكرتير العام وفي صباح الأحد أرسلتها إلى الجرائد.

وفي صباح الاثنين جاءني عيساوي وعيساوي هذا كان يعمل معاوناً لإدوارد عطية في المخابرات أو مكتب الشؤون الأهلية كما سموه أخيراً. جاءني عيساوي في المكتب وطلب مني أن أذهب معه فذهبت إلى مكتبهم وكان في الطابق الأرضي من الجزء الغربي من وزارة المالية حالياً وهناك قابلت أدورد عطية الذي أخرج لي برقيتي بناتها ومرفق بها إيصال البوستة وأراد أن يحاسبني على إرسال برقية كهذه لعلي ماهر في الوقت الذي أخرج فيه علي ماهر بتهمة تعاونه مع المحور وليس من معنى لهذه البرقية إلا أن المؤتمر يؤيد اتجاه علي ماهر.

فقلت إننا لا نعرف اتجاه علي ماهر ولماذا أخرج ولكن المهم أنه رئيس الوزارة المصري الوحيد الذي زار السودان وكرمناه وعرفناه واستمع إلينا ورأينا أنه من اللياقة أن نرسل له كلمة نقول فيها إننا نذكره ونشكره على ما فعل سواء كان في الحكم أو خارج الحكم.

قال إدوارد عطية إنهم سيوقفون البرقية فقلت له إن البرقية أرسلت للصحف ولعلها تكون نشرت ولا يليق أن توقف بعد هذا من جانبكم فتناول جريدة النيل ووجدها منشورة فأخذ البرقية والجريدة ودخل منزعاً لمستتر بني فقممت أنا وجلست مع عيساوي وكانت أمامه جريدة الصوت فتناولتها ووجدت البرقية قد نشرت فقلت ذلك لعيساوي فأخذ الجريدة هو بدوره منزعاً ودخل على مستر بني أيضاً وبقيت أنتظر وبعد لحظات طلب مني إدوارد أن أقابل المستر بني.

لم يطلب مني المستر بني أن أجلس وقد كان إلى جوار مكتبه كرسي فجلست عليه وأخذ يقول لي إن المؤتمر كما نقول إنه سيسير سيراً حسناً لكنه كل يوم يرتكب خطأ. فقلت ما هو الخطأ قال هذه البرقية التي أرسلت إلى علي ماهر وعلي ماهر « خلاص كرشوه » قلت والله لا يهمننا ولكن علي ماهر زارنا وأن نبدي له شعورنا فقال « عشان أداكم فلوس » فقلت نعم ولكن غيره لم يعطنا شيئاً وكان علي ماهر قد تبرع لبعض المدارس كالمجبأ. فقال المؤتمر يتدخل في السياسة قلت هذه ليست سياسة. قال إن الجرائد المصرية ستكتب وتقول إن المؤتمر يؤيد علي ماهر. قلت لا

يمكن لأنّ هذه البرقية ليس فيها شيء من ذلك قال أنا أعرف شوية سياسة. فقلت له أنا أيضاً أعرف شوية سياسة. قال الناس راح يقولوا أنتم خلاص مع المحور فقلت هل كل من أرسل برقية لعلي ماهر أو زاره بعد إخراجهم يعد مع المحور؟ فقال ما في شك. فقلت له إذا قائد قواتكم مع المحور لأنّه كما ذكرت الجرائد زار علي ماهر ووضع له كرتاً قال هو صديق فقلت ونحن أيضاً أصدقاء.

بعد ذلك قال إنّ سير رفع الأمر إلى السكرتير الإداري إذا كان يوافق على إرسال البرقية قلت له من جانبنا فإنّ البرقية أرسلت واستلمنا الوصل ونشرت في الجرائد قال أنا أوقف الجرائد في حلفا قلت له هناك مصريون في السودان وأنا لن أخطر اللجنة بهذه المقابلة وسأخبرهم بأنّي أرسلت البرقية وهنا وقف المستر بني واتّجه نحو باب يفتح على غرفة أخرى وبالقرب من الباب دولا ب صغير على ظهره سيف من السيوف الصفراء التي تمنح للعمد والنظار واستلّ السيف ولوّح به وكنت أنا قد وقفت أيضاً واتّجهت إلى الباب أريد الخروج فلما أخرج السيف قلت له بالعربي ماذا؟ هل تريد أن تبارز؟ فقال لا لا ما فيش حاجة وخرجت من الباب غير مُعترف ولا مُقر باستشارة السكرتير الإداري ولذلك ذهبت البرقية واعتبروا هذه أخطاء المؤتمر.

شركة السينما الوطنية

لا شكّ في أنّ الكثيرين من أبناء هذا الجيل لا يعلمون أو لا يذكرون كيف نشأت شركة السينما الوطنية والعقبات التي وقفت في طريقها والأسباب التي دفعت الناس إلى تكوينها.

قامت جماعة من الشباب لعمل سوق خيري لصالح المشاريع التعليمية الثلاثة المدرسة الأهلية، ومدرسة الأحفاد، وملجأ القرش، وبذل جهد كبير حتّى نجح السوق

وقبل أن تسلّم المبالغ المجموعة إلى أصحابها أيّ القائمين على تلك المشاريع فكّرنا في أن ننشئ داراً للسينما في أم درمان يكون أساس رأس مالها هو المبلغ المجموع وعندما جئنا في حفل صغير أقيم في نادي الخريجين بأم درمان ليسلمنا فيه مفتش المركز الشيكات بدأنا نتحدث عن الفكرة وانتقلنا إلى تحديد المكان الذي يمكن أن نقيم فيه السينما.

ووقع اختيارنا أول الأمر على الميدان الذي كانت تقوم فيه سينما برامبل وقد كانت فيه مكبرات الصوت ليستمع الجمهور منها إلى إذاعة مسجلة من البوستة وكان اعتراض المفتش إن هذا المكان معد ليستمع منه الجمهور إلى الإذاعة دون مقابل فلا يوافق على أن تنشأ فيه داراً للسينما بالأجر ثم أن هذا الميدان هو المتنفّس الوحيد في هذه المنطقة.

فانتقلنا منه إلى دار واسعة تقع غرب هذا الميدان وكانت لرجل اسمه الشريف الحسين ولكن اعترض المفتش على أن إقامة دار للسينما في هذا المكان سيكون مثار إزعاج لمرضى مستشفى الإرسالية خصوصاً في الأيام التي تهب فيها الرياح من الشمال. فانتقلنا إلى الحديث عن ميدان « الملجة » وهو الذي أقيمت فيه أسواق مؤقتة وكانت آنذاك تقف فيه عربات الكارو ويبيع فيه القش فاعتراض المفتش أيضاً لأنّه الميدان الوحيد لهذا الغرض ولا يمكن تحويل العربات إلى مكان آخر.

وقلنا للمفتش إنّ للبربر دارين أمام نادي الخريجين بهما الآن الأجزخانة وعيادة لأحد الأطباء وبالرغم من صغر حجم هذه القطعة فإننا سنرفع جدران السور حتّى لا يرتفع الصوت واعتراض أيضاً المفتش.

هذا الحديث قد دار بعد أن رفض مبدأ استثمار المال المجموع في إقامة سينما وقال إنّ القانون لا يسمح باستثمار الأموال العامة إلّا في المشاريع المضمونة الربح أمّا السينما فلم تعتبر إلى ذلك الحين وحتى في إنجلترا من المشاريع المضمونة الفائدة. وهنا تقدّم كل من البربر وسوار الذهب وأحمد حسن عبد المنعم وقالوا إنهم على استعداد لإقامة السينما على حسابهم الخاص على أن يكون ربع الدخل للمشاريع الثلاثة دون مقابل ومع هذا فقد خلق المفتش كل تلك الاعتراضات التي جعلت المشروع مستحيلاً.

وكانت بأم درمان سينما واحدة هي سينما برامبل وكان مكانها مكان الدكاكين

الممتدة الآن من دكان عثمان حامد للراديو إلى ترزي المؤتمر وكانت الدار ملكاً للمستتر قطان فلما احتاج إليها أنذر صاحب سينما برامبل قديس أفندي عبد السيد ليبحث له عن مكان مناسب.

وكثاً في المؤتمر نرقب هذه الحركة وكما كثاً في المؤتمر كذلك لنا صوت في تلك المؤسسة ومّرت أشهر على هذا الحادث وإذا بالحكومة ودون إعلان قانوني تعطي ميدان البوستة للسيد قديس عبد السيد ليقيم عليه السينما وذابت كل الاعتراضات التي أبداها المفتش على مشروعنا قبل ذلك وثار الناس لهذا التصرف خصوصاً وأن القانون يقول: « لا تباع أراضي الحكومة إلا إذا أعلن عنها بالمزاد العلني ».

ورفع المؤتمر مذكرة للحاكم العام وأرسل أزهرى برقيته المشهورة التي يقول فيها عبارة معناها إذا افتقدنا العدالة في الأرض فسنطلبها من السماء رفع المؤتمر المذكرة وعدّد فيها الأخطاء التي ارتكبت وأتهم الحكومة بأنها تقيم نوعاً من الاحتكار إذ تقفل أبواب العمل دون أناس وتفتح لآخرين.

ورد الحاكم العام وقال إن الأرض بيعت دون قرار ودون إعلان للسيد قديس لأنّ صاحب سينما قائمة ولأنّ صاحب الملك قد أصرّ على إخراجه ولأنّ السينما أصبحت ضرورة للجمهور لذلك أثرت الحكومة إعطاء الأرض دون مزاد أو إعلان حتّى ينقل إليها آلاته التي تعمل الآن.

ونفى الحاكم العام أنّ يكون في فكر الحكومة خلق أيّ احتكار وقال إنّه يعلن أنّ الحكومة مستعدة لمنح التصديق لمن يتقدّم لإقامة سينما بالشروط المطلوبة من ناحية القانون.

وسررنا لهذا التصريح الذي أعلن استعداد الحكومة لمنح التصديق لإقامة دار للسينما وبدأنا نرقب الظروف المناسبة.

وجاء الوجهه علي بك البرير إلى السودان في زيارة وكانت زيارة البرير إلى العاصمة موسماً للحفلات العديدة التي تقام لتكريمه للخدمات التي كان يقدمها للسودان وللسودانيين بمصر بل وقد كان البرير ممثل السودان غير الرسمي في مصر وكان يبذل الكثير من وقته ونشاطه وماله لإبراز السودان في مصر ولتقديم كل المساعدات والخدمات للسودانيين الذين يزورون مصر لمختلف الأغراض والأسباب وعلى رأسها التعليم.

وأقام حفلاً من هذه الحفلات المرحوم معني محمد حسن في داره وجمع الغداء عدداً كبيراً من الشخصيات البارزة من تجار وموظفين وأغرانا هذا الاجتماع بعرض فكرة تكوين شركة للسينما وفعلأ بدأ الحديث أحمد خير مع عبد المنعم محمد وراقت الفكرة لعبد المنعم. فانتشرنا في الغرف المختلفة نقول إنَّ هناك فكرة لكذا وقد أئدها السيد عبد المنعم محمد ولم ينته الغداء حتَّى أحسنا بأنَّ الفكرة تجد قبولاً من كل الحاضرين وقرَّرنا في الحال أن يجتمع المؤتمر وأن يعمل على تكوين هيئة من التجار نطعمهم ببعض الخريجين لإبراز الفكرة إلى حيز العمل. وتَمَّ الاجتماع الأول وانتخب فيه من أنتخب من تجار أم درمان الذين أشاروا بدعوة إخوان لهم من الخرطوم والخرطوم بحري واختارنا السيد درديري أحمد إسماعيل ليكون القانوني المنفذ والمشرف على الفكرة ثُمَّ تَخلى المؤتمر عن الموضوع بعد أن أسنده إلى الذين يستطيعون إنجازه وهكذا بدأت وقامت شركة السينما الوطنية التي أصبح لها عدد من الدور في العاصمة وغير العاصمة. تلك من ثمرة من ثمرات المؤتمر العديدة.

النشاط السياسي للسافر

« الاتحاديون »

الاتحاديون في الأصل هم الأبروفيون وقد ذكرت كيف أنَّهم سمووا بهذا الاسم. وهم جماعة جمع بينهم الأدب والسياسة والجوار والصدقة منذ عهد الدراسة وسموا بالأبروفيين نسبة إلى حي أبي روف ولو أنَّهم ما كانوا جميعهم من حي أبي روف فمكاوي سليمان مثلاً أو المرحوم عبد الله ميرغني ما كانا من سكان أبي روف.

والأبروفيون جمعت بينهم أيضاً جمعية القراءة وكانت هذه الجمعية تجمع الأبروفيين وغير الأبروفيين وكان هناك لقاء تام بينهم في الوطنية وفي الأدب ولكن كان لبعضهم نشاطهم الخاص في السياسة والسياسة التي تعمل في السر. وبرز الأبروفيون مع إخوانهم في جميع المجالات تجمع بينهم صلاتهم المختلفة وأصبحت مدرسة أبي روف لها اتباع ومؤيدون في خارج حدود أبي روف بل وفي خارج العاصمة.

وعقب انتخابات المؤتمر سنة 1943م التي دخلها جماعة وزعوا نشرة يدعون بها لأنفسهم قالوا فيها جملة «ومن يتخلف تدوسه سنايك الخيل» فسماهم إخوانهم منذ تلك اللحظة «السنايك».

لفتت نشرة «السنايك» الأذهان إلى أن انتخابات المؤتمر يجب أن يدخلها الناس ببرامج وأهداف يلتزمون بتنفيذها للناخبين وتطوّرت الفكرة أخيراً إلى أن أصبحت أحزاباً تتعارف في انتخابات المؤتمر.

وكنت سنة 1944م في مصر وكنت أنزل في لكوندة في أول شارع عبد العزيز اسمها لكوندة ريش وكان يسكن فيها قبلي السيد محمود أحمد عبد الله - وهو من أقطاب الاتحاديين فيما بعد- للصدّاقة التي تربطه ببعضنا وكان محمود والمرحوم علي فراج سندا الحزب في القضاة.

وفي هذه اللكوندة اجتمعت بالأستاذ بشير محمد سعيد فمحمود أحمد عبد الله ابن عمه وكنا نعرف بعضنا على البعد ولعلّه كان في ذلك الوقت طالباً في المدارس العليا أو تخرّج منها حديثاً.

وجرنا الحديث عن السودان في السياسة وأخذ بشير يلومني بوصفي أحد الأبروفيين وبأننا لا نعرف الشباب ويعجب بنا وعدّد أسماء كثيرين من زملائه ولامني على أننا نتعارف لأول مرة هنا في مصر مع أننا في حي واحد.

وتحدّث في حماس عن تنظيم هذا الجهد المبعثر الذي نبذله وإنهم أيّ الشباب على استعداد للعمل وانتهى الحديث عند هذا الحد.

وكان بشير صديقاً لعبد الرحيم وشي فما كاد بشير يرجع من مصر حتّى تحدّث مع عبد الرحيم وذكر له ما دار بيننا في مصر ونقل عبد الرحيم الرأي لبقيّة الأبروفيين الذين لم يروا بأساً في عقد اجتماع لتكوين « جماعة » تعمل ببرنامج وتدعو لأهداف

ويلتف حولها الشباب عن بيئة لا مجرد تأييد عواطف يقوم على فكرة الصداقة أو صلة الجوار والحارة.

عقد اجتماعان تمهيديان لهذه الفكرة ثم وجهت الدعوة لعدد أكبر ولنترك دفتر محاضرات الاتحاديين يتكلم.

«وجهت الدعوة إلى لفيف من المعارف والأصدقاء ممن اتضح تقاربهم في الميول والأهداف في العمل لمصلحة البلاد عامة وبشأن مستقبل البلاد السياسي» وكان هذا الاجتماع في منزل المرحوم عبد الله ميرغني في 24 سبتمبر 1944م وكنت أنا مازلت بمصر.

وللتاريخ لا بأس من ذكر أسماء من اجتمعوا لتأسيس هذه الهيئة أو الجماعة التي سميت أخيراً بحزب الاتحاديين وهم:

إبراهيم يوسف- عبد الله ميرغني - حسن زيادة- محمد محبوب لقمان- محمد مصطفى عبد الواحد- ثابت حسن ثابت - بشير محمد سعيد- طه صالح بشير- الهادي أبوبكر إسحق- عبد الرحيم وشي - حسن أبو شمه - محمد خليل جبارة - عثمان عمر (أبو عفان) - محمد إبراهيم خليل- أحمد المرضي جبارة- إبراهيم عثمان إسحق- عابدين محبوب- إسماعيل العتباتي - حسن أحمد عثمان - محي الدين البربر- كيلاني عبد القادر- رشيد محمد خليل - حسن محمد الأمين - وقد تغيب خضر حمد بسبب السفر كما تغيب محمد عامر بشير ويوسف المأمون واعتذر مصطفى الريح.

هذا كان أول اجتماع تمخض عن حزب الاتحاديين وانضم إليهم آخرون وبدأوا يعملون لوضع المبادئ والأهداف وكونت لجان الاختصاص المختلفة.

والاتحاديون كانت تجمع بينهم فكرة سياسة قبل كل شيء وكان للطائفية شأن وكان الاتحاديون ينتمي أهل أكثرهم لإحدى الطائفتين ولكنهم نشأوا على فهم سليم وتعاونوا على اتجاه صحيح وهو البعد عن الطائفية واعتبارها أساساً من الأسس التي يعتمد عليها الاستعمار ويستخدمها لمصالحة ولتهديد الشعور والرضا بالواقع.

كان الاتحاديون لا يؤمنون بالطائفية على ذلك نشأوا وعلى هذا الهدى ساروا حتى أن الطائفية عندما أرادت أن تجعل منهم ستاراً تخفي وراءه لتحارب خصومها وتسند الاتحاديين في المعارك الانتخابية رفض الاتحاديون ذلك العرض شاكرين وفصلوا أن

يعملوا أحراراً ليصلوا ببلادهم إلى الحرية. الحرية المطلقة حرية الفرد في أن يتحكم في شؤون بلاده وحرية العقيدة وتحرير العقل.

والذي اتفق عليه الذين يعملون في الحقل السياسي والاجتماعي إن الاتحاديين كانوا أكثر من غيرهم فهماً سياسياً وأوفرهم علماً وأكثرهم إطلاعاً ولكنهم كانوا يعملون في ميدان السياسة بروح الوطنية والذي يريد أن يكون سياسياً يجب أن يكون أولاً يعرف كيف يتلون لكل ظرف ويكتف الظروف لمصلحته ولا تكيّف الظروف. كان الاتحاديون أصحاب مُثل وقد ظهر ذلك جلياً في برنامجهم وأهدافهم التي وضعوها والتي أصروا عليها ووقفوا عندها.

كانوا لا يعنون بالكم قدر عنايتهم بالكيف وهذا ما جعلهم أقل تأييداً شعبياً من سواهم وهذه بلا شك من أخطاء الاتحاديين السياسية كانوا قادة من غير شعب. ولذلك استفاد منهم الآخرون كثيراً واستطاعوا استخدامهم كلما حزب الأمر واضطربت الأمور وكان هذا لا يكلف كثيراً فأشفاق الاتحاديين على الوطن هو نقطة ضعفهم فإذا ما جاءهم أي أحد عن طريق ذلك الإشفاق استطاع أن يجدهم إلى جواره.

كانوا لا يبعدون عن الأشقاء من حيث المبادئ فكلاهما يحب مصر وكلاهما يرى الخلاص عن طريقها وكلاهما يحفظ لمصر جميلها لا على السودان وحده ولكن على الشرق والإسلام والعروبة ولكن يختلف الاتحاديون والأشقاء في أن الاتحاديين يقفون بصلابة عند المبادئ التي دونوها فكأنها قيس من التنزيل. والأشقاء كانوا أكثر مرونة سياسية وما استطاعت الأحداث أن تكسر حدة الاتحاديين إلا في مصر عندما وقف المصريون موقفاً واضحاً وهو أن القضية يجب أن يوحد شعارها في الجلاء والوحدة. قبل الاتحاديون هذا الشعار ولكنهم ظلوا يفسّرون الوحدة بالاتحاد الذي آمنوا به إيماناً لا يتزعزع.

الاتحاديون يحبون مصر ولكنهم يحبون السودان أكثر ولا يستطيعون أن يتساهلوا ولو قليلاً في أمر لا يضمن للسودان كيانه ووجوده وحقوقه وحرية وحدوده مقدماً حتى بني شنفول.

ولكن علمتنا الأيام أن الوطنية وحدها لا تجدي كما أن السياسة وحدها لا تجدي ولما استطعنا أن ندمج السياسة والوطنية أمكننا أن نحصل على شيء بل حصلنا على كل شيء وتحققت آمال الجميع.

حقيقة أنَّ الوحدة لم تتم وأنَّ الاتحاد لم يتم ولكن تمَّ الاستقلال وهو الطريق إلى كل ما يحقق الخير للسودان سواء كان في وحدة أو اتحاد ولا يقف في سبيل التعاون الذي يضمن للسودان كيانه وذاتيته وحرية ويجعله حراً طليقاً وكيف الأمور حسب مصلحته لا يوجهه أحد غير رغبة أهله ولا يقبل معاونة أو مساعدة يكون من ورائها مساس باستقلاله.

فدخل السودان جامعة الدول العربية وأصبح له صوت فيها كذلك هيئة الأمم وأصبح له صوت فيها.

مبادئ الاتحاديين

كانت مبادئ الاتحاديين في جملتها تؤمن إيماناً عميقاً بالاتحاد مع مصر ولكن هذا الاتحاد يجب أن يكون مشفوعاً بحق الانفصال ويشبهون ذلك الاتحاد بنظام الدومنيون الذي لا شك في أنه يتطوّر عن استعمار ولكنه أصبح أخيراً أصلح أنواع الاتحادات. وشرحوا كيف يصلون إلى ذلك الاتحاد وكيف يصفون الحكم الذاتي وقبل هذا وذلك أن يقر وضع الاتحاد المتفق عليه دولياً.

وهذا يوضّح حرصهم على حقوق السودان وفي نفس الوقت حرصهم على علاقتهم بمصر ويقولون إنَّ هذا النوع من الاتحاد قد يقود إذا ما صلح واتضح نفعه قد يقود إلى الوحدة التي تريدها مصر. وإذا برهنت التجارب على غير ذلك كان من حق السودان في الانفصال وقيامه بشؤون نفسه منفرداً مسجلاً دولياً.

والاتحاديون قد سبقوا الزمن بتفكيرهم فهم في سنة 1944م يتحدثون عن إيمانهم بالحرية الفردية وضرورة إنماء الشخصية الإنسانية ويتحدثون عن روح التسامح وعدم استغلال الشعب واضطهاد الطبقات. تحدّثوا عن وجوب تحقيق رغبة الأكثرية مع احترام شعور الأقليات واحترام رغباتها وجاء في مبادئهم:-

1. وضع الأسس التي تكفل توزيع الثروة توزيعاً عادلاً بين المواطنين.

2. تحريم الاحتكار.
 3. تحريم النظم الإقطاعية.
 4. تعميم الجمعيات التعاونية للمزارعين والعمال.
 5. تشجيع الملكيات الصغيرة في الأراضي.
 6. تسلّم المنافع العامة كالنور والماء ومصادر القوة ووسائل النقل للبلديات لتديرها للمصلحة العامة.
 7. توفير فرص العمل لكلّ القادرين وإدخال نظام الضمان الاجتماعي ضد التعطّل والمرض والشيخوخة.
- هنا بعض ما يرى الاتحاديون في ذلك الوقت أنّه من واجب الحكومة الانتقالية أو الحكومة الاتحادية القادمة.
- هذه الأهداف أو هذه الشعارات هي التي ينادي بها بعض الناس اليوم ويعتبرون ذلك تقدماً بينما كان ينادي بها الاتحاديون قبل ربع قرن من الزمان.

تقرير المصير

دخلنا انتخابات المؤتمر سنة 1944م وكانت نسبتنا في هيئته قليلة فاجتمعنا لندارس الموقف وكان ذلك في 12/9/1944م وكانت قد بدأت المناورات بين الأحزاب كل يريد أن يسود رأيه وأن يكون المصير المنشود هو ما يريد.

وفي هذا الاجتماع عرض علينا خطاب من القوميّين يدعون إلى اجتماع يعقد في دارهم ويقرر الاجتماع عدم تلبية الدعوة لأنّنا كنّا نعلم أنّ حزب القوميّين كان فرعاً من حزب الأمة.

وكان اتجاهه السياسي لا يختلف كثيراً عنه. ورأينا في حزب الأمة معروف وقائم على علم تام. فقد كان وراءه الإنجليز وهم الذين فرضوا عليه عبد الله خليل سكرتيراً وقام أصلاً ليكون تريباً للحركة الوطنية.

أما الدعوة للاستقلال والسودان للسودانيين فقد كانت دعوة حق أريد بها باطل وقد أنشأ الإنجليز من قبل حزب الأمة في مصر وحزب الأمة في العراق وبنفس الشعارات. وكنا نعلم أن حزب الأمة إذا كان جاداً في طلب الاستقلال التام فليس أمامه إلا الثورة على الحكم القائم والذي يسيطر عليه الإنجليز أما المصريون فلم يكن لهم من الحكم إلا علمهم.

وكنا أيضاً على علم بأن أقطاب حزب الأمة من المتعلمين كانوا يؤمنون بالإنجليز ويتقنون فيهم ويأملون في أن يدرّبهم الإنجليز ويسيروا بهم إلى الأمام. هذا إلى جانب إيمان رجال حزب الأمة بأن الإنجليز خلقوا التيجان في الشرق وليس من العسير أو البعيد أن يقيموا لزعيمهم تاجاً في السودان.

ونأقل هنا البند الثالث من قرارات اجتماع الاتحاديين في 44/12/9

« (3) نظر الحزب في موقفه من هيئة المؤتمر الجديدة وموقفه من الأحزاب القائمة فقرّر أن تنتدب السكرتارية مندوبين ليتصلوا بجماعة الأحرار وجماعة الأشقاء وأن تكون مهمة المندوبين مع الأحرار هي إقناعهم بضرورة تأييدهم للأشقاء في الهيئة إذا ما تقدّم الأخيرون بتسجيل رأي المؤتمر عن مستقبل السودان على أساس الاتحاد مع مصر حتّى يكون رأي المؤتمر فيما يخصّ الاتحاد مع مصر قد فاز بأغلبية أعضاء الهيئة على الأقل.

وأن تكون مهمة المندوبين مع جماعة الأشقاء هي توضيح أهمية تسجيل رأي المؤتمر عن مستقبل السودان السياسي على أن يكون في اتحاد مع مصر وأن يسجل هذا الرأي في هذه الدورة حتّى يصبح هذا الاتحاد مبدءاً المؤتمر الرسمي. وعلى نتيجة هذه المساعي ومدى استعداد الفريقين للتمسك بمبدء الاتحاد مع مصر سيحدد حزبنا موقفة منهما.

وقبل أن نسير في هذا الموضوع خطوات ظهر حزب الأمة وظهر ليعمل خارج المؤتمر ووضحت صلته بالإنجليز كما أسلفنا ونبت عند الأشقاء رأي جديد هو دمج هذه الأحزاب الثلاثة ذات الاتجاه الموحد في حزب واحد. ووجهت دعوة من بابكر

قباني سكرتير جماعة الأشقاء لهذا الغرض وهذا ما دون في محضر جلسة الاتحاديين بتاريخ 13/6/1945م.

أدلى السكرتير بما دار في دعوة وجهت من بابكر قباني سكرتير حزب الأشقاء بداره يوم الخميس أول مارس سنة 1945م الساعة السادسة مساءً لأعضاء من ثلاث جماعات بصفتهم الشخصية حضرها من الاتحاديين خضر حمد وحسن أحمد عثمان وعبد الله ميرغني وإبراهيم يوسف وتخلف عبد الرحيم وشي كما حضرها من الأحرار محي الدين البربر وعبد الرحيم شداد وتخلف سنجاي وإبراهيم أحمد حسين وحضرها من الأشقاء إسماعيل الأزهري ومحمد نور الدين وأحمد يس ويحي الفضلي ومحمود الفضلي كما حضرها علي طالب الله.

وقد افتتح الحديث صاحب الدار وتولّى الشرح يحي الفضلي وكان التفكير يرمي إلى إدماج الجماعات الاتحادية الثلاث في جماعة واحدة للقضاء على احتمال قيام منازعات حزبية بينهم من جهة وللاستفادة من نشاطهم المشترك في مكافحة الخطر البادي من حزب الأمة من جهة أخرى.

وبعد أن تناول البحث جميع الحاضرين أجمعوا على أن ذلك الحزب قد أخذ لنفسه صورة سياسية خطيرة تعمل بمفردها بعيداً عن المؤتمر وقد بدأت لها اتصالات رسمية مع الحكومة بشأن مصير السودان السياسي مدعية تمثيل الأمة وهي بذلك تعتبر متحدية للمؤتمر محاولة انتزاع اختصاصاته الطبيعية باعتباره مركز الحركة الوطنية في البلاد. ومن الأراء التي قيلت إنَّ العضو الاتحادي حسن أحمد عثمان قال إنَّ فكرة إدماج الجماعات الثلاثة في حزب واحد لا بأس بها في رأيه الشخصي إذا وافقت الجماعات على قبول مباديء الاتحاديين بتفصيلاتها كأساس للبحث في صياغة المبدأ الذي تندمج عليه الجماعات الثلاث.

وقال أحد الأعضاء الأشقاء إنهم لا يمانعون في اتخاذ مباديء الاتحاديين أساساً للبحث ولكنهم لا يرضون أن يكون قبول تلك المباديء بتفصيلاتها شرطاً لاتدماج الجماعات الثلاث.

وقال العضو الاتحادي عبد الله ميرغني إنَّه يرى أن تتساند الجماعات الثلاث حتي يصدر المؤتمر قراراً معبراً عن أهدافها وبذلك يكون المؤتمر نفسه هو الحزب الذي تندمج فيه الأحزاب وسأل العضو الاتحادي خضر حمد عن مصير المسمى الأول

الداعي لإصدار وثيقة مشتركة تُعبّر عن أقصى ما يتفق عليه الجماعات الثلاث فأجاب يحيى الفضلي عضو الأشقاء بأن ذلك المسعى مقبول من الأشقاء بالإجماع وأن فكرة اندماج الأحزاب الثلاثة إنما هي خطوة ثانية أوسع لمواجهة الظروف المحيطة بنا الآن فإذا ما فشلت فكرة الاندماج عدنا إلى الخطوة الأولى لإصدار الوثيقة.

وبعد أن عرض السكرتير على الاجتماع الكلام السابق وهو ما دار في الاجتماع بمنزل بابكر قباني قرّر الاتحاديون في نفس اجتماعهم ما يأتي:-

أولاً - أن فكرة إدماج الأحزاب الثلاثة في حزب واحد تعتبر سابقة لأوانها وبدراسة الأسباب الدافعة لهذه الفكرة يرى المجلس أن الحكمة تقتضي بقاء هذه الأحزاب الثلاثة كما هي لا تندمج في حزب واحد.

ثانياً - يرى المجلس ضرورة الانتهاء من الخطوة الأولى وهي الصيغة المشتركة من الجهات الثلاث والتقدم بها إلى المؤتمر كاقترح مشترك من هذه الجهات فإذا ما درسها المؤتمر وقدمها إلى الهيئة العامة فأقرتها أعتبر ذلك تفسيراً لبند تقرير المصير الذي جاء في المذكرة.

ثالثاً - الاتحاديون مستعدون لبذل أقصى ما وسعهم للتعاون مع غيرهم لدرء أي خطر يمس مبدأ الاتحاد.

الوثيقة

وحملت قرارات الاتحاديين الثلاثة الأخيرة إلى زملائهم الأشقاء الأحرار وانتهى الأمر على تقديم أمر الوثيقة وعلى إعدادها والبدء بها قبل اندماج الأحزاب الثلاثة. وفي 27 مارس سنة 1945م وقع على الميثاق وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

ميثاق الجبهة الاتحادية

يقوم هذا الميثاق بين الجبهة المؤتلفة المكوّنة من الجماعات المؤتمرة الثلاث الأشقاء والاتحاديين والأحرار كعهد يؤكدون فيه وحدة رأيهم واتجاههم في شأن مستقبل بلادهم السياسي وارتباطهم وتكاتفهم في العمل على تحقيق هذا المبدأ بتوحيد جهودهم وتنسيق خططهم وبذلهم أقصى مدى الجهد والتعاون والتضحية في هذا السبيل.

ويقطعون بذلك عهداً على أنفسهم أن يسيروا جنباً إلى جنب وبدأ في يد كتلة متماسكة وراء مؤتمرهم العتيد لتحقيق هذا المبدأ الذي اقتنعوا وأمنوا بعد البحث والرؤية وتلمّس الرأي والاتجاه الصحيح للبلاد إنّه المبدأ الذي يفصح عن رغبات البلاد الحقيقية والذي يحقق لها مصالحها ويكفل لها حريتها ورفاهيتها ويضمن لها الاتحاد والتعاون الوثيق مع مصر.

المبدأ

« قيام حكومة سودانية ديمقراطية في اتحاد مع مصر تحت تاج واحد »
ووقع على هذا الميثاق كل من السادة - إسماعيل الأزهري ويحيى الفضلي ومحمود الفضلي ومحمد نور الدين وأحمد محمد يس عن الأشقاء.
كما وقع كل من السادة - عبد الله ميرغني وخضر حمد وإبراهيم يوسف وحسن أحمد عثمان وعبد الرحيم وشي عن الاتحاديين. والسادة أحمد محمد علي السنجاوي ومحبي الدين البربر والطبيب محمد خير وعبد الرحيم شداد وأحمد عوض عن الأحرار.
وعلى هذه الوثيقة التي قدّمت للمؤتمر فتيناها ودرسها وقدمها إلى الهيئة العامة قام المؤتمر في تفسير نوع المصير الذي جاء ذكره في مذكرة سنة 1942م.
وبعد هذا القرار من جانب المؤتمر انسحب أعضاء حزب الأمة الذين كانوا في هيئة المؤتمر وبدأ العراك سافراً.

وقد ذكرت في مكان آخر كيف سارت الأمور بعد ذلك وكيف تكوّن وفد السودان الذي ذهب إلى مصر ممثلاً لجميع الأحزاب ثمّ انسحب حزب الأمة بعد أن وافق على أن ينادي الوفد بالوحدة والجلاء.

حزب النهضة

قبل أن يظهر حزب الأمة وتظهر الشعارات المختلفة عن المصير المراد للسودان كانت هناك محاولات من جانب الأنصار يقف إلى جانبها الإخوان الذين تمخّص عنهم أخيراً حزب الأشقاء وكان التعاون بين هؤلاء والأنصار تاماً وكان الأنصار في انتخابات المؤتمر يحشدون لحساب هذه الجماعة وكان بعض أفراد هذه الجماعة يهين اجتماعات أدبية تلقى فيها القصائد الطوال أمام سيادة السيد عبد الرحمن المهدي. والسيد عبد الرحمن طيّب الله ثراه رجل طموح ومن حقه وواجبه أن يكون طموحاً وأن يتطلّع إلى المجد فهو لا ينسى ولا الآخرون ينسون إنه ابن من حرّر هذه البلاد وطهرها من الأجنيبي. وطموح السيد عبد الرحمن يتبعه ذكاء ويتبعه كرم ويتبعه سماحة خلق وكان يبذل بذل من لا يخشى الفقر ليكسب الرجال وكان براً وفياً بأصدقائه ومن يلتفون حوله.

حدث أن عُقد اجتماع في أحد منازل السيد عبد الرحمن ونوقش فيه موضوع اشتراك السادة الثلاثة في المؤتمر وذلك بأن يتقدّم المؤتمر للسادة الثلاثة السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي بأن يشتركوا في المؤتمر وانتقل هذا الحديث إلى لجنة المؤتمر بعد تخطيط وكان هناك رأيان الأول يقول إنه من الخطورة بمكان أن نتقدّم بمثل هذا الطلب للسادة فإذا قبل بعضهم العضوية واعتذر عن عدم قبولها بعضهم فسر ذلك بأن الذي اعتذر لا يؤيد المؤتمر وهذا ما ستفهمه جماهيره بينما يتمتع اليوم المؤتمر بتأييد الجميع لأنه لم يعلن أحد السادة عدم تأييده للمؤتمر. واحتمال قبولهم الثلاثة ضعيف وأقوى منه احتمال رفضهم الثلاثة وبعد نقاش طويل أذكر منه أن السيد ميرغني حمزة كان أوضح إخواننا الكبار في لجنة المؤتمر إذ قال إن المؤتمر قام ليتولّى زعامة البلد السياسية فكيف يلوذ بالسادة في حركته ويطلب تأييدهم وهو يرمي إلى انتزاع تمثيل البلاد منهم.

وحقيقة الأمر كما ذكرت آنفاً إنّ الاجتماع الذي عقد في أحد دور السيد المهدي كان يسير على خطة ظلّها مضمونة وهي أن يقرّر المؤتمر التقدّم للسادة ليشتروا في المؤتمر ومن المؤكد أن يرفض السيد علي الميرغني والشريف يوسف الهندي ويقبل السيد عبد الرحمن وبذلك يفرض نفوذه بطريقة أو أخرى على مؤتمر الخريجين الذي يضم الطبقة المتعلّمة.

ولكنّا قرّرنا في لجنة المؤتمر وبعد نقاش طويل لا أريد أن أحلل اتجاهاته الخفية ولكن كسبنا الجولة بأنّ قرّر المؤتمر أنّ بابه مفتوح ولمن يحق له الاشتراك أن يتقدّم وسنفض طلبه فإنّما أن يقبل أو يرفض.

وفد السودان

كانت مصر في الأعوام من سنة 1946 إلى 1948م ميدان العمل السياسي للسودانيين انتقل إليها بانتقال وفد السودان الذي قوبل بحذر شديد من الشعب المصري وبخوف من الحكومة المصرية وكان على رأسها آنذاك إسماعيل صدقي باشا وكان على وشك الدخول في مفاوضات مع اللورد ستانقيت.

هذا السبب هو الذي دفع بالمؤتمر إلى التفكير في تكوين وفد يقوم إلى مصر بوصفه ممثلاً للسودان وأمانيه.

استطاعت الحكومة المصرية أن تشوّش على الوفد السوداني وحاول صدقي باشا عن طريق الأستاذ محمد عبد الهادي الذي كان مشرفاً على التعليم المصري بالسودان، أن ينزل الوفد في الجيزة بدلاً من محطة القاهرة وقد فطن لهذه القصة السودانيون الذين كانوا بمصر وعلى رأسهم علي بك البرير الذي احتدّ مع عبد الهادي بك وأصرّ على نزول الوفد في محطة القاهرة.

وفي القاهرة استقبل الوفد استقبالاً لا بأس به ولا أقول استقبالاً حاراً كما كنّا نتوقع. فالوفد المصري كان في المعارضة ولكنّه لم يتحمّس للوفد السوداني لأنّ الأخير جاء بشعارات لم تجد ترحيباً من المصريين جميعاً حكومة وشعباً وأخذت بعض الصحف تشكك في الوفد وتساءل هل حقيقة أعطي الإنجليز لأعضاء الوفد جوازات تمكّنهم من السفر إلى روسيا.

لقد جاء الوفد ليطالب بقيام حكومة سودانية في اتحاد مع مصر وتحالف مع بريطانيا وهذا التحالف هو الذي أصرَّ عليه حزب الأمة وكان المطلب الذي لا ينضمون إلى الوفد إلا به.

وهنا لا بدَّ من الرجوع إلى الوراء قليلاً لمعرفة الطريقة التي تألف بها وفد السودان والمساومات التي سبقت تكوينه والشعارات التي ذهب بها إلى مصر ليكون على قرب من المفاوضات ويسمع المفاوضين صوت السودان.

ففي صباح أحد الأيام والصباح المبكر زارني السيد محمد نور الدين ليقول لي إنهم في المؤتمر قرروا إرسال وفد من السودان وإن الاختيار قد وقع عليّ لأمثل الاتحاديين ومعني إسماعيل العتباتي ولكن كيف تمَّ هذا الاختيار ودون مشورة الاتحاديين أنفسهم كان هو موضوع السؤال الأول والسؤال الثاني هو من قال إن وفداً يكون هكذا سيكون ممثلاً تمثيلاً صحيحاً؟ سيكون هذا الوفد وفداً اتحادياً فقط وهذا ما سيضعفه ويجعل الإنجليز يرسلون بوفد آخر.

واتفقنا على أن نجتمع في منزله مساءً بأمر درمان وكان هو آنذاك مديراً للبنك الأهلي المصري فرع أم درمان.

وفي المساء اجتمع المختارون ليكون منهم الوفد وأثيرت جميع الاعتراضات على التكوين بتلك الصورة واتفقنا على أن يبذل المؤتمر جهداً ملموساً لضم جميع الأحزاب حتى يكون الوفد ممثلاً للسودان وتسمع كلمته.

كنت على وشك الذهاب إلى مصر ولذلك لم أشترك في محاولات تكوين الوفد ولكن ظهرت في الجو حمامات السلام يقودها الأخ عبد الماجد أحمد وانتهت المحاولات إلى ضمِّ الأحزاب الأخرى وهي حزب الأمة والأحرار والقوميين وانتهت تلك المحاولات أيضاً إلى تحوير الشعار الذي يذهب به الوفد فأصبح « قيام حكومة سودانية في اتحاد مع مصر وتحالف مع بريطانيا» بدلاً من الشعار الاتحادي الأول « قيام حكومة سودانية في اتحاد مع مصر تحت التاج المصري ».

كنت قد سبقت الوفد إلى مصر واستقبلته في القاهرة.

وصل الوفد إلى مصر ورفض صدقي باشا أن يعترف به ممثلاً للسودان وأن يجلس على مائدة المفاوضات بدعوى أن الوحدة قائمة وأن صدقي يتحدث عن مصر والسودان وفي جلوس الوفد السوداني اعتراف بوجود كيان سوداني منفصل.

وأتجه الوفد إلى المعارضة، الوفد المصري برئاسة النحاس باشا والكتلة برئاسة مكرم عبيد باشا وأيدت المعارضة الوفد لا إيماناً برسالته ولكن إخراجاً لحكومة صدقي والدليل على ذلك أن المفاوضات بدأت بعد حين بين الوفد السوداني والمعارضة ووضح أن المعارضة لا ترضى بأن تربط القضية إلا إذا وافق وفد السودان على شعار الوحدة والجلاء. وتذاكر رجال الوفد السوداني الأمر فيما بينهم ثم رجعوا إلى أحزابهم في الجبهة الوطنية وقبلوا الشعار الجديد بما فيهم حزب الأمة. ولكن بعد محاولات في السودان رجع ممثلو حزب الأمة منسحبين من وفد السودان واستأنف باقي أعضاء الوفد جهادهم. لقد كان الوفد مؤيداً تأييداً مطلقاً من السودانيين وكانت التبرعات تنهال على الجبهة الوطنية التي كوّنت من جميع الأحزاب كما كوّن الوفد وكانت على اتصال دائم به كما كان هو على اتصال دائم بها يرفع إليها ما يصل إليه ويستوحىها التوجيه في كثير من المسائل.

الاتجاهات نحو العرب والعروبة

إن فكرة القومية العربية وتعزيزها والوحدة العربية والدعوة لها كانت تملك على تفكيري ولم يكن آنذاك للقومية العربية أو الوحدة العربية إلا أنصار قلائل من أشهرهم عبد الرحمن عزام باشا الذي كان يدعو للوحدة العربية حتى أن سعد زغلول قال له مرة « صفر زائد صفر يساوي أيه يا عبد الرحمن » وهو يرمي بذلك إلى أن البلاد العربية مازالت أصفاراً ووحدتها لا تنتج إلا صفراً. وبالرغم من ذلك فإن عزام وغيره من دعاة الوحدة العربية لم يثبط من همتهم هذا القول وكان عزام قد حارب في صفوف المجاهدين في ليبيا وهو مصري وحكم عليه بالإعدام من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا. ولست أدري الدوافع التي وجهتنا هذه الوجهة ولعل وجودنا في أفريقيا وشعورنا

بأننا لا صلة تربطنا بالعرب والعروبة جعلتنا نسعى لربط أواصرنا بالعرب ونحاول أن نقول لكل عربي «نحن هنا» عرب مثلكم تراثنا وتاريخنا تاريخكم وليس العبرة بالوضع الجغرافي ولكنها بالتاريخ والتراث والدم.

لقد كانت محاولاتي التي قمت بها في البلاد العربية وما كتبتة عن السودان في صحف العراق أو فلسطين أو مصر للتعريف بالسودان ما هي إلا وليدة هذا الشعور أو الإيمان بالقومية العربية ووحدة العرب.

ولعلّه من المناسب وقد كنّا نتحدث عن القومية العربية والوحدة العربية قبل أن يتجه الناس والساسة هذا الاتجاه لعلّه من الخير أن نذكر تأييداً لدعوانا هذه شيئاً من الوثائق التي تؤيد وتؤكد ما ذهبنا إليه.

ففي سنة 1936م كنت أكتب في الرابطة العربية التي يصدرها أمين سعيد المؤرخ العربي الذي كتب كثيراً عن الثورة العربية الكبرى وأسرارها، كتبت في الرابطة معروفاً بالسودان وعروبه ووطنية أهله وكفاحهم في سبيل التحرر واقترحت في إحدى كتاباتي أن تقوم مجلة الرابطة بالإعداد لرحلات للبلاد العربية يقوم بها الشباب من مختلف بلاد العرب لزيارة بلاد العرب لخلق صلات روحية وودية بين أبناء المستقبل وقد كتب إلي الأستاذ أمين سعيد الخطاب التالي وفيه يشرح الظروف التي حالت دون الإعداد لهذه الرحلات ويبين لي طريقة السفر إلى العراق وكنت أعزم السفر إليها.

خطاب أمين سعيد

حضرة الأخ الفاضل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد فقد تشرفت بكتابكم الكريم فشكراً لكم على حسن ظنكم وقدرة العاطفة التي يجيش بها صدركم حق قدرها فبارك الله فيكم وأكثر من أمثالكم. وقد نشرت الجزء الأول منه الخاص بالسودان والعروبة والاقتراح عن الرحلات يصدر في العدد المقبل 19 وعلمت عليه بأنني فكرت في ذلك ولكن ثورة فلسطين هي التي حالت بيننا وبين تنفيذ خطتنا وأخرت عملنا ونرجو أن يتم ذلك في السنة المقبلة إن شاء الله.

رداً على أسئلتكم أقول إنَّ أجرة السفر من القاهرة إلى بغداد بالدرجة الثانية ذهاباً وإياباً لا تزيد عن 12 جنيهًا والحياة في العراق رخيصة جداً ولا تزيد عن نصف جنيه يوميّاً للمتوسط وقد يمكن تخفيضها والمدة تحدد بحسب الحاجة.

أظن أن أفضل شهر لزيارتك في العراق هو شهر أكتوبر أو نوفمبر ففيه يعتدل الجو كثيراً حتّى يعادل جو مصر في مثل هذه الأيام. أمّا الشتاء فبارد وأمّا الصيف فهو كجو السودان.

أمّا « استغراق الرحلة » فإذا أردتم به المدة اللازمة للوصول من القاهرة إلى بغداد يكفيها ثلاثة أيام - والإقامة هناك تقدر بحسب الحاجة كما قلت.

أشكركم على بياناتكم الخاصة بالزعامات في السودان ولا بدّ أنكم لاحظتم أنّنا اتبعنا رأيكم فأقفلنا الباب في الساعة الأولى ولم نقبل أخذاً ورداً لأنّ الموضوع ليس من موضوعاتنا.

أرجو دوام عطفكم وتشريفي بأوامركم وخدمتكم أدامكم الله وحفظكم وأبقاكم.

1936/9/20م.

المخلص

أمين السعيد

وفي سنة 1936م وقبل أن أذهب إلى العراق كنت على صلات بيعض الإخوان العراقيين وعملت على إيجاد صلات بينهم وبين شباب السودان وفي الخطاب التالي الذي كتبه إليّ رفيق نوري السعيد المحامي ما يدل على مدى اهتمامنا بالقومية العربية ووحدة البلاد العربية والعمل لها.

بغداد في 1936/7/7م

عزيزي الأغ الفاضل خضر حمد المحترم

وصلني كتابكم المسر ولا يسعني إلّا أن أشكر محبتك وروحك الفاضلة كثيراً جداً لا شكّ إنّنا جميعاً من أرومة واحدة تجمعنا القومية العربية ورابطة الدين والتاريخ مهما تباعدنا عن بعضنا البعض بتأثير الإقليم الجغرافي. قرأت كتابك يا أخي العزيز

بإمعان وروية ولا أريد أن أذكر لك إنني تلمست فيه روحك الوطنية الوثابة وأخلاقك الكريمة الفاضلة بشكل محسوس جداً فطوبى لك من أخ عزيز ومرحى لما بين أبناء العرب من عواطف سامية رقيقة تتسرب إلى بعضهم البعض من أقاصي الجنوب إلى أقاصي الشمال ومن أقاصي الشرق إلى أقاصي الغرب. أقول هذه الكلمة ليس لأنني أقصد حضرتك فقط إنما أقصد هذه العواطف التي أراها بين وقت وآخر بين أبناء العرب في مكاتباتهم الخصوصية وفيما أقرأه على صفحات الصحف السيارة ولا غرو أن الطريق الذي يسكب فيه القلم لعباه على القرطاس على شكل كتب خصوصية ومقالات وأبحاث ضافية في القومية وتاريخ القومية. لهو أحسن طريق يسلكه أبناء الأمة الواحدة مهما كانت الظروف السياسية القاهرة تفرق بينهم وتحاول أن تشتت شملهم بكل ما لديها من الوسائل.

وعندي أن كتابك هذا قد أنبأني بأسمى العواطف من شاب عربي أتمني أن يسود الشباب العربي مثل هذه العواطف السامية في كل زمان ومكان ومثل هذه العواطف هي التي تبعث على الغيرة والاتحاد وتضرب على الاستعمار الغاشم الضارب أطنانه في البلاد العربية بيد من حديد.

الأخ شوقي يشغل وظيفة (قائم مقام) في قضاء الهاشمية التابع للواء الحلة وكنت أود أن أسأله عنك وعن المناسبة التي كانت سبباً في تعارفكم والولاء بينكم فلم أوفق لأنّه في مقر وظيفته وأنا في بغداد وكل مشغول بشغله.

أما أنا فلا أرغب في التوظف بالوظائف الحكومية وكل ميلي أن اشتغل في المهن الحرة واعتقد أن مهنة المحاماة التي أزاؤها هي أشرف المهن الحرة الموجودة في العراق والربح فيها يعون الله ليس بالقليل. ولست أنا وحدي في هذه المهنة إنما لي أخ واسمه شفيق نوري السعيدى هو محام قديم وعهده بالمحاماة منذ 14 عاماً أصبح فيها من المحامين الطيبين ببغداد.

كم أود أن تستمر بنا المكاتبة - على طول - وكم أود أن يساعد الحظ على اللقاء في يوم من الأيام فقد بلغت سلامك إلى الأخ المحامي مظفر فهمي والأخ المحامي توفيق صالح والأخ الدكتور عبد الحميد القصاب فهم يبادلونك التحيات الطيبة أيضاً. أرجو أن تبلغ تحياتنا إلى الأخ عبد الله ميرغني الموظف بالمراجعة بالخرطوم وإلى الأخ إبراهيم يوسف الموظف بالمخازن بالخرطوم بحري وإلى الأخ علي محمد

أحمد الموظف بالطبية بالخرطوم وإلى إخواننا الباقين الذين تربطك بهم رابطة الأخوة والصداقة والسلام عليكم وعلى الجميع ودمتم بخير وسرور أخي العزيز...

المخلص

رفيق نوري السعيد المحامي

ولما زرت العراق وتعرفت ببعض المخلصين من أبنائه كتب إليّ الخطاب التالي الدكتور عبد المجيد القصاب الذي أصبح فيما بعد وزيراً للمعارف بعد قيام الثورة الأولى ببغداد - وهذا هو خطابه -

بغداد في 38/3/16

عزيزي الأخ الصدوق خضر

بعد تقديم وافر التحيات فإننا والحمد لله بآتم الصحة نذكركم أنا اجتمعنا مع الدكتور أكرم والأخ صديقي وسائر الإخوان وإذا ما ذكرناكم ذكرنا أخواً عزيزاً وصديقاً صادقاً ازددنا بمعرفته شوقاً إلى السودان واعتزازاً بها وبأهلها ووثوقاً في عروبتهم وإخلاصهم لقضيتنا المقدسة ووحدتنا العظمى وقد أصبح من البديهي بإمكان أن نكرر أننا أبناء أمة واحدة وأننا إخوان كلنا عرب وقد آمننا بعروبتنا إيماناً لا شرك فيه وإنا آمننا بقوميتنا ولن نرضى بها بديلاً رغم إرادة المستعمرين وإذئاب المستعمرين وقد عاهدنا الله على ذلك وإننا على العهد مقيمون وله راعون. أرجو أن نكتفي الآن بهذا المقدار من الشعور الذي أمثله لك وأنوب بتقديمه إليك عن المئات بل الآلاف من الشباب العربي الناهض في العراق كما يؤمن بها أمثاله في مختلف أنحاء الوطن العربي الأكبر. هذه الناحية وحدها هي الناحية الوحيدة التي أريد أن أذكرها لك من النواحي الكثيرة التي تطلب الاستفسار عنها في كتابك الكريم وهي لا شك ناحية من أهم النواحي لأنها تمثل الإيمان القويم والإيمان وحده يرفع الأمم إلى أسمى مقاصدها أما النواحي الأخرى فلا أريد أن أحدثك عنها لأنها لا تمثل سوى الخزي والعار في جميع النواحي السياسية والثقافية والصحية والإدارية والعسكرية والاقتصادية فلا تسليني

عنها وأنت العليم بها وقد ورثناها عن عهد سقيم ويمثّل أدوارها على مسارح نهضتنا رجال ما أنصفهم الدهر بشئ من الثقافة ليضعوا أنفسهم وينصفوا بلادهم ويرضوا الله. ولكن كما قلت ما زال الإيمان قوياً والمعنويات تسود أفكار الشباب وما زلت أنت في السودان تفكر هذا التفكير الشريف وأنا في العراق أؤمن بما تؤمن به أنت في السودان فلا خوف على هذه الأمة الكريمة والأمل بالله تعالى أن نسود ونرفع رايات العلم والعدل والإحسان كما رفعناها عالية على عهد الرسول الأعظم النبي الأكرم « صلوات الله وتسليمه عليه » ليجدد التاريخ صفحة أخرى من صفحات المجد والفخر ويطوي صفحات الضعف والتخاذل والدمار.

إنني لم أفكر بالنيابة يا أخي العزيز لنفسي فكيف فكرت بها أنت لي؟ ذلك لحسن ظنك بأخيك. لم يحن الوقت الذي نخدم فيه البلاد عن هذا الطريق لذلك فلا نسعى إليها الآن.

سأرسل لك قانون النادي وكلما يهكم عن قريب إن شاء الله. أمّا عن ناحية الخلاف بين الأحزاب المصرية التي ذكرتها لي في كتابك فقد ألمحت إليك عن ناحية اليأس التي تستولي على مشاعري من هؤلاء الرجال لولا الأمل والإيمان.

ناجي القشطي يتقدّم إليك بالشكر ويبلغك تحياته بالمثل وقد انتقل إلى وظيفة مميز المطبوعات الداخلية بوزارة الداخلية كما أنّ الدكتور أكرم رفعت يسلم عليك وكذلك الأخ صدقي وقد بلغته عتابك فكتب إليك فوصله جواب منك وقد سبقني بالكتابة إليك أمّا سبب تأخيرني فهو انشغالي بالمؤتمر الطبي ثمّ بوفود البلاد العربية لحظة تأبين المرحوم ياسين الهاشمي لذلك أعذر إليك عن تقصيري راجياً القبول. من المؤكد إن شاء الله حضور المؤتمر الطبي القادم الذي سيعقد في الخرطوم على الغالب حسبما علمت وربما زرت مصر قريباً لأمكث فيها سنة أو أكثر لدراسة بعض التأسيسات الصحية فيها بما يخصّ أمراض الأقاليم الحارة لأنني خیرت بين هذا وبين رئاسة صحة العاصمة فاخترت ناحية الدراسة ورجعتها على الإدارة.

هذا وتفضل بقبول إخلاص من لا ينساک

وتلك الزيارات التي كنت أقوم بها للبلاد العربية أفدت منها كثيراً واتصلت أثناءها برجال من أصحاب الفكر والوطنية والسياسة والجهاد ممن علا ذكرهم وسطع نجمهم فيما بعد وكثير ممن عرفت من الشباب بلغوا في بلادهم فيما بعد مناصب رئيسية كالنيابة والوزارة.

وفي رحلة من رحلاتي إلى دمشق جمعتني الظروف على طريق الصدفة برجل هو في الأصل من نيجيريا تربى وتلقى تعليمه في تركيا وتخرج من مدرسة أركان الحرب هناك وكان تلميذاً لوهيب باشا القائد التركي الذي اشترك مع الحبشة في حربها مع الطالبان مؤخراً واشترك معه تلميذه هذا والذي يسمى « القائد محمد طارق الأفريقي ». كان طارق الأفريقي يسكن دمشق ومتزوج منها وكان قد خرج على أثر هزيمة الأحباش وخروج الإمبراطور وخرج هو ناجياً بنفسه إلى سوريا وكان يتطلع إلى الأخبار وحسنين كما قال من الحبشة وأراد أن يعرف آخر الأخبار. هذا القائد الأفريقي قد عمل زمناً في السعودية مدرباً لجيشها بعد أن زار مصر وكان يكتب لي كثيراً عن مشاريعه وكان ذا نزعة أفريقية ولعله من الأوائل الذي تحدثوا عن أفريقيا ووحدتها. كان يتحدث كأفريقي يريد لأفريقيا أن تنهض وتتقدم ويدعو إلى التعليم والأسفار ليعرف الأفريقيون شيئاً عن العالم وليستطيعوا أن يقيموا أنفسهم وبلادهم التقييم الصحيح وسلكننا سوياً هذا الطريق رداً من الزمن قبل أن تستيقظ أفريقيا وتصبح المارد الجبار.

قال مرة في خطاب منه لي بتاريخ 37/12/24 من دمشق « إننا كأفريقيين متأخرين في طريق الرقي محتاجون إلى أسفار خارج أفريقيا والسعي وراء العلم لنتمكن من السير مع الأمم المتقدمة. ولما رأيتم في دمشق بادرت إلى مخاطبتكم دون تردد لأنني أفريقي فأينما أرى أفريقياً أعده أخي وطناً وروحاً. إنني أفريقي سوداني من نيجيريا قد جئت من مسقط رأسي إلى تركيا قبل الحرب العالمية الأولى ودرست في استانبول وخرجت ضابط خياله سنة 1910 ودرست بمدرسة أركان الحرب واشتركت في حرب البلقان كرئيس أركان حرب وبعد الحرب سكنت في دمشق سافرت إلى بلدي سنة 1935 ورجعت عن طريق أفريقيا الغربية وفرنسا. ثم اشتركت في الحرب الحبشية مع القائد الراسي بضينو والقائد التركي وهيب باشا وهو أستاذي في مدرسة

أركان حرب في استنبول.

كثًا نتحدث عن العروبة والوحدة العربية فإذا بنا تلقى في طريقنا من يدعوننا إلى التكتل الأفريقي... إنها نفس الشعارات التي ينادي بها العرب والأفريقيون اليوم وقد كثأ نسعى لها ونتحدث عنها وندعو إليها قبل ربع قرن من الزمان.

وعن طريق محمد طارق الأفريقي تعرفت برجال ذوي شأن في الكفاح الوطني والدعوة للعرب والقومية العربية وعلى رأس أولئك الرجال الأمير شكيب أرسلان.. ومن لا يتوق إلى رؤية هذا الأمير الثائر الأديب الشاعر العربي المسلم الذي قضى حياته كلها يوجب البلاد ويدعو للعرب والعروبة وينشر دعوة الإسلام ويناصر المستعبدين والمستعمرين من شعوب العالم.

وكان اجتماعي به وبجماعة من خيرة علماء الشام في دمشق وفي أوتيل أورنيث بالاس أخذني إليه السيد طارق وقال له أقدم إليك اليوم هدية قيمة أعتز بها جاءت من السودان. واستقبلني الأمير في ترحاب وبشر، وكذلك من كانوا معه.

وجلسنا نتحدث عن السودان وعرويته والجنوب وأعمال المبشرين فيه وكان ملماً بأخر التطورات آنذاك. وأثناء الحديث سألتني أحد الحاضرين أنا من السودان العربي أم السودان الزنجي ولم يتركني الأمير أرد عليه ولكنه تولى الرد نيابة عني وأخذ يقول للسائل « ألا ترى أنفه الأقنى ألا ترى وجهه المستطيل ألا ترى.. ألا ترى حتى أشعره بالجهل التام ثم أخذ يقص قصة قصيدة كان قد رثا بها شقيقه وقال إن تلك القصيدة لم تر النور ولم أنشرها في الصحف وبعد أعوام قرأت قصيدة في الرسالة من نفس البحر والقافية والمعاني وكانت قصيدة لشاعر سوداني اسمه حسن عثمان بدري يرثي شقيقه الذي توفي... وكانت تلك القصيدة عندي أقوى برهان على عروبة السودانين وعلى وحدة المشاعر والتاريخ والدم بيننا وبينهم واستمر لقاؤنا مع الأمير وكانت جلسات فيها أدب وعلم ووطنية لا الوطنية الضيقة ولكنها الوطنية التي تتحدث عن العرب جميعاً وعن الأمة الإسلامية وما يكن لها ذلك الرجل العظيم من حب وما أدَّى لها من خدمات دون أن يمين بذلك أو بفخر.

وفي العراق عرفت بعض المجاهدين الثائرين الذين يؤمنون بهذه الأمة العربية وقد نزلوا أنفسهم للدفاع عنها بدمائهم الزكية. عرفت في العراق القائد فوزي القاوقجي قائد الثورة في فلسطين سنة 1936. كان بعد أن هزمهم الإنجليز ذهب إلى العراق وهو

في الأصل من طرابلس - لبنان وعاش في العراق وكان يسكن حي الأعظمية. كنت ترى فيه العربي الأصيل والمجاهد الصلب والوطني المخلص الذي أشرب حب وطنه وكراهة الاستعمار وكان حديثه كله عن الاستعمار وما يكن له من كره عميق. وكان يعرف إلى أي مدى وقف الإنجليز ضد الثوار العرب ومهدوا الطريق لليهود. كان اليهود يسومون الإنجليز الذل والخسف ويجلدونهم عراة ومع ذلك كان الاستعمار الإنجليزي منحازاً إلى جانب اليهود ضد العرب.

وعرفت في العراق الناصر الدكتور أمين رويحه الذي كان يعمل طبيباً في بغداد وهو سوري من اللاذقية كان شاباً قوياً يتدفق حياة وصحة يبدو عليه الترف والنعمة حتى إنني لما قدمه إليّ صديقه وصديقي المرحوم أحمد صدقي نور الله ظننته شاباً مترفاً منعماً واستكثرت على صديقي أن يصفه بالثورية والوطنية وخرجت منه غير مأخوذ به وأعلنت رأيي ذاك للصديق اللبناني أحمد صدقي نور الله.

وانتهت رحلتي في العراق وعدت إلى مصر فإذا باللطائف المصورة تنشر هذه الصورة¹ وما كتب تحتها وإذا بالنائر الذي تشير إليه هو الدكتور أمين رويحه. ومَرَّت الأيام وسُرَّد الدكتور أمين رويحه ونُفي وسُجن وأبعد إلى جنوب أفريقيا أيام الحرب الأخيرة وفي الجامعة العربية علمت أنه أحد المبعدين والمنفيين في جنوب أفريقيا وسعت الجامعة إلى مساعدته مع غيره. وعاد إلى وطنه الشام واستقر به ثم أتهم في محاولة مقتل الشيشكلي وهي تهمة هو بريء منها كما ذكر لي في سنة 1965م في حمانا بلبنان بعد أن حُكم عليه بالإعدام ولكنه تمكن من الهرب.

وفي سنة 1965م علمت بوجوده في لبنان فذهبت إليه وتذاكرنا الأيام الماضية فإذا به العربي المؤمن بوحدة العرب ولو أنَّ الأيام خطت أثرها على جسمه ونشاطه ولجأ إلى الكتابة والترجمة، فكتب وترجم كتباً عديدة وهو في منفاه كما يقول في مزرعته التي أنشأها في حمانا بلبنان².

تلك الرحلات إلى البلاد العربية التي وثقت صلاتي بكثير من العرب المؤمنين بقوميتهم وضرورة توحيد البلاد العربية كان لها أثرها في توجيه تفكيري بلا أدنى شك

1. صورة أربعة من الشباب - سوداني، عراقي، لبناني، مصري.

2. صورة للدكتور أمين رويحه.

(هاتين الصورتين لم نعرض عليهما)

وكانت الدافع الذي دفع بي إلى الجامعة العربية أو التفكير الذي أوصلني إلى الجامعة العربية.

وبعد التحاقى بالجامعة وقبلها كنت أهتم بشئون اليمنيين الموجودين بالسودان لأنني أعرف أنَّ أغلبهم من اليمنيين الأحرار الذين خرجوا من ديارهم هرباً من حكم الملك آنذاك. وكلما ثار الناس عليهم حاولت الدفاع.

وزاد اتصالي بهم عندما كنت بالجامعة العربية وكنت أطلع على أعمال اليمنيين الأحرار في عدن وكان على رأسهم المرحوم سيف الإسلام إبراهيم الذي حكم عليه أبوه بالنفي لأنه كان يعمل مع الأحرار ويساندتهم ثمَّ قتلته الإمام أحمد بعد مقتل الأمام يحيى لأنه كان مع ابن الوزير.

وبعد الجامعة أيضاً ولما قامت أول حكومة وطنية جاء السيد محمد محمود الزبيري الذي قتل أخيراً وبعد الثورة وقد كان يطوف بلاد العالم ويتصل باليمنيين الأحرار يشد من أزرهم وينفخ فيهم من روحه.

ولعل الخطاب التالي الذي أرسله لي بعد زيارته للسودان في سنة 1954م يؤيد ما ذهبت إليه. والزبيري كان رئيس الاتحاد اليمني وكان داعية ضد الملكية كما كان أديباً وشاعراً وله قصائد عامرة بالوطنية والثورة على الرجعية والتخلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

الاتحاد اليمني

في 24 شوال سنة 1373هـ

الموافق 25 يونيه سنة 1945م

حضرة وزير الدولة السودانية سيادة السيد (خضر حمد) الأكرم

نقدم إلى سيادتكم تحياتنا واحترامنا وتمنياتنا القلبية المخلصة

وبعد، فلقد كان بلغنا قدومكم إلى مصر وقرأنا ذلك في الصحف وظللنا نبحت عنكم في الفنادق وفي الجهات السودانية بالقاهرة وفي سائر مظان البحث فلم نهتد إلى عنوانكم ثمَّ اجتمع بكم الأستاذ يحيى زيارة وطلب منكم العنوان فاعتذرتم بلطف وكثنا في خلال هذه الفترة وسائر اليمنيين في القاهرة نتلف إلى لقائكم رغبة منّا في

القيام بواجب الحفاوة بكم وإقامة حفل للترحيب بمقدمكم كي يستطيع اليمنيون الأحرار أن يعبروا في تلك المناسبة المتمناه عمّا يجيش في نفوسهم من حب وتقدير لسيادتكم وللشعب السوداني الكريم وحكومته الموقرة.

والآن ننتهز هذه الفرصة. سفر الأستاذ حسين المقبل والأستاذ محمد سيف والأستاذ أحمد الخزان فنذكر سيادتكم بالحديث الذي دار بيننا في المطار عندما شرفتمونا بتوديعنا أثناء مغادرتنا أرض السودان الحبيبة وبذلك تفضلتم فأشعرتونا أنكم على استعداد للأخذ بوجهة نظر العناصر الصالحة من أبناء اليمن المثقفين فيما يتعلق بالمشاكل اليمنية في السودان وكنا يومئذ ذكرنا بعض أسماء من رجال الجالية بالخرطوم وقلنا لسيادتكم إن ذلك سيكون مؤقتاً ريثما تحين الفرصة لإرسال شبّان متعلمين يكونون هم واسطة الاتصال بينكم وبين اليمنيين حتى نضمن أن العلاقة بين السلطات السودانية وبين الجالية اليمنية قائمة على أساس سليم.

واليوم ننفذ وعدنا فنبعث إلى سيادتكم الشبّان السالفة أسماؤهم وهم من خير شباب اليمن المتعلم فالرجاء أن تشجعوهم وأن تقدموهم إلى السلطات المختصة كي نرجع إليهم في كافة المشاكل اليمنية وذلك جدير أن يفيد السلطات السودانية والجالية اليمنية على السواء.

هذا وأنّ الشعب اليمني ليعلق على جاليته المقيمة في السودان الشقيق أعظم الآمال إذ وجدت الشباب اليمني المؤمن المخلص الذي يجمع شمل اليمنيين المبعثرين ووحدهم كلمتهم ووجههم وتوجيهاً وطنياً حراً.

كما أنّه لا يفوتنا أن ننوه لسيادتكم أنّ اليمن معرضة لأخطار كثيرة من جراء فساد الحكم وفساد الاستعمار الذي يحاول أن يستغل فساد الحكم ليقضي على البقية الباقية من رمق الشعب اليمني فيكون لقمة سائغة له.

وقد غبر علينا أربعة عشر عاماً نكافح في سبيل استنقاذ اليمن وقدمنا مئات المذكرات والنصائح إلى حكام اليمن وقد انتهت بنا تجاربنا الطويلة إلى أن أفضل وسيلة لإنقاذ اليمن من الأخطار هي أن يتكتل المهاجرون اليمنيون على أسس وطنية متحررة ويكونون لهم في الخارج رأياً عاماً محترماً ينقذ اليمن من الأخطار وأعلى الأقل يخفف من الويلات التي قد تواجهها بلادنا في المستقبل ولقد وجدنا أن أفضل مكان يتكتل فيه اليمنيون هو السودان في عهدها الجديد إذ هي البلد الوحيد

في العالم الذي يجتمع فيه عدد جسيم من اليمنيين في ظل حكومة عربية حرّة يقوم عليها رجال أحرار أبطال.

وبما أنّ سيادتكم محيطون بمشاكل اليمن منذ عهد بعيد وتعطفون على أبنائها العطف الكريم وبما أنّ سيادة رئيس الوزراء لحسن حظنا قد وكل أمر المشاكل اليمنية إلى سيادتكم ووضعها في يديكم الطاهرة الأمانة.

فراجؤنا عظيم - يا سيد خضر- أنّ مندوبينا سوف يلقون كل عون وتشجيع كما أنّكم ستجدون منهم كل ما يقر عينكم ويحقق ظنكم الجميل في اليمن وأبنائها. هذا وتقبلوا في الختام أصدق التمنيات وأعطر التحيات السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

أخوكم محمد محمود الزبيري

رئيس الاتحاد اليمني بمصر

وأخيراً توج كفاح المناضلين اليمنيين في أيلول 1962م بنجاح الثورة واستطاع الزبيري أن يعود إلى اليمن ويتبوأ مكانه في وزارة التربية والتعليم ليشرف على تربية الجيل الجديد ويهيئته للمستقبل السعيد.

وأخيراً شاء الله للمناضل أن يموت كما يموت الأحرار شهيد النضال وبيد الغدر وأغتيل في شهر نيسان سنة 1965م وانتهى بذلك الكفاح الذي دام سنوات طويلة وجمع صفوف اليمنيين الأحرار في كل العالم ووحد غايتهم فوصلوا إلى هدفهم المنشود الحرية.

التحاقى بالجامعة العربية

لم يكن غريباً بعد هذا الاهتمام بالشؤون العربية أن يتصل جبلي بالجامعة العربية ولكن لذلك الاتصال قصة بدأت هكذا:-

في سنة 1945م وعلى التحديد في شهر أكتوبر كنت في إجازة قصيرة بالأبيض وجاءت الأخبار تقول إنَّ الرئيس الأمريكي ترومان قال يجب أن يدخل فلسطين مائة ألف يهودي وكانت أمريكا آنذاك كما هي اليوم تقف إلى جانب اليهود وتريد أن تغمر بهم فلسطين ليصبحوا فيها أغلبية ودرجت أمريكا على تأييد هجرة اليهود على دفعات وعلى تهريبهم كما تهرب المخدرات والسموم..

أثارني هذا الحديث إلى أقصى حد وشعرت أنَّ الدول الاستعمارية تريد أن تتصرف في البلاد العربية كما تكون قطعة من ممتلكاتها بل تريد أن تهيبها لليهود وتشرد العرب من ديارهم وأهلهم إرضاء للصهيونية التي كانت ومازالت تسيطر على أمريكا في اقتصادياتها وفي أدوات النشر والإعلام والاعلان والدعاية فيها.

أثارني هذا الحديث وأوحى إليَّ إنَّ العرب يجب أن يدافعوا عن أوطانهم بأوراحهم وإن قضية فلسطين ليس لها حل إلا أن يقف العرب جميعاً صفاً واحداً لحمايتها والدفاع عنها بالمهج والأوراح وكتبت في الحال خطاباً للسيد عبد الرحمن عزام أمين عام الجامعة العربية وهذا نصه:

الخرطوم في 15/ أكتوبر 1945م

خضر حمد

مالية حكومة السودان

الخرطوم

صاحب السعادة عبد الرحمن بك عزام

الأمين العام للجامعة العربية

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

لست من رجال السياسة ولكنني رجل أعير الشئون العربية اهتماماً زائداً وقد دعاني هذا الاهتمام أن أزور بعض هذه البلاد كمصر وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن والحجاز والعراق حباً في التعرف عليها والاطلاع على مدى ما نالت من تقدم وما بلغت من رقي.

وقد أرشدني تتبعي للحركة العربية إلى أن قضية فلسطين في طورها الأخير وأصبح الواجب المقدس يحتم على كل عربي أن يبذل ما يستطيع في سبيل حل هذه القضية حلاً يريح الفؤاد العربي ويحفظ الكرامة العربية.

ولست - والحمد لله على كل حال - من ذوي الثراء حتى أجود بالمال فأفدي نفسي بمالي ولكنني شاب لا يملك من خير الدنيا إلا هذا المرتب الضئيل ولذلك استخرت الله وقدرت أن أهب نفسي ومجهودي للقضية العربية وأرجو ملحاً ألا أحرَم من شرف الجهاد في صفوف المجاهدين.

وهأنذا أدلي فيما يلي بمختصر عن نفسي واستغفر الله إن كنت أدكي نفسي « لا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن إتقى » ولكن هذا إجراء لا بد منه حتى تعلموا عني شيئاً وحتى يسهل عليكم إيجاد المكان المناسب لي بين المجاهدين:-

- 1- سوداني عربي 35 سنة نحيف طولي 5 أقدام و 9 بوصة لا أشكو من علة.
- 2- عازب وليس لي أحد يعتمد علي في معيشته ولي أخوة تجار حالتهم المالية حسنة.

3- تخرّجت من كلية غردون 1929م من قسم المترجمين وهذا القسم يعد الشبان للعمل في وظائف أشبه بوظائف السكرتيرين في بعض البلاد ومؤهلاتي اللغة العربية والإنجليزية والترجمة والكتابة على الآلة الكاتبة العربية والإنجليزية والاختزال وتنظيم المكاتب.

4- أعمل الآن موظفاً في الدرجة السادسة ومرتبتي 17 جنيهاً في الشهر وفي الخدمة المعاشية ومستقبلي الحكومي حسن.

- 5- عملت في الصحافة كاتباً متطوعاً وما زلت أشارك في تحرير بعض الصحف.
- 6- اشتركت في الحياة العامة في السودان ومتصل بالحركة الاجتماعية والسياسية أوثق اتصال وعملت في مشروع القرش وكنت أمين المال والأن سكرتير المدرسة الأهلية وهي أولى وأكبر مؤسسة تعليمية وطنية في السودان واشتركت في تأسيس

مؤتمر الخريجين وفي لجانة الستينية في جميع السنين كما كنت عضواً في اللجان التنفيذية في بعض السنين وكنت مساعداً للسكرتير وسكرتيراً.

7- أجد قيادة السيارة والرماية ومستعد لأن أكون جندياً في الصفوف الأولى. هذه صورة مختصرة أرجو أن تنير الطريق أمامكم للمهمة التي أصلح لها ولست أريد من وراء ذلك مالأ ولا جاهاً ولست في ضيق أريد الهرب منه ولكنني أمل أن أنال شرف الجهاد في مهمة أصلح لها.

يا صاحب العزة

إنني أقدم نفسي طائعاً مختاراً للجهاد في سبيل البلاد العربية والإسلام وأرجو أن أحظى بالقبول أو التوجيه الذي يحقق لي هذا الأمل وسأتخلى عن وظيفتي بمجرد وصول أمركم.

أرجو يا صاحب العزة إن لم يكن عمل المتطوعين للجهاد يتصل بعملكم أن توجهوا خطابي هذا إلى من يههم. وفقكم الله إلى خير العروة والإسلام وسدد خطى المجاهدين الأبرار والسلام عليكم ورحمة الله..

خضر حمد

المالية - الخرطوم

15 / 10 / 1945م

وقد اهتم السيد عبد الرحمن عزام مشكوراً بهذا الخطاب وفكر في أن يأخذني في الجامعة العربية ولما كان كان في حاجة إلى مزيد من المعلومات عني فقد اتصل بالأخ علي البرير الذي كان في مصر ممثلاً غير رسمي للسودان وكان أبرز سوداني بل هو الذي أبرز اسم السودان في التجمعات المصرية وجعل للسودانيين كيانه يعترفون به. اتصل السيد عزام بالسيد علي البرير يسأله عني ويقول له إنه يريدني في الجامعة فهل أقبل العرض وما كان من علي البرير إلا أن يزكيني ويعطي وعداً نيابة عني بالقبول ويكتب إلي خطاباً يرجوني فيه أن أقبل العرض ووصل الخطاب مع خطاب السيد عزام وهذا نص خطاب السيد عبد الرحمن عزام:

القاهرة في ذي الحجة 1364هـ (نوفمبر 1945م)

إدارة الشئون العربية

جامعة الدول العربية

الأمانة العامة

حضرة المحترم خضر حمد أفندي

الموظف بمالية السودان- الخرطوم

بالإشارة إلى الطلب المقدم منكم للأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ 15 أكتوبر 1945م يسرني أن أعرض عليكم وظيفة محرر بإدارة السكرتارية بدرجة ملحق أول (300 - 420) جنيه بأول مربوطها وقدره 25 جنيها شهرياً.

وأرجو أفادتي عن استعدادكم إزاء هذا العرض وفي حالة موافقتكم نفاد عن التاريخ الذي يمكنكم فيه التقدم إلى الأمانة العامة بالقاهرة لاستلام عملكم ونأمل أن يكون ذلك قريباً

واقبلوا التحية

« الأمضاء »

محمد وجيه

مدير الإدارة العامة

كان موضع دهشتي أن تعرض عليّ وظيفة في الجامعة في الوقت الذي أطالب بالتطوع.

لم أكن أطلعت أحداً على كل ما حدث وعندما جاءني هذا الخطاب قرّرت أن أرد عليه بالاعتذار لأنني لم أقدم طلباً لوظيفة. وأخيراً رأيت أن استشير صديقي إبراهيم يوسف بعد أن شرحت له القضية من أولها وأسعفني إبراهيم بالرأي المقنع فقال لي إنك لا تستطيع الرضا لأنك تطوعت والمتطوع لا اختيار له بل يوضع حيث يراد له أن يوضع ولعلهم لا يريدونك جندياً أو محارباً بل يريدون أن ينتفعوا بك في هذه الوظيفة التي عرضوها عليك. ليس أمامك إلا القبول ما دمت قد وهبت نفسك للعرب وللعروبة. لقد أقنعني هذا الحديث ورددت عليه بخطاب تاريخه 4 ديسمبر أوضحت فيه إنني سأكون في خدمتهم بعد أن أستقيل من الحكومة وسأأخذ منّي ذلك زمناً ليس

قبل مارس 1946م.

وقبل أن أرد على خطاب الجامعة كتبت لأخي الأكبر المرحوم عبد الله حمد وهو أخي وأبي نشأني ورباني كتبت إليه بالقصة ولم أكن قد أطلعتة قبلاً على شيء منها وكنت أخشى أن تغلب عليه العاطفة فيحاول أن يثنيني عن عزمي ولكن سررت وتشجعت أكثر يوم جاءني رده ويقول فيه.

« أذهب فقد وهبناك لما فيه خير دينك ووطنك وإن الله لا يترك أعمالك »

وجاءني خطاب من عزام بك هذا نصه:

جامعة الدول العربية

الأمانة العامة

القاهرة في محرم سنة 1365هـ (ديسمبر 1945م)

حضرة المحترم خضر حمد أفندي

الموظف بمالية حكومة السودان الخرطوم

بالإشارة إلى طلب الالتحاق بخدمة الدول العربية المقدم من حضرتكم بتاريخ 15 أكتوبر سنة 1945م وإلى خطابك الأخير المؤرخ 4 ديسمبر سنة 1945م رداً بالموافقة على ما عرضته عليكم الجامعة. نبليغ أننا قررنا تعيينكم بوظيفة محرر بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية وهي من درجة ملحق أول (300 - 420) جنيه بأول مربوطها وقدره 25 جنيه شهرياً ابتداء من تاريخ استلامكم العمل في شهر مارس سنة 1946م كطلبيكم. فالأمل إخضارنا بتحديد التاريخ الذي ستمكنون فيه من استلام العمل.

واقبلو التحية

الأعضاء

الأمين العام

عبد الرحمن عزام

أراء في الجامعة العربية

عندما قامت الجامعة العربية نسبها الناس وكثير من المعلقين السياسيين والصحفيين إلى أب إنجليزي وأم عربية وقالوا إنها لم تقم إلا استجابة لتصريح المستر أيدن الذي أعلن فيه أن بريطانيا تنظر بعين العطف لفكرة قيام الجامعة العربية.

ولكن المتتبع للأحداث العربية وتطورات القضية العربية والثورات يعلم تماماً إنَّ الفكرة لم تكن وليدة تصريح أو بيان يصدر من وزير خارجية إنجلترا وتقوم على أثره الجامعة العربية. ففكرة الوحدة العربية فكرة عريقة وعميقة الجذور نشأت قبل الحرب العالمية الأولى وهذه الفكرة هي التي دفعت العرب إلى قيام ثورتهم الأولى وإنحيازهم إلى الحلفاء طمعاً في تحقيق الوحدة العربية وليتخلصوا من الحكم التركي. ولذلك نرى الشام كله يؤمن بالوحدة العربية ونجد هذا الإيمان يتغلغل في نفوس عامة الشعوب لا عند القادة كما يظهر في بعض الشعوب العربية في البلاد الأخرى. والشام هو سوريا ولبنان والأردن وفلسطين قبل أن يمزقها الاستعمار إلى دويلات صغيرة.

وأنَّ إنجلترا كما قال إدوارد عطية في كتابه « تاريخ حياة فتى عربي » إنَّ إنجلترا عامت مع التيار ولم تستطع أن تقاومه أو لم تشأ أن تقاومه. فهي عندما أحست بأنَّ اتجاه البلاد العربية نحو تحقيق هذه المؤسسة أسرع بإظهار العطف والتأييد للفكرة ولا ننسى أنَّ كثيراً من البلاد العربية كان مرتبطاً رغم استقلال بعضها بإنجلترا بمعاهدات.

وحديث نسبة الجامعة العربية إلى إنجلترا كان يقوله بعض الإنجليز أنفسهم ففي سنة 1947م أقام السيد عبد الرحمن عزام مؤتمراً صحفياً يتحدث فيه عن الجامعة ويشرح أهدافها وميثاقها ويرد على الأسئلة وكان ذلك في لندن فسأله أحد الصحفيين قائلاً هل الجامعة العربية فكرة إنجليزية؟ فردَّ عليه عزام قائلاً إنَّ هذه البدلة التي البسها من الصوف الإنجليزي والصناعة الإنجليزية ولكن من يقول إنها ليست بدلتني؟ إنَّ إنجلترا إذا أيدت قيام الجامعة العربية أو باركته فليس معنى ذلك إنَّ الجامعة إنجليزية.

والذي يطلع على المشاركات الأولى وآراء الملوك والرؤساء في بعضهم البعض

يظنُّ أنه ليس من السهل اجتماعهم في صعيد واحد وأنه من الاستحالة بمكان أن تقوم مؤسسة تضم هؤلاء الملوك والرؤساء ولكن حذب المخلصين على وحدة العرب وحرصهم على وحدة الصف وإصرارهم على قيامها هو الذي حقق الأمل.

وهذه الخلافات القديمة هي التي أثرت على وضع ميثاق الجامعة وجعلته يحتاج إلى تعديل شامل إذا لم يكن في الإمكان آنذاك أن يوضع ميثاق أقوى من الذي وضع بالنسبة للأوضاع المختلفة في البلاد العربية.

وللملك عبد الله رأي طريف قال في مذكراته عن الجامعة إنَّها جراب أدخلت فيه سبعة رؤوس، اليمن ونجد والعراق والشام ولبنان وشرق الأردن ومصر في وقت كانت فيه سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي وشرق الأردن تحت الانتداب البريطاني والعراق ومصر تحت المعاهدتين الساريتين إلى ذلك الحين. فالدول العربية كانت حينذاك في قيود انتدابية وعهدية ماعدا اليمن ونجد. فإنَّهما كانتا الحررتين وأنَّ أمر التسابق بين هذه الدول أمر عجيب لأنَّه سباق بين مقيد ومطلق إمَّا قيد احتلال وإمَّا قيد عهد وإمَّا قيد جهالة (مذكرات الملك عبد الله).

ومما يؤيِّد أنَّ الإنجليز عاَموا مع التيار لأنَّهم لم يستطيعوا معارضته تلك المواقف التي كان يثيرها من وقت لأخر نوري السعيد الذي ما كان ينطق إلا بلسان الإنجليز. كان نوري يكره عزاماً ويحاول أن يضع العراقيل في طريقه لأسباب ظاهرها محاولة نقد عزام إدارياً وباطنها يحوي كثيراً من الحقد الذي يترجم عن حقد الإنجليز على عزام ومواقفة العديدة الصلبة وقد قرأت كثيراً من مقابلاته للإنجليز في مواضيع شتى وما كانت تحوي تلك المقابلات من وقفات تضيي على تاريخ عزام غير قليل من الشجاعة والعزة العربية والإخلاص لقضية العروبة.

عولي في فترة الجامعة العربية

لقد كُلفتَ حال وصولي إلى الأمانة العامة للجامعة العربية ومقابلة أمينها العام السيد عبد الرحمن عزام، كُلفتُ بأن أنظم مكتب الجامعة ذلك لأنَّهم علموا أنَّ ضمن

مؤهلاتي تنظيم المكاتب وإنشاءها.

تسلمت العمل في المحفوظات أو نسميه في مكاتب السودان بالقيودات وهو بالطبع لم يكن مكتب محفوظات بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن فالجامعة مازالت ناشئة ولم يمر عليها عند التحاقى بها غير عام واحد من عمرها بل حضرت الاحتفال بعيدها الأول.

لم أجد مكتباً بالمعنى المفهوم ولكنني وجدت ملفات بها مكاتبات لا تمتُّ بعضها إلى بعضها بصلة يحفظها شخص واحد هو وحده الذي يعرف ما بها فإذا غاب تعطل العمل وهذه الملفات لا يزيد عددها على المائة ملف.

بدأت أنشئ مكتب الجامعة معتمداً على ميثاقها وقد اضطرني ذلك أن أقرأ كل ورقة في الجامعة منذ المشاورات الأولى وقبل بروتوكول الإسكندرية إلى الميثاق الذي تمّ قيام الجامعة على أساسه وبذلك أصبحت ملماً بكل ما في الجامعة وصرت مرجعاً بل المرجع الوحيد الذي يعرف كل شيء حتّى آراء الملوك والرؤساء في بعضهم البعض وما كان في النفوس عندما طرح الموضوع لأول مرّة وقامت المحاولات لتقريب وجهات النظر بين المتنافرين.

لم يكن همي وقد تحول الاتجاه إلى أن أعمل في الأمانة العامة بعد أن كان أملي في الانضمام إلى صفوف المجاهدين - والحقيقة إنّه لم تكن قد بدأت الثورة بشكلها الواسع في فلسطين وكان النضال محصوراً محلياً - لم يكن همي أن أحصر نفسي في العمل في المحيط العربي العام دون الاهتمام بأمر السودان والتعريف به وبقضيته الوطنية في هذا المحيط الواسع.

كانت الأمانة العامة تجمع نفراً من شباب البلاد العربية جميعها وكان معي في المكتب الأردني والعراقي واللبناني والمصري واليميني.

كان التحاقى بالجامعة في مارس سنة 1946م وجاء وفد السودان إلى مصر في أبريل من نفس السنة وكانت قضية السودان مثار اهتمام الرأي العام العربي.

لقد حاولت شرح القضية الوطنية السودانية في أروقة الأمانة العامة أولاً ثمّ للأمين العام نفسه وكان من حسن الحظ أن ساهمت الآراء والأفكار التي كنت أرفعها إلى الأمين العام - وهو رجل يؤمن باستقلال السودان وكان يريد الحقائق القائمة على الواقع ولا يؤمن بحديث العواطف والشعارات التي تتردد آنذاك. وتطوّر الأمر من محيط

الأمين العام والأمانة العامة إلى القصر الملكي وإلى رئيس الديوان ورئيس الوزراء إلى بعض الوفود العربية.

وأذكر إنّه في سنة 1947م كانت مصر تنوي عرض قضية وادي النيل على هيئة الأمم وكان في عهد النقراشي باشا وكان المفروض أن يعرض الأمر على الجامعة العربية في اجتماعاتها في مارس من تلك السنة لتؤيد مصر في الوحدة والجلاء. وبين العراق ومصر منافسة ظاهرة فالعراق يغار من مصر وظهورها كزعيمة للبلاد العربية ويريد العراق أن يقف نداً لمصر وكان يرى في إقرار الوحدة تقوية لمصر تجعلها في موقف يصعب على العراق أن ينافسها بعده وكان الوفد العراقي في حرج شديد فهو لا يريد أن يؤيد مصر في الوحدة ولو أنّه سيؤيدها في الجلاء ولا يريد أن يقف موقفاً شاذاً دون البلاد العربية في اجتماع مجلس الجامعة.

وكان معي شاب عراقي اسمه فؤاد عبد الجبار حلمي وكان على علم بتقرير رفعته للأمين العام عن الوضع في السودان شرحت فيه الاتجاهات دون تزيف أو تزويق أو محاباة وكان واضحاً من ذلك التقرير أنّ السودان لن يستجيب لهذه الوحدة التي ينادي بها بعض الناس وأنّ السودان يجب أن يكون له كيانه الخاص ووضعه الخاص وأنّ السودان اليوم قامت به حكومة وتطلع أبناؤه إلى تولي شؤون بلادهم بل وصلوا إلى درجة الوزارات فهل يقبل العقل أن يعودوا مرة أخرى ليكونوا في المؤخرة، إنّ الوحدة تعني إفساح المجال للكفاءة ومصر بها من الكفاءات لكل عمل أو وظيفة أضعاف ما بالسودان وعلى هذا فلن يجد السودانيون أنفسهم إلا في المؤخرة.

وشرح التقرير مبادئ الأحزاب وقوتها واتجاهات الأشخاص والطوائف وأعضاء المجلس الاستشاري والمجالس البلدية والنظار والعمد وبيّن في إيضاح مدى إحساس السودانيين بوجودهم وحرصهم على إبراز هذا الوجود ونفورهم من أيّ وضع يطفئ على شخصية السودان وكيانه ولكنهم في نفس الوقت يؤمنون بالقومية العربية ويمجدون تراثهم وتاريخهم ولكن في نطاق إقليمي أيّ أن يكون لكل إقليم شخصيته.

والحقيقة إنني كنت في التقرير متأثراً بمبادئ الاتحاديين وكنت أعتقد إنّها صمام الأمان فهي في الوقت الذي تريد للسودان أن يحتفظ بحقوقه وشخصيته وكيانه لا تريد أن تبعد عن المحيط العربي بل تريد أن تقوي الصلات العربية والمصرية على

الخصوص إلى أبعد حد لا يؤثر أو لا يفنى السودان.

فالاستقلال كنّا نخشاه لأنّه وراء شبهات وظنون في ذلك الوقت والوحدة ننفر منها لأنّها سبيل إلى الاندماج والفناء أمّا الاتحاد والشروط التي كان يضعها الاتحاديون أيّ إقرار حق الانفصال كان هذا الاتحاد سبيلاً إمّا إلى الاندماج إذا ما شعر السودانيون بأنّ الخير فيه أو الانفصال إذا ما أحسوا بأنّه السبيل إلى الحرية والاستقلال وهذا ما جعل بعض الصحفيين المصريين يقولون إنّ حزب الاتحاديين أخطر من حزب الأمة ويقصدون بذلك إنّ أبعد منه مدى في الانفصالية.

أطلع هذا الشاب العراقي على التقرير ولم يكتف بذلك ولكنّه أخذ يلح عليّ في أن يأخذه معه ليلة واحدة ثمّ يرده في الصباح وكنت أمانع في ذلك ألحّ ولمح إلى أنّ هذا التقرير له أهمية خاصة وقد لا يطلعني عليها الآن ولكن بعد أن يراه وإزاء الحاحه وشعوري بأنّ الأمر جدي قبلت أن أسلفه التقرير وجاء في صباح الغد ليقول إنّ التقرير قد حلّ المشكلة.

وقصّ عليّ كيف كان وفد العراق للجامعة في حرج من حيث موضوع الجلاء والوحدة وإن السيد تحسين العسكري وكان سفير العراق في مصر عندما قرأ الصفحات الأولى من التقرير أخذه إلى غرفة كان بها الوفد وبدأوا في قراءته كله ثمّ قرّروا في الحال أنّهم يؤيّدون مطلب مصر في الجلاء والوحدة.

والذي خرجوا به من التقرير إنّ السودان لن يكون لقمة سائغة لمصر تقوى به عليهم وإنّه أيّ السودان هو الذي سيثير قضيته وفي تلك اللحظة يقف العراق إلى جانب السودان في داخل الجامعة وما دام السودان لن يرضى بالوحدة الشاملة فلا معنى لأنّ يثير العراق هذا الموضوع قبل أوانه وأيّد مجلس الجامعة بالإجماع مصر في مطلبها الخاص بالوحدة والجلاء.

لم يكن ذلك أول تقرير في قضية السودان وهناك نشاط آخر في محيط القضية الفلسطينية وجمع السلاح بعد دخول الجيوش العربية فلسطين ضد اليهود. وهناك حركة التطوع من السودان.

أمّا في صفوف السودانيّين في مصر فقد كان المجال متسعاً للعمل فلجنة التعليم والنادي السوداني والجهة الوطنية كلها مجالات للعمل الذي يشرف الإنسان أن يذكره ولا يمن به على وطنه.

أمّا في الصحافة فقد استطعت أن أعمل بالسودان في جريدة البلاغ بنشر مقالات متصلة. هذا إلى جانب الاتصالات الأخرى في نادي الشباب العربي وجماعة الإخوان المسلمين التي استطعت أن أحاضر فيها عن الجنوب والتبشير وذلك في اجتماع الثلاثاء الذي كان يحضره ويتحدث فيه المرحوم السيد حسن البنا المرشد العام. إلى جانب ذلك كان النشاط العام في تأييد وفد السودان الذي حضر إلى مصر بعد وصولي إليها شهرين تقريباً ولم أكن عضواً في الوفد ولكن ذلك لم يمنع من العمل مع إخواننا رجال الوفد وقد بذلت معهم جهد المقل إلى أن انتهى الوفد أو انفضت عنه الأحزاب وبقي على حزب الأشقاء.

وعندما جذت الحركة الوطنية في السودان ورجع الوفد ورأي الاستعمار أن يقيم الجمعية التشريعية بعد أن فشل المجلس الاستشاري رأيت أن أعود إلى السودان وقدمت استقالتي الأولى إلى الأمين العام وكان ذلك في 1948/9/1م وهذا نص الاستقالة:

الأمانة العامة

في 1 سبتمبر 1948 م

إلى حضرة صاحب المعالي عبد الرحمن عزام باشا

الأمين العام لجامعة الدول العربية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

لا شك في أنني اعتبر هذه الأعوام التي قضيتها في جامعة الدول العربية أسعد أيام حياتي فقد كانت جميعها دورساً وطنية وسياسية ما كنت أمل فيها لو لا أن سعدت بالعمل في هذه المؤسسة المرموقة.

لا شك أيضاً في أن العمل في الجامعة العربية عمل في محيط الوطن الأكبر الذي يجب أن تتوفر له جميع الجهود غير أن هذا لا يجب أن يبعد بالإنسان عن المساهمة في الحركات الوطنية التي تقوم في الوطن الأصغر.

وقد جذت ظروف وأحداث وطنية وسياسية في السودان وظروف أخرى خاصة تدعوني للرجوع إلى هناك لأسهم بجهد المقل في تلك الحركة التي ساريتها منذ نشأتها ويعز علي أن أكون بعيداً عنها في هذا الطور.

لهذه الأسباب أرجو أن يتفضل معالي الأمين بإعفائي من العمل في الأمانة العامة

في أقرب وقت شاكراً ومقدراً كل ما لقيت من رؤسائي وزملائي في الجامعة من عطف وإرشاد ومعاونة.

وختاماً تفضلوا معاليكم بقبول وافر احترامي

الإمضاء

خضر حمد

أمين المحفوظات بالأمانة العامة

فجاءني الخطاب التالي من مدير الإدارة العامة يرجوني أن يرجيء عرض الاستقالة للأمين إلى أن يقابلني - وكان يطنُّ أنني غاضب من بعض التصرفات.

جامعة الدول العربية

الأمانة العامة

عزيزي الأستاذ خضر حمد

تحت يدي الآن الطلب المقدم منكم أخيراً وأود لو وافقتم على أن أؤجل عرضه على معالي الأمين العام إلى ما بعد مقابلي لكم عند أول مرة أحضر فيها للقاهرة.

فهل أنتم موافقون؟

تحياتي لكم وأطيب تمنياتي

الإمضاء

مدير الإدارة

48 /9/7

وبعد التحدث إليه كتبت الاستقالة الثانية بتاريخ 48 /9/10 وهذا نصها:-

جامعة الدول العربية

الأمانة العامة

سيدي العزيز..

تحية وإجلالاً- تسلّمت شاكراً خطابكم الذي كان له في نفسي أطيّب الأثر وقد منحني

فوق ذلك فرصة الكتابة إلى عزتكم عليّ أجلو موقفني ولو قليلاً وأشرح الدافع لإقدامي على التنحي عن عملي في الجامعة.

لقد عدت من السودان منطقياً على هذه الرغبة لأنني أحسست بأنّ عليّ واجباً وطنياً لا بدّ من أدائه وذلك لأنّ إخواني وزملائي الذين تقاسمت معهم السراء والضراء في السودان يقفون اليوم موقفاً شاداً من حكومة السودان فأكثرهم موظف وقد رأت الحكومة أنّ خير وسيلة تقضي بها على الحركة الوطنية هي أن تضيق على هؤلاء المجاهدين في أرزاقهم. وأكثر هؤلاء الزملاء متزوج وله أطفال وليس له مورد غير الوظيفة ومعنى تخليه عن وظيفته هو حرمان أهله وأطفاله من مورد رزقهم الوحيد أمّا أنا فأحسن حالاً منهم ولله الحمد فلست متزوجاً وليست عليّ تبعات كبيرة كتبعاتهم وهنا أحسست بأنني أحقّ منهم بالتضحية وإن الواجب يدعوني لأنّ أفق أمامهم وفي الصف الأول ولا يليق بي أن أبقى هنا في القاهرة وغيري يتعرّض للسجن والمجاعة.

ولا أنكر أنّ هناك أسباباً أخرى ولكنّي أعتبرها غير ذات بال ولا تأتي إلّا في المكان الأخير ولو كانت هي كل شيء للجأت إلى عزتكم لتدليلها وأنا واثق من أنّ حكمتكم ورعايتكم تذلل كل صعب يقف في طريقنا.

ومن هذا ترون عزتكم أنّ الدافع الأول والأهم هو الواجب الوطني وليس شيء آخر غيره وإن هذا الظرف بالذات هو ظرف العمل في السودان لأنّ الإنجليز أصروا على إبراز الجمعية التشريعية في نوفمبر رغم رفض المواطنين لها ومحاربتهم أياها ولا بدّ من الوقوف أمامها وإحباطها بكل الوسائل.

وهناك الجبهة الوطنية السودانية في مصر وهي تفكر في إفادي إلى باريس مع بعض الزملاء للدعوة لقضية وادي النيل هناك. هذه هي الأسباب التي قام عليها طلبي والتي أرجو أن تكون مقبولة.

الإمضاء (خضر حمد)

1948 /9/10

غير أنّ الأمين العام السيد عزام أصرّ على رفضها وقال إنّه قرأ في الصحف إنني انتدبت والسيد علي البربر للذهاب إلى باريس لحضور اجتماع هيئة الأمم بغرض الدعاية لقضية السودان والأمين العام يرى أنّ هذا العمل من صميم أعمال الجامعة

العربية ولذلك يجب أن اعتبر نفسي في مهمة رسمية وأن أذهب إلى باريس وأن أمكث فيها ما شئت ولن يؤثر ذلك في عملي في الجامعة بل تعتبرني الأمانة العامة أنني في مهمة رسمية - وفعلًا ذهبت مع الأخ علي البرير إلى باريس وبقينا شهرًا كاملًا كنا نصدر فيه مع الإخوان علي البرير وبشير البكري نشرة يومية استعنا فيها بملخص لكتاب مآسي الإنجليز في السودان الذي ترجمه السيد أحمد خير وكنا نصدر كل يوم منشورًا نوزعه على مندوبي الصحف ووكالات الأنباء.

وعدت من باريس إلى الخرطوم وهنا ساهمت مع الإخوان في الدعوة ضد الجمعية التشريعية واعتقلت مع من اعتقل من المواطنين ومكثنا أياما في كوبر ننتظر المحاكمة. ولكن يبدو أن غرض الاستعمار هو حجزنا حتى تمر اجتماعات الجمعية التشريعية.

واجتماعات الجمعية لم تمر بسلام فقد قامت المظاهرات في كل انحاء السودان واستشهد الرجال في بورسودان وعطبرة والخرطوم وألقي القبض على عدد كبير في الأبيض ومدني وكسلا واستمرت المحاكمات أياماً عديدة أدخل بها إلى السجون شباب مخلص دفع ضريبة الوطن وهو متهلل مستبشر.

وقد اتفقنا ونحن في كوبر إلا نعطي حديثاً لمحقق البوليس أبداً وعندما نقدم إلى القاضي لا يحاول أحد أن ينكر التهمة أو يتنصل منها بل يعترف كل بما قام به ويصر عليه ويصر على أنه سيقاوم الاستعمار وهذا واجبه.

ورجعت إلى الجامعة العربية في فبراير 1949م واستأنفت العمل بها غير أنه كان عملاً روتينياً ولم يكن العمل الذي من أجله فارقت السودان أي العمل في المحيط العربي الواسع. وعندما دخلت الجيوش العربية سنة 1948م فلسطين تقدمت للسيد الأمين العام ورجوته أن يخلي سبيلي لأنخطر في سلك المتطوعين ولكنه اعتذر عن عدم استجابة طلبي وقال إن العمل الذي تقوم به في الأمانة العامة هو أيضاً لا يقل عن عمل المجاهدين في الميدان وأتينا نعد لهم السلاح ونجمعه للمتطوعين في صحراء ليبيا ومن كل مكان ثم يرسل إلى القلعة ليعد للاستعمال وكثير من غير هذا من الأعمال الخاصة بالمتطوعين وتمرينهم وتسليحهم. وقال إنه إذا وافق على رغبتي فستخلو الأمانة العامة تماماً لأن عدداً كبيراً من زملائي له نفس الرغبة ولكنه وعدني أن أكون مرافقاً له متى ما رأى أن الموقف يتطلب وجودنا في الميدان.

بدأت أحس بأنَّ العمل في الجامعة لا يعدو أن يكون وظيفة ووظيفة مريحة وكنت قد أصبحت وكيلاً للإدارة المالية بها ولكن كل هذا لم يربطني بها بل كنت أشعر بأنَّها ليست المجال الذي كنت أطمح له وفوق هذا شعرت ببُعدي عن الحركة الوطنية في السودان وإنني إذا استمرأت الحياة في مصر فكأنَّما نفقت يدي من العمل الوطني والسياسي وسيأتي اليوم الذي ربما سأل فيه الناس عني وأين كنت. ولست أتجاهل أيضاً الشعور بالملل الذي أخذ يساورني وأنا في مصر والحركة في السودان تتطوّر وتتطلب العمل والنشاط ومازلت والحمد لله لي طاقة للعمل لذلك فكرت في أن أتخلص من الجامعة العربية وأن أعود إلى السودان ولكن كيف وهناك رجل عظيم أعزه واحترمه وأثق في وطنيته وعروبته يتمسك بي ويريدني في الأمانة العامة.

لجأت إلى الطب فأفانني بأنَّ صحتي لا يلائمها برد مصر وإن بقائي في القاهرة لم يعد يناسبني ولذلك أقدم استقالتني وأنا أسف على فراق هذه المؤسسة التي كنت أمل عن طريقها أن أخدم وطني الأكبر الوطن العربي - وقُبلت استقالتني وجاءني خطاب الأمين العام يذكر بالخير خدماتي ويتمنى لي الصحة والعافية وهكذا انتهت فترة الجامعة العربية لأسأنف العمل في السودان مع الاتحاديين الذي لم تنقطع صلتني بهم طوال فترة مصر والذين كانوا سندي ومعيني الذي لا ينضب من الأفكار والأخبار والآراء السياسية. كانت عودتي في سنة 1950م.

تحدّثت عن فترة عملي بالجامعة العربية وأكاد أكون قد حصرت نفسي في الأعمال المتعلّقة بالسودان والجامعة ولم أمس المواضيع الأخرى التي عاصرت أحداثها وأنا في الجامعة وليس لها وثيق صلة بالسودان ولكنّها تخص الناحية العربية عامة.

لقد ذكرت شيئاً عن الظروف التي قامت فيها الجامعة والخلافات العارمة التي كانت تكتنف العلاقات بين العرب ورؤسائهم ولكن بالرغم من ذلك ونتيجة لجهود المخلصين قامت الجامعة ولكن قيامها لم يقتل الأحقاد أو الشكوك التي استوطنت القلوب من قبل ولكن كل ذلك لم يقف دون الجامعة والأعمال السياسية والاجتماعية والثقافية العديدة.

فقد وقفت الجامعة إلى جانب طرابلس الغرب المعروفة اليوم باسم ليبيا وذلك عند تصفية المستعمرات الإيطالية ومحاولة إنجلترا أن ترث تلك المستعمرات كما وقفت

مع مراكش في قضيتها واهتمت الجامعة بأندونيسيا وأرسلت وفداً درس الأحوال في سنة 1948م وزار بلاد الملايو وبادر بالاعتراف بأندونيسيا دولة مستقلة ذات سيادة وكان لتلك المبادرة أثر بالغ الأهمية.

هذا إلى جانب أن الجامعة أقامت المؤتمرات الثقافية وخططت لتوحيد مناهج التعليم وكيفية تنفيذ ذلك التخطيط ووضعت المناهج لجميع مراحل الدراسة في التربية الوطنية والتاريخ والجغرافيا واللغة العربية وكان ذلك التخطيط يشمل المدارس الخاصة أهلية وأجنبية. وما زال ذلك التخطيط صالحاً إلى هذا اليوم.

وكم كنت أتألم لأنّ لا مجال لنا في الاستفادة من هذا التخطيط فالسودان غير مستقل والتعليم يخطّط له الإنجليز أو يشرف عليه سودانيون بعقول إنجليزية وإذا سمح لنا أن نحضر تلك المؤتمرات أو لجانها فلا سبيل ولا قوة عندنا لتنفيذ ما يتفق عليه.

هذا إلى جانب السياسة المصرية التي ما كانت تريد للسودان أن يظهر وقد حاولت وتحدّثت مراراً في أن يحضر السودان لجان تلك المؤتمرات نفسها ولكن كان السؤال وما الفائدة ما دامت تلك البرامج لا تنفذ؟

وعاصرت في الجامعة سنة 1946م اجتماع الملوك والرؤساء الذي ما كان إلا تمثيلية صغيرة أريد بها أن يُقال للناس إن الملوك على اتفاق تام وإنه لا خلاف ولكن لم يمر عام حتّى بدت المطاعم وظهر المدفون وتكشفت النوايا.

وكانت الجامعة تعمل جادة إلى رفع الحواجز بين البلاد العربية وقرّرت فعلاً إلغاء جوازات السفر والتنقل من بلد عربي إلى بلد عربي آخر وسمحت أن يكون ذلك عن طريق البطاقة الشخصية كما أنّها أقرّت ألا يظل عربي بدون جنسية لأنّه كان كثير من العرب يسكنون بلداً غير بلادهم وعاشوا فيها زمناً ولكنهم لم ينالوا جنسية البلد الجديد كما أنّ صلتهم انقطعت بوطنهم الأول ولذلك قرّر أن يفتح الباب أمام كل عربي ويمنح فرصة عامين ليختار الجنسية التي يريد.

كانت تلك القرارات ترمي إلى تحقيق الوحدة العربية تدريجياً وقد سارت عليها البلاد العربية إلا السودان الذي ما زال إلى اليوم يعامل العربي معاملة الأجنبي ويحدد له مدة الإقامة ويطارده إذا لم يجددها بينما ينعم السوداني بالإقامة في البلاد العربية ويدخلها دون تأشيرة دخول.

هذا في الوقت الذي نرى أبواب السودان مفتوحة لكلّ جنس إلاّ العربي ومع ذلك فنحن عرب ونحن أعضاء في الجامعة العربية.

وعندما أوشك الانتداب أن ينتهي في فلسطين نشط اليهود ومعهم الإنجليز محاولين الاستيلاء على البلاد بعد الانتهاء ويوم انتهائه أعلن اليهود عن قيام دولتهم وتحركت الجيوش العربية محاولة القضاء على تلك الدولة الدخيلة وتمّ تحرك الجيوش في مايو سنة 1948م.

ومُنيت الجيوش العربية بالهزيمة رغم أنّها كانت أكثر عدداً من عصابات الاشتيرين والهاقناة والأرغون وكانت الأسباب كثيرة على رأسها ما كان معششاً في النفوس من أحقاد وكره بين بعض الرؤساء وفقدان العرب لقيادة موحدة كما كان لليهود قيادة موحدة ناهيك من قلة الخبرة عند بعض الجيوش وفسادها عند آخرين.

وتمكن برنادوت من فرض الهدنة التي كانت وبالأعلى على العرب والتي لولاها لما كانت هناك إسرائيل فقد استطاعت في فترة الهدنة أن تقوي نفسها وأن تتدفق عليها المساعدات وأن يتسرّب إليها المحاربون.

ولندلل على ما كان في نفوس العرب أو ملوكهم من مطامع لا تتفق والظرف الذي كانوا فيه تلك المناورات التي عاصرتها أيضاً في اجتماعات الجامعة.

فقد كان التوتر بالغاً أشده سنة 1947م بين الأردن والسعودية ذلك لما شرع الملك عبد الله في العمل على تحقيق حلمه القديم الذي يرمي إلى تحقيق سوريا الكبرى تحت تاجه وكان من أهم دوافع ذلك الحلم هو أنّ الملك عبد الله ما كان في استطاعته أن يحتمل وجود الملك عبد العزيز آل سعود سيداً للجزيرة العربية أمّا هو فليس له إلاّ شرق الأردن هذه البقعة الصغيرة التي لا يزيد سكانها عن نصف مليون إن لم يكونوا دون ذلك عدداً.

ولا أريد أن أذهب مع القول الذي يتهم الملك عبد الله بأنه يحسد سوريا على استقلالها ولذلك يريد أن يجذبها إلى التاج البريطاني.

ونوقش موضوع سوريا الكبرى في الجامعة العربية سنة 1947م وكان نقاشاً حاداً وصريحاً وكان وفد سوريا يتحدث في حرارة وحماس ولم يتردد الوفد في أن يقول إنّ الأردن مديرية من مديريات سوريا فليس من المعقول أن يطالب الكل بالانضمام إلى الجزء هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ أبناء سوريا وغيرها بعد أن قسمهم

الاستعمار استطاعوا بكفاحهم ونضالهم ودمائهم أن يحصلوا على الاستقلال فهل يريدكم الملك عبد الله أن يعودوا مرة أخرى ليدخلوا رأسهم تحت التاج البريطاني وقالوا له حرر بلدك أولاً ثم أطلب منا أن نعود كما كنا أو أن نعود إلى حظيرة سوريا. قد قيل كل هذا في الجامعة العربية أمّا في الخارج فإن ابن السعود لم يسكت وأخذ يلوح بأنّه سيطالب بالعقبة ومعان إذا مضى الملك عبد الله في محاولاته كما هدد الملك عبد العزيز بأنّ بلاده لن تقف مكتوفة الأيدي إذا ضاع استقلال أي بلد عربي.

حدث كل هذا قبل حرب فلسطين وكان من السهل أن يتجدّد لو لا أنّ الملك عبد الله اغتيل وهو كبير الأسرة الهاشمية المناوئة للسعودية في المسجد الأقصى بطلقات من رصاص مسدس كان يحمله شاب عربي متحمس. إنّ الجامعة العربية على ما كان يحيطها من ظروف قاسية وما كان يدبره الاستعمار مع بعض الملوك والرؤساء إلّا أنّها استطاعت أن تعمل في المحيط العربي والدولي أعمالاً مجيدة. ولا شك أنّها ستعمل أكثر وأكثر بعد أن تحرّرت الدول العربية وإذا ما عدل ميثاقها ليتمشى مع الواقع وإذا ما كف أصحاب المطامع وعشّاق المغامرات عن متابعة أهوائهم ونزعاتهم وفكروا في ضم الصف أولاً وتوجيه القافلة إلى الطريق الذي يقوي العرب ويوحد كلمتهم.

السودان وفلسطين

عندما اندفعت سنة 1945م متطوعاً للجهاد في سبيل فلسطين لم يكن هذا الشعور شعوراً فردياً ولكنّه كان شعور كل سوداني يؤمن بعرويته وببذل الروح رخيصة في الدفاع عنها وحمائتها وهو يحس في قرارة نفسه أنّ العربية أصله ومصدر فخره وراثته وأمجاده.

وعندما هبّت الشعوب العربية لنصرة فلسطين والمحافظة على عروبتها من عدوان الصهيونيين الذين تآزرهم أمريكا وبعض دول أوربا كان من الطبيعي أن ينهض

السودانيون كغيرهم من أبناء العروبة لنجدتها وتكوّنت لجنة من خيرة رجال العاصمة اجتمع فيها ممثلو الأحزاب والهيئات والطوائف ناسين ما بينهم من خلافات حزبية أو فوارق طائفية عاملين جميعاً في وئام وانسجام حتّى يظهر اسم السودان بارزاً في الدفاع عن عروبة فلسطين. ثمّ رفعت اللجنة أمر تكوينها إلى الأمانة العامة للجامعة العربية ثمّ بدأت نشاطها في جمع المال لأنّه كان فعلاً الشيء الذي ينقص قضية فلسطين في ذلك الحين ولم يكن المطلوب إرسال المجاهدين.

واتصلت بالسيد عبد الرحمن عزام في هذا الصدد لأعرف الرأي وأحملة إلى السودان ووجدت عند الأمين العام رغبة في أن يمثل السودان في هذا النضال بعدد من المتطوعين لا يكون كبيراً ولكنّه يرمز إلى اشتراك السودان في المعركة وكان يري أنّ حملة فلسطين يجب أن يقوم بها الفلسطينيون أنفسهم وأنّ البلاد والدول العربية تمّدهم بالسلاح والمال وقال إنّ في السودان حاجة إلى المجاهدين وإنه سيحتاج إليهم في كفاح الاستعمار وهذا الرأي كان يراه أيضاً السيد محمد صالح حرب باشا غير أنّ هذا لم يمنع المؤتمر من أن ينظم أمر المتطوعين لأنّهم اندفعوا مطالبين المؤتمر بعمل شيء وكان رأيه أنّه إذا ما احتاج الأمر إلى متطوعين كانوا على استعداد.

وحملنا الرأي القائل بإرسال السند المادي إلى اللجنة التي قامت بإمدارمان لجمع التبرعات أمّا مسألة المتطوعين فلا تعدو أن تكون مسألة رمزية.

وبعد أن تطوّرت الحوادث وقرّرت الجيوش العربية دخول فلسطين جاء إلى مصر القائمقام حامد صالح المك من الضباط السودانيّين القدامى ليستطلع رأي المسؤولين في مصر وحامد بك صالح كانت له آمال عريضة في مصر وكان يسعى جاهداً ليحصل على وظيفة ياور الملك تلك الوظيفة التي كان يملؤها النجومي باشا.

جاء حامد صالح إلى مصر بغرض أخذ رأي المسؤولين من المصريين في أمر تجنيد السودانيّين ليساهموا في معركة فلسطين إلى جانب إخوانهم المصريين وفعلاً تمّ الاتصال بينه وبين وزير الحربية حيدر باشا الذي عهد إليه بتجنيد السودانيّين فرجع حامد بك صالح وأسس مكتباً للتطوع.

لقد قوبل تكليف حامد بك صالح بهذه المهمة بشئ من الدهشة والحذر خصوصاً وأنّ المؤتمر كان قد تخلّى عنه وكانت اللجنة التي تكوّنت بالسودان والتي تضمّ كثيراً

من خيرة وأبرز رجال العاصمة كانت تنتظر أن تستشار في الأمر وأن يكون لها بعض الإشراف ولكن الأمور سارت كما أريد لها من مصر وقام حامد بك صالح بالمهمة منفرداً وكما يهديه تفكيره الخاص.

وكانت فكرة التطوع والجهاد في سبيل الله والوطن تملأ نفوس الكثيرين من المواطنين من مختلف القبائل وكانوا كلهم يرون أن حرب فلسطين حرب دينية لا جزاء للشهيد فيها إلا الجنة فاندفعوا راغبين حتى بلغ عددهم السبعة آلاف رجل. واختار حامد بك مائتين وخمسين من هؤلاء جلهم من الجنود المسرحين الذين اشتركوا في الحرب العالمية الثانية وجاء بهم إلى مصر واستعرضهم وزير الحربية في هاكستب وخطب فيهم شاكراً ومعبراً لهم عن إعجابه بنظامهم والدوافع التي حملتهم إلى مشاركة إخوانهم المصريين النضال وكلف حامد بك صالح في الحال بالرجوع إلى السودان لتجنيد ألف متطوع.

وقد أدى هؤلاء المتطوعين أعمالاً مجيدة في الميدان ولكنها ضاعت ولم تظهر أويظهر بها اسم السودان والسبب في ذلك إن هؤلاء المتطوعين وزعوا على وحدات الجيش المصري.

كان أمام حامد بك صالح (كما قال لي عندما ذهبت مستوحاً الأمور) إنه بعد التشاور مع المواوي باشا أمامه طريقان فقد عرض عليه المواوي أن يوزع المتطوعين السودانيين بين فرق الجيش المصري أو أن يقودهم حامد صالح بنفسه في الميدان وفضل حامد صالح ادماجهم في الجيش المصري.

وبذلك فقدوا وجودهم ككتلة سودانية متطوعة وكانت المعاملة شاذة فإنهم بينما كانوا تابعين للجامعة العربية من حيث الصرف عليهم وتمويلهم كانوا جنوداً في الجيش المصري والجيش لا يعترف بهم ويعتبرهم متطوعين وفي المعاملات كانوا يحاسبون في الأوامر كجنود لهم خبرة ولهم تدريب ويعرفون القوانين أمّا في الظروف الأخرى فيعاملون كمتطوعين لا يعطون الحقوق التي تعطى للجندي المصري لهذه الأسباب ولأسباب أخرى ذكرها المتطوعون عندما عادوا من الميدان يريدون الرجوع إلى السودان وذهبت إليهم في هاكستب لأعرف الأسباب التي دعتهم إلى العودة وقد بدأت المعركة الحاسمة بقيادة اللواء فؤاد صادق. كانوا حائقين على رياستهم وكانوا يقولون إن حامد بك لم يزرهم في الميدان إلا مرة وقاموا بتحيته وهو داخل السيارة

وإنهم أهملوا وأن أعمالهم لم تظهر وأن من استشهد منهم لا يعرفون ماذا تم في أمره وكذلك الجرحى المفقودين.

فطمأنتهم وكنت على علم بكل ما قامت به الجامعة نحو الأسرى والمفقودين والجرحى ومعاملة أسر الذين استشهدوا وقلت لهم إن الجامعة لم تهملهم وذكرت لهم أسماء إخوانهم الذين جرحوا وماذا كان من أمرهم وكيف عولجوا ووضحت لهم كل شيء حتى رضوا تماماً وعرفوا الحقائق.

ذكرت هذه النبذة لكي أسجل جهاد السودانين في قضية فلسطين ذلك الجهاد المجهول وأبين عدد الذين استشهدوا من ضباط وجنود وعدد الجرحى والذين أسروا وما بذلت من جهد لوضع الأمور في نصابها عند الجامعة العربية.

ولقد أثارني كلام قاله السيد عبد الرحمن عزام باشا عندما سمع بأن عدداً من المتطوعين السودانين قد رجعوا من الميدان فقال إنه عامل السودانين معاملة أحب الناس إلى قلبه هم والليبيون فكيف عادوا وظهروا كأنهم مرتزقة لا غير وطلبت منه في الحال أن يفسح لي المجال لأعرف الحقيقة فكتب مذكرة للإدارة العسكرية كما كانوا يسمونها وكان على رأسها نمازي باشا وطلب منهم إطلاعي على كل شيء حتى الأسرار المالية وقمت بالتحدث إلى رئيس هذه اللجنة فعرفت منه الأموال التي صرفت والمهمات التي تعطى للجندي والسلاح والتموين ثم ذهبت إلى حامد صالح في الكنتنتال حيث كان مكتبه وأخذت منه كل ما أريد من بيانات ثم ذهبت لمقابلة الجنود الموجودين في هاكستب.

وبعد ذلك استطعت أن أعرف كل شيء وأن أنفي عن السودانين صفة المرتزقة وأن أبين الأسباب التي دعتهم إلى الثورة والرجوع وكانت لهم وجهات نظر محترمة ودوّنت كل ذلك في تقرير ضافي رفعته للأمين العام.

ولعلّه من الوفاء لذكرى هؤلاء الأبطال المغاوير أن أسجل هنا أسماءهم ليعرفهم من كان يجهلهم وليترحم عليهم من يؤمن بالتضحية في سبيل العروبة بالروح.

وقد استشهد في حرب فلسطين من الضباط:-

بشرى محمد خير
علي رمضان
علي محبوب
بشير بادي
في موقعة الكبيبة
في موقعة بيت دراس
في موقعة بيت دراس (كان مفقوداً)
في موقعة عراق المنسية

ومن الجنود استشهد النتية أسماؤهم:

عسكري/ سليمان مصطفى
عسكري/ إبراهيم إسماعيل
عسكري/ مازن الطاهر
جاويز سر الختم سيد أحمد
وكيل أمباشي علي المكي محمد أحمد
عسكري أغبش إبراهيم
عسكري أبراهيم كوكو بلة
عسكري أحمد الطيب إسماعيل
عسكري موسي قادم جبير
عسكري عبد السلام النصيح
عسكري إبراهيم أحمد بلة
عسكري عبد الله محمد
عسكري العطا حمد محمد
عسكري أحمد إدريس أحمد
عسكري حسن علي طه

إصابته بالميدان
موقعة عراق المنشية
موقعة عراق المنشية
موقعة عراق المنشية
موقعة عراق المنشية
موقعة عراق المنشية
موقعة عراق المنشية
موقعة عراق المنشية
موقعة عراق المنشية
موقعة عراق المنشية
موقعة عراق المنشية
موقعة عراق المنشية

عسكري صالح إبراهيم أحمد
وكيل أمباشي يحيى محمد زكريا
وكيل أمباشي أحمد محمود عثمان
عسكري صالح سليمان الجعلي
عسكري رجب سعد الله سرور
عسكري عطا المنان شكر الله
عسكري أحمد تركاوي
عسكري بشير أحمد داود
عسكري محمد سليمان خلف الله
أمباشي بشير إبراهيم محمد

موقعة عراق المنشية	وكيل أمباشي أحمد عبد الرسول
موقعة عراق المنشية	عسكري محمد المصري حماد
موقعة عراق المنشية	عسكري يحيى محمد مصطفى
موقعة عراق المنشية	وكيل أمباشي حامد علي محمد
موقعة عراق المنشية	عسكري زيدان حمد عبد النور
موقعة بيت دراس	وكيل أمباشي أحمد إبراهيم أيوب
موقعة بيت دراس	وكيل أمباشي محمد يس محمد خير
موقعة بيت دراس	عسكري موسي عمر موسى
موقعة بيت دراس	عسكري محمد عز الدين
موقعة بيت دراس	عسكري فضل المولى الله جابو
موقعة بيت دراس	عسكري وداعة صديق
موقعة بيت دراس	عسكري التجاني عبد الله
موقعة بيت دراس	عسكري سليمان زين العابدين
موقعة عراق المنشية	عسكري عبد السلام العبيد
موقعة بيت دراس	عسكري الزاكي حسن الزاكي
موقعة بيت دراس	وكان بالأسر السادة:
أسر في بيت دراس	الصاغ زاهر سرور الساداتي
أسر في بيت دراس	أمباشي آدم حاج أبكر
أسر في بيت دراس	سيف الدين أحمد حسن
أسر في بيت عديس	الشيخ جلال سعد
أسر في بيت دراس	أمباشي رمضان عبد الله
أسر في بيت دراس	جبريل إدريس
جبهة رفح	قائد الفصيلة سيد أحمد محمد أحمد

والخلاصة إن أعمال المتطوعين السودانيين كانت أعمالاً مجيدة ومشرفة وقد بذلوا جهداً كبيراً مقدراً واستشهد منهم عدد كبير نسبياً كما استشهد من ضباطهم خمس القوة تقريباً وكانت أعمالهم مجيدة شهد لهم فيها رؤسائهم. والذي أضع هذا الجهد وجعله غير ظاهر هو توزيع القوة على الجيش المصري ولست أرى الأسباب التي دعت إلى توزيعهم أسباب وجيهة أو مقنعة وإنها أفقدتهم

167

إشراف رئيسهم عليهم إشرافاً تاماً كما أنَّ حامد بك صالح كان في القاهرة طوال فترة المعركة تاركاً جنوده في الميدان ليس لهم من يشرف عليهم أو يرجعون إليه في أمورهم وليس في مقدورنا أن ندرك الحكمة التي جعلت حامد بك صالح يتخلى عن قيادة قوة جندها من السودان وجاء على رأسها إلى مصر ثم تركها تذهب إلى الميدان ويبقى هو في الكنتنتال.

ولعلَّه من الطريف أن نذكر أنَّ المرحوم علي مطر سليمان كان قد تطوع وكان قبلًا يعمل باشكاتباً في مصلحة التموين وهو المتطوع الوحيد الذي أعرف إنه كان له عمل محترم وتركه وذهب مجاهداً وقد كان علي مطر أحد طلبة الكلية الحربية التي تارت سنة 1924م.

تطوع علي مطر ووضع في وظيفة بلك أمين وكان معه الشيخ عبد الله شوقي الأسد وقد طلبت له رتبة يوزباشي والشيخ عبد الله ذهب إماماً وواعظاً للقوة ولكنه في الحقيقة كان أكثر من ذلك فقد استطاع أن يهدئ من ثورة الثائرين كثيراً.

وعلي مطر كان ضمن المطوقين في الفالوجا وعندما عاد مع العائدين وأمر الملك فاروق بالاحتفال بهم واستقبالهم كان مطر مازال برتبة بلك أمين وكان المفروض أن يصبح ملازماً بحكم الزمن وفعلًا قد صدر الأمر بترقيته ولكن رئاسته أيَّ حامد بك صالح لم يبلغهم الأمر وجاء علي مطر برتبة بلك أمين. ولم يهن الأمر علي الشيخ عبد الله شوقي الأسد وألحَّ على علي مطر أن يلبس ضابطاً وكان علي متردداً لأنه لم يصله أمر بالترقية ولكن أصّر شوقي الأسد وأخذ له (دبورة) وألبسها لعلي مطر وفعلًا دخل علي مطر الاستعراض برتبة ضابط ولو أنَّ ضابطه الأعلى أو قائده لم يتصل به أو يبلغه خبر الترقية.

وأخيراً استطعت أن أبذل بعض الجهد في تسوية أمور كل من أصيب أو استشهد أو أسر ولكن بعد محاولات عديدة وكتابة تقرير مطول أدافع فيه عن موقف السودانيين المشرف في المعركة.

وبعد جهد أيضاً ومقابلات عديدة قمت بها مع اللواء محمد نجيب أمكن تعيين بعض ضباط الحملة في الجيش المصري ومنهم من تحول أخيراً إلى الجيش السوداني ومنهم من لازال بمصر وقد أحيل إلى المعاش وكلهم يذكرون بالخير الجهد الذي بذل لضمان مستقبلهم.

هيئة الزهم في باريس

السودان شعب له ماضٍ مجيد وتاريخ عريق بعيد. هما ماضي وتاريخ العرب والشعب الذي له أمجاد لا يمكن أن يفنى أو يموت لأنه يتغنى دائماً وأبداً بأمجاده ويحلم بعودة المجد الحافل وتجديد العهد العابر وقد رأيت السودانى وهو بين شعوب عربية إسلامية وإسلامية غير عربية فكان هذا السودانى - والسودانى الذى لم ينل قسطاً من العلم- يتصرف تصرف الواعى الذى يحترم نفسه ويشعر بكرامته وكنت كلما زرت بلداً عربياً أو غير عربى يكبر فى نظرى هذا السودانى وأؤمن أن الاستعمار يريد أن يخدعنا ليقبل من قيمة أنفسنا حتى نضع أنفسنا طائعين مختارين فى المؤخرة ونحن والحق يقال لا نقل فهماً ولا وعياً عن تلك البلاد التى نالت استقلالها وتمتعت بحريتها.

وقد حارب الاستعمار هذا الشعب حرباً هادئة مكررة وتنبه إلى أن هذه الحيوية الكامنة فى الشعب السودانى ليست إلا هذه الدماء العربية احتفظ بها وحافظ عليها وهي التى تحفره دائماً وتذكره بأمجاده وتلهب فيه جذوة النخوة والفتوة.

وهنا فكر الاستعمار ودبر وإذا به يرسم الخطة ويعمل فى جد ليقضي على هذه الدماء وتجلت عبقريته فى أن يغزو هذا السودان بجحافل الشعوب المتأخرة من الغرب ويفتح لها أبواب البلاد بلا قيد أو شرط لعله بمرور الزمن ينشأ فى السودان جيل من أفاقي السودان الفرنسى ونيجيريا وهم أناس لا يحسون بولاء نحو هذا الوطن الذى احتضنهم وأواهم.

وكان لا بد من عمل مضاد يكشف سياسة الإنجليز فى كل ميدان ويندد بالاستعمار وما ينسج من مؤامرات سياسية واجتماعية وأخلاقية.

وحانت فرصة نادرة كان لا بد للمخلصين من اهتبالها والاستفادة منها وكانت فرصة ليس للتعريف بالسودان وإعلان وجوده فحسب ولكن للتشهير بما تقوم به حكومة السودان ومن يؤيدها فيه فى تلك الحبال التى تحاك والقوانين والنظم الشاذة. كانت الفرصة هي اجتماع هيئة الأمم فى باريس.

نشأت الفكرة في مساء أحد الأيام ونحن جلوس في حديقة الأندلس بالقاهرة إذ قال الوجهي علي البربر لماذا لا نستغل اجتماع هيئة الأمم في باريس للدعوة للسودان وقضيته الوطنية؟ وقلنا إنها فكرة نيرة جديدة بالاهتمام والبحث والتنفيذ. وكنا في نفس الوقت نخشى أن تكون حديثاً من أحاديث الصيف في هواء حديقة الأندلس الطلق. ولكن الوجهي علي البربر كان جاداً فيما يقول وما كادت تنعقد جلسة الجبهة الوطنية بمصر حتى عرضت الفكرة وأصبحت بعد نقاش قصير قراراً ينص على سفر السيد علي البربر وخضر حمد رئيس وسكرتير الجبهة ثم ينضم إليهما في باريس أعضاء بعثة الملك فاروق بوصفهم أعضاء في الجبهة وفي حزب وحدة وادي النيل وقد كانوا بالفعل خير عون لنا في مهمتنا وكان لنشاط بعضهم الجرم أثر فعال في نجاحنا. بدأنا الاستعداد للرحلة بأن فكرنا في طبع كتيب كان قد أعده الأخ أحمد خير ثم أعدنا مذكرة ضافية عن علاقة مصر بالسودان من النواحي التاريخية والاقتصادية والثقافية والجغرافية والسياسية بينا فيها ما لمصر على السودان من أيادي وما ينتظره السودان من ارتباطه بمصر من خير ثم أعدنا كتيباً صغيراً « الحقائق تتحدى » أو مائة حقيقة وحقيقة عن السياسة البريطانية وأعمالها في السودان ومقدار ما وصل إليه السودان من تقدم مزعوم.

وكانت الخطوة الأولى هي أن نطبع هذه الكراسات باللغتين الإنجليزية والفرنسية ونوزعها على أعضاء الوفود وعلى رجال الصحافة ووكالات الأنباء غير أننا علمنا ممن هم أخبر منا بشؤون الدعاية أن الخير في أن نصدر نشرات يومياً نملؤها بالحقائق في إيجاز ووضوح فتكون سهلة المنال لا تكلف القارئ كبير عناء.

وصلنا باريس وأصدرنا أول منشور لنا في 1948/9/7م أعلننا فيه عن وصولنا وعن مهمتنا وعن أملنا في أن نوضح للأمم المجتمعة مطالبنا ونجد عون الأحرار ومساندتهم في كل دول العالم.

سرفنا جل همنا في توزيع نشراتنا على رجال الصحافة من جميع أنحاء العالم وإلى وكالات الأنباء لأن أسس الدعاية الحديثة تقوم لا على الاتصال بالممثلين والمندوبين فلا خير يرجى من الاتصال بهم في مثل هذه المجتمعات لأن قضية السودان لا تعرض في تلك الدورة ولأن لكل مندوب سياسة خاصة رسمتها له حكومته وهو يسير على هداها وقد رسمت تلك السياسة على تطورات الأحوال في العالم وعلى

صدى الرأي العام في الدولة. فالرأي العام هو الذي يكيّف السياسة ولسان حال الرأي العام هو الصحافة فإذا استطعت أن تحمل صحافة دولة ما على الاهتمام بقضيتك والكتابة عنها في تلك الدولة اعتبر هذا هو صدى الرأي العام وعلى الدولة أن ترسم سياستها التي يسير عليها مندوبها على أثر الرأي العام.

وقد كانت نشراتنا فعلاً مكان اهتمام صحافة العالم وكان كثير من الصحفيين إذا ما رأونا نفتحم عليهم مكاتبتهم بنشرتنا قالوا في الحال O' SUDAN وكان بعضهم يسألنا عنها قبل أن تصله وبعضهم يحتج إذا لم تصله النشرة وغيرهم يسألنا عن مضمون نشرة اليوم قبل صدورها لأنّه يريد أن يرسل برقيته إلى صحيفته ولا يريدّها أن تكون خالية من ذكر شيء عن السودان.

لقد جاء الجمع حافلاً في قصر شايبو وقُدِّر عدد المجتمعين فيه من مختلف بلاد العالم كما جاء ذلك على لسان السكرتارية بخمسة عشر ألفاً يمثّلون شعوب الدنيا ولا شكّ في أنّه كان اجتماعاً حافلاً بحق قَرَّب إلينا الدينا بل جمعها في مكان واحد وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في مكان واحد.

ولما كان موضوع السودان لا مكان له في جدول أعمال الهيئة كانت المهمة شاقّة في خلق المناسبة التي نزع فيها باسم السودان ولكُنّا وفقنا في أن نخلق من المناسبات المختلفة سبباً لذكر السودان.

فانتهزنا فرصة الحديث عن مسألة برلين لنذكر الناس بمجهود السودان الحربي وما قدّمه من الإعانات المادية وغير المادية من رجال وما ضحى به في سبيل النصر من أموال حتّى كان النصر حليف الجانب الديمقراطي ولم ننس أن نذكّر بمواقفنا في الحرب الحبيشة وطرد الايطاليين من أرتيريا ثُمَّ مجُهود الجيش السوداني في العلمين وعلّقنا على ذلك بما كان ينتظره السودان من النسيقة وما لقيه فعلاً من خيبة أمل.

ثُمَّ جاء حديث المستر بيغن عن تحيزه للاستعمار وأنّ العيب ليس عيب الاستعمار ولكن عيب الوسائل وسوء الاستعمال فكانت نشراتنا تلاحق المستمعين قبل أن ينتهوا من سماعه تندد فيها بالاستعمار وتقول إنّ مستر بيغن يستخف بعقول الناس ويسخر من ميثاق هيئة الأمم وهو على منبرها.

وعندما تحدّثوا عن مزايا الحكم الديمقراطي لفتنا أنظارهم إلى ما تقوم به إنجلترا

في السودان من الاعيب ومخازي ومدى ما تتمتع به الجمعية التشريعية المزعومة ومجلسها من حرية وقلنا إنها جمعية صورية مسلوقة الإرادة لا يُحترم لها رأي وليس لها كرامة وقلنا إنها مثل ناطق على أنَّ الدكتاتورية التي أريق في سبيل القضاء عليها الدم الغزير ما زالت تمارس وتعيش في ربوع السودان فإنَّ رجلاً واحداً وفي القرن العشرين يمثل في السودان دور الحاكم المطلق يأمر وينهى ويقضي ولا راد لقضائه. ولما وقفت مسر روزفلت تتحدث عن حقوق الإنسان في جامعة السوربون كنَّا هناك وذكرنا لها ما يُرتكب في السودان ضد هذه الحقوق وقلنا إنَّ الإنسان في السودان ليس له حقوق مطلقاً بل الحيوان أوفر حقوقاً واحتراماً وأصدرنا بعد حديثها نشرتين كنَّا نأتي فيهما بالفقرة الخامسة من حقوق الإنسان وما يناقضها في السودان.

فقلنا إنَّ الفقرة 4 جزء 2 من حقوق الإنسان تنص على أنه يجب ألاَّ يكون إنسان ما عرضه للتعذيب أو قسوة المعاملة أو قسوة العقاب وقلنا أين ما في السودان من هذا ففي السودان أحرق المستر لي Lea والمستر كنيث Kenith قريتين في القضارف والفنج لأنَّ الأهالي لم يقيموا القرية في المكان الذي عينه المفتش مع أنَّه لم ينجم عن ذلك التحويل ضرر مباشر أو غير مباشر بإنسان أو حيوان أو كان فيه تعد على حقوق الغير.

والفقرة 11 تقول إنَّ لكلَّ إنسان حرية التجول والسكن داخل نطاق الوطن. فأشرنا إلى ما في السودان من مراكز مقفولة أوضحنا مساحتها بالنسبة لمساحة السودان.

وقلنا إنَّ المادة 16 تشير إلى حرية التفكير والعقيدة وحرية الاختيار والانتقال من عقيدة إلى عقيدة دون حجر أو قيد وأشرنا إلى ما في من حجر على حرية التدين وكيف أنَّ الشمالي المسلم لا يستطيع في الجنوب أن يؤدي شعائره الدينية في العلن كما يعاقب الجنوبي عقاباً صارماً إنَّ فُكر في اعتناق الدين الإسلامي.

وقلنا إنَّ المادة 21 تنص على حقوق الإنسان في الحصول على أجر يناسب لما يقوم به من عمل وحق الضمان ضد التعطل والمرض وبيَّنا أنَّ حكومة السودان تُعطي الجنوبي قرشاً واحداً أجراً عن عمله في يوم كامل.

وهكذا تتبعنا قانون حقوق الإنسان وبيَّنا المخالفات التي ترتكب في السودان. وفي أحد منشوراتنا تحدَّثنا عن السودنة وقلنا إنَّ المقصود بها هو تسليم السودانين مقاليد الأمور في بلادهم ولكنَّها في الحقيقة نوع من أنواع الحكم الإنجليزي غير

المباشر. وإن حكومة السودان أخذت تنشر الدعاية الطويلة العريضة لأعمالها في هذا الميدان زاعمة أن عدد السودانين في وظائف الدولة يتزايد يوماً بعد يوم وأن عدد الإنجليز يسير في النقصان وأخذنا نُفَنِّد هذا الزعم الباطل ونأتي بالأرقام التي توضح جلياً أن عدد الإنجليز في حكومة السودان في سنة 1946م أكثر منه في سنة 1939م وكشفنا عن الخدمة أيضاً بأن قارنا بين مجموع المرتبات التي يتقاضاها الجانبان فإذا بالمقارنة تكشف عن الحقيقة الدامغة وإذا بالسودانيين في الحكومة وعددهم ثمانية أضعاف البريطانيين لا يتقاضون من المرتبات إلا ما يوازي عشر مرتبات البريطانيين. ووصلنا أخيراً إلى المجلس التشريعي وجميعته التنفيذية وقلنا إن هذه آخر المهازل فمن تسعين عضواً في هذا المجلس لا يُنتخب انتخاباً مباشراً إلا عشرة أعضاء أما الباقون فمعيّنون أو شبه معيّنين وقلنا إن هذا المجلس لا كرامة له ولا احترام لقراراته وللحاكم العام وحده حق الفيتو بل يذهب الأمر إلى أبعد من ذلك فللحاكم العام أن يصدر القوانين بمفرده وعلى المجلس الموافقة والإقرار واعتبارها رأياً من آرائه.

والتعليم لم نهمل شأنه وعقدنا له منشوراً خاصاً وضمّنا فيه مجهود حكومة السودان في خمسين سنة ومجهود الشعب ممثلاً في المؤتمر في خمس سنوات وذكرنا أن مليونين من الأطفال الذين في سن التعليم لا يجدون طريقهم إليه وقارنا بين ميزانية الفلبين وقد دخلها الاستعمار في نفس السنة التي دخل فيها السودان فكانت ميزانية الفلبين تخصص 36% للتعليم وميزانية السودان تخصص 5%.

وعرجنا على الناحية العلاجية في البلاد وسوئها وكيف أن نصيبها من الميزانية 4% وإن نصيب الفرد يساوي سبعة بنسات في السنة وإن السودان يخصّص سريراً واحداً لكل 1333 شخصاً.

ثمّ الناحية الاقتصادية وما أصاب السودان أثناء الحرب حين نهبت خيراته وبيعت لحساب الإمبراطورية لا لحساب السودان وبالاختصار فإننا لم نترك باباً إلا طرقناه وشرحنا الأحوال شرحاً مسهباً وحملنا الاستعمار التبعة.

وكان نشاطنا في المقابلات لا يقل عن نشاطنا في إصدار النشرات فقد انتهزنا كل فرصة سنحت لنا لمقابلة كل شخص له أهميته من الشخصيات السياسية.

كان من ضمن من قابلنا المسرّ روزفلت بوصفها رئيسة لجنة حقوق الإنسان وكان

اجتماعنا بها في مؤتمر صحفي عقدته لترد على الأسئلة التي توجه إليها ولتوضح للصحافة ما ترمي إليه لجنة حقوق الإنسان ومدى ما أنجزته من أعمال.

قابلناها وتحذّنا إليها في قضية السودان ومقدار ما يلقاه الإنسان في السودان من حرمان وجود وسألناها إن كانت تقبل منّا عريضة في هذا الصدد ثمّ قدمنا لها النشرتين الخاصتين بحقوق الإنسان والسودان. أمّا فيما يختص بقبول العريضة فقد اعتذرت بقولها إنّها ما زالت تعمل لأنّ تقرر الدول مشروع قانون حقوق الإنسان وبعد إقراره يصبح أساساً تلتزم بالسير عليه جميع الدول.

وكان ممن قابلنا المستر ترجفي لي- السكرتير العام لهيئة الأمم وقد كان يستمع إلينا باهتمام ووعدنا بأنّ ينشيء ملفاً خاصاً بالسودان على أنّ نضع له مذكرة وافيه بقضيتنا وفعلاً قدّمناها له.

ومن طريف ما قاله السكرتير العام بعد أن سمع حديثنا أنّ رفع ميثاق الأمم المتحدة وقال « إنّّه كلام جميل على ورق جميل ».

وقابلنا المستر فكتور هو الصيني السكرتير المساعد المسؤول عن البلاد التي تحت الوصاية وقد كان بجهل كل شيء عن السودان وقال إنّ موضوع السودان لا يدخل في نطاق اختصاصه فقلنا له إنّنا نعلم ذلك ولكننا رغبتنا في الحديث إليه بوصفه رجلاً من رجال السياسة العالمية وأردنا أنّ نشرح له قضيتنا.

هذا عدا مقابلات عديدة أخرى من بينها مقابلتنا لكادوقان والمستر بيركلي وكيل مدير اليونسكو ولم نستطع أن نقابل المستر بيفن.

كانت المقابلات تتم بين عدد منّا والشخص المطلوب اللقاء به أمّا تلك المنشورات فقد كان يصدرها معي الدكتور بشير البكري الذي لم يتخلّف يوماً واحداً عن الحضور إلى قصر شابو والمشاركة في إعداد تلك النشرات وتوزيعها على الصحفيين ووكالات الأنباء في مكاتبهم.

نحن ووفد حزب النواة

كان لنا مع وفد حزب الأمة موقف بل مواقف. فقد جاء إلى باريس ونحن فيها الأستاذ يعقوب عثمان ممثلاً لحزب الأمة. وكنا ننظر إلى يعقوب نظرة خاصة كلها عطف يشوبه شيء من الإشفاق لأن يعقوب عزيز علينا جميعاً وعلى الرعيل الأول من إخواننا الاتحاديين على الخصوص - وقد كان يعقوب بعيداً كل البعد لفترة طويلة قضاهما في لندن ومصر لتلقي العلم.

كنا نود من صميم قلوبنا أن لا يكون موقفه حيث هو آنذاك لا أننا نكره الدعوة إلى الاستقلال ولكن لأننا كنا نعتقد أن يعقوب ليس الرجل الذي يتعاون مع الذين نتهمهم بأنهم يقولون ما لا يفعلون ويضمرون غير ما يعلنون وقد كشفت الأيام فيما بعد ليعقوب شيئاً من مخاوفنا الشيء الذي جعله يتخلى عن حزب الأمة ويلتحق بالسلك الدبلوماسي المصري.

جاء يعقوب إلى باريس وأصدر نشرة قال فيها إنه مندوب حزب الأمة الذي يقول إن السودان للسودانيين ليس لمصر ولا إنجلترا وأنه مستعد لمقابلة من يرغب في مقابلته أو مناقشته. وبعد أيام من صدور تلك النشرة جاني من يقول إن يعقوب أصدر نشرة يسبنا فيها فأسرعت لمقابلته والتفاهم معه. كانت النشرة التي أصدرها تشير إلى ما جاء في بعض نشراتنا عن قلة التعليم في السودان وعن مساوئ الجمعية التشريعية. وقال إن هذا الحديث لا غبار عليه ولكن الحل أن يكون السودان مستقلاً لا أن يكون لمصر وقلنا نحن بدورنا لا غبار على ما قاله يعقوب في هذا الصدد ولكن الذي عليه الغبار والغبار الكثيف هو قوله إن الدوائر المصرية في باريس هي التي قالت ما أشار إليه.

ولما قابلته أشرت إلى الحديث الذي عقب عليه في نشرته وقلت له إن هذا ما قلناه نحن لا الدوائر المصرية في باريس فما معنى قولك إن الدوائر المصرية قالت هذا هل يعني أننا نمثل الدوائر المصرية؟ فقال إن هذا شبيه بما يقوله المصريون قلت حسناً ولكن لم يقل المصريون في باريس هذا الحديث. قال إذا اتفقت وجهة نظرهم معهم قلت وعليه كان يجب أن تقول إن السودانيين في باريس يقولون كذا وكذا أمّا أنك

تجاهلنا وتصفنا بأننا دوائر مصرية فهذا ما لا يليق أن يصدر منك. قال إنكم شتمتمونا كثيراً قبل هذا قلت نعم وسنشتكم بعد هذا ولكن في السودان لا في باريس. لأننا جئنا هنا لنشتم الإنجليز ونندد بأعمالهم في السودان فهل في هذا ما يسئ إليكم؟ قال نعم لأنكم في إحدى نشراتكم عن الجمعية التشريعية قلتم (British Agents in the Sudan) أي وكلاء أو عملاء بريطانيا في السودان. قلت خفف عليك يا أخي فما قصدنا إلا إنجليز السودان فهم أيدي بريطانيا ثم قلت له على مسمع من صديق له صومالي كان يستمع إلى الحديث أريد أن أكلّمك في صراحة وأعطيك عهداً بأننا لم ولن نفكر في أن نالكم بمساءة في باريس وإذا شعرت بكلمة واحدة تحمل أي معنى من معاني التعريض فتعال لتسألني قبل أن تصدر منشوراً كهذا كما أسرع إليك أنا الآن والخير كل الخير في أن نوجه جهداً لمحاربة الاستعمار لا أن نضيع الوقت في الحديث عن بعضنا البعض وشهد الصومالي المرافق للسيد يعقوب بأن هذا كلام صحيح.

وجاء بعد ذلك بقية أعضاء وفد حزب الأمة وكان فيهم السادة عبد الله خليل وأحمد جمعة وأحمد يوسف وعلى رأسهم السيد الصديق المهدي واتصلنا بأحدهم لنتفاهم معاً على إصدار نشرة مشتركة نندد فيها بأعمال الإنجليز في السودان ونطلب زوال الحكم الثنائي القائم وذلك لأنهم طلاب استقلال كما يزعمون ونحن طلاب اتحاد ولا نتحقق آمال أحداً إلا بزوال الوضع القائم في السودان فقال إنكم قلتم عن الإنجليز ما فيه الكفاية وذلك رفعتهم عنّا عبء الحديث عنهم ولذلك سنتفرغ نحن لسبّ المصريين. وبعد أخذ ورد قبل فكرة إصدار النشرة المشتركة على أن يتصل بقية جماعته ويتشاور معهم ولكنه بالطبع لم يرجع وإلى أن فارقنا باريس كانوا قد أصدروا نشرة واحدة طبعت في مطبعة جريدة التايمز في إنجلترا.

نحن والإنجليز في باريس

ضاق الإنجليز ذرعاً بنشراتنا ومقابلاتنا ولكنهم تملكوا أعصابهم بادئ الأمر فلما شددنا عليهم الحملة جاءنا من الصحفيين من يقول إن الإنجليز غاضبون. ثم بدأت

تظهر بوادر الغضب فقد كنّا نضع جزءاً من نشرتنا اليومية في الأماكن المعدة لنشرات هيئة الأمم والوفود فإذا برئيس هذا القسم يقول لنا إنّ هذا المكان مخصّص للوفود الرسمية وإنه غير مسموح لنا بوضع نشراتنا فيه. فتحايلنا بوضع نشراتنا في أماكن متعدّدة وذلك بدسها بين نشرات الوفود الرسمية.

ثمّ جاءنا الشاب الذي كنّا نستخدمه في كتابة النشرة على الآلة الكاتبة ليقول إنّ رئيسه وهو إنجليزي منعه من ذلك فقمت بالمهمة وساعدني وجود عدد كبير من الآلات الكاتبة في القسم المعد للصحفيين وكنت أكتبها على ورق الشمع ثمّ أسلمها لموظف مختصّ ليستخرج منها النسخ المطلوبة ولكن هذا أيضاً جاءنا ليقول إنّ منعه وقد جاء هذا المنع لحسن الحظ متأخراً أيّ في آخر نشرتين من نشراتنا.

ومن الطريف إنّ كان هناك صوماليان جاءا لغرض الدعاية لقضية بلادهما فقابلهما أحد البريطانيين وكان يعمل في الصومال وبعد أن حياهما سألهما عن مهمتهما في باريس فلما عرف غرضهما قال لهما إني أريد أن أنصحكما والنصيحة هي ألا تسلكا مسلك السودانيّين!! فقالا له وما ذلك المسلك قال إنّ السودانيّين يصرون نشرة لا قيمة لها ولا فائدة منها وكلها كلام فارغ. ولكنهما ما أن تركاه حتّى جاءا إلينا ليتعلما ممّا كما قالوا طريقة النشرات التي أغاظت الإنجليزي إلى هذا الحد ومن ذلك اليوم بدأنا في إصدار نشرات عن مساوئ الإنجليزي في الصومال.

كيف حصلنا على المال

لعلّه تردد ويتردّد في بعض الأذهان سؤال ينتظر الجواب وهذا السؤال هو من أين لنا المال الذي ساقنا إلى باريس وأعاننا على مهمتنا في باريس وغير باريس من بلاد أوروبا بلاد لا تعرف إلّا المادة ولا يتعبد فيها طريق إلّا إذا كان الدولار أو الفرنك هو المعول.

والحقيقة إنني وعندما انتدبت للسفر لم أكن أملك غير ستين جنيهًا ساهمت بها وهذه الستون جنيهًا لا تكفي ثمن تذكرة الطائرة ذهاباً وإياباً ولكن الحمد لله قد وفقنا إلى رجل يعرفه الكثيرون خدّم القضية السودانية والناس نيام ودعا لها يوم لم يكن

هناك دعاة وصرف عليها من ماله وجاهه وصحته وشبابه من غير من ولا أذى.
 رجل رفع رأس السودان وأعلى اسمه في كل ميدان وكان دائماً السوداني المشرف
 في مظهره ومخبره الوطني المتحمس الجري استغل الناس الوطنية مطية للمادة
 وسخر هو المادة لخدمة الوطنية ولولا أن صلتني به لا تبيح لي أن أطيل في الشاء
 عليه حتى لا أتهم لقلت عنه الكثير إنه السوداني الكبير السيد علي البرير.
 إن أعمال الدعاية لا تقوم إلا علي المال والمال هو كل شيء لمن أرد أن يدعو
 لوطنه في أوروبا أو غيرها وقد كان علي سخيأً بالمال يصرفه صرف من لا يخشى
 الفقر. مائدة الغذاء التي يحجزها فيلثف حولها بعض أعضاء الجبهة وبعض الصحفيين
 أحياناً تكلف حوالي العشرين جنيهاً في اليوم. هذه وجبة واحدة هي الغذاء عدا
 المقابلات التي تتم في الفندق وخارجه.
 ومع هذا الصرف فقد كانت أعمالنا كلها تتصف بالقومية وباسم السودان ولم نصدر
 نشرة واحدة باسم الرئيس للجبهة الوطنية بمصر.

للحقيقة والتاريخ

اتصل بنا صحفيون ومراسلو صحف واتصلنا نحن بهم كما اتصلنا ببعض الوفود كما
 أسلفت وتحدثنا معهم وتحدثوا معنا كما حصل نفس الشيء مع حزب الأمة ومع وفد
 السودان وقد كان واضحاً إننا جميعاً لم نكن طلاب حرية.
 تحدثت صحفي أفريقي معي ومع عبد الله خليل وانتهى الحديث إلى أن عبد الله
 لا يريد خروج الإنجليز الآن ولكن يريد أن يستبقهم ليدربونا كما قال فلم يكن من
 الصحفي إلا أن أدار له ظهره وقال لستم طلاب استقلال. وتحدث معي نفس الصحفي
 وأخذت أشرح له دعوانا وإننا نريد الوحدة أو الاتحاد مع مصر وسألني قائلاً ولكن
 كيف تحصلون على استقلالكم من مصر فلم أجد مخرجاً إلا بالرجوع إلى مبادئ
 الاتحاديين والتي تقول بقيام الاتحاد مع تقرير حق الانفصال فسكت ولكنه ما كان
 مطمئناً إلى إننا طلاب حرية فعلاً.
 والحقيقة إن دعوة الوحدة أو الاتحاد ما كانت لتقف على رجليها أمام دعوة

الاستقلال لو لا أنَّ الاستقلاليين لم يقودوها صريحة في تلك المحافل وإنهم يطالبون بخروج الإنجليز فوراً وهذا ما أضعف الدعوي.

وليس هذا هو المظهر الوحيد الذي ظهرنا به في هذه المحافل بأننا لم نكن طلاب حرية ولكن وفودنا إلى أمريكا كانت تصطبغ ببعض الصبغة فذهب وفد السودان مع الوفد المصري وذهب حزب الأمة مع الوفد البريطاني وكان ظاهراً إننا نستوحي السيدين فقط.

لا شك في أنَّ طلاب الوحدة كان لهم منطقهم ولكنَّه منطق لا يقنع كل المعنيين وفي نفس الوقت لا يمكن التصريح عن الهدف في تلك المحافل.

ومنتطق الاتحاديين هو إنَّ الارتباط بمصر كان المخرج الوحيد لخروج القضية من الإطار الضيق إلى المحافل الدولية وأنَّ مصر كانت المحامي المتبرع وإننا إنَّ لم نربط كفاحنا مع مصر اكتسبنا عداوة الخصمين وليس في استطاعتنا الحرب في ميدانيين.

من قصر شابو بباريس إلى كوبر!!

لقد ذكرت قبلاً إنني ذهبت والأخ علي البرير إلى باريس موفدين من الجبهة الوطنية في مصر وسردت ما قمنا به من أعمال ودعاية ضد الاستعمار وكان ذلك سنة 1948م يوم بدأت حكومة السودان في تنفيذ مشروع الجمعية التشريعية وكنا نحن ضد ذلك العمل وقاطع المؤتمر وأحزابه الجمعية التشريعية وكان علينا أن نحضر إلى السودان لنساهم في محاربة الجمعية والدعوة ضدها وفعلاً عدت من باريس إلى السودان.

وصلت الخرطوم بالقطار عصراً وجاءني الاتحاديون يقولون لا بدَّ من أن أكون المتحدث باسمهم في الاجتماع الذي سيعقد في نادي الخريجين بأمر درمان في مساء نفس اليوم وقبلت الطلب وذهبت إلى النادي وشاركت في الحديث ودعوت الناس إلى عدم الاعتماد على الهيئات الدولية وقلت إنَّ الحرية تؤخذ ولا تُعطى وإن هذه المحافل الدولية ما هي إلا بورصة تتساوم فيها الدول على حساب مصالح المستضعفين.

وإذا أراد السودان الحرية فليبذل لها مهرها ولا ننتظر أن تنصفه هيئة دولية كهيئة الأمم التي كنّا فيها وهاهو ذا طريقنا إليها. وذهبت إلى الخرطوم أيضاً وتحدّثت مع المتحدّثين في نفس المعنى وهاجمت الجمعية التشريعية بالكلمة التالية:-

أيها السادة

إنني عائد من باريس من اجتماع هيئة الأمم بعد الحملة التي قمنا بها على حكومة السودان. لقد خرجنا من هذا المحفل الدولي بدروس لا تُقدّر بثمن، خرجنا ونحن نؤمن بأنّ هذه المحافل والهيئات، خدع من خدع أوروبا، يتمثّل فيها طغيان القوة على الحق، وطمع الدول المسمّاة بالكبيرة في الشعوب الصغيرة، وتعلّمنّا فيها أنّ الحقّ للقوة، وإنّ هذا الذي يقال من حديث الديمقراطية والعدل والمساواة، ليست جميعها إلّا خدعاً من خدع الساسة أرادوا بها تخدير أعصاب المحكومين لتطول أعمار الاستعمار والمستعمرين.

وليس معنى هذا أنّ يظنّ ظان أننا ما دمنا لا نملك من القوة المادية ما يمكننا من محاربة الدول الكبرى فعلينا أن نخضع لسلطانها وأنّ نهاب قوتها فنرضى بالذلة والصغار؟ لا ليس الأمر كذلك فإنّ البلاد التي كافحت ونافحت من قبلنا حتّى توجّحت كفاحها بحريتها لم تكن أقوى من بريطانيا في عددها وعدتها ولا أكثر من إيطاليا في حديدتها ونارها ولا أقسى من فرنسا في وحشيتها واستبدادها، ولكنّها كانت تملك سلاحاً أقوى من كلّ سلاح هو سلاح الإيمان بحقّها في الحياة والحرية، وكان هذا الإيمان هو سلاحها الذي حاربت به في قوّة وعزّزته بالتضحية والفداء. والسودان يتطلّع اليوم إلى الحرية ولا بدّ له أن يبذل في سبيلها كلّ مرتخص وغال وأنّ يؤمن في قرارة نفسه أنّ الحرية لا ينالها إلّا إذا أمهرها الدم وما أرخص الحياة إن كانت مهراً للحرية العزيزة.

إنّه طريق بدأنا السير فيه ونحن نعرف إنّه طريق شائك غير مُعبد ولكنّه الطريق الوحيد وقد سلكه الذين من قبلنا فوصلوا إلى أهدافهم وإنّا لواصلون من غير شك.

أيها السادة

خرجنا من هناك بهذا الإيمان وعدنا إلى السودان فإذا بالمهازل ما زالت تُمثّل على مسرح الحياة فيه، وكان آخر المهازل هو هذا المجلس الذي فرضه الاستعمار على

السودانيين لا ليقوم برغبتهم فيعمل لخبرهم ولكن ليقوم على أشلاء القتلى وأنين الجرحى فيكون رمزاً لقسوة المستبد وعنواناً على تخاذل أذنايه ومؤيديه. ولسنا نحارب هذا المجلس لضعفه فقط أو لفقدان الأمل فيه والخير منه لأنه يقوم على أسس غير صحيحة وعلى أوضاع غير ديمقراطية ولكننا نحاربه لأننا قد انعطنا بغيرنا، فقد نشأ مثل هذا المجلس في مصر القريبة فكان أقوى دعامة ارتكز عليها الاستعمار في تمزيق أوصال الأمة المصرية وتفريق كلمتها، فانشغل الناس به عن الاستعمار وأصبح الكفاح مَوْجَهًا إلى كراسي المجلس وللحرب الحزبية ونسي الناس أنَّ الإنجليز ما زالوا يعيشون في الأرض فساداً، وبذلك المجلس وحده بقي الإنجليز في مصر في أمن وأمان خمسين سنة.

هذه سيئة واحدة من سيئات هذا المجلس وأمثاله أمّا السيئة الثانية فهي أنَّ هذا العهد سيكون أسوأ العهود على السودان لأنه عهد المستشارين وما أدراك ما عهد المستشارين؟ إنه عهد الحكم غير المباشر!! عهد الخشب المسندة، حيث تجاب المطالب البريطانية بأوفر ممّا يتصوره العقل ولكن من وراء ستار فيستخفي الإنجليز وراء هذا السوداني في لونه الإنجليزي في وطنيته، وإذا ثرنا كانت حرباً أهلية يستند فيها الاستعمار إلى أوضاع شرعية وإذا سكتنا اجتاحت المحنة البلاد وعمّها الخراب. لقد ولد المجلس الآن بصورته الباهتة التي ترونها وبوسائله التي تعرفونها وتبوا أعضاءه مراكزهم منه كما يتبوء الكافر مقعده من النار فهم يعرفون قبل غيرهم أنَّهم جاءوا إليه- مع تفاهته- جيئة المتلصص الذي يعتدي على مال ليس له فيه حق يحسون في قرارة نفوسهم إنَّ الأمة تنظر إليهم نظرها إلى المارقين ومع هذا فلا يتبادر إلى ذهن أحد منكم إنَّ هذا المجلس سكتب له الحياة، لأنه يعيش في خوف وفزع كما يعيش المريض المصاب بأمراض قاتلة عديدة فهو يتألم في نفسه ويتهدده الموت بين صباحه وأمسيته.

وليت شعري كيف يعيش مجلس أجمعت الأمة على مقاومته ومقاطعته، ولها أسوة في الدعي السابق أي المجلس الاستشاري فقد شُيع غير مأسوف عليه ولم يكن إجماع الناس في العزوف عنه أقل من إجماعهم في العزوف عن الدعي اللاحق ليست العبرة في أنَّ يولد ولكن العبرة في أنَّ يعيش وسوف لا يعيش بإذن الله ما دام في السودان إيمان بالحق وتطلع إلى الحرية وبذل بالأرواح والمهج.

ولم أكن على علم بأن هناك مظاهرات قد اتفق عليها سلفاً واتفق أيضاً على أن يقود المظاهرة في أم درمان السيد إسماعيل الأزهري رئيس الأشفاء وفي الخرطوم حمّاد توفيق رئيس الاتحاديين وفي الخرطوم بحري درديري أحمد إسماعيل رئيس وحدة وادي النيل.

وبعد أن انتهى الحديث وقف الأخ حمّاد وأخذ يهتف ويتقدّم فحسبته يريد أن يخرج بالناس من النادي بعد الكلمات بهذا الهتاف ولكنه استمر إلى أن وصل شركة مركنتايل وهنا ظهر البوليس وبدأ الضرب الذي لم يسلم منه حمّاد وكذلك كان الحال في المدن الثلاث.

وبدأ البوليس في قبض المتظاهرين وأرجأ اعتقال المتكلمين وكبار الحزبيين إلى الصباح. أمّا فيما يخصني فقد شكرت الله على أن تركني أقضي الليلة مع أهلي ولكنه في الساعة السابعة صباحاً جاء صول ومعه العربة الخاصة بحمل المجرمين وقال «عاوزين الأستاذ» فقلت أهلاً وليست ثم خرجت معهم إلى المعتقل في أم درمان أو ما يسمونها غرفة الحراسة وهناك وجدت من سبقني إليها من الإخوان ومعهم لص صغير اعتاد سرقة الغنم وآخرون من أصحاب السوابق. وبعد أن جمعوا كل المطلوبين أخذونا في ولوري إلى كوبر.

وكانت كوبر عامرة وكان الإنجليز على استعداد لاستقبال عدد كبير فنصبوا خياماً عديدة زيادة على عنابر السجن الكثيرة ووجدنا جماعة الخرطوم بحري في مكان بعيد عنا وكذلك جماعة الخرطوم وكان الاتصال بيننا لا وسيلة له مطلقاً. ووجدنا عنابر طويلة وكثناً أربعين شخصاً وسلمونا بطاطين لكل منّا بطانيتان واحدة نفرشها على الأرض والأخرى للغطاء وسمحوا لنا أن نطلب من بيوتنا جلابيب وبعض الضروريات كالأدوية والمصاحف وأدوات الحلاقة.

أمّا السجن فرهيب. رهيب مهما كنت شجاعاً ومهما كنت مطمئناً إلى دخوله إلا أن طريق السجن سياسة ضد الاستعمار هي الطريق للسجن.

هذه الجدران السمكية العالية علواً فاحشاً وهذه الأبواب الحديدية التي كلما دخلت واحداً منها سمعت للأقفال وهي توصل جلجلة وقعقة ولا تصل إلى المكان المخصّص إلا بعد أن تدخل أبواباً عديدة وتسمع كل مرة تلك الجلجلة والقعقة لترهّبك وتشعرك بأنك فقدت الحرية وإنك بعدت عن الحياة والحركة وإنّه لم يعد بينك وبين الدنيا أيّ

اتصال فقد غابت عن أسماعنا الضوضاء والتي كانت قبل لحظات تملأ الشوارع وتصلم الأذان. وليس هذا فحسب بل فوق الأسوار العالية رجال مدججون بالسلاح يسيرون على حائط السجن ويراقبون أي حركة من الداخل والخارج.

بدأن نحاول أن نُسلي أنفسنا بعد القيام بحركات استطلاعية قام بها الشباب فعرفنا من في الأماكن المجاورة لنا.

وقاد الطيب محمد خير « كورس » القسم وأخذ يطوف بهم حول العنبر يردّدون الأناشيد وأحياناً الأغاني والنكات.

ومع هذا السكون الرهيب الذي أحسنا به داخل السجن والحصار المضروب علينا وعلى من حولنا استطعنا أن نتصل بالعالم وأن نسمع أخبار الإذاعة وأن نعرف من قبض عليه في بورتسودان ومدني ومن استشهد ومن ضرب.

كان إلى جوارنا سجين ممن حُكم عليهم بمدة طويلة في الدرجة الثانية وسمحوا له براديو وكان مع هذا السجين عبد المنعم حسب الله الذي كان محكوماً عليه سياسياً. وعندما سمع بدخول المعتقلين أخذ يصيح بأعلى صوته ليعرف من من زملائه وصل وبدأ الصراخ من الجانبين عدّدوا له أسماء المعتقلين فاستقبلهم مهناً مسروراً بقدمهم ووعدهم أن يزودهم بالأخبار ففعلاً أخذ يسمع الإذاعة ويكتبها في ورقة ثم يربطها مع حجر ويقذف بها من فوق الجدار السميكة وملتف حول أحدنا وهو يقرأ بصوت مرتفع ثم نجود على إخواننا الآخرين الذين جئ بهم من الخرطوم بحري بما نحصل عليه من معلومات وأخبار.

عندما فكّر الأوائل أن يكون السجن عقاباً للمجرمين كانوا يعلمون مدى أثر حرمان الإنسان من الحرية والمجتمع وفصله عن العالم وإنه عقاب صارم بحق.

الثورة في مصر وما كسبناه منها

قامت الثورة في مصر وكانت التطوّرات الأخيرة كلّها توحى بقيام هذه الثورة. فالاختلافات الحادة التي قامت بين الوفد والقصر وتغيير الحكومات الكثير وفي أوقات متقاربة جداً وما كان يدور في صفوف الجيش من تنظيمات محكمة يقودها الضباط

الأحرار وثورة الشعب التي تعددت أسبابها كل هذه كانت إرهابات الثورة التي كان لا بدّ منها.

لم أكن أعرف من الضباط الأحرار أحداً ولكنّي كنت أعرف اللواء محمد نجيب الذي قاد الثورة والذي كان هو بمفرده ثورة متحرّكة والذي كان لا يتردّد في الحديث ويطلق بعض المواضيع علناً وكان الحديث فيها يخيف الكثيرين ولو في السرّ وكنْتُ أحسّ بأنّه يريد شيئاً فقد رأيته يحاول الاتصال بكثير من ذوي الرأي ورجال الصحافة ويحاول كسبهم وليقص عليهم إذا ما اطمأنّ إليهم بعض الأسرار وكنْتُ معه يوم كرم الملك الضبع الأسود عند عودته من الفالوجة وكان لمحمد نجيب رأي يخالف ذلك تماماً وكان يقول إنّ الضبع الأسود كان معه خيرة الضباط وكان معه العتاد الذي يمكنه من شق طريقه والخروج من التطويق ولكنّه لم يفعل وهذا ما كان يريده الملك وحكومته كما كان يتحدّث في مرارة عن حرب فلسطين وما أصاب الرجال من سوء السياسة التي كانت تدار بها المعارك من القاهرة.

ولذلك لم استغرب عندما سمعت أنّه رضي بأنّ يقود الثورة وتعاون مع الضباط الأحرار وكان الضباط الأحرار أيضاً وجدوا فيه الشخصية الكبيرة التي يحبها رجال الجيش.

واستقبل السودان جميعه الثورة استقبلاً حسناً لا لمجرد إنّها ثورة على نظم وحكام كنّا نشعر بما يتصفون به فحسب ولكن لأنّ على رأس الثورة رجلاً يعرفه السودانيون معرفة تامّة ويكاد يكون صديقاً شخصياً لكلّ سوداني زار مصر فقد مرّت فترة على السودان ومصر لم يكن فيها بينهما اتصال إلّا عن طريق سمو الأمير عمر طوسن ومحمد نجيب ذلك بماله يساهم في تشييد المساجد وهذا باتصالاته المستمرة بالسودانيين واهتمامه بما يجري في السودان وتبعه للحركة الوطنية والسياسية وله في ذلك مذكرات وآراء ومناقشات للأفكار المختلفة التي كان يدين بها أبناء السودان من حيث علاقة مصر بالسودان ومن حيث المصير الذي يريده السودانيون لبلادهم. ومحمد نجيب عمل في السودان وتعلّم فيه وله زملاء ثمّ إنّ والده كانت له زوجة من السودان من بربر وهذه الصلات المتعدّدة النواحي هي التي دفعت بمحمد نجيب للاهتمام بالسودان.

استقبل السودان الثورة باهتمام بالغ واعتبرها ثورته لأنّ على رأسها رجل يعرفه

ويثق به ويعرف مدى عطفه على السودان وكانت الثورة كما قلبت الأوضاع في مصر قلبت القضية السودانية رأساً على عقب ولأول مرة ظهر في السياسة المصرية من يؤمن بحق السودان في تقرير مصيره الشيء الذي جحدته علينا العهود المختلفة وأبت علينا أن نظهر في المحافل الدولية أو في مفاوضات مياه النيل كصاحب حق بل تعترف تلك العهود بالإنجليز وحدهم.

تفتحت آفاق جديدة وظهر ضوء جديد يمكن القضية السودانية أن تسير على هدهد وهي مطمئنة لأنها ستواجه من يعرف الأحوال على أصولها ويقدر الظروف والملايسات وما طرأ على العقول من توقد وتطلع.

قامت الثورة في يوليو سنة 1952م وفي أكتوبر كان السودانيون على مختلف أحزابهم في مصر يتفاوضون مع العهد الجديد ويحاولون الاتفاق على أسس صحيحة يواجهون بها الإنجليز وكانت المفاوضات ستجري بين مصر وإنجلترا لحل قضية السودان.

وحتى الإنجليز فقد أشاروا على السيد عبد الرحمن المهدي بأن يذهب إلى مصر ويتفاوض مع العهد الجديد. وكان الإنجليز يحسبون العهد الجديد سيقف نفس الموقف السابق الذي وقفته العهود البائدة وإذا ما اختلف رجال الثورة مع السيد عبد الرحمن كان ذلك سبباً ينتحله الإنجليز لتقرير مصير السودان مع وجودهم فيه. ولكن كان رجال الثورة وعلى رأسهم نجيب ألبق ممّا ظنّ الإنجليز واعترفوا للسودان بأن يقرّر مصيره فأما أن يختار علاقة بمصر أو يتجه نحو الاستقلال التام.

كانت تلك خطوة جريئة من رجال الثورة ولعبة خطيرة وجريئة كما قال أحد الساسة القدماء في مصر.

مفاوضات الاتفاقية

بدأت المفاوضات بين مصر والجهات السودانية في أكتوبر سنة 1952م وكانت الجبهات السودانية متعدّدة ولكنّها انحصرت أخيراً في جبهتين أولاهما الجبهة الاتحادية وقد ضمت أحزاب الأشقاء بشقيهما والاتحاديين والأحرار الاتحاديين

والجبهة ووحدة وادي النيل والثانية هي الجبهة الاستقلالية وكانت مكونة من حزب الأمة والقوميين والمستقلين.

وُضعت الوفود في أماكن مختلفة فسيادة السيد عبد الرحمن كان يسكن قصر آل لطف الله ومعه مرافقوه من حزب الأمة والوفد الاتحادي كان يسكن فندق سمير أميس ولا لقاء بين الوفدين وكان يتولّى المفاوضات معنا اللواء محمد نجيب والمرحوم صلاح سالم والطيار حسين ذو الفقار والسنهوري باشا وكانوا يقابلونا في مكتب اللواء نجيب ويذهبون إلى وفد حزب الأمة في قصر آل لطف الله.

كان مندوب الاتحاديين السيد حمّاد توفيق وكُنّا على اتصال دائم به فكان يحمل إلينا يومياً بالتليفون ما وصلوا إليه ويأخذ رأينا فيه وبهذه الطريقة استطعت أن أجمع هذه البيانات التي سأذكرها ثمّ لحقت بالوفد ممثلاً للاتحاديّين مع السيد حمّاد.

كُنّا نحن الاتحاديّين نرفض رفضاً باتاً أن تقوم انتخابات لأيّ وضع بوجود الإداريين والحاكم العام وكان وفد حزب الأمة والاشتراكيون يرون بقاء الحاكم العام ويصرون على استمرار الحياة النيابية ورفضنا قائم على أن أيّ انتخابات تقوم في ظل الإنجليز سيكسبها أعوانهم السائرون على هدى توجيههم ومتى قامت حكومة لها أغلبية نتيجة لانتخابات وافقنا عليها وأصبح كل عمل تقوم به أو قرار تصدره شرعياً.

ويرى وفد حزب الأمة أن تكون هناك فترة انتقال تُحدّد بثلاث سنوات سموها هم فترة تدريب ونحن نريدها أن تكون فترة تصفية للحكم الثنائي وكان من رأينا ألاّ يقوم برلمان في فترة التصفية ولكن تقوم حكومة ائتلافية.

سارت المفاوضات أو الحقيقة بدأت هكذا آراء فجّة أوحتها العجلة والمفاجأة ولكن بعد مرور الأيام وتداول وجهات النظر بدأت الأمور تتبلور.

كانت حملة الأميين علينا شديدة وكُنّا نسمع عنهم كلام غريباً وحمل إلينا مرّة أن أحدهم قال إنّ أعوان الاتحاد مع مصر لا يتعدون هذه الحفنة المأجورة التي تتفاوضون معها وليس لهؤلاء نصير في السودان مطلقاً وتحديّ الجميع ومَرّت الأيام فإذا بهذا المتحدي يسقط في دائرته التي فيها أهله وعشيرته.

مَرّت أيام عصيبة لم نصل فيها نحن أو حزب الأمة إلى الحدّ الذي نُهدّد أو يُهدّدون فيه بقطع المفاوضات.

وللحقيقة أُسجّل هنا موقفاً للاتحاديّين عندما تعثّرت المفاوضات وهذا الذي

أُسجِّلَه كان رسالة من الاتحاديين لممثلهم في الوفد قالوا:-
 « لازلنا عند رأينا السابق من أنَّ إجراء انتخابات أو قيام أيِّ حكومة نيابية في ظلَّ الإدارة الحالية فيه قضاء على الحركة الوطنية ووضع السودان في يد رجال حكومة السودان وبالتالي في يد حكومة الإنجليز».
 ونحن نرى أنَّ دور حزب الاتحاديين التاريخي هو دائماً وأبداً الحرص الشديد والمراقبة التامة لمصلحة السودان والسير به إلى شاطئ السلامة حتَّى يقرَّر مصيره في حرية تامة.

ولا يضير حزب الاتحاديين أن يكون الحزب الوحيد الصلب في مطالب السودانيين الحقَّة وحتَّى لو انفقت الحكومتان والأحزاب الاتحادية على أسس جديدة من التعاون فإنَّنا نرى أنَّ دورنا التاريخي هو أن نظلَّ حماة المصلحة الحقَّة للسودان ولا يمكن أن تقوم مصلحة حقَّة ما دام في السودان إنجليزي واحد لهذا فنحن نرى في إصرار:
 (1) سحب الموظفين البريطانيين من حكومة السودان.

(2) سحب الضباط الإنجليز من قوة الدفاع.

هذا يدلُّنا على مدى الخوف من وجود الإنجليز في فترة تقرير المصير وهذه كانت آراء حزب واحد من مجموعة أحزاب الوحدة ولكن بعد تداول الآراء شاء الله أن نتفق على أن تكون الفترة فترة تصفية لا تدريب وأن تتم التصفية في مدى ثلاث سنوات وفي نفس الوقت رضينا أن تقوم انتخابات بوجود الإنجليز لتقوم الحكومة التي تأخذ على عاتقها التصفية.

وقبل أن نصل إلى الاتفاقية فقد عقدت الجبهة الاتحادية اتفاقاً مع مصر على الحدِّ الأدنى الذي تقبله من الأوضاع وأنَّ نعطي مصر حقَّ الحديث والتفاوض في حدود ذلك التفويض وأنَّ يكون التفويض مَوْقِعاً عليه من ممثلي الأحزاب الاتحادية.

وقد فعل حزب الأمة نفس الشيء وأعطى المفاوض المصري هذا التفويض وعلى أسس يري الحزب أن يكون الاتفاق بين مصر وبريطانيا على أساسها وأطلعنا المفاوض المصري على تلك النقاط فكُنَّا لا نرى بالطبع أنَّها تمثِّل وجهة النظر التي نراها ولذلك أدخلنا عليها التعديلات وسأدوِّن هنا النقاط التي تمَّ عليها الاتفاق بين الجبهة الاتحادية والمصريين وكذلك التعديلات التي رأينا إدخالها واعتبرناها الحدِّ الأدنى ثُمَّ نأتي إلى التفويض الذي أعطيناه المفاوض المصري ليجابه به الجانب الإنجليزي وهذه

التفويضات لأننا نحن وحزب الأمة ليس لنا مكان في المفاوضات التي ستجرى بين مصر وبريطانيا ولذلك حدّد كلٌّ منّا مطالبه وفوّض مصر للوصول إليها وفي نفس الوقت جابهت مصر بريطانيا وفي يدها ما يبيح لها أن تتحدّث باسم السودانين والمصريين وفيما يلي نصوص الاتفاقية التي اعتبرناها نحن الاتحاديين حداً أدنى والتعديلات التي نُصّر على إدخالها فيها والتفويض.

المشروع الأول الذي قدّمته الأحزاب الاتحادية

1. تعتقد الحكومة المصرية اعتقاداً جازماً بحقّ الشعب السوداني في تقرير مصيره وممارسته لهذا الحقّ بعد إيجاد الضمانات الكافية.
2. يجب أن تكون هناك فترة انتقال لغرض تحقيق هدفين:-
الأول - قيام الحكم الذاتي الكامل للسودانيين.
الثاني - إيجاد الجو المحيط الضروري لممارسة السودانين لحقّ تقرير مصيرهم.
3. بما أن فترة الانتقال هي بمثابة تمهيد لإنهاء الثنائية إنهاء فعلياً فتعتبر هذه الفترة تصفية لتلك الإدارة.
- وفي أثناء فترة الانتقال تظلّ سيادة السودانين على بلادهم محتفظاً بها لهم إلى أن تعود إليهم عند تقرير المصير.

نظام الحكم في فترة الانتقال

4. تتمثل السلطة الدستورية العليا أثناء فترة الانتقال في هيئة تسمي « اللجنة المفوضة » التي تتكوّن من رئيس اللجنة الذي ترشحه الحكومة البريطانية وتعيّنه الحكومة المصرية من ثلاثة أعضاء اثنان منهم سودانيان يعينان بالاتفاق بين حكومتي مصر وبريطانيا وثالثهما مصري تعينه حكومة مصر على أن يصدر مرسوم تعيينهم جميعاً من الحكومة المصرية.
5. يمارس رئيس اللجنة المفوضة سلطات رئيس الدولة بالوضع المقرّر في دستور الحكم فيما عدا السلطات التقديرية المنصوص عليها في الدستور فإنّها تكون من اختصاص اللجنة المفوضة (بأغلبية ثلاثة إلى واحد) وإذا لم يتم ذلك فيرجع فيها إلى

- البرلمان السوداني (وستعد تعديلات الدستور وتعلن في الوقت المناسب).
6. تجري الانتخابات مباشرة في جميع أنحاء السودان ما عدا المديريات الجنوبية الثلاث تحت إشراف لجنة مختلطة تتكوّن من عدد لا يقل عن اثنين من السودانيين ومصري واحد وبريطاني واحد وعضو محايد تكون له رئاسة اللجنة.
7. تبدأ الانتخابات بمجرد انتهاء الإعدادات اللازمة بما في ذلك « إعداد كشوفات الناخبين الشاملة » واقتناع لجنة المراقبة بها على أننا نأمل أن تبدأ قبل نهاية سنة 1952م وستجرى بالترتيب الآتي:-
- أ. يبدأ بالـ 24 دائرة المباشرة المبينة في دستور السودان الذي أقرته الجمعية التشريعية.
- ب. ثمّ الانتخابات غير المباشرة في المديريات الثلاث الجنوبية.
- ج. ثمّ بقية الدوائر الانتخابية.
8. عندما تظهر نتيجة الانتخابات تقوم في السودان حكومة ائتلافية توزع مقاعدها بنسبة مقاعد الأحزاب المشتركة في البرلمان وتستمر الحكومة ائتلافية طوال فترة الانتقال.
9. لتحقيق الحكم الذاتي الكامل ولإيجاد الجوهر المحايد الضروري لتقرير المصير يجب أن تنشأ لجنة السودنة قوامها خمسة أعضاء على الأقل أحدهم بريطاني وآخر مصري والباقيون من السودانيين ويرأس هذه اللجنة أحد الأعضاء السودانيين. تكون مهمة هذه اللجنة إتمام سودنة الإدارة الحكومية في مدة فترة الانتقال المنصوص عليها في المادة العاشرة في النواحي الإدارية والقضائية ووظائف البوليس وقوة دفاع السودان.
10. لا تتجاوز فترة الانتقال ثلاث سنوات على أن تبدأ عند تعيين اللجنة المفوضة في نهاية فترة الانتقال تقوم الحكومة السودانية بوضع قانون الانتخابات للجمعية التأسيسية وتقدمه للبرلمان السوداني للتصديق عليه.
11. وسيكون قانون الانتخابات خاضعاً لموافقة اللجنة المفوضة وتتفق الحكومتان المصرية والبريطانية على الضمانات التي تحقق الحرية والحياد في الانتخابات كما يجب أن تجلو القوات العسكرية البريطانية والمصرية قبل سنة على الأقل من انتخابات الجمعية التأسيسية .

12. على الجمعية التأسيسية واجبان أولهما- تقرير وضع السودان المستقبل وثانيهما- وضع دستور السودان النهائي ليتمشى مع قرارها عن مستقبل السودان بالإضافة إلى وضع قانون انتخابات البرلمان السوداني الدائم.ii ويتمّ تقرير مستقبل السودان بأحد طريقتين
 1. إمّا أن تختار الجمعية التأسيسية الارتباط مع مصر في أيّ صورة من الصور.
 2. وإمّا أن تختار الاستقلال التام عن مصر وبريطانيا وغيرها من الدول وفي هذه الحالة توقع اتفاقية بين مصر والسودان تحقّق مصالح الطرفين.
 وتتعهد الحكومتان البريطانية والمصرية باحترام قرار الجمعية التأسيسية فيما يتعلّق بمستقبل السودان كما تلتزم كل من الحكومتين باتخاذ الخطوات الضرورية من جانبها لتنفيذ إرادة ومشئنة السودانيّين.

التعديلات التي تطالب بها الأحزاب الاتحادية لإضافتها لمشروع الحكومة المصرية والاستقلاليين الموقع في 1952/10/29

1. تعدل المادة 17 من دستور السودان بإضافة الآتي أول المادة:
 « فيما عدا حالة إعلان الحرب التي يجب أن تؤخذ عليها موافقة البرلمان السوداني فإنّ الشؤون الخارجية تصبح من اختصاص اللجنة المفوضة » .
2. إصدار تصريح مشترك من الحكومتين المصرية والبريطانية قبل كل الإجراءات المقترحة يتضمن:
 - i. إنهاء الإدارة الحالية.
 - ii. إعطاء السودانيّين حق تقرير مصيرهم بأنفسهم ووفق إرادتهم الحرة.
 - iii. إطلاق الحريات العامة.
 - iv. تحديد فترة الانتقال أو التصفية بثلاث سنوات.
 - v. ارتباط كل من بريطانيا ومصر باحترام وتنفيذ نتيجة تقرير المصير.
 - vi. تسجيل ذلك التصريح دولياً
3. إطلاق الحريات العامة في السودان فعلاً وإلغاء جميع القوانين المقيدة لها بمجرد إعلان الاتفاق؛

4. إلغاء مجلس الشيوخ في فترة الانتقال أو تعديل قانون انتخابه ليتماشى مع قانون انتخابات مجلس النواب.
5. تعديل مواد الدستور السوداني كما جاء في التعديلات التي اتفقنا عليها مع الدكتور السنهوري.
6. استقالة النظار والمُمد والموظفين الإداريين قبل ترشيح أنفسهم لعضوية البرلمان.
7. يلغي القيد الخاص بالسجناء السياسيين من مؤهلات المرشحين للبرلمان.
8. مراجعة كشوفات تعداد الدوائر وإعادة تقسيمها حسب التعداد الصحيح.
9. زيادة دوائر المتعلمين.
10. إلغاء القيد الخاص بالإقامة لسائر المرشحين لعضوية البرلمان.
11. جعل رئاسة لجنة شؤون الموظفين لأحد الأعضاء السودانيين.
12. إلغاء المجلس التنفيذي الحالي المشكل من أعضاء بريطانيين وأعضاء حزب الأمة وتعيين حكومة مؤقتة إدارية محايدة بواسطة اللجنة المفوضة قبل انتخابات الحكم الذاتي.
13. حلف اليمين بواسطة لجان الانتخابات.
14. إضافة تعديلات الدستور المقترحة في مشروع الدكتور السنهوري يأتي بعد ذلك التفويض الذي أعطيناه كجبهة اتحادية للحكومة المصرية ومن أغراضه أن للجبهة الاستقلالية مشروعها ولنا نحن مشروعنا ولمصر رأيها في الموضوع ثم هناك بريطانيا ولا يمكن أن يقف كل منا عند مطالبه وإلا توقفت المفاوضات ولذهب كل منا إلى حال سبيله يبحث عن مطالبة بالطريق الذي يراه وقد أعطت هذه التفويضات المفاوض المصري مجاًلاً للأخذ والعطاء هذا بعد أن بين كل من الجبهتين مطالبه. وهذا هو التفويض الذي وقّع عليه رؤساء الأحزاب الاتحادية نيابة عن أحزابهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

مع احتفاظنا بمبادئنا التي تقوم أساساً على الجلاء والاتحاد مع مصر عن طريق تقرير المصير للسودانيين فإننا لغرض تنظيم الجلاء وإيجاد الجو الحر الملائم لممارسة تقرير المصير قد ارتضينا أن تكون هناك فترة انتقال لا تزيد عن ثلاث سنوات لتصفية الإدارة الحالية على أن يشترك أثناءها في انتخابات البرلمان بعد وضع الضمانات التي

رأيناها كافية لحرية وسلامة تلك الانتخابات، وقد أحطنا علماً بالأسس التي تمّ الاتفاق عليها بين الحكومة المصرية الحاضرة والاستقلاليين في 29 أكتوبر سنة 1952م. وقد اعتبرنا أنّ تلك الأسس حداً أدنى لما يمكن أن تقبله الحكومة المصرية في مباحثاتها مع الحكومة البريطانية بشرط أن تعمل الحكومة المصرية بكلّ السبل للوصول إلى المشروع المعدل الذي تقدّمنا به.

وفي نفس الوقت فإننا نترك للحكومة المصرية حرية العمل على تحقيق هذه الأغراض وبالوسائل التي تراها:-

امضاءات

إسماعيل الأزهري- الدريدري محمد عثمان- محمد نور الدين- حماد توفيق- علي البربر

لواء أ. ح محمد نجيب بكباشي حسين ذو الفقار- صاغ صلاح سالم

القاهرة في 1952/11/1م

وهناك حزب شارك في المفاوضات أو كان له وجود ولم يكن له كما يظهر أثر في ذلك هو الحزب الجمهوري الاشتراكي وهو حزب أنشأه الإنجليز معتمدين فيه على بعض الختمية والمُمد والنظار. وكان يرمي الإنجليز من إنشائه أن يكون بديلاً لحزب الأشقاء الذي وقف صلباً ضدّ الجمعية وقيادة الختمية ما كانت تريد أن تقف موقف المعارضة السافر ولو أنّ أتباعها مع الأشقاء فوافقت على أن يكون هؤلاء الحزب الجمهوري الاشتراكي، وأظهر ما في هذا الحزب هو خوفه من حزب الأمة أو كراهيته له والتعريض به في كل مناسبة واتهامه بأنّه سيقوم بثورة. والظاهرة الثانية في هذا الحزب هو أنّه يتكلم بلسان الإنجليز وكان متحمساً لهم أكثر منهم.

وقد أطلعنا المفاوضات المصري على بعض مطالبهم فكانت جميعها غريبة ولا يوافقهم عليها حزب الأمة نفسه الذي تعاون مع حكومة السودان وأقام المؤسسات الدستورية الفاشلة.

يقول الحزب الجمهوري الاشتراكي بتقرير المصير فوراً وفي سنة 1953م بصرف النظر عن السودنة أو الجلاء مع وجود الجيش والإنجليز وكل شيء.

ويقول أيضاً أنّه لا يريد تأخير الحكم الذاتي ولا الانتخابات لخوفهم من المهدي ويجرهم هذا الخوف إلى المطالبة ببقاء الجيش خوفاً من أن يقوم المهدي بثورة

وعنده نحو الـ 120 ألفاً.

وسار معهم المفاوض المصري ووصل معهم إلى الآتي:-

1. لا يمكن تقرير المصير قبل أن يخرج الإنجليز وأن ينص على ذلك صراحة في الدستور ويتكلمة السودنة في الإدارة والبوليس والقضاء.
2. تُوكل السودنة إلى لجنة سودانية يرأسها سوداني ويمثل فيها إنجليزي وطلب منهم المصريون أن يمثل فيها مصري فرفضوا وقالوا لهم لا مصالح لكم في السودان وقالوا أيضاً أن هذا قد يفسر تدخلكم في شؤون السودان الداخلية.
3. قبلوا تقرير المصير من 3 سنوات إلى ست سنوات أيّ في دورتين برلمانيّتين كاملتين.

4. ناقشوا سلطات الحاكم العام وقبلوا مبدأ إخضاع سلطات الحاكم العام كلها إلى لجنة فيها السودانيون والمصريون إذا أعلن أن تحديد السلطات توافق عليه الأحزاب ويذكر اسم الحزب الجمهوري الاشتراكي مع الأحزاب واشتروطوا وجود الحاكم العام لاطمئنان الجنوب.

5. عارضوا فكرة الانتخاب المباشر في جميع الجهات ما عدا الجنوب طبعاً لأنّ له رؤساء القبائل وقالوا يمكن زيادة الدوائر المباشرة إلى 45 مثلاً.

وأخيراً لم يوقعوا على أيّ تفويض ورجعوا إلى الخرطوم ولكن جاء أخيراً صلاح سالم واستطاع أن يجعلهم يتنازلون عن تحفظاتهم وخصوصاً الخاصة بالحاكم العام والجنوب.

وكان يمثل هذا الحزب وفد مكون من السادة محمد أحمد أبو سن وإبراهيم بدري ويوسف العجب وسرور رملي.

ولعلّ هذا الخطاب الذي حصلت عليه بالصدفة يؤيّد ما ذهبت إليه في مستهل الحديث عن هذا الحزب من أنّه يعتمد على العُمد والنظار ومن ورائه الإنجليز يشدون أزره وكان أحدهم تجانياً وأراد أن يتمرد وأن يسحب توقيعه لولا أنّه أخذ إلى الداخلية وعلم الحقيقة وأنّ الحكومة وراء العملية وإليك الخطاب:-

الفاشر في 1951/12/30م

عزيزي إبراهيم

سلاماً كثيراً وشوقاً أكثر أسف لعدم مقابلتكم بعد المجلس الصاحب ومصادمة السيد محمد. ومن غريب الصدف كان عندنا اجتماع خاص أبو رنات وسرور رملي وحضر متأبطاً مستندات اجتماع المقرن وسرني وجود زعيم مركزي ضمن الموقعين وشهدت اليوم الثاني مهزلة منعم وأثّه كان يصلي وطلب سحب توقيعه ولولا الوساطة والأجاويد أخذوه للداخلية وسمع بأذنه لما اطمأن والآن فلتطمئن على أنّ باقي دارفور رحمة الله وعبد الرحمن؟ (لم يحضر مجلس المديرية) وعبد الحميد أبكر وأبو القاسم سيعودون مزودين بالطاقة الذرية ومنضمين على طول الخط.

السبب في هذا الخطاب هو وكان السبب للخطاب هو توصية لشاب يريد أن يلتحق بمدرسة نواب المأمير.

أخوك المخلص

الفتاح البدوي

الحزب الوطني الاتحادي

قبل أن نذهب للمفاوضات قامت محاولات مخلصة وجادة لتكوين الحزب الواحد الذي يضم جميع الأحزاب الاتحادية وتحدث المعنيون بالأمر في كثير من النقاط التي تقرب وجهات النظر ولكن قبل أن ينتهي القائمون بهذا الأمر ظهرت المفاوضات وكان لا بدّ من قيام ممثلي الأحزاب للاتفاق مع مصر على ما يجب الاتفاق عليه قبل أن ترسل مصر بوجهة نظرها للطرف الآخر لذلك تأجل الحديث في تكوين الحزب الواحد. وعندما انتهت المفاوضات بل الحقيقة قبل أن تنتهي بدأ الحديث عن الالتقاء وكان الخلاف على أشده بين طرفي حزب الأشقاء فقد ذهب طرفان طرف يمثله الرئيس أزهرى ومن معه مبارك زروق ويحيى الفضلى وطرف يمثله المرحوم نور الدين ومعه خضر عمر وأحمد الشيخ البشير وعثمان خاطر.

وكانت المشكلة الكبرى هي كيف يتم اللقاء بين طرفي الأشقاء أمّا الأحزاب الأخرى فلم يكن بينها وبين بعضها خلاف كما أنّها لم تكن مختلفة مع طرفي الأشقاء. كانت المساعي تسير ثمّ تتعثر وكان الحديث يدور حول الانتخابات التي سنواجهها وسيقف

فيها أماننا حزب الأمة كتلة واحدة وتدارسنا جميع الاحتمالات وكلها تدلنا على أننا سنفشل إذا دخلنا تلك الانتخابات مختلفين.

وقامت محاولات لإعادة حزب الأشقاء إلى سابق عهده لأنه أقوى أحزاب الوحدة ولكن فشلت كل المساعي وكان أكثر أعضاء الكتلتين تطرفاً في الخصومة اثنان هما السيد يحيى الفضلي والسيد خضر عمر. والمحاولات التي عملت للقاء طرفي الأشقاء قام بها نفس أعضاء الوفد مع بعض الإخوان المصريين وتدخل فيها اللواء نجيب ولكن كلها باءت بالفشل. وأخيراً وفي مساء الجمعة 1952/10/31م زارنا في فندق سمير أميس اللواء محمد نجيب وكان مجيئه بسبب سفر السادة درديري محمد عثمان وخلف الله خالد وخضر عمر وقد جاء لوداعهم.

وكانت جلسة مباركة تحدث فيها نجيب بإخلاصه المعهود وبإحساس السوداني المخلص المشفق وناشد الجميع أن يلتقوا وأن يوحدوا كلمتهم وندد بالفرقة وتنابأ سلفاً بالفشل الذي ستمنى به الأحزاب الاتحادية بل السودان إذا ما دخلنا المعركة القادمة ونحن على غير اتفاق.

كان حديثه مخلصاً صادقاً من قلب كبير فوجد قلوبنا مفتوحة فوجد الحديث إليها طريقه وانتهى الاجتماع بالموافقة على أن نختار ممثلاً ثلاثة نفوز لهم أمر تكوين الحزب الواحد ونوافق سلفاً ودون اعتراض على كل ما يصلون إليه وقرأنا الفاتحة جميعاً على هذا الاتفاق وتأكيداً ومباركة لهذا القرار.

وانتخب الحاضرون السادة ميرغني حمزة والدرديري أحمد إسماعيل وخضر حمد وأسندوا إليهم أمر تكوين الحزب تكويناً كاملاً وأن يعرض التكوين على بقية المجتمعين في أقرب وقت. وسافر الإخوان إلى السودان ليعلن كل منهم أنه عضو في الحزب الواحد لأنه لم يكن اسم الحزب قد عُرف بعد.

وانفردنا نحن الذين وكل إلينا هذا الأمر الخطير وذهبنا إلى مكان لا يعرفنا فيه أحد ولا يتصل بنا فيه أحد وكان رائدنا أن نُجمع على شيء يتناسب وهذه الثقة التي وضعت فينا والأمر الخطير الذي أسند إلينا وليس أدل على خطورته من هذا الذي نشرته جريدة المصري صباح 1952/11/1م تحت عنوان خطورة مهمة لجنة الثلاثة قالت فيه:-

« ألفت لجنة ثلاثية لاندماج الأحزاب الاتحادية في السودان ولسنا في حاجة

إلى القول بأنه على عمل هذه اللجنة يتوقف النجاح الكامل لهذه الخطوة التاريخية وعلى حكمة أعضائها يحقق الاتحاديون في السودان هذا الأمل الذي دأب نفوسهم مرّات ولكن الخطوات التنفيذية كانت تتعثر لأنّ النفوس لم تكن فيما يبدو مهياة لهذا الاتحاد المنشود. والواقع أنّ حكمة هذه اللجنة وشعورها بالمسؤولية الملقاة على عاتقها واستهداف المصلحة العامة وحدها هي التي ستؤدي إلى أن يتكتل الاتحاديون ويصبحوا قوة واحدة... قوة تُبين مبلغ الفائدة أو المصلحة المشتركة التي ستعود على الوادي من هذا الاتحاد ولعلّ هذه الأمنية ليست أمنيتنا بل هي أمنية شعب وادي النيل ثمّ هي أمنية الأشخاص الذين اشتركوا في هذا العمل والذين انتهوا به إلى تحقيق الاتحاد».

أخذنا يوماً كاملاً لم نخرج فيه من الغرفة التي جلسنا فيها وكانت في منزل السيد علي عوض الله إلى أن خرجنا بالمشروع كاملاً بعد أن استعرضنا جميع الظروف والملابسات التي حملت رؤساء الأحزاب إلى اتخاذ ذلك القرار الوطني الحاسم فيما يختص بحل أحزابهم وهيئاتهم ودمجها عن رغبة في حزب واحد تذوب فيه المطامع والمظاهر والرياسات.

لقد أخذ على المشروع ملاحظتان أولاهما أننا لم ندخل السيدين يحيى الفضلي وخضر عمر في لجنة الحزب الواحد التنفيذية وقد قصدنا هذا التصرف وكنا على اتفاق تام فيه. ولم نقصد إقصاءهما عن لجنة الحزب تماماً ولكن إلى أمد حتّى تستقر الأمور لأنّ الحرب بينهما كانت مستمرة وخشيناً أن ينقلا تلك الروح إلى داخل اللجنة. وكذلك لم نضع اسم بابكر القباني في هيئة الحزب وبابكر له مكانته في حزب الأشقاء وله جهاده مع إخوانه في مختلف الأحزاب فكان أمراً غريباً ألا يكون في هيئة الحزب. والحقيقة أنّ إقصاءه لم يكن مقصوداً مطلقاً ولا متعمداً ولكن عندما وصلنا إلى اسمه حمل إلينا الأخ الدرديري أحمد إسماعيل حديثاً عن السيد إسماعيل الأزهري وهو يتحدث معه في صدد لقاء طرفي الأشقاء فذكر له السيد إسماعيل الأزهري أن نور الدين يشكو من نشاط بابكر وبابكر سنبعده عن العمل تماماً لأنه مريض ونحن نحرص أشد الحرص على صحته وقد كان بابكر في تلك الأيام في مصر للعلاج وفهم السيد الدرديري وأفهمنا أنّ السيد الأزهري حريص على أن يوفر لبابكر الراحة التامة فيبعده عن النشاط السياسي مراعاة لصحته ولذلك رأينا نحن أيضاً تمشياً مع هذه الرغبة أن

نبعده.

ولكن كان هذا الإبعاد مثار ثورة كإبعاد السيدين يحيى وخضر عمر. أمّا الملاحظة الثانية والتي كانت أيضاً مثار ثورة على التكوين وعلى الذين أسند إليهم التكوين فإن كثيرين ممن كانوا في هيئات الأحزاب لم يدخلوا في هيئة الحزب الواحد وكان السبب هو أن الهيئة كونت من تسعين عضواً وهذا لا يكفي لاستيعاب جميع الذين كانوا في هيئات الأحزاب المندمجة زيادة على أننا لاحظنا كيف لا الكم.

وعندما وصلنا إلى تكوين المكتب ترددنا كثيراً في تحمل المسؤولية واتفقنا على أن نترك الأمر لهيئة الحزب أو لجنته التنفيذية بعد أن نجتمع ولذلك قلنا في المقدمة ما يأتي:

« إنَّ هذا المشروع هو عبارة عن مشروع دستور للحزب الواحد وقد وضعنا فيه الأسس الهامة التي رأينا أن الخروج عنها سيضر حتماً بالمصلحة العامة وبالاتفاق الذي أقسمنا على احترامه وتنفيذه. ولأنه من العسير في هذا الوقت الضيق وضع دستور كامل لحزب سيعمل في جميع الميادين وسيشمل نشاطه جميع نواحي الحياة في السودان فقد رأينا أن نترك اللوائح والبرامج للحزب نفسه بعد قيامه على الأسس الرئيسية الهامة التي وضعناها.

إنَّ هذا المشروع يحمل الاسم والأهداف والإدارة والمالية وبعض البنود التي اقتضت المصلحة العامة النص عليها كما يشمل أسماء هيئة الحزب واللجنة التنفيذية».

أمّا فيما يتعلّق باختيار وظائف المكتب فبعد تقليب الرأي على مختلف وجوهه ودراسة كل الاحتمالات التي قد تنجم عن أيّ رأي فاصل نقطع به في هذا الأمر، فقد استقر رأينا على أننا لا نستطيع أن نتحمل وحدنا مسؤولية البيت في هذا الأمر الخطر ولكننا نضع الاقتراح التالي الذي نرى أنه أسلم حل للمشكلة.

والاقتراح هو أن تنتخب الهيئة العامة في أول اجتماع لها رئيس الحزب من بين أعضائها وأن تترك للجنة التنفيذية انتخاب نائب الرئيس والسكرتير ومساعدته وأمين الصندوق.

اتفقنا على هذا القرار وعلى أن نقدم التكوين جميعه ما عدا انتخاب المكتب خوفاً من إثارة الخلاف عن طريق التمثيل في المكتب ولعلّه يقوم سؤال وهو لماذا اخترنا الهيئة من تسعين عضواً ولم نكمل المائة والسبب هو أن بعض الإخوان الذين كان لهم

كفاح ملحوظ بعدوا عن هذه الأحزاب وظلّوا مستقلين فأردنا أن نملأ العشرة مقاعد من هؤلاء المستقلين متى ما انضموا للحزب.

وفي مساء اليوم الثاني لاختيارنا اجتمعنا في منزل اللواء نجيب في الزيتون وحضر جميع الإخوان المعنيين بهذا الأمر وقبل أن نعرض عليهم ما وصلنا إليه اجتمعنا مع الرئيس نجيب وعرضنا عليه ما عندنا فإذا به يختلف معنا ويصر على أننا يجب أن ننتخب المكتب أيضاً وكان يقول إذا ترك هذا الأمر إلى أن نصل السودان سيكون سبب خلاف كبير وألح إلحاحاً شديداً وأبدى جزعاً من عدم انتخاب المكتب وتقديم المشروع ناقصاً وأصرّ على أن ننتهز الفرصة ونقدم المشروع كاملاً.

فأخذنا نفكر ومعنا نجيب وانتهينا سريعاً إلى اختيار السيد إسماعيل الأزهرى للرئاسة والسيد محمد نور الدين للوكالة وخلف الله أميناً للصندوق ووقفنا عند السكرتير وكان السيد درديري أحمد إسماعيل ذكر اسمي ونحن نعد المشروع فقلت له إنني لا أريد أن ينطبق عليّ المثل «أرسلوه يخطب فتزوج هو» وصرفنا النظر عن الأمر كله.

ولكن عند اجتماعنا مع الرئيس نجيب كنّا نفكر في أن يكون السكرتير المرحوم مبارك زروق ولكن أثير رأي بأن نور الدين لن يقبل أن تكون الرئاسة والسكرتارية لجناح أزهرى وإذا أخذنا واحداً من جناح نور الدين فسيكون الاعتراض نفسه قائماً ولما أعيّتنا الحيل قال درديري إنّ المشكل في يد فلان ولكنّه لا يريد أن يحله وانتبه الرئيس نجيب وشدّد في أن أتولّى السكرتارية وقال لي إنّها مسألة حياة أو موت فهل تريد أن تتحمل مسؤولية الفشل؟ وأيّده السيد ميرغني ودرديري واخترت سكرتيراً والطيب محمد خير مساعداً والدكتور عبد الوهاب زين العابدين مساعداً لأمين الصندوق، وخرجنا للمجتمعين وبعد مقدمة قرأت عليهم المشروع كاملاً وبانتهاء سرده باركه الجميع وكان الرئيس أزهرى أولّ المباركين وأولّ من رفع يده بالفاتحة.

وحملت أسلاك التليفون هذه النتيجة إلى أم درمان وأقام يحيى وأنصاره القيامة وانتظروا المشاكل في أم درمان ولكن تغلبت أخيراً المصلحة العامة على هوى النفوس واستطعنا أن نعمل وأن نبدأ الاستعدادات لتكوين الحزب والدعوة للاتفاقية والاستعداد لما يمكن عمله إذا رفض الإنجليز الاتفاق.

الاتفاقية ومعارضوها

بدأنا باجتماع لهيئة الحزب بعد أن هدأت الثورات على التكوين وأخذنا نعرض البنود التي وافقنا عليها وما سيتفاوض عليه المصريون والإنجليز وأردنا أن نأخذ تأييد الهيئة العامة أولاً ثم نقيم الليالي السياسية لشرحها في العاصمة والأقاليم. وكان اجتماع الهيئة صاخباً ووقف يعارض الاتفاقية جناح فيه السيد أحمد خير والسيد خضر عمر والسيد حسن أبو جبل وآخرون من الإخوان أعضاء الهيئة واللجنة التنفيذية وجلسنا الساعات الطوال لشرح الاتفاقية وندافع عنها ونقول إنَّها خطوة سليمة.

أمَّا المعارضون فكانوا يقولون إنَّها خدعة انصرافية وأنَّ الطريق إلى الحرية هو طريق الكفاح والنضال لا طريق المعاهدات وأنَّ الإنجليز لا يحترمون ميثاقاً وقد قيل كل ما يجب أن يقال من الطرفين وأخيراً لجأ الاجتماع إلى «التحنيس» حرصاً منهم على هؤلاء الأخوة ولكنَّهم أصرُّوا وأخيراً أخذ هذا الرأي بالموافقة وخرج المعارضون على الحزب.

لقد كنت غريباً في وسط الحزب لأنَّ أغلبيته من طرفي الأشقاء وكانوا لا يترددون في وضع العراقيل وعدم التعاون وكانت هنالك شلة يحركها السيد يحيى الفضلي ومن يقف معه ولكنِّي صمدت وصرفت النظر عن كل ما يقال وبدأت عملي في تنظيمات الحزب.

لا أنكر أنَّ عدداً كبيراً من الختمية كان يقف إلى جانبي وكذلك بعض الإخوان من حزب الأشقاء وقد فشلت تدبيرات عديدة دون أن يصلني خبرها.

وكان ممَّا أَيْدَ موقفني وجعلني لا أهتم لما يحاك أنَّ وجودي في السكرتارية هو الحل الوحيد للخلاف القائم بين شقي الأشقاء ولن يرضى جناح نور الدين أن يتولَّى السكرتارية أحد من جناح أزهري بل كان بقائي بالسكرتارية بالرغم من تلك المناوشات الصغيرة مبني ومعني هو الحفاظ على وحدة الحزب.

لم أكن حريصاً على السكرتارية بل كان الاتفاق بيني وبين حمَّاد أن أبقى فيها لمدة ستة أشهر ومتى استقرت الأحوال تركتها لأحد الأشقاء أو للحزب ليرى فيها

رأيه ولكن استعجال المتطلعين إليها وتتابع الأحداث والعمل لم يمكننا من إثارة هذا الموضوع ويظهر دائماً أنَّ الوقت غير مناسب أن يتقدّم سكرتير الحزب باستقالته والمعركة قائمة على أشدها للانتخابات.

وللحقيقة أقول إنَّ تلك المنغصات كانت كثيرة فجريدة الحزب مثلاً لم تبرز لي خطبة واحدة من خطبي إلا يوم أن غاب عنها في فترة السيد علي حامد وكان ينوب عنه الأستاذ أبو العزائم. وحدث مرّة أن هاجم الحزب حزبي الأمة والجبهة المعادية للاستعمار هجوماً عنيفاً جداً ووضع هذا الهجوم لجنة مكوّنة من السادة محمد أمين حسين والشيخ علي عبد الرحمن والسيد مبارك زروق ووَقَّع عليه باسم السكرتير وقامت جريدة حزب الأمة وجريدة الجبهة بهجوم عنيف على السكرتير المسكين ولم تترك له جانباً إلا سلفته بما يليق وما لا يليق من القول ولكن جريدة الحزب صمتت صمت أصحاب القبور.

وفي مرّة كنت في مصر مريضاً وعدت بعد أن عملت عملية اللوز وجاء إلى المحطة لاستقبالي عدد من الإخوان على رأسهم المرحوم مبارك زروق واستقبلت بالتصفيق وظهرت جريدة الحزب ثاني يوم وخبر وصول السكرتير العام في الصفحة الأخيرة وبعد عدّة أخبار هايفه.

سارت القافلة في سلام إلى أن وافقت بريطانيا على المطالب وعقدت المعاهدة ثمّ بدأ العمل للمعركة الفاصلة.

وقبل أن توفّق المعاهدة جاءنا المرحوم صلاح سالم وكنا نفكر في العمل الذي نتجه إليه إذا لم توافق بريطانيا على المعاهدة.

كان هذا عملاً جانبياً لا علاقة للحزب به وانتهينا إلى أن تقوم ثورة مسلحة ودُبّر أمر السلاح ووصله وعملت دراسات لأماكن الجيش البريطاني ووضعت الخطط بعد دراسة وأخيراً فُكرنا في الاتصال ببعض شباب الجيش وانتهى بنا التفاهم إلى أن نجتمع اثنين منهم بالصاغ صلاح سالم وكان معي في هذه المهمة الأخيرة الأخ عبد الماجد أبو حسبو وهو الذي زكّى الشخصين وعقدا اجتماعاً بينهما وبين صلاح وكان مكان الاجتماع بيتاً قصياً في بري الشريف ولم نجتمع معهم حتّى يطمئن الضابطان ولكن وبعد أن سافر صلاح علمنا أن أحدهما له اتصال وثيق بعبد الله خليل وتركنا الموضوع يموت من نفسه خصوصاً وأنّ المعاهدة قد وُقِّع عليها وكفى الله المؤمنين القتال.

توسيع قاعدة الحزب

بعد إبرام الاتفاقية بدأ العمل لخوض معركة الانتخابات وهنا بدأت محاولات من جانب الختمية ظاهرها المشاركة في العمل ولكن هذه المشاركة يجب أن يكون لها ثمن والتمن هو إدخال إخواننا الختمية في هيئة الحزب ليشعروا بأن لهم كيان وأنهم لا يعملون متطفلين ولكن كأعضاء في الحزب وجاء التوجيه أو أبديت الرغبة من القيادة في فتح الباب إلى إخواننا ليعملوا.

وفي يوم من الأيام جاءني قائمة موقَّع عليها من السيدين إسماعيل الأزهري ودرديري محمد عثمان تحوي أكثر من مائتي اسم يراد إدخالهم في الهيئة.

وعلى التحديد في 1953/7/5م انتخبت لجنة من السادة الرئيس إسماعيل الأزهري والسكرتير العام خضر حمد والسيد الدرديري محمد عثمان والسيد محمود الفضلي والسيد إدريس النصري والسيد محمد حاج الخضر والسيد الطيب محمد خير والسيد محمد العمراي والسيد أحمد عبد الرحيم لنستعرض الأسماء التي تخطاها التنظيم عند التشكيل وأن تكون النظرة إلى الجانب الطائفي أولاً.

واجتمعنا واستعرضنا الأسماء وأخذنا منها 185 اسماً وكانت الهيئة كلها مائة عضو وفي اجتماع عقد في 1953/7/10م تمت الموافقة على زيادة الهيئة إلى 285 عضواً ووفق أيضاً على تعديل الدستور بحيث لا تتم أي انتخابات داخل الحزب إلا بعد فترة الانتقال المحددة بثلاث سنوات وإلى أن يتم تقرير المصير وتم ضم الأسماء المختارة إلى هيئة الحزب دون تغيير أو تبديل.

ولعل هذا القرار الأخير الذي أشار إلى عدم إجراء انتخابات في الحزب إلى أن يتم تقرير المصير لعل هذا القرار يُوحى للقارئ بشئ ما ولكن لنترك ذلك الشئ إلى أن يأتي أوان الحديث عنه

دخل الختميون الهيئة وتحرك الحزب وانشغل بمجهود الانتخابات والليالي السياسية والوفود إلى الأقاليم ثم جاءت مشاكل الترشيح فزادت في انشغال الناس عن سواها إلى أوائل ديسمبر من سنة 1953م حيث بدأت تُثار مشكلة أخرى هي

أيضاً تتعلق بإخواننا الختمية وتمثيلهم في اللجنة التنفيذية. وجاءتني في هذه المرأة قائمة فيها ستة وعشرون اسماً يراد إلحاقهم باللجنة التنفيذية وقد كانت اللجنة سبعة عشر عضواً بعد أن انسحب منها أحمد خير وآخرون. وأثار هذا الموضوع حديثاً كثيراً لأنَّ الأسماء التي أُشير بإدخالها للجنة التنفيذية لم تكن في هيئة الحزب بل لم تنتم إلى الحزب نفسه في يوم من الأيام وبعضها كان عضواً بارزاً في الحزب الجمهوري الاشتراكي وكان يعمل ضد الأحزاب التي تكوّن منها الوطني الاتحادي.

وكان اتجاه المعارضين وأغلبهم الآن من البارزين في حزب الشعب كان اتجاههم أن يختار أعضاء اللجنة من الهيئة ومن احتياطي اللجنة التنفيذية أو على الأقل قبول بعض ممن في الكشف وبعض من أعضاء الحزب، وكنت من الذين يرون قبول الكشف كما جاء فما كان الوضع يحتمل نقاشاً ونحن في نهاية المعركة الانتخابية والكشف جاء ممن لا يُردُّ له طلب وفوق كل هذا فقد استعرضنا الأسماء ووجدنا أن الكثير ممن فيها سيسير معنا في الاتجاه الذي نريد. وأخيراً انتصر الجانب الذي يقول بقبول الكشف كما هو وهدأت ثورة الثائرين على مفض وأذكر أنَّ المرحوم الصاغ صلاح سالم أرسل لي خطاباً في هذا الموضوع يكشف شيئاً من دوافع هذه المحاولة التي ترمي إلى إدخال عناصر جديدة على الحزب وللتاريخ أسجّل الخطاب كما جاء:-

القاهرة في 26 ديسمبر سنة 1953م

أخي العزيز خضر

تحية مباركة إلى شخصكم المحبوب وأرجو الله تعالى أن يرعاكم ويحفظكم ذخراً للبلاد في هذه الظروف العصيبة.

أخي العزيز

لم أتصل بك منذ وقت طويل ولو أنني أتتبع باهتمام شديد وقلق زائد ما يدور الآن في صفوفكم ممّا يجعلني أومن بأننا مقبلون على كارثة كبرى وإنَّ النصر المؤقت الذي نلتموه سينقلب بين يوم وليلة إلى طامة كبرى إذا لم يلهمكم الله الصواب.

كنت أعجب لموقف إنجلترا من السودان وكيف سلمت له بالحرية الكاملة في ثلاث سنوات وبالجلاء والسودنة في الوقت الذي لم ينل قطر واحد في أفريقيا بأسرها

بما فيها مصر وفيما عدا الحبشة هذه النتيجة إذ إننا لا زلنا نكافح في سبيل الوصول إلى ما وصلتم إليه ونتمنى الحصول على ورقة كالتى نلتم بها جلاء كاملاً في ثلاث سنوات. كما أنه لم ينل قطر عربي أو إسلامي واحد ما ناله السودان اليوم رغم إعلان استقلال الكثير من هذه البلاد إلا أنها لازالت ترسف في الأغلال فباكستان مثلاً سيطر على جيشها القواد الإنجليز ولا زالت تتبع في اقتصادياتها الكومنولث. ولكن زال اليوم عجبي لأن إنجلترا حينما سلمت بحقوقكم كانت تعتمد على ما يدور في المستقبل بين صفوفكم. وها قد بدرت بوادر الخلاف والشقاق بينكم كأنكم قد انتهيتهم من تذليل كل المشاكل وحللتهم جميع الصعاب ووصلتم إلى ما يريدونه لبلادكم.

بالله خبرني عن سرّ هذه المعارك التي تدور حول إدخال عناصر جدد في الحزب. وهل هذه المعركة في سبيل تغليب أشخاص فقط وهل من أجل الأشخاص تُدْمَر مصالح البلاد وتفرّق الجهود ليستفيد الخصم وأمامه كل الفرص للعبث والاستفادة من أن المعركة التي تدور اليوم بين صفوفكم حول خلاف في الأهداف. فإذا كان الأمر كذلك فأرجو أن يلهمكم الله الصواب في تجميع رأيكم حول غرض واحد وهدف واحد مهما كان هذا الغرض وذلك الهدف. وهل سيكون اتحاداً أو انفصلاً؟ ولكن هذا التجميع هو أملككم الوحيد في أن تحصلوا على شيء لبلادكم خير من ضياع كل شيء من جراء المنازعات الداخلية التي عانينا بسببها الأمرين في مصر وكانت سبباً منذ إعلان دستور عام 1923م وإعلان الاستقلال في الانهيار تلو الانهيار إلى أن وصلنا إليه بعد ثلاثين عاماً من هذا الاستقلال المزعوم وهذا الدستور.

لقد نال النحاس أكثر من مرّة الأغلبية الساحقة في الانتخابات ونالها عبد الهادي وغيرها وغيرهما ولكن ماذا أفادت البلاد من هذه المعارك سوى ضياع حقوقها وانهايار أركانها حتّى هؤلاء الزعماء لم يتمكنوا بمثل هذه السياسات والخلافات والحزازات حول أشخاصهم من حماية مكانتهم في نفوس الشعب فدمروا البلاد ودمروا أشخاصهم. إني أشفق على السودان الشقيق من مثل تلك التجارب وأرجو الله أن يلهمكم الصواب وأن تتصارعوا حول الأهداف. وإني في انتظار كلمتكم الواضحة ونحن على أتم استعداد لكي ننفذها فوراً حتّى قبل تقرير المصير لأننا نؤمن بالحقائق والمصارحة ولا نبغي خداع الشعوب.

يا خضر.....

الوقت خطير ولا يصح أن يربط مستقبل البلاد بمصير أشخاص فنحن جميعاً زائلون ولن يبقى لنا سوى ذكرى أعمالنا. أمّا أوطاننا فباقية خالدة ما بقي الوجود. إنني لا أريد أن أحضر إليكم في هذه الظروف ويعلم الله أن أعصابي تكاد تحترق لأنني أرى بوضوح وجلاء أن الجهود التي بُذلت على وشك أن تتلاشى ومما يحزُّ في نفسي أنني أرى بوضوح أكثر أن إنجلترا على وشك أن تتشقى وتنجح. وإني في انتظار كلمة قاطعة شافية منكم نوافق عليها مقدماً ونعمل من جانبنا على تحقيقها. وختاماً أرجو أن تنوب عني في إبلاغ تحياتي وتمنياتي الطيبة إلى أخي حمّاد توفيق وأرجو الله تعالى لكم السداد والتوفيق إنّه نعم المولى ونعم النصير والسلام عليكم ورحمة الله

أخوك المخلص

الإمضاء (صلاح سالم)

فوز الوطني الاتحادي وتكوين الحكومة

كانت معركة الانتخابات معركة حامية حقاً نزلها الإنجليز بكل قوتهم في الشمال والجنوب ووقفوا إلى جانب حزب الأمة وإلى جانب كل حزب أو فرد يعمل ضد الوطني الاتحادي واستغل الإنجليز سلطتهم كحكام إلى أبعد الحدود حتّى وصل بهم الحد إلى استعمال «المقالب» في الجنوب فحملوا بعض المرشحين إلى خارج البلد لمسافة بعيدة ثم تركوهم هناك حتّى يفوتهم الوقت المحدّد لتقديم طلبات الترشيح ومع كل ما بُذل من جهد وتهديد ووعد ووعيد كانت النتيجة مذهلة تماماً للسادة المستعمرين. وحدثت يوم إعلان النتيجة كثير من الطرائف التي ما زال يجترّها الناس في مجالسهم فكثير من الناس فقد أعصابه وكثير منهم حطم الراديو وكثير منهم بكى فرحاً.

كان السيد عبد الله الفاضل قد رشّح نفسه في الدائرة الشمالية ضد السيد إسماعيل

الأزهري وبذل جهداً كبيراً وحلف أناس بالطلاقات على أنَّ السيد عبد الله الفاضل سيفوز وكانت الدعاية قوية وبالرغم من أننا كنا على بينة من الأمور وعلى علم بعدد المصوتين وكم منهم إلى جانبنا وكانت النتيجة حسب ما عندنا من معلومات أكثر من مضمونه ولكن بالرغم من ذلك اهتزت أعصابنا وانتظرنا النتيجة في غير قليل من القلق.

وأخيراً ظهرت النتيجة وهي فوز السيد إسماعيل الأزهري فبكي وزغرد أناس وذبح أناس الذبائح على قارعة الطريق وفي السوق وبكى آخرون لا فرحاً ولكن ألماً وحسرة. والشيء الذي يجب أن أسجله هنا أنَّ الإنجليز تحمّلوا الهزيمة في ثبات وتصرفوا تصرفاً دليلاً على أخلاق عالية أمّا المخططات فقد ساروا في تنفيذها بأمل أن يحصل انهيار دستوري وقد ظهر ثباتهم أكثر واستطاعوا أن يكظموا غيظهم عندما بدأت السودان وسارت سيراً حثيثاً.

اجتماع أول برلمان

اجتمع أول برلمان في يناير سنة 1954م بغرض انتخاب رئيسي مجلسي النواب والشيوخ. كان الوطني الاتحادي هو الحزب الغالب ورشح لرئاسة النواب الأستاذ إبراهيم المفتي ففاز بأغلبية 54 صوتاً ضد 43 صوتاً لمرشح الأمة ومن معها وهو الأستاذ عبد الفتاح المغربي وفاز برئاسة مجلس الشيوخ مندوب الوطني الاتحادي وهو الأستاذ أحمد محمد يس ونال 34 صوتاً ضد منافسه الذي نال 14 صوتاً وانفض المجلسان بعد انتخاب الرئيسين.

رُفِع اسم الرئيسين إلى لجنة الحاكم العام وعلمنا أنَّ الموافقة تَمَّت على اختيار أحمد محمد يس وأنَّ الحاكم العام ولجنته لا يوافقون على اختيار السيد إبراهيم المفتي وجاء في خطاب رفضهم أنَّ الرئيس يجب أن يكون شخصاً يعترف له الجميع بعدم التحيز وأنه ليس في استطاعة الحاكم العام قبول السيد إبراهيم لأنَّه شخص مبرز في حزب سياسي.

كنّا قد علمنا بالرفض قبل أن يصل إلى البرلمان الخطاب الرسمي وبدأت المشاورات بيننا والمعارضة لاختيار شخص محايد يرتضيه الجميع وليس له حزب سياسي ينتمي إليه واتفقنا على اسم السيد بابكر عوض الله الذي كان آنذاك قاضياً في الأبيض وعُرض عليه المنصب فقبله.

وفي يوم الثلاثاء 5 يناير 1954م اجتمع مجلس النواب ورشّح السيد إسماعيل الأزهري الأستاذ بابكر عوض الله لرئاسة المجلس وثناه الأستاذ محمد أحمد محبوب فاختير بالتزكية لأنّه لم تكن هناك ترشيحات أخرى.

وفي جلسة 6 يناير 1954م وبعد الإجراءات الخاصة بحلف اليمين للنواب تقدّم السيد ميرغني حمزة مقترحاً انتخاب السيد إسماعيل الأزهري رئيساً للوزراء وثناه السيد بلن أليو.

ومن الجانب الثاني اقترح السيد الصديق المهدي أن ينتخب السيد محمد أحمد محبوب رئيساً للوزراء وثناه السيد بوث ديو. وأجريت عملية الانتخاب فنال السيد إسماعيل الأزهري 56 صوتاً والسيد محمد أحمد محبوب 37 صوتاً.

تكوين الوزارة الأولى

كان كل الزملاء يفكر في تكوين الوزارة ووضع الرجل المناسب في الوزارة المناسبة وكان يدور في الخفاء عراك شديد داخل الحزب أو بالأحرى بين الحزب وبين من أعطوا أنفسهم حق الحديث باسم رئاسة الختمية. وكان هؤلاء يريدون وزارة الداخلية والحربية ويريدون أن تكون الوزارات المهمة في أيديهم ويريدون هم أو من يتحدثون باسمه أن تكون الوزارة مكوّنة من عدد مخصوص أي لا يكون بها عدد كثير ممن يشكون في ولائهم. ولاحظت أنّ معظم الإخوان يضعون اسمي أمام وزارة التجارة. وانتهى الأمر إلى إبعاد بعض البارزين في الحزب من التكوين الوزاري الأول ولا أحد كان يعرف بالضبط كيف تمّ ذلك ولكنّه بلا شك كان نتيجة ضغط مستمر من الختمية غير أنّ أزهري استطاع أن ينتزع وزارة الداخلية وفازوا هم بوزارة الحربية. وهنا أريد أن أرجع إلى مذكراتي التي كتبت في ذلك الحين واليك ما جاء فيها

تحت يوم الخميس 1954/1/7م:-

«قمت لمصر بالطائرة الساعة الواحدة بعد الظهر لمأمورية كنت على اتفاق فيها مع الرئيس. وقد أطلعني السيد أزهري في صباح نفس اليوم وكان في غرفته الداخلية يرتدي ملابسه للخروج أطلعني على جزء من التكوين الوزاري وكان حديثي معه ألا يجعل لأمر أي اعتبار وأكدت له إنني أرغب في أن أتفرغ للحزب وقلت له كن على ثقة من أنني لست الرجل الذي يفكر في المناصب وعليه أن يطمئن من ناحيتي وبعد أن ذكر لي أن أمر تركي قد يكون منتقداً قلت له قل لمن يسأل إنك سترشحني للسودنة وأنا على ثقة من أن الحاكم العام لن يقبلني وبذلك ينتهي المشكل. وقد كان هذا القول مني نتيجة تفكير سابق. وقال لي أزهري إنه في حالة عدم اختياري للجنة السودنة فهو يرى أن أكون وكيلاً لوزارة المالية ولكني قلت له أن يرجي الحديث في هذا الأمر وأنه سابق لأوانه».

وقد ظهر لي فيما بعد أن ذلك كان نتيجة لاتفاق تم بين ممثل الختمية والسيد أزهري لأنني علمت أن أحد الدبلوماسيين - وكان يسمى آنذاك مندوباً لحكومته لأنه لم تنشأ السفارات بعد أن سأل كيف لم يدخل الوزارة السكرتير العام للحزب فقال له عضو لجنة الحاكم العام إن السكرتير العام سيكون وكيلاً لوزارة المالية.

ذهبت لمصر وتركت الناس مشغولين بتكوين الحكومة ومن سيكون وزيراً ومن لا يكون وذهبت في مهمتي.

وفي يوم السبت 9 يناير اجتمعت بالرئيس نجيب في مجلس قيادة الثورة وكان معه الأمين العام للجامعة العربية وبعد خروجه تحدثنا قليلاً ثم جاء الرئيس جمال عبد الناصر وكان آنذاك رئيساً للوزراء وبحثنا شؤون السودان والشؤون العربية وكان موضوع الساعة في ذلك الوقت هو مشروع العراق الرامي إلى توحيد السياسة الخارجية للدول العربية.

أما شؤون السودان فتحدثنا عن تقوية الجيش والمساعدات ومدى استعداد مصر للمعاونة في هذا الصدد ثم طرقتنا موضوع ميان ضياء الدين رئيس لجنة الحاكم العام وموقفه من اختيار السيد إبراهيم المفتي وخوفنا من أن يكون متواطئاً مع الحاكم العام أو الإنجليز.

وبمناسبة أمين عام الجامعة العربية السيد حسونة فتحت مع الرئيس نجيب

موضوع السيد عزام باشا ولماذا أخرجوه فقد كنت سمعت قبلاً أنه كان أحد الذين شجعوا الملك على دخول الجيوش العربية في حرب فلسطين فنفي نجيب ذلك وقال إنهم لا يمسكون عليه أي شيء ثم تحدثنا عن خبرته بالبلاد العربية وعن إمكان الاستفادة من هذه الخبرة وظهر لي أنهم لا اعتراض لهم على التعاون معه.

أما موضوع ميان ضياء الدين فقد رُوي أن نجيبه مع سفير مصر في باكستان وكان الأستاذ عبد الوهاب عزام. وفعلاً اجتمعت به في منزل نجيب في 12/1/1954م وانتهينا إلى أن نتصل بعزام بك إذا ما رأينا منه ميلاً نحو الإنجليز لأن عزام له صلة وثيقة بخال ضياء الدين وهذا له نفوذه على ميان كما أنه رجل حر ووطني معروف. ثم تمت اجتماعات أخرى جانبية بحثنا فيها مواضيع شتى.

وكان من ضمن المهمة دعوة الرئيس نجيب باسم الحزب الوطني الاتحادي لحضور افتتاح البرلمان في مارس سنة 1954م.

كانت تصلني الأخبار من الخرطوم وعلمت أن جريدة كتبت تقول إن التشكيل الوزاري تخطأني ولذلك ذهبت لمصر شاكية فأنطبق عليهم المثل القائل «الناس في شنو والحسانية في شنو».

عندما قابلت نجيب لأول مرة قال لي إن خطابات التهنئة لكم جاهزة وكان يسألني عن اسم سانتينو بالكامل فقلت له إنني لن أدخل الوزارة فأبدى دهشته لأول وهلة ثم وافقني على عدم الدخول وأيد ما ذهبت إليه من أن التفرغ للحزب في هذه الفترة مهم جداً وكان سروره عظيماً بأنني اتخذت قراراً كهذا.

استقالة نجيب

عدت إلى السودان ولم يمض شهر حتى سمعنا بخبر اختلاف نجيب مع زملائه واستقالته من جميع مناصبه وكان لهذا الحدث رنة داوية وأثر بعيد في السودان. ولا بد لي من أن أتوسع قليلاً في هذا الحدث وموقفه منه لأن التصريح الذي أدليت به لجريدة السودان الجديد عقب سماعي كان له ما بعده.

سمعت بالنبأ تلفونياً فقد اتصل بي الأخ عبد العزيز صالح باصاوي الذي كان قد

سمع الخبر في الإذاعة ودهشت له فعلاً لأنني لم أسمع عندما كنت في مصر ما ينبي بمثل هذا الذي حدث. وبعد خروجي من المنزل وذهابي إلى مكتب الحزب اتصل بي مندوب السودان الجديد وسألني رأيي ثم حمل إليّ في نفس الوقت النبا المُسند إلى السيد عبد الحكيم عامر يقول فيه إنَّ نجيب لم يكن عضواً في منظّمة الضبّاط الأحرار فعلقت على ذلك بقولي إنَّ الثورة لم تجد من يتقدّم بها غير نجيب وأنَّ نجيب كان ثائراً وأشرت إلى حديث نشر قبلاً في إحدى المجلات المصرية يقول فيه عبد الحكيم عامر إنّه عندما عرف نجيب وسمع منه ما سمع حمل الخبر إلى السيد جمال عبد الناصر يقول له لقد وجدنا الكنز فإنَّ نجيب يقول في العلن ما نقوله في السر. كان ذلك أثناء حرب فلسطين وكان الضبّاط الأحرار كما يبدو يبحثون عن ضابط كبير يقود الثورة.

أشرت إلى هذا الحديث وقلت إنَّ السودان أيّد الثورة تأييداً شاملاً دون تردّد لأنّه كان يعرف قائدها وكان يثق به وكان يشعر أنّ قائد الثورة منه وإليه ومن حقّ السودان أن يجزع اليوم لما حدث.

نُشر هذا التصريح وصدرت الجريدة حوالي الساعة الواحدة وكانت السودان الجديد لوقت ما تصدر في مثل هذا الوقت.

تلقت إذاعات العالم هذا النبا وكذلك التصريح ونشرته إنجلترا وإسرائيل بصورة غير الصورة التي صدرت بها وقالت إنَّ السكرتير العام للوطني الاتحادي يقول لا وحدة ولا اتحاد بغير نجيب وكان لهذا الخبر أثره في مصر وفي الأحداث التي تلت ذلك وهذا ما علمته من المرحوم صلاح سالم فيما بعد.

نعود إلى أثر الاستقالة في السودان عامة وفي الحزب الوطني الاتحادي على الخصوص. لقد اهتزَّ السودان وثار النواب والشيوخ وقالوا كيف يحدث ما حدث دون أن يكون لنا رأي نحن الذين نسعى لتحقيق الاتحاد مع مصر. واجتمعت لجنة الحزب الوطني الاتحادي وهيئته لدراسة الموقف واتخاذ ما يجب اتخاذه من أعمال سريعة. كانت هناك فكرة لأنّ يذهب وفد من الوزراء إلى مصر لمحاولة تسوية الخلاف ورؤى أخيراً ألا يُزج بالحكومة في مثل هذه المشاكل وأن يكون الوفد من الحزب.

اجتمعت اللجنة التنفيذية للحزب في منزل السيد الرئيس في 54/2/26 واستعرضت الموقف من جميع نواحيه وانتهت إلى أنّه لا بدّ من قيام وفد يشرح

الموقف هنا وخطورته ومحاولة معالجة الأمر مهما كان ولا علاج كما يرون غير عودة نجيب مهما كانت الظروف والأوضاع وذلك لتحرج الحالة ممّا سيؤدي حتماً إلى انهيار العهد الحاضر بالسودان وستتبدل الأحوال تبديلاً لا يتفق والمصلحة العامة. وقرّر الاجتماع بالإجماع إرسال وفد بأسرع فرصة ممكنة مكوّن من حضرات السادة خضر حمد السكرتير العام ومحمد أحمد المرضي ويحيى عثمان ويحيى الفضلي ومحمد أمين حسين وعلى هذا الوفد أن يحاول بكل الطرق حلّ المشكل حلاً يعيد إلى النفوس الاطمئنان وللحالة الاستقرار ولا يكون هذا الحل إلا بعودة الأمور إلى مجاريها السابقة.

وأثيرت النقاط الهامة التي رأى المجتمعون أن يتزوّد بها الوفد ويستعين بها على شرح الأوضاع في السودان وأثر انعكاس هذه الأزمة على مستقبل الأوضاع فيه. وقام الوفد ثاني يوم إلى مصر وقيل أن تصلها الطائرة جاءنا الطيار متهللاً وزفّ إلينا خبر رجوع الرئيس نجيب ثمّ أخذني إلى داخل الطائرة لأسمع الإذاعة وهي تذيع الخبر وفي الطائرة سمعت التصريح المنسوب إليّ والذي يقول إنّ السكرتير العام للوطني الاتحادي قال لا اتحاد ولا وحدة بغير نجيب وكان لهذا التصريح أثره في الأوضاع في مصر إذ تحركت بعض قوات الجيش وتحرك الشعب وكانت النتيجة أن عاد أو أعيد نجيب إلى مناصبه المختلفة في رئاسة الجمهورية ورئاسة الثورة ورجع أقوى ممّا كان.

وصلنا مصر وكانت القاهرة في أفراح وحاولت الاتصال بالمسؤولين فلم نجد أحداً. ذهبنا إلى كلّ الأماكن دون جدوى وأخيراً ذهبنا إلى منزل نجيب ولم نستطع الوصول إليه إلا بمشقة شديدة فشكرنا على اهتمامنا ووعدنا بالاجتماع مع إخوانه وقرّر الرأي على أن نعود إلى السودان ومعنا الرئيس نجيب ليحضر افتتاح البرلمان.

حوادث هارس

عندما حلقت الطائرة تريد النزول كان الملاحظ أنَّ المطار والطريق إليه استولَّيَ عليهما الأنصار وكانت أعلامهم بارزة وأحسست بأنَّ الوضع غير طبيعي وسألت من حولي عن رأيهم ولكن لا أحد يستطيع أن يجيب وكُنَّا نحن أعضاء الوفد مع الرئيس نجيب في طائرته الخاصة.

نزلت الطائرة واستقبل نجيب بالهتاف له وكان أنصار الوطني الاتحادي يستولون على ميدان المطار واستطاعوا أن يدخلوا إلى الطائرة وكان حماسهم دافقاً ولكن كان واضحاً جداً أنَّ كلَّ مَنْ في المطار بعد ميدانه من حزب الأمة أو الأنصار. وكان الاضطراب بادياً على المستقبلين من المسؤولين ورجال الأمن فسألت السيد الدرديري محمد عثمان عن الخبر فلم يتكلم ولكنَّه أخرج لي من جيبه سبع رصاصات لمسدس وكان كافياً لتصوير الموقف.

أخذ نجيب إلى سراي الحاكم العام بطريق غير الطريق العادي وبقينا نحن لا نجد سيارة تحملنا إلى البلد وأخيراً عثرنا على سيارة تاكسي ركبناها إلى البلد وعند تقاطع شارع القصر وعند أجزخانة قرنغلي كانت حشود الأنصار مندفعة نحو سراي الحاكم في حماس ظاهر فأمرت السائق ألا يقطع عليهم الطريق وترجَّلنا عن السيارة وذهبنا بأرجلنا وكنت أتوجَّس خيفة من ذلك الحماس فما وجدت أحداً ممن أعرف إلا أمرته في إلحاح أن يتحرَّك عن مكانة ويذهب بعيداً.

ذهبت إلى أم درمان ولأُتني كنت ساهراً طوال الليل في الطائرة وقبل قيامها نمت ولم أستيقظ إلا في الساعة الثالثة بعد الظهر ولأسمع الحوادث الدامية وكم أفرغني موت أناس في ريعان الشباب يتطلعون إلى المستقبل المشرق يسوقهم شباب وذكاء وطموح فقد تخرَّج أبو القاسم ميرغني لساعته من المدارس العليا وأعدَّ العدة للسفر في بعثة فإذا بحياته تُقَطَّع قطعاً وبأسلحة متوحَّشة وأيدٍ أكثر منها وحشية وقسوة وينتظفي ذلك النور ويخبو ذلك الإشراق لا لذنوب جناه فما كان له في السياسة ولا في الحزبية ولكنَّه كان شاباً جاداً في دراسته يتطلَّع إلى المستقبل الزاهر الذي ينتظره. ومات ميرغني عثمان وهو من رجال حزب الأمة البارزين وكان يحاول أن يهدئ

من نائرة الثائرين وأن يوجههم التوجيه الصحيح فعدوا عليه وأردوه قتيلاً بأسلحة لا ترحم.

لا أريد أن أتحدث عن حوادث مارس فقد قال القضاء كلمته فيها وأدان المذنبين والجناة ودمغهم ولا عبرة بعفو شملهم بعد الاستقلال. هذا من ناحية القضاء أما من ناحية الحادث نفسه فيكفي أن المستر روبرتسون السكرتير الإداري السابق كان يقول إن الثورة الأهلية التي كان يقول بها قد حدثت بحوادث مارس.

وأما القول بأن الحشد كان المقصود منه إظهار قوة المطالبين بالاستقلال أمام اللواء نجيب فتلك أيضاً حجة مردودة لأننا خرجنا لتونا من استفتاء قامت به هيئة دولية محايدة يرأسها رجل غير سوداني وكانت النتيجة لصالح دعاة الاتحاد فمهما حشد أنصار الاستقلال لا يعني ذلك شيئاً وهم لم يطعنوا في صحة الانتخابات ولم يقاطعوها بل خاصموها تؤيدهم القوى الحاكمة.

ماذا بعد فشل حوادث مارس

لقد كانت حوادث مارس هي العقبة الأولى التي وضعها الاستعمار أمام الحكم الوطني وظن أنها ستكون سبباً لانتهيار دستوري ولكن ذلك لم يحدث. أراد الإنجليز أن يخلقوا منها سبباً للاحتكاك بين الحكومة والمعارضة وأخذوا يلوحون باشتراك بعض الشخصيات الكبيرة في حزب الأمة وهل الحكومة تسمح من ناحية سياسية أو من ناحية الأمن باعتقالهم.

ثم تقدموا بالمشاريع التي كانت لبعض آل المهدي يقولون إن تلك المشاريع لم تستوف الشروط ولم يتقدم أصحابها بالاتفاقات التي يجب أن تعقد مع أصحاب الأراضي ولكن الحكومة كانت حذرة فلم تعط السكرتير الإداري المستر بيتن هذه الفرصة واتصل السيد رئيس الوزراء بمن يهمهم الأمر وطلب منهم ودياً إتمام الإجراءات المشار إليها.

هذه بعض المطبات التي أعدها الإنجليز ولكن الحكومة تخطتها في سلام وبدأت في السودنة وقبلها قامت المفاوضات لتحديد التعويضات وتعثرت هذه كثيراً ولكن

الرغبة التامة في إنهاؤها وتضامن الحكومة وقوتها تغلبت على كل الصعاب وتم الاتفاق على التعويضات وسارت لجنة السودان في طريقها وكان الأعضاء السودانيون يشعرون بالقوة لأن الحكومة لم تكن تتدخلهم في شيء. لم تشمل السودان الفنيين والقضاة ولكن أراد هؤلاء أن يخرجوا الحكومة وتقدموا يطالبون بسودنة وظائفهم وإعطائهم ما يستحقون من تعويضات وتم لهم ما أرادوا.

التعديل الوزاري الدول

سارت الأمور سيرها العادي بعد حوادث مارس وفي مايو بدأت حملة عميقة من بعض الإخوان الذين تخطأهم التشكيل الوزاري وحملتهم كانت على تأخير دخولهم فقد كونت الوزارة الأولى من عدد أقل من العدد الذي نص عليه الدستور وكان الغرض هو عدم دخول من يقوى بهم جناح دون الآخر ولم يكن لهذا الجناح الآخر أناس يزكيهم للدخول في الوزارة فأثر أن يرجي دخول من اعتبرهم مؤيدين للجناح الأول. وإحساسي الخاص أن قيادة الختمية لم تكن صاحبة مصلحة في هذا العراك الدائر في الخفاء ولكن أصحاب المصلحة هم الذين يحدثونا دائماً بلسان قيادة الختمية حتى أنني كنت دائماً ألح على الرئيس أزهري في أن يلتقي بالقيادة ويطالبها أن تخاطبه مباشرة دون وسيط.

ولما عرف الإخوان الذين تخطأهم التشكيل الوزاري أن الذي يقف في طريقهم شخص بذاته بدأوا يلوحون بأنهم سيعدلون في أعضاء لجنة الحاكم العام وأظهروا الجد في هذا الأمر وكان تهديداً خطيراً بالفعل فما كان من الجانب الآخر إلا أن يلين وأن يفكر في أن التعديل ضرورة ولكن من الذي يدخل الوزارة.

أصبح هذا الموضوع حديث المجالس وذكرت أسماء المرشحين ومن يرشحهم وكثرت الأسئلة والتحريضات وكنت أحد الذين تلوك أسماءهم الألسنة وترشحهم للدخول في الوزارة ولكن في الحقيقة لم يفاتحني أحد ولم أحاول قط أن أتحدث مع أحد في هذا الأمر وكنت على ثقة من أن الأمر سيصلني دون أسعى إليه ولا يتفق عقلاً أن يحدث تعديل دون أن أكون فيه أو إن لم أكن أحد الداخلين فيه فعلى

الأقل أحد الذين يفتاحون في الأمر. فلا الذين دخلوا الوزارة ولا الذين سيدخلونها لهم سابقة في العمل الوطني أقدم مني فوق أنني السكرتير العام للحزب ولو كانت الأمور سائرة سيرها الطبيعي لدخلت الوزارة في تكوينها الأول.

وكان الأخ ميرغني حمزة مشكوراً يذكر اسمي دائماً وكنت أحد مرشحيه للوزارة ولما كثر الحديث في هذا الموضوع تحدثت معي بعض الإخوان فقلت لهم في صراحة إنَّ أحداً لم يفتاحني في الأمر وإنني إذا فوتحت فيه فسأرفض المنصب وثار حديث وجدل وتأنيب وسب من الأصدقاء ولكني بقيت كما أنا وأخيراً طلبوا مني ألا أقطع بأمر إذا ما فوتحت إلا إذا استشرتهم وانتهينا على هذا.

وفي يوم السبت أول مايو وفي المساء لقيت السيد علي حامد في مقهى الحلواني وجرنا الحديث إلى موضوع الساعة وهو التعديل الوزاري وحمل إلى علي حامد أنَّ الرئيس في أشد الحرج لأنَّه يريد إدخاله الوزارة ولكن الختمية لا يريدون فعجبت للأمر وقلت له إنَّ الرئيس في حلٍّ وقد جعلته في حلٍّ منذ تكوين الوزارة وأعتقد أنَّه ما عليه من حرج إذا وافق الختمية على طلبهم.

كان ذلك أول يوم أسمع فيه أنَّ الختمية هم الذين يعارضون في دخولي الوزارة وهذا ما أشرت إليه قبلاً في هذه المذكرات.

كنت أنوي صباح غد ذلك اليوم السفر إلى مصر بالقطار وقبل موعد السفر ذهبت إلى الأخ إدريس النصري وهو من كبار الختمية وممن كان يقف دائماً إلى جانبي وذكرته له وأنا ممتعض أنني أسمع أنَّ الختمية ضدي واستحلفته بأعز ما عنده أمّا كان يعلم سلفاً أنني ما كنت أرغب في أي منصب؟ حتى أنني ترددت في أن أرشح نفسي وقبلت أخيراً أن أرشح في دوائر الخريجين كنت فعلاً أتحدث مع إدريس في هذا الأمر قبل الانتخابات وقبل نتائجها وقلت له أيضاً إنني أسف لأنَّ الختمية يريدون حرمانني من شيء لا أريده ولا أسعى إليه وليتهم حرموني من شيء أرغب فيه فيكون في ذلك سلوى وإرضاء لهم.

تأثرت إدريس من الحديث وتركته وذهبت لأودع الرئيس وأنا في طريقي إلى القطار. وهذا ما دونته في مذكراتي بتاريخ 2 مايو سنة 1954م:

«القيام لمصر بالقطار في إجازة عطلة البرلمان» وقد ذهبت إلى أزهرى لأودعه ففتاحني في أمر دخولي الوزارة في التعديل المزمع وقد وضحت له وجهة نظري في

التعديل المزمع وقد وضحت له وجهة نظري في التعديل من حيث هو وقلت إنني مبدئياً لا أقرّه ثُمَّ أَنِّي أرى أن يحزم الرئيس أمره في معرفة الأعمال التي يريد لها الوزراء وإلى كم من الوزراء يحتاج وبعد ذلك يأخذ الشخص المناسب للعمل. وكان ردُّ سيادته أن العمل موجود ولكنه يحتاج إلى تنظيم وكان في عزمه أن يسند لكل وزير وزارة حتّى وزراء الجنوب وأخيراً عارضت في أن أكون أحد المختارين ولمّا ألخ عليّ قلت له إنني وعدت بعض الإخوان أن أستيرهم قبل أن أقطع برأي نهائي ولكن سأقنعهم برأيي في عدم الدخول وقال لي بل تقنعهم برأيي أنا في الدخول وخرجت من عنده إلى القطار مباشرة ويبدو أنّه ما كان يطنُّ أنني مسافر من تلك اللحظة. وفي المحطة قابلني الأخ عبد الماجد أبو حسيو وأخبرته بما دار ورجوته أن يحمل إلى الإخوان أنني ما زلت عند رأيي الأول وثار عليّ عبد الماجد واتهمني بالعناد والاستبداد وقام القطار.

وفي محطة شندي وجدت قطار بورتسودان وافقاً وجاءني ناظر المحطة برسالة من الأخوين حمّاد توفيق ومبارك زروق يطلبان فيها أن أرجع حسب رغبة السيد الرئيس وكلف الناظر أن يحجز قطار بورتسوان حتّى يصل قطار حلفا الذي كنت استقله ولكنّي رجوت الناظر أن يحرك قطار بورتسودان وقلت له إنني سأتصل بهم من حلفا. وعند وصول القطار إلى حلفا قابلني الأخ عمر نور شلك وطلب منّي أن أتكلّم مع الخرطوم من مكتبه ووجدت في الجانب الثاني الأخ إدريس النصري وقال إنّ معه الخليفة يحيى عثمان ونفى لي أنّ هناك اعتراضاً من الختمية وأنّ ما وصلني لا أساس له من الصحة وأخذاً يُلحَن في عودتي. كنت أعلم أنّ الحاكم العام سيقوم في إجازة وأنّ الوزراء الجدد سيحلفون اليمين يوم الثلاثاء وكان هذا الحديث صباح الاثنين وهذا ما جعلني أقول إنني سأتصل بهم من حلفا لأنّ القطار لن يقوم من حلفا إلّا يوم الأربعاء ويكون الأمر قد انتهى.

وبعد حديث طويل مع السيدين إدريس النصري ويحيى عثمان رجوتهما أن يُسيروا في التعديل بدوني على بركة الله وانتهت المحادثة.

وفي صباح الأربعاء 5 مايو سنة 1954م كنّا في الشلال وذهبت ومعني السيد أحمد مختار السفير الآن إلى أسوان لنقابل القطار في محطة أسوان عند الساعة الخامسة وهناك قابلني السيد أحمد مدثر وقال إنّه سمع في الإذاعة المصرية في الساعة الثانية

ظهراً أنَّ تعديلاً قد تمَّ فيه محمد أحمد المرضي ويحيى الفضلي وأحمد جلي وخضر حمد والثلاثة الأوائل أدوا القسم أمّا أنا فسأؤديه عند رجوعي من الإجازة. لقد كانت مفاجأة غير سارة بالنسبة لي وقد ظننت أنني تخلصت من الوزارة ولم أعترف بهذه الصفة طول مدة إقامتي بمصر وكان معي في غرفة النوم الأخ أحمد مختار الذي اتخذ من غضبي وسيلة للمداعبة أحياناً والتشجيع أحياناً.

شعرت وأنا في مصر أنَّ الصاغ صلاح سالم كانت مقابلاته لي قليلة وأحسست كأنه كان يتهرَّب وذهبت إلى نجيب مرّات عديدة في القصر الجمهوري وعلمت وجهة نظره في الخلاف الذي ما زال مستمراً بينهم يختفي مرّة ويطفو إلى السطح مرّات. وفي 14 مايو سنة 1954م في مذكراتي ما يأتي:-

« لم يتم اجتماعي بصلاح سالم حسب وعده وقد فشّرت أنا هذا بالتهرّب لأنَّ صلاح كان يسعى إليّ حال وصولي بل حدث في المرّة الماضية أن جاءني في اللكودة لحظة وصولي وبقي معي إلى الثانية صباحاً. يظهر أن القوم في نفوسهم شيء ولا يريدون الإفصاح عنه».

حرصت على ذكر هذه النبذة لأنَّ الحوادث جاءت فيما بعد مفسرة لهذا الظن وكان تخميني صحيحاً.

رجعت من مصر مساء 13 يونيو 1954م وصباح 14 يونيو جاءني حمّاد وبدأ الحديث في موضوع الوزارة وأخيراً قال إنَّ الأمر لا يحتمل أيّ تردّد من جانبك أو رفض لأنَّ ذلك سيفسر عند الحاكم العام وقد ذهب اسمك إليه أنكم على غير وفاق وأنَّ الرئيس لم يتأكد من رغبتك أولاً وفي ذلك ما فيه من الإحراج ولا مجال للكلام وليس أمامك إلا الاستعداد للذهاب اليوم لحلف اليمين وقد حُدّد الزمن فعلاً. وهكذا استخرت الله ودخلت الوزارة في 14/6/1954م ابتداءً من حلف اليمين وعيّنت وزيراً بلا أعباء.

لقد كان همُّنا الأول هو انجاز مهمتنا وهي إتمام السودنة التي سيعقبها الجلاء ثُمَّ تقرير المصير وكان الرئيس يتمسّك بنصوص الاتفاقية ولا يريد أن يحيد عنها قيد شعرة حتّى لا يجد الإنجليز لهم مدخلاً وكانت الوزارة في هذا الصدد على أنتم وفاق وكانت القرارات لا تحتاج منّا إلى تصويت بل كانت الأمور تسير في سلام وفي اتفاق تام.

ولعل الطريقة التي سارت بها تلك الحكومة والتي كانت نتيجة لحزب غالب هي التي جعلتني لا أؤمن بالحكومات المُرَقَّعة والقومية بالذات وقد جربناها فيما بعد وكانت فاشلة تماماً. قد يقول قائل بأن الحكومة القومية التي قامت بعد حكومة الوطني الاتحادي لم تفشل لأنها قومية ولكن كان سقوطها غاية في ذاته وما قامت إلا لتكون خطوة إلى خروج الأزهري من الحكم. قد يكون في هذا شيء من الحقيقة ولكن اختلاف الأهواء ومحاولة الكسب الحزبي والمنافسة في ظهور حزب على الآخر كل هذه كانت وما تزال أسباباً لا تجعلني أتفاءل من قيام حكومة قومية. ويؤيد ما ذهبت إليه قيام الحكومة القومية التي جاءت بعد أكتوبر وكيف كانت مثلاً للفوضى وكان كل وزير فيها حكومة قائمة بذاتها.

لقد استطاعت تلك الحكومة المتضامنة أن تنجز أعمالها المنوطة بها في عامين بدلاً من ثلاثة ولو كان وضعها يسمح لها بالخروج عن حدود الاتفاقية لاستطاعت أن تعمل كثيراً.

لا أنكر أنه كانت هناك خلافات ولكنها خلافات تتعلق بمطامع شخصية ولأفراد من تلك الحكومة وعلى أي حال لم يخرجوا إلى ذلك الحين عن كونهم من حزب واحد.

كيف خرج ميرغني وخلف الله وجلي

في حوالي نوفمبر سنة 1954م وبعد رجوع أزهري من رحلته إلى إنجلترا وقبل الرحلة بل الرحلة نفسها كانت من العوامل التي سببت الخلاف وأسرت بخروج أو إخراج الزملاء الثلاثة من الوزارة. والأسباب التي سأذكرها هي الحقيقة فقد كنت في وسط الأحداث ولا أتلقأها من الصحف.

يذكر الناس تخلي السادة ميرغني حمزة وخلف الله خالد وأحمد جلي من الوزارة ولم يكن السبب معروفاً تماماً للرأي العام ولكن السيد ميرغني وزميليه أخذوا يقولون إن السبب هو أن رجال الوطني الاتحادي لا يريدون استقلال السودان وأنهم مجرد منجرفون مع التيار المصري وأنهم سيتهاونون في أمر مياه النيل وأخذ هذا الحديث يتردد بين نواب الحزب وتحمس بعضهم وكتبوا عريضة يطالبون فيها السيد إسماعيل

الأزهري بإعلان رأيه في مصير السودان.

وللحقيقة والتاريخ أنه عندما أعلن استقلال السودان كانت أغلبية أولئك الذين طالبوا بإعلان الرأي وكانوا قد تأثروا برأي السيد ميرغني في أن رجال الوطني الاتحادي لا يريدون الاستقلال كانت أغلبية أولئك النواب انحازت إلى الجانب الآخر الذي يزعم أنه يعمل للوحدة أو الاتحاد وذلك عندما انقسم الحزب وخرج مع الأيام حزب الشعب الديمقراطي.

وحقيقة الأمر أن الكتلة التي كانت تعتبر نفسها ممثلة للختمية وهم أصحاب الأغلبية دائماً في مناكفة مع الأشقاء سابقاً وعندما ذهب أزهري إلى لندن ومعه الشيخ علي عبد الرحمن ويحيى الفضلي أثير غبار كثيف حول هذا الاختيار وكان الجانب الثاني يطالب بأن يُمثّل.

وانتهت الرحلة وجاء أزهري ليقابل بعريضة طويلة كتبها السيد خلف الله خالد يُعَدّد فيها الأخطاء التي ارتكبت في حقهم وهي العريضة التي وصفها أزهري بأنها عريضة مُتَعَقَّب للأخطاء لا زميل في العمل.

وخروج هؤلاء الثلاثة لم يكن مجهولاً لدى قيادة الختمية وقد كانت آنذاك في مصر. لم يكن الإخراج مجهولاً ولا الزمن الذي سيتم فيه بل كان متفقاً عليه تماماً. وبعد أن خرج الزملاء الثلاثة وكونوا لهم حزباً جديداً تحت اسم حزب الاستقلال الجمهوري كان المنطق يقول كان يجب أن يخرج معهم النواب الذين طالبوا الحزب بإعلان رأيه واستمعوا إلى حديث السيد ميرغني ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل وبقي النواب كما هم وسُمّوا أنفسهم في الخفاء نواب الختمية وظلّوا ينالون المساعدات من السيد عبد الله خليل إلى أن كشفتهم قضية عبد المنعم حسب الله التي قدّم فيها كشفاً بالمرتبّات التي كان يصرفها السيد عبد الله لمن سُمّوا أنفسهم بنواب الختمية وهم في نفس الوقت مع الوطني الاتحادي.

لم تشر قيادة الختمية على هؤلاء النواب بأنّ ينحازوا إلى جانب ميرغني وهذا ممّا يدلّ على أنّها لم تكن مؤيدة للثلاثة الخارجين كما أنّها لم تؤيّد الحزب الجديد وعلى رأسه السيد ميرغني حمزة لأنّ الخطة لم تكن تَمّت تفاصيلها.

وأخيراً في ديسمبر سنة 1954م أعلن السيد إسماعيل الأزهري في بيان نشرته الأيام في ملحق خاص أعلن رأيه في مصير السودان والعلاقة مع مصر وحتى لا يُقيّد

الحزب أعلن ذلك الرأي كراي شخصي وتركه لمنظمات الحزب لتقول رأيها فيه. كان يرى قيام جمهورية في السودان مستقلة كاملة السيادة كما أن مصر جمهورية مستقلة كاملة السيادة وأن تقوم لجنة مكوّنة من مجلس وزراء الدولتين لبحث المسائل المشتركة على أن تكون قرارات تلك اللجنة خاضعة للبرلمان. وهذا التصريح أرسل إلى جميع لجان الحزب وكنت حريصاً على أن يصل كل لجنة وأن أستلم رأي كل لجنة وفعلت ذلك وكانت النتيجة هي أن الأغلبية الساحقة تؤيد رأي الرئيس وقليل من اللجان يطالب بالاستقلال فقط ولجنة واحدة هي لجنة عظيمة كانت تقول بالاتحاد.

أما مصر فقد رفضت هذا الرأي وأوعزت إلى المرحوم نور الدين بمعارضته والعمل ضدّه الشيء الذي حملنا أخيراً إلى تكوين لجنة العشرة وهي من النواب لتعرض على الحزب في لجنته وهيئته البرلمانية نوع المصير الذي تريده وجاءت نتيجة اللجنة مخيبة لآمال السيد نور الدين ومن يؤيدون وجهة نظره في السودان أو في مصر وسيأتي الحديث عن أثر هذه القرارات في حديثنا عن مفاوضات مياه النيل لأن لهذا القرار أثراً كبيراً في كل ما حدث في تلك المهزلة - مهزلة المنشورات -

أهير الحج

لقد اخترت أميراً للحج سنة 1954م وهذه أول مرّة يختار فيها السودان أميراً للحج فقد جرت العادة أن تذهب بعثة طيبة ومعها أحد الإداريين ولكننا أردنا أن نظهر السودان بصورته الجديدة وتطلّعه إلى الحياة.

كانت الأعمال التي تتعلّق بالحجاج كثيرة ذلك العام لأنّه العام الذي انتزعت فيه خطوط السكة الحديد بين محطة السلوم وسواكن كان لا بدّ من نقل الحجاج من اسوتريه بعد إيجاد المكان المناسب لسكنائهم المؤقتة ثم إرسالهم بالسيارات وتحت حراسة البوليس إلى سواكن.

كان لا بدّ من الإشراف على هذه الحركة والتأكد من راحة المسافرين ولو أن إقامتي كانت في بورسودان.

قمت بعد ذلك إلى جدة وأشرفت فعلاً على راحة الحجاج وبعد وصولي كان قد لحق بي حاجاً المرحوم مبارك زروق والسيد علي عبد الرحمن. زرت جلالة الملك سعود قبل وصولهم ثم بدأت مراسم الحج وتحركنا إلى مكة.

لم تكن تلك المرة الأولى لي للأراضي المقدسة ولكنها كانت الثالثة وقد استطعت لمعرفتي الخاصة بكثير من الجهات والمطوفين وجهد السيد وكيل حكومة السودان آنذاك السيد حامد السيد كان في الإمكان تقديم كل ما يمكن تقديمه من وسائل الراحة للحجاج.

هيات الوكالة مكاناً محترماً في منى وكان صيوان السودان رحباً والمكان المحيط به فسيحاً وعلقنا علماً أبيضاً كتب عليه كلمة «السودان» لأنه لم يكن لنا علم. ولكن كل ما عملناه شوّهه علينا إخوان لنا يأتون إلى الحج عن طريق السودان ويحسبون عليه بل ضاع اسم السودان وطغى اسمهم علينا رغم كل ما عمل وبذل من جهد. لقد كانت لفظة تكرارة نسمعها في كل مكان كما نسمع التكرارة يقال عنهم «سودانيين». كانت هذه المسألة شغلي الشاغل وكنت أحاول في كل مكان وكل حديث ومع كل صحفي أن أوضح الفرق بيننا وبين التكرارة وأشرح عروبتنا وكيف أن الطريق إلى الحج هو الذي جمع بيننا وقبل ذلك الاستعمار الذي كان يمنح هؤلاء التكرارة جوازات حج سودانية.

كان للبعثة السودانية مكتب محترم في شارع مهم ولكن كان عدد الحجاج السودانيين ستة آلاف بينما كان عدد القادمين عن طريق السودان ويحملون جوازات سفر حجاج سودانية يبلغون العشرين ألفاً فكيف لا يطغون على هذه الستة الآلاف. كان لا بد من علاج المشكلة عاجلاً وموقتاً وعلاجاً دائماً يحسم الأمر ويخلق للسودان ذاتيته وشخصيته بين هذه الشعوب الإسلامية التي تمثل جميع أطراف المعمورة.

أعدت الحكومة السعودية مدينة حجاج خاصة بالتكرارة وأعفتهم من رسوم المطوفين وكل الرسوم الأخرى ولكن عندما ذهب لأرى مدينة الحجاج الخاصة بهم لم أجد فيها ما يربو على العشرين حاجاً. أما أين ذهب باقي العشرين ألفاً فذلك ما يعرفه جميع الحجاج لأن هؤلاء لا تراهم في الطواف ولا في السعي ولكن في منى وأيامها الثلاثة يجمعون ما يستطيعون جمعه من اللحوم ليعيشوا عليه إلى العام القادم

لأنه يتخلف منهم دائماً ما يقرب من نصفهم ليعملوا في مكة أو المدينة.
 لقد عالجتنا الموقف بأن فصلنا مكتباً خاصاً لهم ليصرفوا منه جزء التأمين الذي يُصرف في جدة وخصصنا مكتباً آخر للسودانيين ثم حرصت على أن يعود السودانيون أولاً إلى السودان فلم أحمل فلاتياً في الوابورات الأولى إلى أن أصبح عدد السودانيون دون حمولة الباخرة فكملنا العدد بالفلاتة.
 هذا فيما يخص عملنا الرسمي الخاص ولكن كيف نفهم الآخرين أننا غير ما يظنون.

لقد أقمنا حفلاً كبيراً في مكة في فندق مكة حضره سمو الأمير عبد الله الفيصل نائباً عن الحكومة السعودية وحضره الحجاج البارزون من الدول الأخرى كما حضره كبار رجال المملكة العربية السعودية وكبار الجالية السودانية.
 كان ذلك في 1954/8/13م وخطبت في الحفل مُعرفاً بالسودان وشارحاً آخر التطورات فيه وخطوات السودان وآملنا في الانتهاء منها قبل الوقت المُحدد لها في الاتفاقية وتحدثت عن الغرض من الحجّ وأنه المؤتمر السنوي للمسلمين وأنه لم يفرض لمجرد العبادة فإن الله يعبد في كل مكان وزمان.
 ثم تحدثت مع السودانيين عن إعجاب الملك سعود بهم وبخلقهم وبرجولتهم وثنائه عليهم في أيام الشدة والحروب التي مرّت بالسعودية مع اليمن ورجوت منهم أن يكونوا رسل خير ومحبة وسلام وأن يكونوا عند حسن الظن بهم.
 ودعوت رؤوس الأموال السعودية لتستثمر في السودان كما زرت بعض رجال المال ورغبتهم في العمل في السودان وإن الإمكانات لاستغلال أموالهم متوفرة.
 هذا زيادة على أنني تحدثت في الإذاعة السعودية في جدة باسم السودان ومخاطباً أيضاً السودانيين في السودان ومطمئنتهم على سلامة الحجّ وما يلقي أهلهم من عناية. وأعطيت حديثاً مطولاً لمندوب وكالة الأنباء الفرنسية كان حريصاً فيه على معرفة اتجاهاتنا بعد الجلاء وتحدثت عن المساعدات الأجنبية ورأينا فيها وتحدثت عن نوع الاتحاد الذي نريده مع مصر كما سألت عن هل أقمنا تمثيلاً خارجياً مع الدول الأخرى. كان في الحقيقة حديثاً استطعت فيه أن أقول ما أريد وما أرى أنه من خير السودان أن يُعرف.

وأعدت لي مقابلة مع محرر مجلة الرياض مسّت بعض النواحي التي أشرت إليها

سالفاً ولكن المهم عندي فيها ومن أجله أريد أن أسجلها أن الإصلاحات التي أشرت إليها في ذلك الحين سنة 1954م وطالبت بها أو رأيت ضرورة قيامها قد نفذت جميعها- ليس بالطبع لأنني أشرت إليها أو طالبت بها- ولكن لأنها كانت ضرورية فعلاً وتُمثّل وجهة نظر كل حاج يريد لهذه الأماكن المقدسة أن تكون موضع العناية والرعاية والاهتمام من المسؤولين.

واليك الحديث الذي نُشر في مجلة الرياض بمكة:

حديث مع السيد خضر حمد وزير الحولة السوداني

ما يزال معالي السيد خضر حمد وزير الدولة السوداني ورئيس بعثة الحج مقيماً في جدة. يشرف على أعمال الوافدين السودانيين وتنظيم عودتهم إلى بلادهم.

وفي إحدى الصالونات الفخمة الأنيقة بفندق قصر الكندرة بجدة جمعنا فرصة سعيدة بالسيد الوزير وكان هذا المجلس يضم عدداً من الشبان السودانيين المقيمين في جدة...

فكان السيد الوزير طريفاً في حديثه فاضلاً في حفاوته ولقائه ودارت بيننا أحاديث متفرقة عن الحج وعن السودان.. في هذه المقابلة الكريمة التي نُقدّمها للقارئ الكريم..

وقد لقينا من السيد الوزير إعجاباً بنجاح موسم الحج وتقديراً لما بذله المسؤولون في سبيل راحة الحجاج.

ولما سألته عن ملاحظاته أجاب قائلاً:-

لا شك في أن حكومة المملكة العربية السعودية بذلت جهداً مشكوراً لتحسين أحوال الحجّ والحجّاج فهذه الطرق التي شُقّت بين جدة وبين مكة ومنى وعرفة كان لها أعظم الأثر في تسهيل مهمة الحجّاج وتقليل متاعبهم ثمّ هذه الطرق والمربعات التي رسمت في منى قد ساعدت كثيراً على تنظيم الحركة.

ولا يسع الحاجّ مهما كان جاحداً إلا أن يقدّر ويشكر هذا المجهود الشاق الذي بذل لتنظيم حركة الحجّاج من عرفة ومنى دون وقوع أيّ حادث مهما قل شأنه وأننا نعترف بهذه المجهودات شاكرين ومقدرين نأمل في مزيد من الإصلاح والتنظيم والعناية.

والملاحظات التي نرجو أن تكون في حساب المسؤولين في الموسم أو المواسم القادمة هي أولاً مشاق الطرق في مكة فمكة قليلة الطرق ومع قلتها فهي ضيقة جداً وأتينا لنأمل أن تعمل الحكومة على فتح طريق جديد يساعد على تنقلات الحجاج في داخل البلدة.

وثانياً مسألة المسعى فإنه من العسير على أي فرد أن يحس وهو يسعى بين الصفا والمروة أنه يؤدي مناسك الحج وأنه يستطيع أن يحصر ذهنه فهذه الحوانيت المنتشرة على الجانبين وهذه الحركة الدائمة لا يليق أن تختلط بأماكن العبادة ونأمل أن تعمل الحكومة على إضافة ما بين الصفا والمروة إلى الحرم ليصبح جزءاً منه له قداسة المسجد وحرمة فيجد فيه الحاج مكاناً صالحاً لتأدية المناسك.

وليس هذا فحسب ولكننا نأمل في اليوم الذي نرى فيه حول الحرم حديقة فيحاء وميادين فسيحة تحيط به من كل جنباته يجد فيها الحاج راحة ومنتعة وصفاء نفس، أمّا أصحاب المنازل التي حول الحرم فيمكن نقلهم إلى طريق مكة جدة ففيه أمانة فسيحة لمنازل صحية جيدة تنشأ على نظام هندسي سليم ولا أظنهم سيبيعدون عن الحرم كثيراً ما دام هناك مواصلات منتظمة وما دام في هذا العمل إصلاح لبلادهم وتكریم للبيت العتيق.

شكرت للسيد الوزير حسن تقديره وجميل آماله ثم انتقل بنا الحديث إلى اهتمام الحكومة السودانية بالحجاج السودانيين فقد لمسنا هذا الاهتمام الكبير لأول مرة في هذا العام فقد صاحبت الحجاج بعثة إدارية وبعثة طبية وبعثة دينية..

وقد أوضح السيد الوزير أسباب هذا الاهتمام بقوله:-

في الحقيقة أنها أول مرة تشهدون فيها اهتماماً كبيراً من قبل الحكومة السودانية بالوافدين لأداء فريضة الحج لأن هذه أول مرة يحل فيها موسم الحج والحكومة الوطنية في كراسي الحكم.

ولقد كانت الحكومة السابقة تعني بشئون الحج ولكن في نطاق محدود.. ولما قامت الحكومة الوطنية رأت أن أمر الحجاج يجب أن ينال حظاً أوفر من العناية والاهتمام ولذلك قرّرت أن يصحب الحجاج في كل عام أحد الوزراء كرئيس لبعثة الحج يكون قريباً من الحجاج ليسهل أمورهم ويدرس مشاكلهم فيحل منها ما يسهل حله في الحال ويعمل على حل الباقي في الأعوام المقبلة حتى تكون مهمة

الحج ميسورة تماماً لجميع الحجاج السودانيين على مرور الأيام.

هذا إلى جانب مهمة أخرى ترى الحكومة الوطنية أنه قد حان وقتها وهي مهمة التعريف بالسودان بين حجاج المسلمين من مختلف أقطار الأرض وإبراز السودان بين الأقطار العربية والإسلامية بشتى الوسائل كإقامة حفلات التعارف بين كبار الحجاج ورجال المملكة العربية السعودية وبين الحجاج السودانيين كما حدث في الحفل الذي أقامته البعثة السودانية في فندق مصر بمكة المكرمة.

والبعثة التي يرأسها الوزير تتكوّن من أطباء ومساعدى أطباء وممرضين وتقوم البعثة بعلاج مرضى الحجاج السودانيين ومرضى الحجاج من مختلف البلاد سواء أكان في مكة أو منى أو المدينة وهناك بعثة العلماء تُوجّه الحجاج السودانيين وتعلمهم مناسك الحج وترد على الأسئلة العديدة التي تُوجّه إليها السودانيون ومن غيرهم. وسيظلّ اهتمام الحكومة السودانية بأمر الحجاج في المكان الأول حتى تصبح مهمة الحج سهلة على كل راغب فيها ولا يتخللها عقبات أو متاعب وليس في ذلك راحة للحجاج فحسب ولكننا نرى أنه أيضاً نوع من التعاون مع القائمين على شؤون الحج في المملكة العربية السعودية. فلو أنّ كلّ أمة نظّمت شؤون حجاجها على الوجه الأتمّ لاختفت جميع المشاكل ورغب المسلمون في تأدية الفريضة أكثر من رغبتهم الآن.

وهنا قلت للسيد الوزير هل كان هذا الاهتمام من قبل حكومة السودان الوطنية بالوافدين سبباً في زيادة عددهم؟ وكم بلغ عدد الحجاج السودانيين هذا العام؟ فأجاب الوزير قائلاً:

كان عدد الوافدين إلى الأراضي المقدّسة من السودانيّين هذا العام أقلّ من عددهم في العام السابق فقد بلغ مجموع الحجاج السودانيّين نحو الستة آلاف ولو أنّه جاء إلى الأراضي المقدّسة عن طريق السودان نحو العشرين ألفاً. ثمّ تحمّس الوزير قائلاً:-

إنّ هناك مسألة حسّاسة ودقيقة يهمنّا أنّ نحلّوها تماماً وأنّ يعرفها إخواننا في الأراضي المقدّسة وهذه المسألة هي أنّ هناك فرق كبير بين السودانيّين وبين التكرانة أو سكان نيجيريا الذين يفدون إلى الأراضي المقدّسة عن طريق السودان ويعتبرهم أهل الحجاز سودانيين.

ولأننا نتسلّم مقاليد الحكم ولا نعرف ما بداخل الإدارة الحكومية ولأننا لا نعرف الأحوال المالية تماماً وما عندنا من إمكانيات مادية لإقامة مشروعات كبيرة ولكن كان همّنا الأكبر هو أن نُصَفّي الأداة الحكومية من الإنجليز في أسرع وقت وأن تتمّ السودة تماماً دون ترُدّد أو تشكّك وإذا تمّ ذلك وخرج المستعمر أمكن أبناء البلاد أن يرسموا خططهم لمستقبل زاهر وأن يضعوا خطوط نهضته كاملة شاملة.

والمناصب الإدارية في السودان هي من أهمّ المناصب لأنّها ذات اتصال مباشر بالشعب والتي نصّت الاتفاقية على سودنتها في الجيش والبوليس قبل كل شيء ولمعرفتنا التامة بخطورة الإدارة فقد حرصنا نحن بدورنا على سودنتها أولاً وقبل كل شيء وقد بدأنا فعلاً ولن يمرّ شهران من هذا التاريخ إلّا وتكون الأداة الإدارية في السودان نظيفة من كل أثر أجنبي وقد أعطيت إنذارات بانتهاء خدمة جميع المديرين ونوابهم والمفتشين ووكلاتهم من البريطانيين وحلّ محلهم سودانيون فعلاً وقد وقّع قبل عشرة أيام فقط السيد رئيس الوزراء ووزير الداخلية أمراً بترقية السودانيين إلى تلك المناصب التي تسلّموها فعلاً وقد عاهدت الحكومة الوطنية الشعب السوداني على أنّها لا تهتمّ بشيء اهتمامها بتطهير أداة الحكم من الإنجليز وسنفعل ذلك إن شاء الله وفي مدّة أقصر ممّا يُنتظر.

ورأينا بعد ذلك أن نتعرّف على رأي السيد الوزير في هذا الموقف الديني الكبير الذي يشهده المسلمون في كل عام فسألناه عن خواطره وانطباعاته فأجاب بقوله:- هذه ليست أول مرّة أزور فيها الأراضي المقدسة لغرض الحجّ فقد زرتها قبل الآن مرّات وكان غرضي الأول أن أتعرّف على أحوال المسلمين من مختلف بقاع الأرض وأنّ اتصل بالبارزين منهم لتندارس مشاكلنا الهامّة وقد خاب أمني في جميع المرّات التي جئت فيها والسبب في ذلك هو أنّ الطبقة الواعية في جميع بلاد الإسلام لا تهتم كثيراً بشأن الحج وتعتبره مجرد مناسك ونسيت أو تناست الغرض الأول من فريضة الحج إلّا وهو اجتماع المسلمين في صعيد واحد ليتدارسوا أحوالهم وما حلّ بهم من كوارث أو محن وما يتطلبه واجبههم كمسلمين إزاء بقية إخوانهم هذا إلى جانب دراسة العقبات التي تقف بالمسلمين دون النهوض ودون العودة التي وعدّها الله المؤمنين من عباده وإزالة تلك العقبات.

وقد لاحظت فوق هذا أنّ كثرة المسلمين لا يؤدّون الفريضة إلّا وهم في أواخر أيام

حياتهم ولذلك ترى أغلب الحجاج من كبار السن الذين لا يصلحون لعمل أو تفكير سليم وهذا ما جعل موسم الحج عديم الفائدة من حيث الناحية الاجتماعية. وهناك عقبة خطيرة تقف دون تفاهم المسلمين وهي مسألة اللغة أن المسلم الذي لا يعرف لغة القرآن لا أعتقد أنه مسلم صحيح العقيدة قوياً فها حبذا لو اهتم المسلمون بمعرفة لغة دينهم وأصبحت هي لغة التخاطب بينهم في موسم الحج وواجب الدول الإسلامية أن تعني بهذا الأمر عناية تامة فالعربية ليست لغة فحسب ولكنها أدب وتهذيب.

وبعد هذا توجهنا بالشكر لمعالي السيد خضر حمد باسم الرياض وباسم القراء وانصرفنا ونحن نذكر ذلك اللقاء الكريم وذلك الإخلاص لقضايا المسلمين وتلك الوطنية العظيمة التي يشارك بها في بناء السودان الحبيب.

التعديل الثاني

كانت قد تكونت جبهة جديدة من المطالبين بدخول الوزارة كونهما السادة إبراهيم المحلاوي والسيد ممدثر البوشي وأخذت ثورتها على الأوضاع تتعدى حدود الحزب ودوائره إلى السوق وقهوة الحلواني.

وحانت لهما الفرصة عندما خرج الزملاء الثلاثة ونشطت حركة التعديل وتم فعلاً بدخول السادة إبراهيم المحلاوي وحسن عوض الله وممدثر البوشي. كنت إلى ذلك الحين وزير دولة وأراد الرئيس أن يسند إلي وزارة الري فاستغربت هذا الاختيار وقلت له إن وزارة الري لا عمل فيها وإذا ما انتهت شؤون مياه النيل والاتفاقية لا يكون بها عمل يذكر وإلى ذلك الحين لم تكن للري وزارة بذاتها ولكن كان وزير الزراعة هو في نفس الوقت وزير الري.

ولكن الرئيس قال لي كلاماً أَرْضاني ولست أدري أكان هو الحقيقة التي قصدها أو كانت مجرد وسيلة لقبولي هذه الوزارة الجديدة.

قال لي الرئيس عندما اعترضت على وزارة الري: إن الحقيقة هي أن السيد ميرغني حمزة قال فيما قال من هجوم أننا سنتهاون مع مصر في مياه النيل وإذا اخترت لها

السودانيون عرب ولا يتكلمون إلا العربية ولا يفد إلى الأراضي المقدسة منهم في كل عام إلا ستة أو أربعة آلاف حاج أمّا هؤلاء التكارنة أو سكان نيجيريا فلا صلة للسودان بهم مطلقاً إلا أنّهم يأتون عن طريقه من نيجيريا.

ولما كانت نيجيريا مستعمرة إنجليزية وكان الإنجليز حكاماً في السودان فقد درجوا على تقديم الخدمات لهؤلاء التكارنة أو النيجيريين وهذا ما جعلهم يتمتعون بنفس الامتيازات التي يتمتع بها السودانيون وهذا أيضاً ما خلق هذا اللبس الذي يتأذى منه السودانيون.

وأول عمل قامت به الحكومة الوطنية هذا العام هو أنّها منحتهم جوازات تختلف عن جوازات السودانيين وفي نية الحكومة ألا تمنحهم أيّ جوازات سودانية مرةً أخرى وعلى الحجاج منهم أن يأتوا بجوازاتهم من بلادهم ما داموا ليسو بسودانيين ولا تربط السودان بهم صلة إلا الصلة التي تربطهم بأيّ بلد آخر.

إنّنا جد حريصون على أن يعرف إخواننا في المملكة العربية السعودية أنّ السودانيين شيء والتكارنة شيء آخر وأنّ السودانيين عرب أقحاح لا يتكلمون غير العربية ولا يدينون بغير الإسلام وأنّ هذا الخلط بين السودانيين والتكارنة أمر نتأذى منه كثيراً.

فكان من واجبي أن أطمئن السيد الوزير بأنّ المسؤولين في نشراتهم التي يصدرونها عن الحج والجماعة المثقفة من السعوديين تدرك هذا الفرق وأنّ إخواننا السودانيين الذين يعملون هنا يتمتعون بثقة كبيرة لدى المسؤولين وفي البيوت التجارية.

ثمّ كان الحديث عن السودان الحبيب في هذه الفترة الحاسمة من حياته وعن حركة السودان فتحدّث الوزير قائلاً:-

إنّ السودان اليوم في فترة تحوّل أو كما اصطلاحنا على تسميتها فترة انتقال أيّ انتقال السلطة من أيدي المستعمرين إلى أيدي الوطنيين وقد حدّدت لهذه الفترة ثلاث سنوات ونحن نأمل أن يتمّ انتقال السلطة إلى أيدي الوطنيين في أقلّ من ذلك ويتمّ تقرير المصير قبل الثلاث سنوات.

والحقيقة أنّ الحكومة الوطنية التي تسلّمت الحكم نتيجة لانتخابات حرّة أشرفت عليها هيئة دولية لم تعد مشروعات إصلاحية كبيرة لهذه الفترة لأنّها فترة محدودة

أحداً من إخواننا الذين سيدخلون الوزارة جديداً سيؤكد هذا الاختيار مزاعم السيد ميرغني أو على الأقل سيأخذه حجة. وفي اعتقادي أنه لا اتهام حولك من هذه الناحية ولذلك رأيت أن تتولّى أمرها إلي أن تنتهي من مشاكل مياه النيل والتي سنكون كلنا معك في محاولة حلها ولكن كل ما في الأمر هو سد الذريعة.

قبلت وزارة الري وبدأت في إنشاء مكاتب لها في الخرطوم فما كان للوزارة إلا مكتب المستشار ومن معه وكانوا يستأجرون مكاتباً في عمارة أبي العلا بالقرب من مكاتب السودنة آنذاك.

وأول شيء قمت به هو زيارة الأخ ميرغني في منزله لأتداول معه الرأي ولأعرف مدى ما وصل إليه من خطوات في صدد مشكلة مياه النيل بين مصر والسودان. وفي يناير وبالتحديد في ثاني يوم من يناير سنة 1955 اجتمعت بالسيد الرئيس لبحث النقاط الهامة الآتية:-

أولاً- استعجال مصر لاستئناف المفاوضات بشأن مياه النيل فقد كانت توقفت بعد تداول وجهات النظر بالمكاتب وحضور الدكتور محمد أمين وحده للسودان والاستعجال كان ضرورياً لأننا نريد أن نثبت في أمر خزان الروصيرص ولأن الأعمال التي يجب أن تُنجز كثيرة وذلك قبل البدء في الخزان نفسه. ثانياً- ضرورة الاتصال بالمسؤولين في مصر عن طريق السيد الرئيس لبدء المفاوضات.

ثالثاً- إصدار بيان للرأي العام ليكون على علم بالمشكلة وليتابعها عن فهم ويعلم أننا لم نغال أو نطلب كثيراً وإنما وضعنا في اعتبارنا موقف مصر وقيام حياة شعبها على مياه النيل وحدها.

رابعاً- البت في استقالات بعض كبار الموظفين الذين لم تُسودن وظائفهم ويرغبون في ترك الخدمة.

خامساً- سودنة الثلاث وظائف الكبيرة ثم يترك لهؤلاء الكبار سودنة باقي وظائف الوزارة.

ثم انتقلت إلى واد مدني في 1955/1/7م وطلعت على جميع محطات وأقسام الري وتعرفت على مشاكل الوزارة والموظفين والعمال وزرت كبار المهندسين في أماكنهم.

التهديد لمفاوضات مياه النيل ومهزلة المنشورات

تمّ اتصال السيد رئيس الوزراء بالمسؤولين في مصر وطلب منهم الإسراع بمفاوضات مياه النيل وقرّرت السفر إلى مصر في يوم السبت 26 مارس سنة 1955م وقبل قيامي اتصلت بممثلي المعارضة الذين لهم إلمام وسابق اتصال بمصر في هذا الصدد وقابلت السيد عبد الرحمن عبدون بمنزل السيد إبراهيم أحمد وتحدّثنا طويلاً وعرفت وجهة نظرهما كما بيّنت لهما وجهة نظري والسبب الذي أريد الذهاب من أجله وكان هو آخر من تباحث في هذا الأمر مع الدكتور محمد أمين المهندس المصري الكبير. وصلت القاهرة في الساعة الرابعة مساءً وكان في استقبالي الزميلان مبارك زروق وحسن عوض الله وقد ذهبا إلى مصر لحضور المعرض الصناعي التشيكوسلوفاكي المقام هناك وكان في استقبالي أيضاً السيد عبد الفتاح حسن نيابة عن الصاغ صلاح سالم وبعض السودانين منهم الأستاذان الهادي عبدون ومنصور أحمد الشيخ.

وفي الساعة التاسعة مساءً تناولنا ومعنا الصاغ صلاح سالم وعبد الفتاح حسن طعام العشاء بمنزل الرئيس جمال عبد الناصر وكان الغرض هو استئناف الحديث الذي بدأه الزميلان مبارك وحسن مع صلاح سالم في الليلة الماضية ويتلخص في إنهما شرحا له أنّ الاتجاه نحو الاستقلال في السودان أصبح أقوى ممّا تتصوّر خصوصاً في صفوف الحزب وبين نوابه وشيوخه وليس معنى ذلك إنّ الناس تحوّلوا أو تنكروا للاتحاد ولكن يجب أن نسير في الاتجاه الذي يحقّق الرغبتين معاً.

وكان واضحاً من حديث الجانب السوداني إنّ الاستقلال هو الطريق السليم للاتحاد وأنّ السودان الحر المستقل يستطيع أن يحقّق الاتحاد مع مصر الحرة المستقلة.

استمر الحديث إلى الساعة الواحدة والنصف صباحاً اشترك فيه صلاح أكثر من الرئيس جمال وكان يحاول إقناعنا بأنّ أخطار الاستقلال كثيرة وأنّ الضغط الاستقلالي المنتظر والذي تعانيه جميع الدول الصغيرة المستقلة حديثاً من الدول الكبيرة سيكون علينا أشدّ وأشار إلى ما لاقوه ويلاقونه من ضغط.

وكان الرئيس جمال أقل حديثاً ولخصّ الوضع أخيراً فيما جاء في الاتفاقية من

حيث استفتاء السودان في أن يرتبط بمصر أو يستقل وقال إن علينا أن نقبل النتيجة. وكنت قليل الحديث وفي مرة سألني صلاح لماذا لا أنكلّم وما هو رأي لجان الحزب فقلت له إن ما قاله الزميل مبارك فيه الكفاية أمّا إذا أردت أن تعرف رأي لجان الحزب فأليك به- أن الأغلبية الساحقة تؤيد الرأي الذي أدلى به السيد إسماعيل الأزهرى لجريدة الأيام وقليل من اللجان ينادي بالاستقلال وحده ولجنة واحدة هي لجنة عطبرة تقول بالاتحاد فكان رده «يعني مافيش فايده».

وانتهى الاجتماع وكان الزميلان مبارك وحسن سيسافران إلى السودان صبيحة ذلك اليوم أي يوم 1955/3/27م واتفقنا على أن يعرضاً ملخّص ما دار لإخوانهم وإذا جد شيء فسيصل إلى مصر الأستاذ إبراهيم المفتي بالرأي الذي يستقر عليه البحث. وفي صبيحة الأحد 1955/3/27م اجتمعت بالسادة صلاح سالم والشرباطي والدكتور محمد أمين وكنت قد اتفقت مع صلاح على هذا الموعد مساء أمس واتفقت معه أيضاً على أن البحث لن يكون فنياً بل سنطرق النواحي السياسية للموضوع أولاً خصوصاً وإن الظروف مؤاتية.

استمر الاجتماع من الثانية عشرة إلى الثالثة والثلث وكتبت بعده للسيد الرئيس إسماعيل الأزهرى الخطاب التالي:-

عزيزي السيد الرئيس..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وصلت القاهرة أمس وقابلت أو قابلني الإخوان مبارك وحسن وأمس اجتمعنا ليلاً إلى وقت متأخر مع كل من السادة جمال وصلاح وعبد الفتاح حسن وسيحمل إليكم مبارك وحسن ما وصلنا إليه.

اجتمعت اليوم صباحاً مع صلاح والشرباطي والدكتور محمد أمين وعبد الفتاح حسن ودام الاجتماع من الساعة الثانية عشرة إلى الثالثة والنصف بعد الظهر وقد تحدّثنا كثيراً عن موقف البلدين من مياه النيل وشرحت النتائج المترتبة على حل هذه المسألة حلاً عادلاً.

وقد أخبرت صلاح مقدماً إنني لا أريد أن أعالج المسألة من ناحيتها الفنية لأن هذا الجانب له أهله من الفنيين ولكن همي الأول أن أبصر بالعواقب وأن أنبه إلى

مدى اهتمام الرأي العام بالموضوع وإلى أنه لم يعد موضوعاً فنياً بقدر ما هو سياسي. وقد وافق صلاح على هذا الرأي وأيده وذكر المخاوف وقال أن الوضع بالنسبة لهم أخرج لأنهم ما زالوا طلاب اتحاد على حد تعبيره.

والأخص ما دار في نقاط مختصرة حتى تكون سيادتكم على علم تام:-

1. أولاً أشعر بتمسكهم الشديد جداً لأنهم يعتبرون هذا الموضوع مسألة حياة أو موت بالنسبة لهم ويصورونه بأن أي كمية يأخذها السودان قبل قيام السد العالي إنما هي تخفيض للأرض المزروعة في مصر ولن يستطيع - صلاح - أن يقف يوماً من الأيام ويقول للشعب المصري أو لآلاف منه يجب أن تموت أرضكم وبالتالي تموتون لأن السودان يريد أن يزرع كذا فدان من الأرض.

2. يريد بهذا الكلام أن يدلل على أنه لا يمكن السماح للسودان بأي نصيب من الماء قبل قيام السد العالي والسد العالي هو الوسيلة الوحيدة لتوفير ماء جديد يستطيع أن يأخذ السودان منه نصيباً معقولاً.

3. كان المفهوم إن كمية الماء أعني متوسط ماء النيل 84 مليار ومصر تأخذ منه 48 والسودان 4 والباقي 32 مليار تقول مصر إن التبخير في السد العالي 10 مليارات أو 12 والذي يوزع هو 20 أو 22 مليار ولكن الدكتور محمد أمين يقول الآن أن المتوسط هو 80 مليار ومصر تأخذ 52 بإضافة التبخير في كل من أسوان وجبل أولياء والسودان يأخذ 4 مليارات فيكون المجموع 56 من 80 الباقي 24 وخرج أخيراً بأن ما يُراد تقسيمه هو 16 مليار.

4. أنكر الدكتور أمين بتاتاً أنه موافق أو سبق أن وافق على خزان الروصيرص مبدئياً وهذا ليربط بينه وبين السد العالي ومعنى ذلك أن الموافقة متوقفة على موافقتنا على قيام السد العالي.

ذكرت لهم أن وجهات النظر مختلفة تماماً وقد كان المعروف غير هذا وأشارت إلى مسألة الـ 84 مليار منها نصيب مصر 48 مليار والسودان 4 والباقي 32 وهناك خلاف من حيث الخسائر الناتجة عن التبخير.

ومعنى ذلك أن الفنيين - وأشارت إلى الدكتور أمين - لم يتفقوا على شيء وذكرت له أن المفاوضات السودانية أرسل له وجهة نظرة مكتوبة ووعد هو بإرسال ردّه ولكنّه لأن لم يفعل وذلك هو سبب التأخير المباشر.

واتفقنا على أنه من الخير البدء في المفاوضات حالاً حتى نعرف بالضبط المقدار الذي يُراد تقسيمه.

وقال صلاح إنه إذا ما عُرف المقدار الذي سيقسم كان من حق السودان أن يطالب بانصافه لأنه ظلم سابقاً.

واتفقنا على أنه لا بد من بدء استئناف المفاوضات حالاً وبأقرب فرصة لننتهي من هذه المشكلة وهنا طلب الشرباطي أن يكون الاجتماع في القاهرة لأنه سبق أن ذهب الدكتور أمين في المرتين السابقتين إلى هناك في الخرطوم. فوافقت على أنه لا مانع من أن نجتمع في أي مكان ولا بأس بالقاهرة.

ملاحظاتي أن الدكتور محمد أمين وهو الخبير والعالم في هذا الموضوع لا يتحدث كثيراً ما وافق على رأي صلاح أو الشرباطي وهو خطأ. أما الشرباطي فهو حاقد على المستر مورس ويظنه يعقد الأمور ويعتقد أن المفاوضات السودانية يتأثرون برأيه وقد نفيت له هذا وقلت له إنه يظلم المفاوضات السودانية بقوله هذا ولكنه اعتذر، وقال إنه لم يذهب إلى هذا المعنى - انتهى الخطاب.

وإلى هنا انتهى موضوع التمهيد للمفاوضات وبقيت بعض أشياء تتعلق بمهندسين من الهند والباكستان وما يجب أن يقوم به وكيل حكومة السودان من اتصال بالسفارات المختصة.

وفي يوم 28 مارس سنة 1955م كنت بمكتب وكالة السودان وجاء إلى هناك رجل رقيق الحال أعد بطاقات زيارة باسمي ويرجو أن أقبلها وأردّ الجميل بمثله وهنا تذكرت أنني أحضرت معي قصيدة الأستاذ أحمد محمد صالح وعنوانها «إلى نجيب في عليائه» أحضرتها معي بفرض أن تكتب بخط جميل وأعمل لها لوحة اكلشيه وسبب ذلك أن الأخ الأستاذ محمد عبد القادر كرف كان قد أهداني هذه القصيدة مكتوبة بخطه الجميل وداخل برواز ولما رآها بعض الإخوان رغبوا في مثلها فوعدتهم إنني إذا ذهبت إلى مصر استكتبتها أحد الخطاطين وعملت لها اكلشيه لأنه ليس من السهل على الأستاذ كرف أن يكتب نسخة لكل طالب.

تذكرت القصيدة وكلفت ذلك الرجل بأن يستكتبها أحد الخطاطين وقد فعل وأحضرها إليّ في اليوم الثاني.

وفي يوم 1955/3/30م ذهبت إلى مكتب السيد حسين حسنين وهو الشخص

الذي يتعامل معه الحزب فيما يختصُ بشؤون الحروف والأكليشيات وما يتعلّق بالمطابع ورجوته أن يعطي القصيدة المخطوطة لصانع الأكليشيات الذي يتعاون معه. وفعلاً ذهبنا سوياً إلى محلّ في شارع دوبريه وقال الرجل إنّه على استعداد لعملها غداً وهو اليوم الذي حددته لأسافر فيه إلى السودان لأنّ عماله قد خرجوا جميعاً فإذا أحضرناها له في الثامنة صباحاً سلمنا اللوحة في الحادية عشرة على الأكثر.

وفي صباح الخميس 1955/3/31م ذهبت وحسين حسنين إلى ورشة الأكليشية حسب الوعد وأخذ الخواجة المختص الورقة ووعد بتسليمنا اللوحة في الحادية عشرة ودخل إلى داخل الورشة حيث الكاميرا وهنا جاء بعض الأساتذة بعضهم يحمل شنطة أوراق ودخلوا إلى المكان وكنا نحن قد دخلنا أيضاً لنرى كيف يتمّ تصوير الورقة. وتناول أحد الداخلين الورقة وبدأ يقرأها فاستغربت لهذا التصرف وقلت له بأيّ حقّ تتناول هذه الورقة وتقرأها دون استئذان فقال أنا وكيل نيابة وهذا فلان وكيل نيابة وهذا فلان وكيل النيابة العسكرية.

وتحركنا جميعاً إلى خارج الورشة وجلس أحدهم على مكتب صاحب المحلّ وجلست أنا على مقعد ووقف حسين حسنين. وكان أمام هذا الذي جلس على المكتب ورقة كتب عليها «لقد وصل إلى علم وزير الداخلية أنّ الوزير السوداني فلان معه قصيدة تحت عنوان «علياء نجيب» هكذا وأنّ القصيدة تحوي مدحاً في نجيب وتعريضاً برجال الثورة وأنّ وزير الداخلية أمر أن يُحقّق في هذا الأمر وأن يكون في المجموعة رئيس نيابة وأحد رجال الجيش إلى آخر الجوقة.

وبدأ المُحقّق يكتب كيف أنّهم حضروا وأنهم انتظروا إلى أن جاءت سيارة ماركتها كذا ونزل منها شخصان أحدهما سوداني يلبس كذا واتضح أخيراً أنّه الوزير السوداني والآخر يلبس كذا وهو حسين حسنين.

بدأ بسؤال عن القصيدة فأخبرته بأصلها وأنها من نظم الأستاذ الكبير أحمد محمد صالح وإنني معجب بها لسببين أولهما: لأنّها من جيد الشعر وثانيهما: لأنّها ثناء على نجيب وهو رجل يهمني شخصياً لأنّه صديقي وأنّ هذه القصيدة نُشرت في السودان مرتين وأذيعت كذلك ووجدت قبولاً من جماهير الشعب وخاصة النّاس وقصصت عليه قصّة كتابتها وكيف فكّرت في عمل لوحة لها هنا لنطبع منها الصور المطلوبة في السودان.

وهنا قال المحقق إنَّها في الأصل إساءة لرجال الثورة، فقلت إنَّها في الأصل ثناء على نجيب والتعريض جاء عرضاً فقال إنَّها تسيء للعلاقات بين القطرين فقلت هذا خطأ فالعلاقات ما زالت حسنة والقصيدة كما قلت لك نشرت مرَّات وأذيعت وها نحن في مصر. قال ألا ترى فيها الإساءة لرجال الثورة فقلت ليس المهم عندي ولكن المهم هو ما فيها من ثناء على نجيب وأنا لست ناظم القصيدة حتَّى أضع ما أريد وأحذف ما لا أريد.

فسأل عن أثرها في الشعور العام في مصر فقلت وما علاقة الشعور العام في مصر بها. وقال كم دفعتم للخواجة فقلت لم ندفع له شيئاً لأنَّه عميلنا هنا وسيحاسبه حسنين فيما بعد فقال كم صورة تريدون طبعها فقلت وهل هذه مطبوعة؟ وسأل حسين حسنين ثمَّ الخواجة وأخيراً قال لا شيء تفضَّلوا فقلت له سأسافر في الساعة الثالثة فهل تريد شيئاً قال لا ثمَّ سألته هل يريد شيئاً من حسين حسنين فقال لا وخرجنا جميعاً.

ولم أترك الأمر واتصلت بصلاح فكان في اجتماع مع مندوبين من سوريا وكان هناك عبد الفتاح فأخبرته كما أخبرت السيد بابتكر الديب وأظهر عبد الفتاح دهشته وأنكر أنَّ له علم بما حصل.

وسافرت في الساعة الثالثة فعلاً وكان في توديعي محافظ القاهرة مندوباً عن الرئيس جمال والضابط جمال مندوباً عن صلاح سالم الذي اعتذر عن عدم حضوره باجتماعه مع السوريين.

وفي يوم الجمعة أول أبريل اتصلت بالسيد الرئيس إسماعيل الأزهري وأطلعته على كل شيء وذكرت له ما حدث من تحقيق وأبديت رغبتني في ألا أذهب للمفاوضات ولكنه لم يوافق وطلب مِنِّي أن أعمل على أخذ الوفد السابق وأن نسرع بتحديد الموعد للقيام إلى مصر.

المفاوضات

في 1955/4/4م قابلت بدار البرلمان كلاً من السيدين عبد الرحمن عبدون وميرغني حمزة وأطلعتهما على ما دار بيني وبين صلاح سالم والشرباطي والدكتور محمد أمين واستطلعت رأيهما فيما دار ثم أخبرتهما بعزمي على السفر في نفس اليوم لاستئناف المفاوضات ودعوتهما لإبداء ما عندهما من آراء واستمعت إلى ما عندهما ونكاد نكون على اتفاق تام من حيث إنهاء المفاوضات سواء بالاتفاق أو الخلاف النهائي لأنه لا مصلحة لنا في مد أجلها كما اتفقنا على عدم ربط السد العالي وتقسيم المياه أو السد العالي وخزان الروصيرص لأنّ كلاً من هذه قائم بذاته واتفقنا أيضاً على أن يعلن الجانب المصري بأننا سنقدم على إنشاء خزان الروصيرص ولا حجة لهم في تأجيله أو ربطه مع السد العالي والفارق بينهما من حيث النتائج بعيد جداً.

تكوّن الوفد منّي والسيد وكيل وزارة الري السيد بشير عبد الرحيم ومستشار الري المستر مورس والمهندسين السادة عمر العوض نائب المدير والسيد محمود جادين والسيد صغبيرون الزين في نفس اليوم أي 1955/4/4م.

انعقد أول اجتماع للمفاوضات بغرفة المؤتمرات بوزارة الإرشاد القومي وحضر المهندسون من الجانبين كما حضر الصاغ صلاح سالم والسيد عبد الفتاح حسن والوزير الشرباطي.

افتتح الجلسة السيد الشرباطي وزير الأشغال والري ورحب بنا جميعاً في مصر وأبدى سروره من اجتماعنا بالقاهرة وقدم المهندسين المصريين وهم السادة:-

سمير حلمي- أحمد سليم- محمد أمين- طاهر أبو الوفا- حسن زكي- يوسف سمكة.

ثم تحدثت فقلت بالحرف ما يأتي:-

نجتمع اليوم ونحن أقوى ما نكون أملاً في حلّ هذا المشكل لأننا هنا نعمل لخير الجميع في مصر والسودان ولأننا هنا أيضاً لنقدر ظروف بعضنا ونقدّر الآمال الكبيرة المعقودة على هذا الاجتماع. قد كنّا قبلاً لا نجد الفرصة لنجلس سوياً ويشرح كلٌّ منا حاجته ويستمع إليه أخوه في تقدير واحترام لهذه الحاجة وقد شاء الله أن نجد هذه

الفرصة وأن نواجه مشاكلنا بأنفسنا وأن نسعى لحلها حلاً عادلاً كريماً.
إنني أرى أن شقة الخلاف قد ضاقت جداً وقد سمعت كلاماً طيباً من السيد وزير الإرشاد القومي كله عطف وكله تقدير للظروف التي تحيط بنا جميعاً فهو لا يرى أن هناك أي عائق يقف في سبيل أي منّا ليأخذ هذا النصيب العادل من ماء النيل ويذهب إلى أكثر من ذلك فيقدّر ظروف السودان السابقة التي حرمتها والتي تحتم علينا أن نجعل له اعتباراً خاصاً في هذه المرة.

ولا أشك مطلقاً في أنكم الفنيون الذين يستطيعون وضع الأرقام الصحيحة أماناً ولا أشك أيضاً في أنكم ستسهلون علينا مهمتنا كثيراً إذا رغبتم ولا أشك في أنكم ترغبون إذا ما كان هذا الشعور الذي أبداه السيد وزير الإرشاد القومي هو شعوركم أيضاً.

ويسرني أن أقدم المفاوضين السودانيين وهم السيد بشير عبد الرحيم وكيل وزارة الري والمستمر مورش المستشار والسيد عمر العوض نائب مدير الري والسيد محمود جادين والسيد صغيرون الزين.

واختتم السيد الشرباطي موجهاً الحديث للمهندسين قائلاً والآن سنترككم (هو صلاح وأنا) لتباحثوا كمهندسين لوادي النيل ونحن على ثقة من أن الفن دائماً رائدة الصواب والحقيقة.

خرجت مع صلاح سالم إلى مكتبه وتحدثنا في مواضيع مختلفة وهامة وأخيراً تعرّضت إلى تحقيق النيابة في المرة الماضية وقال لي والله أريد أن أفاتحك في الأمر لولا أنك سبقتي فقلت له إنه كان تصرفاً بوليسياً بليداً فاعتذر وقال أنا مسرور لأنك اعتبرته تصرفاً بوليسياً بليداً فاعتذر وحقيقة هو كذلك.

ذهبنا إلى القناطر في دعوة من وزير الري وكان الغرض هو أن يتحدث الناس على انفراد وبعد الغداء عدت والشرباطي وتركنا المهندسين هناك يستأنفون المفاوضات واستمروا إلى وقت متأخر.

وفي صباح الخميس 7 أبريل اتصل بي المهندسون والمستمر مورش وكانوا يائسين من الوصول إلى نتيجة وقالوا إن المفاوضات المصري يعرض عليهم أربعة مليارات أخرى ويقول لهم إن نصيب السودان سيرتفع بذلك إلى 100% وقالوا إن المهندسين المصريين وزّعوا عليهم مذكرة فيها دراسة للسد العالي من مجلس الإنتاج القومي

فيها المعنى الذي أبدوه في محادثاتهم هذا إلى جانب مذكرة أخرى كتبها لهم المستر هرست والمستر بلاك في نفس العام.

شجعت المهندسين ورجوتهم أن يستأنفوا المباحثات خصوصاً وأنهم اتفقوا على الاجتماع في الساعة الحادية عشرة.

ذهبت إلى هناك في الموعد المحدد وكان هناك الصاغ صلاح سالم والشرباطي وبدأ السيد بشير عبد الرحيم في تلخيص ما دار وقال أخيراً أننا لو كنّا نعلم أنكم ستعرضون علينا أربعة مليارات لما كلّفنا أنفسنا مؤونة الحضور وهنا أنكروا هذا العدد وقالوا إنه رأي فردي وبدأ النقاش وكان الشرباطي أكثرهم انزعاجاً لعرض الأربعة مليارات.

وأخيراً قال الشرباطي نريد أن نعرف رأيكم في عرضنا وطلب إبعاد عرض الأربعة مليارات فقلت له إنَّ الأمر بالعكس فنحن الذين نريد معرفة رأيكم في عروضنا المقدمة لكم منذ ديسمبر سنة 1954م ولم نسمع عليها رداً وذكّرت تفاصيل العرض وأظهرت دهشتي من ربطهم الموضوع بالسد العالي واقترح الشرباطي ومنعاً للاستغلال السياسي كما قال - أن ندون مقترحاتنا وأن يردّوا هم بردهم عليها وتمّ ذلك بالفعل ووقعنا جميعاً على ما جاء في المذكرة التي تحوي العرضين وكنّا جميعاً نأسف لعدم الوصول إلى حل مُرضٍ للجميع.

وأثناء كتابة العروض بواسطة المهندسين من الجانبين جلست مع صلاح سالم والشرباطي في مكتب صلاح وكان يبدو على الصاغ صلاح سالم القلق وسألني فجأة هل سمعت بقرار لجنة العشرة فقلت لم أسمع به وقد اجتمعوا بالأمس ليلاً فمن أين لي أن أعرف النتيجة الآن فقال «مافيش فابدة».

كان الحزب قد كوّن لجنة من عشرة من النواب ورجال الحزب لوضع الصيغة التي يتفقون عليها من حيث المصير لتقدّم لهيئة الحزب وهيئة البرلمان وكان موعد تقديم قرارها هو مساء الليلة الماضية وقد كان صلاح على اتصال دائم لمعرفة النتيجة.

أخذ صلاح يكرّر السؤال ويعلن عدم الفائدة مرّات متعدّدة في أقلّ من ساعة من الزمن الشيء الذي يدلّ على مدى ما أصيب به من خيبة أمل في قرار لجنة العشرة.

وانتهى المهندسون من مذكرتهم ووقعوا عليهما ووقعنا معهم عليهما وكانت كما

يأتي:-

تصريح الجانب السوداني

طلب الجانب السوداني أن يسمع رأي الجانب المصري في المقترحات التي سبق أن قُدِّمت من الجانب السوداني إلى الدكتور محمد أمين مندوب مصر في ديسمبر من السنة الماضية سنة 1954م بالخرطوم وهي تتلخّص في الآتي:

1. أن يُحدّد نصيب السودان في محصول النهر الطبيعي قبل قيام السد العالي أو أي مشروعات أخرى على الأسس الآتية:-

أولاً- إمّا على أساس الأرض الجيدة السهلة الري وعلى أساس المقننات المصرية المائية للفدان.

ثانياً- على أساس السكان باعتبار أن ماء النيل جميعه لسكان وادي النيل يقسمونه بينهم بعدالة تامّة.

ثالثاً- على أساس رأي المستر كوري عضو اللجنة الدولية المحايدة في سنة 1920م وهو يقضي بالاعتراف بكل من مصر والسودان بالحق المكتسب آنذاك أي سنة 1920م ويُقسّم الفائض بالتساوي على البلدين.

يجب أن نذكر هنا أن هذه الأسس جميعها لا تُقلّل من حق مصر المكتسب حالياً بل تزيده كثيراً.

2. وفي حالة أخرى يعترف لكل من مصر والسودان بالحق المكتسب الحالي وأن يُقسّم الفائض قبل الابتداء في السد العالي أو أي مشروع آخر على أي نسب معقولة وعادلة يصل إليها الطرفان.

3. أن يكون للسودان الحق في إقامة منشآت على النيل لاستغلال نصيبه من الماء في كلا الحالتين كخزان الروصيرص مثلاً.

4. أن يُعوّض سكان حلفا التعويض الكافي قبل إقامة السد العالي.

5. ومتى عرف السودان نصيبه في كل حالة فهو مستعدّ لأن يدرس بروح طيبة واستعداد تام أي مشروع أو مشروعات تريد مصر إقامتها للاستفادة من نصيبها من الماء.

وقد أعطى الجانب المصري رأيه كتابة كما هو مبين في التصريح المرفق.

الجانب السوداني

خضر حمد- بشير عبد الرحيم- سيد عمر العوض- محمود جادين- صغيرون الزين

الجانب المصري

صلاح سالم- أحمد عبده الشرباطي- سمير حلمي- أحمد سليم- محمد أمين-

طاهر أبو الوفا- حسن زكي- يوسف سميكه

القاهرة في 1955/4/7م

تصريح الجانب المصري

عرض الجانب المصري على الجانب السوداني الاقتراحات الآتية كأسس عادلة لتوزيع صافي الفوائد المستجدة المضمونة سنوياً التي يمكن تدبيرها من أي مشروع من مشروعات ضبط نهر النيل يعرضها أي من الطرفين وتتم الموافقة عليها بواسطة خبراء محايدين يتفق عليهم وهذه الأسس هي:-

أولاً- اتخاذ مبدأ تكافؤ الفرص والمساواة التامة للأجيال المقبلة في مصر والسودان أساساً لتقسيم صافي الفوائد المستجدة المضمونة من مياه النيل باستمرار في كافة السنين وذلك بتقسيم هذه الفوائد على الأسس الآتية:-

أ. عدد السكان في كل من البلدين حسب تعداد محايدين يجري في وقت واحد في كل منهما.

ب. تقدير الاحتياجات المائية من النيل للمساحات المستجدة في مصر والسودان على أساس تطبيق نمط زراعي واحد في البلدين يتفق على ما هو مطبق في مصر حالياً.

ج. تقسيم صافي الفوائد المستجدة المضمونة من المياه باستمرار في كافة السنين على أساس تطبيق النسبة الناتجة في البندين (أ) و (ب) معاً.

على أن الجانب المصري قد قبل أن يجري التقسيم حسب (ج) باعتبار صافي الفوائد محسوبة عند أسوان مع ما في ذلك من تحمّل مصر لفاقد نقل المياه من أسوان

في مناطق الزراعة بمصر بينما يأخذ السودان نصيبه بزيادة تعادل مقدار الفاقد في نهر المياه بين السودان وأسوان وذلك ممّا يزيد حصة السودان بما يكفل التساوي بين البلدين.

ثانياً- لم يعرض الجانب المصري أية أرقام للمناقشة قبل الاتفاق على هذه الأسس. ثالثاً- الحقوق المكتسبة لكل من مصر والسودان في مياه النيل لا تكون موضع مناقشة في أي وقت من الأوقات ولا يمكن أن تمس هذه الحقوق مهما كانت الظروف.

الجانب المصري

صلاح سالم- أحمد عبده الشرباطي- سمير حلمي- أحمد سليم- محمد أمين- طاهر أبو الوفا- حسن زكي- يوسف سمكة.

يلاحظ أنّ المفاوضات التي قطعت لم تحدد أنصبة بعينها ولكن وصلنا إلى ثمانية مليارات تضاف إلى الأربعة السابقة وبذلك يصبح نصيب السودان 12 ملياراً. ويلاحظ أيضاً أننا تحدّثنا عن تعويض سكان حلفا تعويضاً عادلاً عن ممتلكاتهم ووقفنا عند هذا الحدّ ذلك لأنّ المتفق عليه أن تدفع مصر تكاليف خزان القرية وهي عشرة ملايين جنيه لتخزن ملياراً واتفق أيضاً على أن تتولّى مصر بناء مدينة حلفا في المكان الذي نختاره وكان الصاغ صلاح يعمل خريطة حلفا ويقول إنهم على استعداد لبنائها في المكان الذي تحدّده لهم.

ولذلك تكاد تكون مسألة بناء حلفا وبناء خزان خشم القرية ليروي خمسمائة ألف فدان يعيش عليها أهالي حلفا وسكان المنطقة الذين بها مسألة لا تحتاج إلى بحث أمّا الذي أردنا أن نشير إليه في العرض هو تعويض الأهالي عن نخيلهم ومزارعهم تعويضاً عادلاً.

لقد كان الموضوع من الأهمية بمكان يجعل كلاً منّا يتحجّن الفرص لإثارته من جديد وانتهزت حكومة مصر مرور الرئيس إسماعيل الأزهري على مصر في طريقه إلى السودان من باندونق وأثير موضوع مياه النيل وقدم عرضاً جديداً برفع نصيب السودان إلى 14 ملياراً وكان مع السيد الرئيس مبارك زروق وحسن عوض الله.

لم يعتبر السيد الرئيس ومن كان معه هذا العرض اتفاقاً وقال في وضوح أن هذه الاتفاقات لا يقوم بها السياسيون ولكن هي من شأن الفنيين.

والشيء الذي أريد أن أوضحه للقارئ العادي هو أن مصر لا تريد أن تعترف بوجود الفائض الذي يذهب إلى البحر والذي أرادت من أجله أن تقيم السد العالي وتريدنا أن نفهم أن هذا الفائض لن يكون حقيقة واقعة إلا بقيام السد العالي وبذلك نتحمّل نحن الفاقد من التبخير مناصفة مع مصر لأننا سننتفع من السد العالي.

ونحن نقول إن الماء حقيقة واقعة وأن السد العالي يقوم ليحجز نصيب مصر ولها أن تنشئه أو تتركه والماء يمر على السودان أولاً وللسودان أن يأخذ حاجته أو نصيبه دون أن يتحمّل نصيبه في الماء الذي سيتبخر في بحيرة السد العالي ولذلك نريد أن نعرف نصيبنا من الـ 32 ملياراً الذاهبة إلى البحر وألا تربط بقيام السد العالي.

أمّا النقطة الثانية فهي أننا لا نعتبر هناك مقارنة بين خزان الروصيرص والسد العالي ولذلك لا يمكن أن نربط بين قيامهما سوياً أي لا يقوم خزان الروصيرص إلا إذا وافقتا نحن على قيام السد العالي. وقد أكد الجانب المصري فيما سبق عدم تعارض خزان الروصيرص مع السد العالي حتى إذا تأخر السد العالي فلا يقتضي ذلك تأخير خزان الروصيرص.

ووقفنا عندما كنّا في الحكم عند هذا الحد إلى أن جاءت الحكومة الائتلافية بين حزب الشعب الديمقراطي وحزب الأمة وعاد السيد ميرغني حمزة إلى وزارة الري واستأنف المفاوضات التي تعثرت إلى أن جاء الحكم العسكري ووقع على الاتفاقية التي ما زال السودان يعاني من تبعاتها سواء في الخزان أو التعويضات أو المباني.

هكذا بعد هذا

افترقنا كأحسن ما يكون الأصدقاء وأبدى الجميع أسفهم لفشل هذه الجولة ورجونا أن نوفق في مرّة قادمة.

ثمّ بدأ الصاغ صلاح سالم في توديع المهندسين السودانيين لأنّه سيسافر صباح الجمعة 1955/4/8م إلى باندونق .

أما باقي المهندسين فقد تواعدنا على أن نلتقي جميعاً في العشاء الذي يقيمه لنا السيد بابكر الديب في مساء الجمعة ثاني يوم وكان الوقت حوالي الرابعة مساءً. أدهشنا جميعاً أن نسمع أن الإذاعة المصرية وركن السودان بالذات بدأ في إذاعة هجومية حادة قال فيها أن المفاوضات فشلت وأن السبب في فشلها وزير الري لأنه متأثر بتحيزه وأن الوفد لم يناقش مناقشة فنية وأن وزير الري ضبط قبل أيام يطبع ويوزع منشورات ضد الحكم القائم في البلاد وكررت إذاعة هذا الخبر مرّات حتّى انزعج الإخوان في السودان واتصلوا بي كما اتصل بي مندوب جريدة الأيام وبعض مندوبي وكالات الأنباء فبينت لهم الحقيقة وأسفت أن يصل الحال بالمسؤولين هذا الحد من عدم المسؤولية.

وفي صباح الجمعة 8 أبريل سنة 1955 صدرت صحف الأهرام والأخبار والجمهورية وعلى صفحاتها الأولى بالبنت الكبير جداً وبالخط الأحمر العناوين الآتية:-

ضبط وزير سوداني وهو يعد منشورات ضد الوضع الحالي في مصر

ضبط وزير سوداني وهو يعد منشورات ضد الحكم في مصر

ويتحدثون بعد ذلك عن أكلشيه القصيدة على أنه منشورات كنت أعدها في مطبعة ثمّ ينتقلون إلى موضوع مياه النيل.

وفي المساء لم يحضر المهندسون للعشاء.

سارعت إلى أعداد بيان تفصيلي بما جرى في المحادثات وكذلك موضوع القصيدة وعقدت بدار وكالة وحكومة السودان مؤتمراً صحفياً حضره مندوبو وكالات الأنباء الذين استمعوا إلى البيان وسألوا ما شاء لهم السؤال وعلموا الحقيقة وكانوا يظهرون دهشتهم من كل ما حدث.

وقلت لهم إن الصحافة المصرية لن تنشر لي كلمة واحدة أرد بها عليهم ولما أظهروا تشككهم تحديتهم من أنني سأرسل بهذا البيان لكل الصحف وذلك بعد أن دعوتها ولم تحضر وقلت لهم ستعرفون الحقيقة تماماً فيما قلت للصحفيين أسألوا عن المنشورات وماذا فيها وفي أي مطبعة طبعت.

في الساعة العاشرة مساءً من يوم الجمعة نفسه قمت إلى السودان ومعني السيد بشير عبد الرحيم.

وحضرت في يوم السبت 1955/4/9م عرض قرار لجنة العشرة على هيئة الحزب

وكان القرار الذي وافقت عليه الهيئة بالإجماع هو « قيام جمهورية سودانية مستقلة لها كامل السيادة» ثُمَّ أشار القرار إلى تكييف العلاقات مع مصر من حيث الماء والاقتصاد والنقد والثقافة.

هذا هو قرار لجنة العشرة الذي أثار كل الزوبعة وعبر عنه السيد صلاح سالم بأنه «خلاص ما فيش فايدة».

هذا أحد الدوافع التي دعت إلى هذه الممهلة أمّا الدافع الآخر فسيأتي الحديث عنه فيما بعد وهو يتعلّق باستقالة الرئيس نجيب واعتقادهم إنّي كنت على علم بها ولم أخبرهم أو أحاول عمل شيء لتفاديها.

ولما كان الرأي العام مهتماً بهذه المسألة اهتماماً زائداً وتبع تطوّراتها منذ أن سمع بها كان لزاماً عليّ أن أعد بياناً أنوّر فيه الرأي العام وأطلعه على الحقيقة وقد فعلت ذلك وأذعت بياناً مفصلاً لم أخف فيه شيئاً واستقبله الرأي العام استقبلاً حسناً وكان الناس في المقاهي والأماكن العامة يلتفون حول الراديو وما انتهيت من حديثي حتّى دوى التصفيق مؤيداً لموقفي وعدم تفريطي في حقوق البلد (ملحق).

ولمّا كان مقرراً أن أسافر مع السيد الرئيس إلى أديس أبابا بدعوة من جلالة الإمبراطور ومعّي الزملاء المرحوم الدكتور أمين السيد والسيد سانتينو دينج والسيد يحيى الفضلي فقد أعددت مع الزميل السيد بشير عبد الرحيم وكيل الوزارة بياناً يلقيه نيابة عني في البرلمان (ملحق) ثُمَّ سافرنا إلى أديس أبابا في 1955/4/10م. وبعد انقضاء تلك الرحلة سافر السيد الرئيس إلى مؤتمر باندونق وقابله السادة مبارك زروق وحسن عوض الله وبقيّة أعضاء الوفد في عدن.

عيد ثورة 23 يوليو 1955م

وجهت دعوة للوزراء لحضور الاحتفالات بعيد ثورة 23 يوليو لسنة 1955م وحرصنا على حضور ذلك الاحتفال ولو أنّ العلاقات أصابها بعض التوتر وكان نور الدين قد أخرج من الوزارة وكان خروجه بعد اجتماع كامل لمجلس الوزراء في منزل المرحوم الدكتور أمين السيد وأحصى السيد الرئيس الأخطاء التي ارتكبها الأخ نور الدين

واستمر الاجتماع يومين. خرج نور الدين من الوزارة ولم يُخرج أو يخرج من الحزب ولذلك بدأ يعمل حسب اتجاهاته الخاصة وبوصفه وكيلًا للحزب وقبل السفر إلى مصر وأثناء غياب السيد الرئيس حاول المرحوم نور الدين أن يدعو هيئة الحزب وبوصفي سكرتير الحزب لفتُ نظره إلى أنَّ دعوة الهيئة تأتي عن طريق اللجنة التنفيذية وهي التي تضع جدول أعمال الهيئة ولكنه أصرَّ على أن يدعو الهيئة وأصررت أنا على دعوة اللجنة أولاً وقام خلاف حسمه سيادة السيد علي بأن يؤجل كل دعوة من يريد دعوتهم إلى أن نعود من رحلة مصر.

كانت مصر قد بعثت بأكثر من خمسمائة تذكرة دعوة للسيد نور الدين وقام هو بتوزيعها على من رأى دعوتهم ولذلك وجدنا عدداً كبيراً مع أعضاء الهيئة ممن ليس لهم بالهيئة صلة.

قمنا إلى مصر في يوم 1955/7/22م وصلنا ليلاً واستقبل الرئيس بقرقول شرف وكان ظاهراً أنَّ هناك تضييقاً على من جاء لمقابلتنا وذهبنا من المطار إلى ميدان الحرية حيث كان هناك الاحتفال وكان ضيف الشرف الرئيس سوكارنو وكان سوكارنو كما يبدو لنا خطيباً بارزاً فقد انتزع التصفيق من الناس وهم لا يعلمون ما يقول إلى أن يترجمه المترجم.

كان البرنامج قد أعدَّ على أن نؤخذ من المطار إلى ميناهاوس ولكنَّا أثرنا حضور الاحتفال وكانت مفاجأة غير سارة لبعض الناس بشئ من الفتور والكسوف.

كان إنزالنا في ميناهاوس غريباً ولعله كان مقصوداً ليبعدنا عن وسط البلد وعند خروجنا من الاحتفال لنذهب إلى ميناهاوس كان هناك عدد من النوبيين يهتفون أمام أزهرى للمرحوم نور الدين حتَّى أنَّ الصاغ صلاح سالم أظهر لهم امتعاضه وأبعدهم عن المكان.

حضرنا العرض العسكري في الصباح وكُنَّا في المكان الرئيسي وكان إلى جوارنا من جهة الشمال المرحوم نور الدين وبعد كل فترة وأخرى يقف أحد الهتافة ليهتف بوحدة وادي النيل. وفي المساء دعينا إلى عشاء في نادي الضباط بالزمالك ووضعنا في مكان منعزل ليس معنا فيه أحد ولم يحضر إلينا أحد وبقينا هناك إلى أن جاء السيد إسماعيل الأزهرى فأخذونا إلى غرفة أخرى فيها بعض سفراء الدول وبعد جلسة قصيرة خرجنا إلى العشاء.

وفي هذا الحفل كلف السيد الرئيس المرحوم مبارك زروق بتحديد موعد مع الرئيس جمال عبد الناصر نجتمع فيه معه وحدد الموعد على أن يكون في قصر الطاهرة نتناول العشاء ونتحدث.

وفي مساء الأحد 1955/7/24م تناولنا العشاء في قصر الطاهرة وكان معنا من السودانيين علي بك البربر والأستاذ درديري أحمد إسماعيل وكان العشاء معداً لعدد كثير أكثر من عددنا وذلك ليحضره جماعة نور الدين ولكنهم قالوا إنهم لا يجلسون معنا لأننا تنكرنا للمباديء وكان من المدعوين نور الدين ومحمد أمين حسين وأحمد السيد حمد وعقيل والطيب محمد خير ومحمد يس بخيت.

وبعد العشاء خرج السادة علي البربر ودرديري وبقينا نحن (أزهري - مبارك - خضر - يحيى - علي عبد الرحمن - إبراهيم المحلاوي - حسن عوض الله) فاجتمعنا بالسادة الرئيس جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وزكريا محيي الدين - صلاح سالم وحسين ذو الفقار.

وسأرجع هنا إلى مذكراتي التي جاء فيها بعد ذكر أشياء مما تقدم ما يأتي:-
«استعرضنا الأوضاع وذكر لهم السيد الرئيس كيف أنه طلب منهم مرأت أن يعينوه على تكييف نوع العلاقة التي يرغبون فيها. وكيف أن الأحوال والتطورات في مصر كان لها أثر في تحويل اتجاه السودانيين نحو الاستقلال وأنه حاول أن يسكن المتسائلين بالتصريح الذي أدلى به في ديسمبر ولكن مصر حاربت التصريح وأوعزت إلى نور الدين أن يرفضه وأن يحاربه إلى الحد الذي جعله يجمع بعض الناس ويعتبرهم هيئة الحزب ويصدر قراراً بفصل السيد الرئيس ومبارك وخضر حمد ويحيى الفضلي ومحمد أحمد المرضي من الحزب ونصب نفسه رئيساً والطيب محمد خير سكرتيراً عاماً.
ثم أشار إلى بعض الأعمال التي يقوم بها ممثلو مصر في السودان وما فيها من تدخل سافر في شؤون الحزب والبلاد وأشار إلى أنه سبق أن اتفق مع السيد الرئيس جمال عبد الناصر على إيقاف كل شيء ولكن عاد ذو الفقار واستمر في اتصاله بالنواب ومسؤوليهم للخروج من الحزب.

وتحول الحديث إلى مياه النيل وذكرهم أنهم لم يرسلوا بالعرض الذي وعدوا بإرساله وأن المفتش العام جاء من غير العرض.

وفي هذا الاجتماع وعدوا بإرسال العرض وقال الرئيس جمال لأزهري أرجو أن

تصل بي مباشرة في كل شيء تراه وكذلك سأفعل أنا بالمثل وافترقنا حوالي الساعة الثالثة والرابع صباحاً إلى أن نجتمع بالصاغ صلاح سالم مساء لأن بقية أعضاء مجلس قيادة الثورة سيذهبون إلى الإسكندرية وسيصلنا رأيهم في ذلك الاجتماع عن الاتجاه المنشود كتابة».

كان هناك حفل كبير قد أقيم في الكازينو بالجيزة حضره نور الدين ومن اعتذر من زملائه كما حضره الخمسمائة الذين جئ بهم من السودان وكانت هناك خطب وهتافات ووصفنا بالعملاء الذين استوحوا الاستقلال من الإنجليز وكان الحماس المصطنع بالغاً أشده.

وفي الصباح ظهرت جريدة الأهرام وأشارت لكل ما دار في ذلك الاحتفال الذي ضم أنصار الوحدة ولم تنس أن تذكرنا بكلمات فيها من الإساءة قدر كبير فقد هتفوا بسقوط عميل الاستعمار يعنون بذلك الرئيس.

وفي المساء وفي منزل صلاح تم الاجتماع وبالرغم من كل ما حدث كنّا نقترح عليه الحلول التي إذا ما أخذت بها مصر استطاعت أن تكسب الموقف ولكنّه رفض كل شيء وكان واضحاً أنه يؤيد نور الدين حتى أنه قال مؤخراً إنه كعسكري لا يحطم آخر كبير خلفه يعني بذلك نور الدين.

وأشار أحد الحاضرين إلى ما نشر في الأهرام فما كان من صلاح إلا أن قال إنَّ الجرائد لها حريتها فقلت له نعم وفي شتيمتنا فقط.

وبعد لحظات شعر صلاح بالحرج وعاد يقول الحقيقة إنَّ ما نشرته الأهرام لا نقرها عليه ونحن نضع الرئيس الأزهرى مع الأخ الرئيس جمال كأخوينا الكبيرين فلم يرد عليه أحد وبعد ذلك وبعد أن كرر الاعتذار طلب منه السيد الرئيس أن ينسى ما حدث فلا تثريب عليه ولا على أحد. وفي ذات الاجتماع سلمنا صلاح عرضهم الجديد بخصوص مياه النيل ولم يسلمنا شيئاً عن العلاقة بين مصر والسودان.

عدنا إلى السودان وتركنا أعضاء الهيئة ومن ذهب معهم هناك وكانت تعقد اجتماعات يتحدّث فيها الصاغ صلاح سالم ويحضرها الشيخ علي عبد الرحمن ولم يتورع الصاغ صلاح سالم من الهجوم السافر على أزهرى ومن معه وكيف أنّهم تلقوا الوحي بالاستقلال من الإنجليز ونسي أن الشيخ علي كان أحد الذين رافقوا الأزهرى في رحلته إلى إنجلترا.

وكانت الغالبية الغالبة من الذين يتحدث إليهم صلاح من أنصار الأزهرى ولكنهم كانوا يحرصون على حضور الاجتماعات وعلى سماع كل ما يقال في صبر وعدم مبالاة. في تلك الأيام درست التخطيطات لقيام حزب الشعب الديمقراطي وأن يرأسه الشيخ علي وما أجل تنفيذ الخطة إلا لأنّ الأمل كان قوياً في أن يكسب المعركة نور الدين ومن معه وأن يتحول التعاون إلى حزب الأمة ويعقد الأمل على عبد الله خليل لا رغبة فيه ولكن أملاً في هدم أزهرى ومن معه وسقوط حكومته قبل إعلان الاستقلال أو على الأقل تأجيل الاستقلال بقيام حكومة قومية تتنازع فيما بينها المقاعد ثمّ تختلف وتقصى أزهرى من الحكم وقد حدث هذا فعلاً ولكن بعد أن تمّ الاستقلال ورفع علم السودان الحبيب.

من أسرار حملة المنشورات

ساقني الحديث بعد دخولي الوزارة في التعديل الأول إلى الحديث عن التعديل الثاني ثمّ جرفني تسلسل الأحداث دون أن أرجع إلى النقطة التي وعدت بالحديث عنها وهي الأسباب التي دعت إلى تلك الثورة عليّ بعد فشل مفاوضات مياه النيل وتحميلي التبعة لأنني متحيز وتركت السبب الأساس في المعركة. وقلت إنّ نتيجة قرار لجنة العشرة أثراً كبيراً في تلك الثورة ووعدت أن أجلي الموقف فيما بعد أن أضيف جديداً إلى هذا السبب.

وسأرجع بالقارئ إلى 29 يوليو 1954م ونحن في مصر لحضور عيد الثورة وهناك وفي مكتب صلاح سالم تمّت مقابلة كان فيها الصاغ صلاح سالم والشيخ محمد نور الحسن والشيخ علي عبد الرحمن والشيخ محمد أحمد المرضي وحسين ذو الفقار وعبد الفتاح حسن وكان الغرض من الاجتماع هو محاولة تقريب وجهات النظر بين رجال الثورة وقائدها اللواء محمد نجيب وقد ظهرت أشياء ما كان يصح أن تحدث الشيء الذي حدى بنا إلى هذا الاجتماع.

وسأرجع هنا إلى ما دوّنته في مذكرتي بتاريخ 1954/7/29م وجاء فيه ما يأتي:-
«تمّت مقابلة مع صلاح سالم وكان في الاجتماع الشيخ علي عبد الرحمن والشيخ

المرضي والشيخ محمد نور الحسن وحسين ذو الفقار وعبد الفتاح حسن وخضر حمد. تكلم صلاح عن الموقف المتوتر بينهم وبين نجيب وأخذ على نجيب أنه تحدّث مع صائب سلام معارضاً الاتفاقية الخاصة بالجلء وبدأ يتحدّث عن عدم ظهور صور نجيب وأخباره وعزى ذلك إلى الجرائد نفسها وإلى أنّ نجيب رئيس الجمهورية والملوك ورؤساء الجمهوريات عادة لا تظهر صورهم وأخبارهم ولكن تظهر صور الوزراء وأعمالهم اليومية لأنّهم مرتبطون بالسياسة التنفيذية.

وتحدّث عن موقف الصحافة منه وكيف أنّ جريدة التحرير تحاول أن تظهره محطّرة التافه واستشهد بما كتب عنه في آخر عدد.

وكان حديثه لا يخلو من الإشارة إلى ويطلب موافقتي على بعض ما يقول كتّوله (مش كده يا خضر) وقد قلت له (مش كده.....) وأشرت إلى ما نشرته جريدة الجمهورية حين نشرت صورة الرئيس نجيب والرئيس جمال عبد الناصر وكُتبت تحت الصورتين الرئيس عبد الناصر وإلى جواره اللواء نجيب. فقال ذو الفقار إنّ الجريدة غرمت الشخص المختص فيها سبعة جنيهات.

وتحدّث بعد ذلك عن موقفهم مع من يرون أنّه يعطف على نجيب أو يؤيّده وموقف صلاح معي بالذات وكيف أنّه تهزّب منّي. وهنا ذكرنا مسألة التصريح فقلت لهم إنني أقف إلى جانب كل ما قلته ومسؤول عنه وأنكم تتحدّثون عن تصريح لم أذكره مطلقاً وهو الخاص بشرط عدم قيام الوحدة أو الاتحاد إلّا إذا كان على رأسه نجيب. وهنا قالوا ولكنك لم تنف هذا الحديث فقلت إنني لم أسمعهُ إلّا وأنا في الطائرة وكان معي الشيخ المرضي وقد ذكرت له ذلك.

وهنا روي أنّ نتحدث أطول وأرجأنا الاجتماع إلى الغد (الجمعة 54/7/30) الساعة الحادية عشرة وقد أصرّ على ذلك صلاح نفسه ومن أجل ذلك تأخّرت عن السفر». وانتقل إلى يوم الجمعة 1954/7/30م من المذكرة فأجد ما يأتي:-

اجتمعت اليوم بصلاح من الحادية عشرة إلى الثالثة وقد تحدّثنا حديثاً صريحاً واضحاً. والعجيب أنّهم استنتجوا أنّني كنت على اتفاق مع نجيب وأنني كنت أعرف لأنّه غاضب وأنّ النتيجة ستكون الاستقالة ولم أكشفهم وكانوا يأملون في ذلك وأشاروا إلى حضوري في يناير من السنة نفسها وربطوا ذلك- حسب ظنهم- مع التصريح الذي قالوا إنّه ظهر بسرعة وأنّ الجرائد الإنجليزية نشرته صباح الحادث مباشرة أيّ نحو

السادسة صباحاً في الوقت الذي لم يظهر فيه الخبر إلا في المساء الفائت. ولما شرحت له الحقيقة وأتني لم أتحذث آنذاك إلا في مواضيع محددة وبحضور السيد جمال نفسه ثمّ قابلني نجيب بعد ذلك في منزله بحضور الدرديري والدكتور عزام والسفير أمين ولم أقابله بعد ذلك إلا في المكتب مودعاً ولم أنتظر معه لحظة وكان معه السيد جمال أيضاً.

لما علم صلاح هذه التفاصيل وأطلعت على ما كان مدوناً في مذكرتي قال إنه آسف لأنّه هو الذي استنتج كل هذا واقتنع به وأقنع الرئيس جمال وزملاءه وقال في صراحة إنهم لا يكادون يتصورون شيئاً اسمه خضر حمد.

ثمّ انتقلنا إلى الحديث عن خلافهم وقلت له كل ما أعلم واستعرضت معه أسباب الخلاف والعلاج الذي يمكن أن تهدأ به الأحوال وأنّ تسير الثورة في طريقها لإصلاح ما فسد واتفقتنا على نقاط محددة.

ثمّ ذهبت إلى اللواء نجيب ونجيب يقول إنه لا يريد أكثر من حقوقه كرئيس جمهورية وكرئيس لقيادة الثورة وقال إنه لا يرضى لنفسه أن يصبح كمّاً مهماً وأشار إلى كثير من التصرفات التي قصد بها المساس به وأشار إلى المنشورات وإلى رحلته إلى الإسكندرية وكيف أنّ المديرين لم يستقبلوه وإلى مجيء بعض أعضاء المجلس إلى الحفلات متأخرين أو يخرجوا قبل انصرافه الشيء الذي لا يقره أيّ عرف أو تقليد. وقد ذكرته بوعده أنّه مستعد للتضحية بحياته إذا كان في موته حياة لمصر والسودان وقد قيل فعلاً ما اتفقنا عليه أنا وصلاح كما أكد أنّه لا يريد أكثر من حقوقه التي تحفظ كرامته.

خرجت من عند اللواء نجيب وتركت في زيارته المرحوم محمد إبراهيم فرح ناظر الجميلين الذي كان شديد الاهتمام بموضوع الوفاق بين رجال الثورة.

ذهبت من هناك وقابلت في المساء الرئيس أزهوري بمنزل السيد إبراهيم المفتي بمنشية البكري وأطلعت على ما دار وذكرت لسيادته أنّ الجوّ مهياً لعلمي أنّه والمرضي والشيخ علي سيتحدثون في الغد في هذا الموضوع وتركهم وقمت للسودان.

لقد ذكرت هذه الحوادث لأربط بينها وبين التمثيلية التي أخرجت يوم فشل المفاوضات وبُنيت في الظاهر على أمر لا قيمة ولا علاقة له بالمفاوضات وأنّ الأسباب الحقيقية هي شيء غير ذلك تماماً.

علاقتي بأريتريا

بعد عودتي من أديس أبابا من الزيارة الرسمية رأيت أن أقضي أياماً من رمضان في أريتريا بسبب برودة الجو هناك ولأنني مصاب بحصوة الكلى التي يثيرها العطش والحر.

ذهبت إلى أريتريا في 4 مايو سنة 1955م وكانت تلك أول زيارتي لها ثم تكرر ذهابي إلى هناك وأخذ طابعاً آخر غير طابع الاستشفاء.

لقد تعرفت بإخوان مجاهدين هناك كانوا يعملون في ظروف قاسية ويحيط بهم التعصب الديني في كل مكان وكانت بوادر ضمّ أريتريا إلى الحبشة قد ظهرت رغم قرار هيئة الأمم بقيام اتحاد بين أثيوبيا وأريتريا وكان التغوّل الأثيوبي على أريتريا ظاهراً ولم تنفذ الأسس التي وضعتها هيئة الأمم لمستقبل العلاقة بين أثيوبيا وأريتريا. كانت هناك حركة يقوم بها الشباب في أسمرأ وكرن ومصوع وكانت حركة غير منظّمة بسبب الخلافات التي كانت قائمة قبل قرار هيئة الأمم فهناك الرابطة الإسلامية التي كانت تدعو إلى الاستقلال وتحوّلت أخيراً إلى أن تدعو لوصاية إيطاليا لمدة عشر سنوات وهناك جماعة تدعو إلى وصاية الإنجليز وأخرى تدعو إلى الاتحاد مع أثيوبيا وجماعة تدعو إلى ضمّ أرتريا إلى السودان وذلك بتشجيع من الإنجليز ثمّ جماعة أخرى تدعو إلى التقسيم ووصاية الإنجليز.

كان لاختلاف وجهات النظر هذه أثرها في عدم بلورة النشاط الأخير وكان سوء الظنّ الذي تمكّن من كلّ هيئة ضد الأخرى له أيضاً أثره في بعد الشقة بين أنصار تلك الاتجاهات فيما بعد.

عرفت الجماعات المختلفة وهذا هو السبب في ترددي فيما بعد على أريتريا وعملت مع أشخاص كثيرين بعضهم ما زال في الخارج وبعضهم أثر السلامة وتعاون مع الحكم القائم ورضي بالحياة داخل أريتريا بما فيها من متناقضات.

كنت أحس بالتعصب الديني وكانت أبواب الوظائف الحكومية مغلقة أمام المتعلمين من شباب المسلمين وقد عرفت شاباً نال تعليمه في لبنان وحصل على شهادة علمية محترمة ولكنه يعمل كاتباً في مستشفى أسمرأ.

اتصلت بنائب الملك وبالحاكم وبالجمعية أو المجلس التشريعي وتعرّفت على رئيسه وبعض أعضائه وزرت كرن ومصوع وعرفت فيهما بعض المجاهدين.

وكانت الصلات تتطوّر من عام لآخر وكان هؤلاء الأخوة الأريثريون يتصلون بي في مصر وغير مصر على أساس إنني أعرف الكثير عن قضيتهم وأستطيع تقديم بعض ما يمكن تقديمه من مساعدات.

ولست أريد أن أفصح عن كلّ شيء لأنّ حركة أريثريا ما زالت سائرة وما زلت أرجو لأولئك الذين لاقوا من الشدة والتشريد أن تكلل مساعيهم بالنجاح وأن يعودوا إلى بلادهم تدفعهم نشوة الظفر والوصول إلى حريتهم.

ومن طرائف حوادث هذه الحركة التي كنت أعطف عليها وأثق في بعض قادتها أنّ جاءني أحدهم وكان في مركز محترم يرجوني أن أحدّد له موعداً على أن أكون وحدي وفعلاً حدّدت له الموعد واستطعت أن أتخلص من زملائي الذين كانوا معي وأعود إلى حيث كنت أنزل في انتظار وصوله.

وأخيراً جاء وجاء معه لدهشتي شاب كان معروفاً عندي أنّه يريد الوصول إلى مركز في أديس أبابا ويحاول بكلّ الطرق أن يكسب ثقة وعطف المسؤولين الكبار ولذلك فهو يلتقط الأخبار ويرفهاها إلى من يهمهم الأمر. وكنا إذا ما جاءنا في مكان من الممكنة التي نجتمع فيها نغيّر اتجاه الحديث ونخوض في مواضيع لا تتعلق بأيّ عمل جاد.

وبدا صديقي الحديث في المشكلة وكيف تغولت أثيوبيا عليهم وكيف أنّ الوظائف الكبيرة لا تشغل إلّا بأثيوبيين وأنّ قرار هيئة الأمم أصبح حبراً على ورق وأنّ ضمّ أريثريا إلى أثيوبيا أصبح وشيكاً وكان يسألني أن أشركهم بالرأي وأن أنصح لهم بما يجب عمله وكان ينتظر منّي تشجيعاً على الثورة التي كانت حديثهم آنذاك ولكنّي قلت لهما إنّ الرأي عندي أن يذهب وفد منكم إلى جلاله الإمبراطور في أديس أبابا وتشرحو له كل هذه المخاوف وتسألوه العطف والرعاية ولا شكّ عندي في أنّه هو الرجل الكبير المحنّك العطوف أن يولي قضيتكم اهتمامه ولا أنصحكم بعمل شيء أبداً قبل مقابلة جلاله الإمبراطور فإنّ أيّ عمل آخر لا يجدي ثمّ حولت الحديث إلى مواضيع أخرى إلى أن انتهت الزيارة.

وفي اليوم الثاني اتصلت بأصدقائي وأخبرتهم أنّ فلاناً جاءني بالأمس وكان معه فلان وتحدث في كذا وكذا وإذا بهم جميعاً يسألونني في قلق وماذا قلت لهما؟ فقلت

إني قلت لهما ما يجب أن يقال في مثل هذه الظروف وقصصت عليهم نصيحتي فأطمأن بالهم ولكنهم عجبوا من أن الصديق المجاهد كيف لا يعرف فلاناً.

ومرّت الأيام وإذا بالصديق المجاهد يفارق وطنه مُشرداً يعمل لقضية اريتريا بعد أن كان في منصب مرموق أمّا ذلك الشاب فقد وصل إلى السلك الدبلوماسي وأصبح سفيراً لحكومة جلاله الإمبراطور.

إنّ قضية اريتريا قضية ذات أهمية ويجب أن يوليها كلُّ حر اهتمامه وسنده لأنها قضية قوم يعانون من نتائج التعصّب القبلي والديني وتضيع حقوقهم وحريتهم في وضوح النهار وعلى مسمع ومرأى من هيئة الأمم التي جعلت للاريتريين كلّ الحقوق في بلادهم وأن يتولوا شئون أنفسهم بأنفسهم ولكنهم وحسب منطق القوة أصبحوا أغراباً في بلادهم يتخطفهم التعصّب وتستغل بلادهم أمريكا هدية من أثيوبيا.

إنني أعرف الكثير ممّا يقال عن جهاد الاريتريين ووطنيتهم ولكن ليس كلُّ ما يعرف يقال فلم يأت الأوان بعد للحديث وتمجيد العاملين وكشف أسمائهم يضر بالقضية أكثر ممّا ينفعها.

لقد قابلت في مصر بعض هؤلاء الذين عرفتهم في اريتريا والذين ما زالوا يعانون شظف العيش لأنّهم يكرهون الذل ويحاربون العبودية وقد أصابتهم الأمراض وضمرت أجسامهم بعد أن كانوا يعيشون في بحبوحة العيش الذين استبدلوا أهلهم بأهل لأنّهم لم يطبقوا العيش وهم غرباء في بلادهم وفيهم أولئك الذين طوردوا وضربوا بالرصاص مرّات ومرّات لغرض القضاء عليهم ولكن أراد الله لهم الحياة ليناضلوا وأرجو أن يسعدوا يوماً بحرية بلادهم ويعودوا إليها وهم أسعد حالاً وأوفر صحة. إنني لا أملك إلا أن أحيي أولئك الذين يجوبون البلاد للدعوة لقضية بلادهم وأولئك الذين ضمّتهم السجون في اريتريا وأخيراً الشهداء الذين وهبوا حياتهم لتسعد أمّتهم.

في أول زيارتي لأسمرأ كنت حريصاً على أن أزور قبر المرحوم الحاج محمد أحمد سرور وما أن أبديت هذه الرغبة حتّى بدأت أسمع الكثير عن أثر سرور في أسمرأ وما أضفاه سرور على السودان من سمعه طيبة ودعاية واسعة لسماحة خلقه ولطيب نفسه ولمرحه الذي ينشره في كل مجتمّع يعيش فيه.

هذا إلى جانب أغانيه التي انتشرت في كل أسمرأ والتي أصبح يرددها الكبير والصغير وعرف السودان لأنّ سرور من السودان. وعندما مات سرور بكته اريتريا كلها

وأقيمت عليه المآتم في أمكنة متعدّدة وكان كلُّ من عرف سرور يشعر بأنّه أولى الناس بالبكاء عليه وإقامة ليالي المآتم لذكراه.

سمعت الكثير عن سرور من السودانيين ومن الأريتريين على حدّ سواء وكنت أعرف أصدقاء من آل أبرة وغيرهم.

ذهبت في رفقة الأخ بكري جعفر وقد كان وما زال من أبرز السودانيين وأغزرهم فهماً وخبرة. ذهبت معه إلى المقابر وكم كانت خيبة أملنا عظيمة عندما لم نهتد لقبر سرور. نعم لم نعرفه بين تلك القبور العديدة المتهمة فقرأنا الفاتحة وترحمنا عليه ثمّ عدنا لنستجدّ بآخرين وجئنا للمرة الثانية ومعنا آخرون فحمنا من حول المكان واستطاعوا أن يُحدّدوا المنطقة ثمّ وجدنا قبوراً ثلاثة أكّد لنا أحد الحاضرين أنّ قبر سرور أحدها ولما رجعنا إلى المدينة وجدنا السيد/ سيد هاشم الذي كان خبيراً بموضع القبر فأشار إلى تلك المقابر الثلاثة هي مقابر محمود مشي وزمليه وإلى جوارهم قبر طفل وقبر المرحوم سرور في المكان المنحدر الذي إلى جوار تلك القبور. وذهب معنا ودلّنا على قبر المرحوم سرور الذي كاد أن يندثر وتزول معالمه وفي تلك اللحظة قرّرت أن يُبنى القبر بناء مناسباً على حسابي الخاص وكلفت السيد صادق محمد مصطفى وكيل حكومة السودان آنذاك ليقوم بالمهمة نيابة عنيّ ومرةً عام ثمّ عدت إلى أسمرأ لأجد القبر كما تركته لم تُمكن الأخ صادق ظروفه من أن يفعل شيئاً فاتفقت مع أحد الايطاليين ليقوم بعملية البناء وتركنا فراغاً ليوضع عليه رخامات رسم على الأولى آله موسيقية وعلى الثانية اسم المرحوم وعلى الثالثة أبيات من الشعر نظمها خصيصاً الشاعر الكبير محمد عبد القادر كرف وكل ما كتب كان بخطه أيضاً ثمّ قام بحفرها المرحوم محمد عبد الماجد(زقل) فخرجت أية في الإبداع من حيث الشعر والخطّ والحفر ثمّ حُمِلت بالطائرة إلى أسمرأ حيث وضعت في المكان المخصّص لها من القبر.

وبذلك استطعنا أن نردّ بعض الجميل لهذا الفنان الكبير الذي أسعد الناس بفنه لا في السودان وحده ولكن خارجه أيضاً وكان سرور - وحده - دعاية طيبة للسودان وللسوداني النبيل في خلقه ومعاملاته وشجاعته ومرحه وبشاشته.

وأذكر أننا كنّا مرةً في مصر وكان النادي السوداني بميدان سليمان باشا قائماً وأراد المرحوم أن يرفّه عن أعضاء النادي فعنّى لهم في مجموعة محدودة وقاصرة على

أعضاء النادي وكان ضمن الحاضرين أحد الألمان وكان يستمع لسرور بكل حواسه ولما انتهى من إحدى وصلاته طلب أن يقابله ثم سأل عن اسطواناته وهل تباع في مصر وأبدى حرصاً شديداً للحصول عليها وقال بالرغم من أنه لم يفهم ما يقال ولكن هذا الصوت جدير بأن نقدر قيمته فهو كنز.

رحم الله سرور فقد كان مغنياً وكان مطرباً وكان فتى فتيان له في كل مجتمع مكانة مرموقة لم أره عابثاً أو عابساً ولكنه دائماً مرحاً يكاد يطير رقة وخفة روح. رحمه الله فقد كان بحق عميد فن الغناء السوداني.

تصفيات في الحزب

عقب عودتنا من احتفالات يوليو سنة 1955م في مصر وما حدث فيها ممّا له علاقة بالحزب رأينا أن نُنظّم صفوفنا بعض الشيء وأن نضع حداً للبلبلّة التي خلقها المرحوم نور الدين تسانده المغريات الخارجية ورحلة القاهرة.

دعونا إلى اجتماع عام لهيئة الحزب وكان لهذا الاجتماع أهمية بالغة لأنّ المرحوم نور الدين كان قد ادعى أنّ هيئة الحزب معه وأنّ الاجتماع الذي عقده في منزله حضره 188 عضواً واستناداً عليهم قرّر فصل السيد إسماعيل الأزهري وكلاً من خضر حمد ومبارك ويحيى والمرضي وطار الخبر إلى مصر وأخبرنا المرحوم صلاح سالم أنّه أعطى ذلك الخبر كلّ اهتمامه وفتح له أبواب الدعاية كلها من صحافة إلى إذاعة وبالغ في نشره.

لهذا حرصنا على دعوة الهيئة ما عدا نور الدين والطيب محمد خير الذين سبق أنّ فصلهما الرئيس وكان عدد الهيئة بعد إبعاد الذين توافهم الله والذين خرجوا قبلاً مع السيد ميرغني حمزة 262 عضواً منهم 20 كانوا خارج العاصمة و8 أعضاء اعتذروا لظروف خاصة وحضر الاجتماع 174 عضواً فإذا اعتبرنا كلّ من تخلف من أنصار نور الدين يكون عددهم 60 عضواً فقط.

وزعت كروت لكلّ الأعضاء ومنع الدخول إلى الدار إلّا لمن يُقدّم بطاقة الدعوة وحرصنا أيضاً على عدد الحاضرين ومقارنة العدد بالبطاقات التي استلمت.

كان الاجتماع حماسياً وصدرت جميع القرارات بالإجماع فأيد الاجتماع فصل السيد نور الدين وسكربتيره وأيد الاجتماع استقلال السودان التام. كانت هناك محاولات من بعض الكوادر لإغراء بعض الأعضاء وعرض علي البعض مبالغ مغرية من المال ولكنها باءت بالفشل.

كان ذلك الاجتماع في يوم الجمعة 26 أغسطس سنة 1955م ومن هذا الاجتماع وحضور بعض الغائبين بالمناوأة - ولو أنهم لم يعلنوا الخروج على الحزب من هذا الاجتماع - بدأت المناوشات تسفر رويداً ولكنها في داخل الحزب لأنها لم تصل إلى الحد الذي تعلن فيها خروجها عليه ولم تتجه بعد إلى إنشاء كيان قائم بذاته وما زال الأمل معقوداً على السيطرة على الحزب.

كان بداية المناوشات أن جاء يوم إلى مجلس الوزراء عدد من إخواننا الكوادر وهم في ثورة شديدة ارتفع صوتهم حتى وصل الطابق الثاني فنزلنا إليهم وهدأنا من تأثيرتهم ووعدناهم بدرس ما يشكون منه.

كانت الشكوى من السيدين يحيى الفضلي وبابكر قباني وزعم الثائرون أن هذين الزميلين يعملان لسقوط الشيخ يحيى عثمان في دوائر المجلس البلدي واتفقنا على أن نقعد اجتماعاً في منزل الدكتور أمين السيد وعقد الاجتماع وحضره ممثلو الثائرين كما حضره اثنان من خيرة رجال الختمية اتراناً ورجاحة عقل هما الشيخ حسين محمد ومحمد جبارة محمد خير.

استمعنا إلى الشكوى وتمخضت عن لا شيء لأنها بُنيت أساساً على الظنون وختم الحديث العم الخليفة حسين محمد بأنه منع بابكر من أن يذهب إلى حي الكوادر حتى إذا كان هناك عزاء وانتهى الأمر بسلام.

ومرّت أيام وما زالت الشكوى تتردد ولكنها كانت أشبه بالدعاية لأن الذين يرددونها لا يستطيعون تأييدها وضّم إلى هذين الزميلين المرحوم الشيخ محمد أحمد المرضي وأصبح هو أيضاً من المغضوب عليهم.

وارتفع مستوى الشكوى إلى أن وصلت رئاسة الختمية وتحذّت القيادة بل الحقيقة طلب السيد الرئيس أن يلتقي بالقيادة وأن يعرف ما هو المطلوب ولم تفصح لقيادة بشئ وقالت أخيراً إن الختمية غاضبون على بعض كبار الحزب وفهم الرئيس أن إرضاء الختمية لا يتم إلا بإبعاد هؤلاء فسكت الرئيس إلى حين لأنه أحس بأن حتى هذا إذا

أحيب فلن ينتهي الحديث أو تسكت الشكوى.
وأخذت تتردد في أوساط ختمية أن الرئيس ما عاد يستجيب لرغبات قيادتهم.
وقد زاد الطين بلة كما يقولون إننا بدأنا نتحدث عن الحرية والتحرر وعن تقوية
الجمعيات التعاونية وعن تأميم المشاريع وعن أحقية الفلاح بالأرض التي يفلحها.
سيكون لهذا الحديث بقية تأتي في وقتها ولننتقل الآن إلى المحاولات التمهيدية
لإعلان الاستقلال.

زيارة مصر

دُعيت والسادة مبارك زروق وإبراهيم المفتي لحضور معرض تشيكوسلوفاكيا
الصناعي وكثنا في حاجة إلى آلات لحفر التربة الموصلة من كيلو 57 إلى امتداد
المناقل وهي العملية التي قام بها الري.

وفي عودتنا من هناك مررت والأخ المرحوم زروق على مصر في 16/10/1955م
وكان الصاغ صلاح سالم قد أبعد عن الوزارة واستقر في منزله داخل الجيش بالعباسية.
فأريانا من الوفاء لرجل قدّم الكثير للسودان أن نزوره متمنين له الخير.

ذهبنا إليه واستقبلنا استقبالاً كريماً وكان مسروراً ومقدراً لهذه الزيارة وتحدث
كثيراً واستعرض الأحداث الماضية وذكر كيف أنه كان مُضلاً وأن كثيراً من المعلومات
كانت تصله بطريقة قصد منها أن يتصرف تصرفاً غير مناسب. وذكر على سبيل المثال
اجتماع نور الدين في الخرطوم وكيف إنه قرّر فصلنا وكيف وصله الخبر في القاهرة
وأكد له إن هيئة الحزب مع نور الدين فقام هو بدوره بإجراءات سريعة وأعطى أوامره
إلى جميع أدوات النشر لتعطي الخبر عناية خاصة ثم قال ولما تمّ اجتماعكم وعرفت
الحقيقة كان موقفي لا أحسد عليه.

وأشار إلى الاتجاه نحو الاستقلال وكيف كانت تصله الأخبار المفرضة عنه ومن
أناس مسؤولين كان يعتمد عليهم ولذلك وضع جملة على نور الدين وظن أنه المخرج
الوحيد وإذا بصالح حرب باشا ونقيب الصحفيين المصريين والصحافي اللبناني جبران
حايك يتفقون على عكس ما كنت أفهم.

أما الطامة الكبرى فقد كانت يوم حدث التمرد وجاءني السيد ريس العاديس صالح وكان في حالة إعياء وألم وقال لي إن البلد ستضع وإن علمكم هذا لم يعد إلا حرفه وأن السودان ومصر في خطر ولا بد من التدخل وقد تأثرت غابة النأثر بالطريقة التي كان يتحدث بها والإشفاق الذي كان بادياً في حديثه وفمت لساعتي ونحدثت مع الرئيس جمال عبد الناصر واقترحت عليه كتابة مذكرة للسفير البريطاني نطلب فيها تدخل الجيشين المصري والإنجليزي لقمع التمرد وكتبت المذكرة وحملتها إلى الرئيس ثم أخذتها بنفسى إلى السفير.

وكم كنت محرجاً عندما رد الحاكم العام وقال إن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من قوة دفاع السودان وهي قادرة على قمع التمرد ولا داعي لدخول الجيوش البريطانية أو المصرية. وقال تصوروا أننا نحن الذين نطلب عودة الجيوش البريطانية للسودان. وجرنا الحديث إلى شؤون السودان وقرب اتخاذ الإجراءات لتقرير المصير والتصريحات التي صدرت من الإنجليز بأنهم يوافقون على ما تتفق عليه كلمة السودانيين والشعب جميعه يتجه نحو مصر ويريد أن يعرف رأيها. وكنا على موعد مع السادة زكريا محي الدين وعبد الفتاح حسن لأن شؤون السودان ألت إلى السيد زكريا محي الدين.

لم يرض علينا المرحوم صلاح بتوجيهاته التي كانت قيمة وقال لنا في ذلك اليوم إنّه مؤمن تمام الإيمان أن الحزب الوطني الاتحادي هو الحزب الذي يتعاون معه الإنسان وهو مطمئن وأثنى على الحزب ورجاله وما لاقاه منهم من تعاون وما لمسه من إخلاص.

خرجنا من عند الصاغ صلاح سالم لتقابل مساء نفس اليوم السادة زكريا محي الدين وعبد الفتاح حسن وكان كلامنا معهما منصّباً على موقف مصر الجامد من حيث سياستها نحو السودان وأن مصر لم تفعل شيئاً إلى الآن لا في قرار البرلمان الخاص باللجنة الدولية ولا في قرار الاستفتاء بينما قال الإنجليز إن مصر هي المتباطئة وقالوا إن إنجلترا هي التي تأخرت في إبداء الرأي.

وقلنا لهم في صراحة إنهم إذا أبطأوا في الردّ فإننا لا نتوقع أن يسكت البرلمان عندما يفتح ولا بد له من أن يصدر قراراً ما في هذا الصدد.

ودهبنا إلى أبعد من ذلك وقلنا إن القرار سيكون الاستقلال التام وكنا نرى أنّه

من الخير لنا ولكم أن تعلن مصر أيضاً موافقتها وتأييدها لما يتفق عليه السودانيون فانتقلوا من هذا إلى كيف سيكون موقف الحاكم العام فقلنا إننا إذا ما قرّرنا إعلان الاستقلال فسنعرف كيف نتصرّف فيما يخصّ الحاكم العام.

وافترقنا على وعد منهما أن مصر ستعلن رأيها قبل انعقاد البرلمان ووضح لنا أنهم يخشون الرأي العام ويريدون أن نعلن نحن رأينا وبعد ذلك يوافقون عليه على أنّه رغبة السودانييين وهم ملزمون بالموافقة عليها.

الحكومة القومية وسقوط الحكومة

بدأت الصحافة تكتب وتؤيدها المعارضة ويقف إلى جانب هذين بعض النواب يقولون إن الظروف التي ستمرّ بها البلد وتقرير المصير يستوجب كل ذلك قيام حكومة قومية تشترك فيها جميع الأحزاب وتحمل مجتمعة الأعباء القادمة.

وكثّا في الوطني الاتحادي نرفض هذه الرغبة ورفضنا قائم على أساس أن الحكومة القومية ستتنصرف إلى مشاكل جانبية وإلى مكاسب حزبية ولن يتحقق الاستقلال في الوقت الذي حدّدناه لإعلانه. كان موقفنا هذا واضحاً ومع مرور الأيام هدأت الكتابات ولكن انتقل العمل في الخفاء بعضه يرمي إلى الخلاص من هذه الحكومة وبدأ النواب يتسربون من الحزب نواب شرق السودان ونواب مع نور الدين ونواب داخل الحزب يتدمرون في الخفاء ومحاولات من الخارج لتحويل بعض النواب ومساومات بالمال لبعض النواب ناشفي الرؤوس.

كان كل ذلك يصلنا بل وصل الحد إلى التهديد بالقتل وجاءنا يوماً ما مدير البوليس ليقول إنّه تلقى رسالة تقول إنّ بعض القتلة والمجرمين دخلوا السودان كجنود وهؤلاء ربما استغلوا حركة التمرد ولذلك أرسلت إلى منازلنا حراسة من البوليس وبعد إلحاح منّا سحبت الحراسة بالنهار وبقيت الليل.

إن المصالب يجمعون المصائبنا

قوة الوطني الاتحادي وإصراره على إعلان الاستقلال حركَ جانباً ثم الأفكار التي بدأت تظهر والنوايا التي أعلنها بعض الوزراء والنواب حركت جانباً آخر ولذلك بدأت هذه الجوانب وأقول جوانب لأنها ثلاثة حركت هذه ونمت الخصومة للوطني الاتحادي. ولعلّه جاء الوحي من مكان ما بل جاء الوحي فعلاً يتعاون الجهات المختلفة وعلى رأي المثل (عدو عدوك صديقك) وكان لكبار الختمية الذين أشرت إليهم فيما سبق يد في تقريب وجهات النظر والتأليف بين الخصوم.

وفي يوم الخميس 10 نوفمبر سنة 1955م تمت المؤامرة وأسقطت حكومة الأزهري وذلك عند عرض الميزانية. فقد رفضوا مناقشة الميزانية للقراءة الثانية وأعتبر ذلك بمثابة صوت بعدم الثقة وكانت نتيجة التصويت 49 صوتاً للمعارضة و45 صوتاً للحكومة والسبب في هذه النتيجة هو أنّ محمد جبارة العوض وحسن محمد زكي وعبد النبي عبد القادر ويوسف عبد الحميد وهم من نواب الوطني الاتحادي ووكلاء برلمانيين صوتوا ضد الحكومة وقالوا إنهم يؤيدون الحكومة القومية مع أنّها عُرِضت على هيئة الحزب البرلمانية ونوقشت ولم توافق عليها الهيئة وصوت ضد الحكومة أيضاً أبو فاطمة باكاش ومحمد محمود وكانا من نواب الوطني الاتحادي.

انفضّ البرلمان في الحال وذهبنا إلى رئاسة مجلس الوزراء وكتب السيد الرئيس استقالته وأرسلها إلى الحاكم العام الذي قبلها في المساء.

لم يكن الأمر غريباً علينا فقد كنّا على علم بجميع جوانب المؤامرة كباراً وصغاراً ومثقفين.

وبعد الاستقالة وفي المساء عندما علّم الناس بالخبر عند إذاعته اجتاح الناس وجوم شديد ثمّ بدأ الغضب يتفجّر وجاءت الجموع الحاشدة تقفل علينا الطريق إلى دار النادي وتهتف للحكومة الوطنية وللأزهري. عمّ هذا الشعور كلّ السودان وبدأت الأقاليم تتصل مستفسرة وثائرة.

وأصدرت الحكومة عقب استقالتها بياناً للشعب عن الاستقالة وعن تمسّكها واحترامها للنظم الدستورية وعن تمنياتها للحكومة القادمة التي رجونا لها أن تتمسّك

بالمكاسب التي وصل إليها السودان.

ومرَّ يوم الجمعة 11 نوفمبر في هدوء من حيث النشاط الحزبي ولو أنَّ الثورة الشعبية كانت تزداد قوة في العاصمة والأقاليم وخرجت مظاهرات بعد صلاة الجمعة تهتف للحكومة ولأزهري وتهتف أيضاً ضد المتآمرين وضد المرتشين.

وفي المساء اجتمعت الهيئة البرلمانية للحزب وأقرَّت أول ما أقرَّت عدم الاشتراك في أيِّ حكومة قومية أو ائتلافية لأنَّ ذلك يتنافى مع النظم الديمقراطية والدستورية ولأنَّه ليس من مصلحة البلد سلوك هذا المسلك الشاذ ما دامت هناك مجموعة نالت تأييد البرلمان وثقته فلها وحدها حق الحكم. هذا من جهة ومن جهة أخرى ليس من المصلحة في شيء ألا تكون هناك معارضة.

وتحدَّث الوزراء شارحين الخطوات التي خطتها الحكومة عند الاستقالة كما تحدَّث كلُّ النواب مؤيدين الرئيس ومجددين ولاءهم للشعب ومعلنين تمسُّكهم بحرية السودان واستقلاله وسيادته.

وهنا يجدر بي أنَّ أُرِد على الشائعات التي أطلقها المرجفون فادعوا أنَّ هتافات صدرت ضد قيادة الختمية وأنَّ صوراً حطمت والحقيقة إنَّه لم يحدث مطلقاً شيء من هذا ولم تكن للسيد علي الميرغني صورة في النادي وكان الاجتماع يحضره عدد كبير جداً من كبار الختمية وسمعوا كل ما قيل ولم تكن فيه كلمة واحدة تمس من قريب أو بعيد أيَّ شخصية محترمة.

وفي يوم السبت 12 نوفمبر 1955م ونحن بمنزل السيد الرئيس أخبرني سيادته إنَّ سيادة السيد علي الميرغني أرسل اليوم عن طريق الخليفة حسين محمد مبلغ ألف جنيه ليستعين بها الحزب في مهامه وقد ردونا بالشكر على هذه اللفته الكريمة. وقبل صلاة المغرب جاء وفد مكوَّن من السادة محمد حمد أبو سن ومحمد حلمي أب سن والسيد إدريس الإدريسي والسيد عثمان مصطفى صالح أورتشي. جاء هذا الوفد من قبل سيادة السيد علي الميرغني ورسالتهم هي:-

إنَّ السيد عندما رأى أنَّه من مصلحة البلد الاستفتاء أشار به وقد وافقتم عليه في البرلمان مشكورين وهو يرى الآن أنَّ قيام حكومة قومية من مصلحة البلد في الفترة القادمة وعلى ذلك طلب منكم درسها والعمل على الاشتراك فيها.

وهنا سألهم السيد الرئيس هل هذا التفكير نشأ عند السيد بعد سقوط الحكومة

أم أنه قديم ثم أعقب قائلاً إنني سألت هذا السؤال لأنني لا أنا ولا أحد إخواني هؤلاء سمع عن رغبة السيد هذه مباشرة ولا عن طريق غير مباشر ولذلك لما عرضت فكرة الحكومة القومية ناقشتها الهيئة البرلمانية ورفضتها. ولكن ما دامت هذه هي رغبة السيد فأعدكم أن أجمع إخواني النواب ونتدارس الأمر على ضوء هذه الرغبة ونرجو أن نصل إلى ما يرضي السيد وتكون فيه مصلحة البلاد.

طلب الوفد أن تحدّد له موعداً يقابلنا فيه ليعرف النتيجة فطلب منهم السيد الرئيس مهلة يومين على الأكثر وانفضّ الاجتماع.

وفي يوم الاثنين 14 نوفمبر سنة 1955م كنّا على موعد لأنّ نجتمع في منزل الزميل يحيى الفضلي بالخرطوم فإذا بي عندما ذهبت إلى هناك وجدت الأخ أحمد محمد يس فقال لي أذهب مباشرة إلى بحري لأنّ السيد يريد أن يجتمع بالوزراء. وذهبت إلى هناك وكان سيادة السيد علي في انتظارنا وبدأ سيادته الحديث وأبان لنا في وضوح أنّه لا يطلب قيام حكومة قومية وإنّ هذا ليس من شأنه وأنّ كل ما يريده هو أن يكون الحكم قومياً بمعنى أنّ الناس جميعاً أمام الحكومة وفي نظرها سواء وأنّه في بيانه الذي أصدره لم يقل بحكومة قومية.

وخرجنا من عند سيادته على أن نصدر بياناً نفسّر فيه بيان سيادته بأنّه لا يطالب بحكومة قومية ووافق على ذلك وذهبنا إلى منزل المرحوم مبارك زروق في بحري وأعدنا البيان للإذاعة وقبل أن يُذاع عرض على سيادته فوافق عليه.

وقبل أن ينتهي اليوم وفي العصر تماماً جاءنا الخبر برجوع الزملاء محمد جبارة العوض وحسن محمد زكي وعبد النبي عبد القادر إلى الحزب وبقي يوسف عبد الحميد.

وفي يوم الثلاثاء 15 نوفمبر سنة 1955م أُعيد انتخاب السيد الرئيس مرّة أخرى وقرّر أن يعود الوزراء جميعهم كما كانوا وكانت فرحة الشعب لا تعادلها فرحة وكسب الحزب بهذه الحركة مكسباً ضخماً ما كان يحصل لو صرف مئات الآلاف من الجنيئات على الدعاية.

ظننا أنّ الجو استقرّ إلى حدّ ما وحاولنا أن ننصرف إلى تصريف أعمالنا ولكن استمرّت طلبات إدخال بعض أفراد في لجنة الحزب تلاحقنا.

وفي يوم من الأيام جاءنا الشيخ علي عبد الرحمن والدكتور أمين السيد وأفصحا

عن رغبة السيد في الحكومة القومية من جديد ولم نرفض هذه الرغبة ولكننا كلّمنا السبدين علي وأميين أن يبحثا مع سيادة السيد الأسس التي يريد أن تقوم عليها الوزارة القومية والأغراض التي ستحققها وطريقة تكوينها.

وفي هذه الفترة أيضاً بدأت تصل إلى العاصمة وفود من الأقاليم بأمر من قيادة الختمية وكانت تُوجّه لمقابلة السيد محمد عثمان النجل الأكبر للسيد وكانت التوجيهات والتعليمات التي تعطى لتلك الوفود واضحة في أن الختمية يعملون على سحب تأييدهم للوطني الاتحادي وأن العمل يجب أن يقوم بعد ذلك على هذا الأساس إلى أن ترد إليهم تعليمات أخرى.

كان بعض هذه الوفود يُعزّج على الحزب وبعضهم يتحدث في صراحة ويقول كل ما سمع وبعضهم يتطلع الأخبار ويريد أن يعرف اتجاهنا نحو الختمية وكنت أحذّرهم في حذر وكثيراً ما كنت أشك في بعضهم وأخشى أن يكونوا من متسقطي الأخبار غير أن الأمر استمرّ وكانت معظم الوفود تذهب إلى بحري ثم تعود إلينا ووضح جلياً أن السيد محمد عثمان هو المكلف بهذه العملية لأن السيد الكبير ما كان يشير إليهم بأكثر من مقابلة السيد الصغير.

لقاء السبدين

لا أريد أن أتحدّث أو أتكلّم عن المحاولات التي بذلت لهذا اللقاء من جانب الحاقدين على الوطني الاتحادي ولو أنني أستطيع أن أقول إن المخاوف من الفد كان لها أثر في الإسراع بهذا اللقاء وقد كثر آنذاك الحديث عن الإقطاع والرأسمالية هذا جانب وجانب آخر هو أن أزهرى إذا ما حقق الاستقلال وبقي بعده في الحكم حتى يضع الدستور الدائم يبلغ من القوة ما لا يمكن معها صرعه أو مضارعه.

كنّا نتوقّع أن نكون على علم بهذه الخطوة أو أن يكون الرئيس على الأقل على علم بها ما دامت ترمي إلى ضم الصفوف وإلى توحيد كلمة المسلمين وإلى نسيان خلاف شارف على نصف قرن ولا داعي له. ولكن لم يحدث هذا من الجانب الذي كان إلى تلك اللحظة متعاوناً معنا بل اتصل سيادة السيد عبد الرحمن المهدي بالسيد الرئيس

وأبلغه ما حدث من مقدمات وكيف تمّ اللقاء.

وفي يوم 1955/12/1م كان سيادة السيد علي الميرغني في انتظار زيارة السيد عبد الرحمن وكان مع السيد علي كل من السادة عمر إسحق- التجاني حسن خليفة- إبراهيم سوار الذهب.

وجاء سيادة الإمام عبد الرحمن المهدي وفي رفقته نجله السيد الصديق المهدي والسيد محمد خليفة شريف والسيد عبد الله الفاضل المهدي ومكث الاجتماع من السابعة إلى الثامنة.

ثمّ قام سيادة السيد علي الميرغني بزيارة للإمام عبد الرحمن المهدي وكان يصحب السيد علي عدا خاصته الذين سبق ذكرهم بعض كبار الختمية كالخليفة يحيى الكوارتي وإدريس النصري والخليفة أبرسي من عطبرة.

تمّ اللقاء وقابله الناس بمختلف الشعور بعضهم بالسرور والتأييد وبعضهم بالحدّر وبعضهم بالدهشة.

وفي يوم الأحد 1955/12/4م كنّا في اجتماع لمجلس الوزراء وبعد انتهاء جدول الأعمال حدثنا السيدان علي عبد الرحمن والدكتور أمين السيد أنّ السيد كلّفهما ليبلغانا أنّ الاجتماع الذي تمّ واللقاء الذي حدث ليس له أيّ معنى سياسي وإنّما هو محاولة لحسم هذا الخلاف الذي طال أمده خصوصاً وأنّ البلاد مقبلة على تقرير مصيرها ولا بدّ من تهيئة الجو المناسب فشكرنا السيد وشكرناهما.

خرجنا من مجلس الوزراء بعد الساعة الثالثة وكنّا على موعد مع الهيئة البرلمانية لنجتمع في منزل المرحوم مبارك زروق في الخرطوم بحري في الساعة السادسة مساءً لنعرف مدى ما وصل إليه السيدان علي عبد الرحمن والدكتور أمين من حيث مشاوراتهما مع السيد علي بشأن الوزارة القومية.

اعتاد السيد مبارك أنّ يشتري جميع الجرائد عند الظهر ويذهب بها إلى المنزل وعند الاجتماع وقبل البدء في سرد ما تمّ تناولنا جريدة السودان الجديد على ما أذكر ووجدت فيها البيان الآتي:-

السيدان يهيبان بالانحزاب أن تلتقي في وزارة قومية

أصدر السيدان الجليلان هذا البيان في الساعة الثالثة ظهر أمس وقد علمنا أنَّ السَيدَين قد كَلَّفَا السَيدَين الدرديري محمد عثمان والسَيدَ صديق المهدي بإعداده ولما أُعد في صباح أمس حملة السيد الدرديري إلى السيد علي لتوقيعه والسَيدَ صديق إلى السيد عبد الرحمن لتوقيعه... ولَمَّا أَقْرَهُ السَيدان وَقَّعاه وبعثا به إلى النشر. «الآن وقد شاء الله فتحقق الأمل العظيم الذي ظَلَّتْ تشده البلاد منذ أمد فالتقينا ابتغاء مرضاة الله والوطن فيسرنا أن نعلن عزمنا على الوقوف متكاتفين في كلِّ ما يعود على الأمة السودانية الكريمة بالخير والسعادة والحرية والسيادة الكاملة وأتينا إذ نحرص على أن تجتاز البلاد هذه المرحلة الدقيقة بطمأنينة وسلام إلى مصيرها العظيم المأمول نهيب بالمواطنين جميعاً أن ينسوا ذواتهم في سبيل خدمة وطنهم العزيز وتحقيق أمانيه الكبرى حتَّى يتوفر الاستقرار والطمأنينة الضروريتان في هذا الظرف العصيب ونرجو أن يهيباً بذلك الجو الملائم لتعاون جميع أحبابنا ومؤيدينا على البر والتقوى والخير العام كما نأمل أن يمكن التقاء جميع الأحزاب في الحال ونستطيع إنقاذ البلاد من كلِّ خطر متوقع. والله المستعان والموفق لما فيه الخير والصواب..»

علي العيرغني — عبد الرحمن المهدي

هكذا تمَّ لقاء السَيدَين وسيأتي الحديث عن الفترة التي تلت هذا اللقاء والعراك الذي لم يوقفه إلا إعلان الاستقلال من داخل البرلمان هذا من حيث تأمين استقلال البلاد والحفاظ على المكاسب أمَّا العراك على السلطة فقد استمرَّ حتَّى بعد إعلان الاستقلال وقيام الحكومة القومية.

الجلء والتهدد في الجنوب

في يوم 16 أغسطس سنة 1955م قرأ علينا رئيس مجلس النواب الخطاب الذي جاءه من لجنة السودنة وهذا نصه:-

« لقد طلبت إليَّ لجنة السودنة أنْ أبلغكم بالإشارة لخطابي بتاريخ 22 مارس سنة 1955م بأنها قد قرَّرت أنْ عملية السودنة قد تَمَّت وجاء هذا القرار في اجتماعها الخامس عشر بعد المائة المنعقد في الثاني من شهر أغسطس سنة 1955م وقد رفعت اللجنة هذا القرار اليوم لمجلس الوزراء وفقاً لأحكام البند الثالث من الملحق الثالث للاتفاقية الإنجليزية المصرية المبرمة في الثاني من شهر فبراير سنة 1953م بشأن الحكم الذاتي للسودان وتقرير المصير.

وقد أرسلت نسخاً من هذا الخطاب لمعالي الحاكم العام ومجلس الوزراء.

إمضاء إبراهيم يوسف سليمان

رئيس لجنة السودنة

وفي نفس الجلسة وقف السيد إسماعيل الأزهري رئيس الوزراء ووزير الداخلية والدفاع مقدماً الاقتراح الآتي:-

«نحن أعضاء مجلس النواب في البرلمان مجتمعاً نُعرب عن رغبتنا في الشروع في اتخاذ التدابير لتقرير المصير فوراً ونرجو من معاليكم إخطار الحكومتين المتعاقبتين بهذا القرار بمقتضى المادة التاسعة من الاتفاق بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال أيرلندا بتاريخ 12 فبراير سنة 1953م بشأن الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودان».

ونُقش الاقتراح وكان النقاش هو تأييد جميع الأحزاب المنضوية تحت سقف البرلمان لهذا الاقتراح الذي تنتظره البلد بفارغ صبر وأخيراً ووفق عليه بالإجماع.

ومعنى هذا القرار أنْ البرلمان يطلب من الحاكم العام بعد إتمام السودنة أنْ يطلب من الدولتين الابتداء في إجراءات تقرير المصير وأولها خروج الجيش في مدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر وكانت الجيوش قد بدأت فعلاً بالجلء ولم يبق منها إلا القليل

وهو أيضاً كان في طريقه إلى الخروج.

وبعد صدور قرار البرلمان بالإجماع خرجنا كلنا وزراء ونواب وشيوخ في موكب سار من البرلمان عن طريق الباب الغربي إلى شاطئ النيل ثم شرقاً إلى ميدان الداخلية وكان ما زال فيه تمثال كتشنر وهناك وجدنا الحشود الذاهرة بأعلامها ولافاتها ملأت الفضاء لأنّ اليوم كان عطلة لأنّه يوم عيد وكانت الجماهير تهتف في حماس منذ الساعة الثامنة صباحاً إلى الثانية بعد الظهر خطب الجماهير السيد الرئيس إسماعيل الأزهري ثمّ زعيم المعارضة السيد محمد أحمد محبوب. وتمّ جلاء آخر عسكري أجنبي في 9 نوفمبر سنة 1955م.

كثّاً قد دعونا صحافة العالم لشهود هذا اليوم وكانت مصر قد أرسلت بنقيب الصحفيين فيها كما أرسلت صالح حرب وآخرين ليقفوا بأنفسهم على هذا المشهد الذي بلا شكّ يوضّح لهم رغبات الشعب البادية من هتافاته ولافاتها. وخرج المراقبون من هذا المشهد بأنّ السودان كله ينادي بالاستقلال حتّى أنّ صحفياً لبنانياً تطوع أن يذهب إلى مصر ليقابل الرئيس جمال عبد الناصر ويوقفه على الحقيقة كما شاهدها وعلمنا أيضاً فيما بعد أنّ صالح حرب باشا قال إنّ أزهري معذور إذا نادي بالاستقلال فهذه رغبة الشعب.

التهرد

لا أريد أن أتحدّث عن العوامل الفعّالة التي كان ثمرتها هذا التمرد لأنّها كثيرة بعضها عميق له جذور قديمة غرسها الاستعمار والتبشير وبعضها حديث سببه إهمال الإداريين وأخذهم الأمور بظواهرها ولم يملأوا المراكز التي ورثوها عن الإنجليز لا في الجنوب ولا في الشمال وليس أدلّ على ذلك من أنّ مديراً في المديريات الجنوبية لم يكلف نفسه الطواف على مديريته منذ أنّ دخلها إلى أنّ خرج منها بعد التمرد. أمّا العوامل الأخرى التي أسرعت بالتمرد فعوامل خارجية شاركت فيها أيد سودانية والغاية منها خلق حالة عدم استقرار وأما تلك الخطابات المزورة والتي وزعت في أوسع نطاق بمجهولة لكلّ من تتبّع تلك الأحداث.

وكانت هذه العوامل الأخيرة ليس لها من غاية إلا زعزعة أركان حكم الأزهري الذي تجرّأ على أن ينادي باستقلال بلاده لا متكرراً لدعوة الاتحاد لكن إيماناً منه بأن السودان المستقل يستطيع أن يتحد بمحض اختياره ووفق إرادته ويضع الخطوط التي يسير عليها الاتحاد المنشود.

قلت لا أريد أن أتحدث عن التاريخ الطويل الذي انتهى لذلك التمرد ولكنني سأحدث عن وقوع التمرد وأسبابه القريبة والمباشرة.

كانت للجنوب أورطة جنوبية أنشأها الاستعمار وله فيها أغراض لا يجهلها أحد وبقيت هذه الأورطة الجنوبية في الجنوب منذ إنشائها لا ينقل أفرادها ولا يتحركون كأنهم جزء من جيش دولة أخرى لا جزءاً من قوة دفاع السودان.

وكنّا نفكر في الطريقة التي نحرك بها تلك الأورطة كوحدة من وحدات الجيش السوداني تعمل في كل جهات السودان دون ربطها بمنطقة معينة ورأينا أن نبدأ بهذا التحرك أو هذا الدمج ووجدنا أن فرصة الاشتراك في الاحتفال بالجلء هي الفرصة المناسبة.

دعونا البلك المقيم في توريت ليحضر الاحتفالات في الخرطوم على أن نستبدله ببلك من الشمال وتمّ الاتفاق على ذلك كما يتحرك بلك من ملكال إلى الخرطوم ليحل محله بلك من الشمال.

وكما كنّا نحن نخطط لهذا الدمج كانت هناك أيد تعمل للضربة الأخيرة وحدثت حوادث طفيفة ولكنّها كانت تنذر بالخطر غير أنّ القرييين ممّا كانوا لا يقيمون لها الوزن المناسب عن جهل وإهمال وسوء تقدير.

وقبل اليوم المحدّد لتحرك قوة توريت عقد اجتماع في جوبا حضره رجال الجيش وقائد حامية توريت وبعض ضباطه ثمّ مدير الاستوائية ونائب مدير آخر كان قد ذهب إلى هناك من الخرطوم. وفي هذا الاجتماع أبدى بعض ضباط توريت بأنهم يتوقعون شراً ولكن قائدهم اتهمهم بالمبالغة وقاموا في اليوم إلى توريت.

وفي يوم 1955/8/18م ونحن في مؤتمر صحفي عقده الرئيس في مجلس الوزراء مع بعض الصحفيين الذين حضروا يوم الجلء وصلت برقية تحمل خبر التمرد فلم يقل الرئيس شيئاً غير أنّه طلب ممّا أن نبقى بعد المؤتمر لأنّ هناك أمراً هاماً سيعرضه علينا.

وفي الساعة الحادية عشرة أعلننا بالخبر المؤلم فقد تمرّد جنوب توريت وقتلوا الضابط بانقا عبد الحفيظ وفي انزارا قتلوا البكباشي حسن محمود وانتشر التمرد في جميع الاستوائية وقتل الجنود كل الشماليين من تجار وموظفين وضباط. كلفت والزميل مبارك زروق أن نخبر السجينين بما حدث وفعلًا ذهبا إليهما وأطلعناهما على ما حدث وأخذنا نجتمع في وزارة الدفاع طول اليوم نعمل على تقوية القوة الموجودة في جوبا ومدّها بالعتاد قبل صباح اليوم الثاني لأنّ الذي علمناه أنّهم لا يستطيعون المقاومة إلى أكثر من الساعة السابعة صباح الغد وقد تمكّنّا من تعزيزهم قبل ذلك الموعد.

وفي مساء اليوم الثاني كان المفروض أن تتحرك قوة ملكال وكثّا في أشدّ حالات القلق خوفاً من أن يتسرب إليهم الخبر الساعة التاسعة مساء جاء القائد العام ليقول إنّ الباخرة تحركت بالقوة بعد أن امتنع الجنود أولاً عن النزول إلى الباخرة إلّا بأسلحتهم ومعهم قليل من الذخيرة.

وكان مطار ملكال بالغ الأهمية لأنّ الطائرة إذا استطاعت أن تنزل فيه وتتزوّد بالوقود أمكنها أن تحمل جنوداً وعتاداً أكثر.

وكانت أياماً عصيبة نسمع فيها كل يوم قائمة من أسماء الضحايا من التجار وخيرة الموظفين من معلمين وضباط ورجال زراعة وغابات وكثّا نجوب أم درمان كل يوم معزين أهل الضحايا البرينة.

وكان وجود الصحفيين الأجانب قد سبّب كثيراً من الإزعاج فكانوا يأتوننا بأخبار غير صحيحة ويحاولون إرسالها إلى صحفهم الشيء الذي اضطررنا إلى إعطاء تعليمات لمدير البريد والبرق لمراجعة تلك البرقيات وشطب أو إيقاف ما يشك في صحته بعد الرجوع إلينا.

وبعد مرابطة تامّة في وزارة الدفاع لأيام استطعنا أن نسيطر على الموقف وأن نعزز قواتنا في الجنوب وأن نقضي على التمرد.

وحوادث الجنوب أو التمرد لم يكن نتيجة سوء معاملة من الحكم الوطني أو نتيجة إهمال لأحوال الجنوب ورفع مستواه الاقتصادي وكفّي أن أذكر في الكلمات القليلة الآتية كيف رفع الحكم الوطني المستوى الاقتصادي للأفراد أيّ مستوى المعيشة وكيف أنّه ساوى بين أبناء السودان لا فرق بين شمالي أو جنوبي.

لقد وضع الإنجليز كادراً خاصاً بالجنوبيين الموظفين وكان هذا الكادر يحول بينهم وبين أيّ تقدّم فكان مربوط الموظف في المرتب لا يصل إلى الأربعة جنيهاً في الشهر إلا إذا بلغ سن المعاش.

إليك ما صنعه الحكم الوطني في الجنوب:-

كان مرتب الزعيم خمسين قرشاً في الشهر ورجل البوليس المحلي أيّ الخفير عشرة قروش والكتبة الذين يعملون مع الزعماء لا ينالون مرتبات ولكن إعانات يوجد بها عليهم الزعماء.

فارتفع بعد الاستقلال مرتب رث الشلك من 35 جنيهاً إلى ثمانين جنيهاً وسويت الأجور اليومية بين العامل في الشمال والجنوب وارتفع مرتب رجل البوليس من خمسة وسبعين قرشاً في الشهر إلى خمسة عشر جنيهاً وكذلك ارتفع مرتب الصول إلى عشرين جنيهاً أسوة بأخيه في الشمال.

وعندما حدث التمرد ماذا حصل؟ لقد سلكت الحكومة الوطنية المسلك العادل وقدمت الذين اتهموا إلى محاكمات عادلة شهد بعدالتها الصحفيون الأجانب الذين لم يستطيعوا إلا أن يقولوا إنّ رئيس الوزراء تحكم في أعصابه ورفع نفسه بهذا التصرف إلى مستوى كبار الساسة.

وإذا أردنا أن نعرف الفارق بين ما حدث الآن وما كان يحدث أيام الاستعمار وهو الذي دفع بالصحفيين إلى هذا القول لعلنا أنّ الإنجليز أبادوا قبائل الدينكا بالمدافع الرشاشة وأنّ النوير في سنة 1927 عندما قتلوا فرغسون أوشك الاستعمار أن يفنيهم عن آخرهم ولعلنا سمعنا جميعاً الأعمال التي كان يقوم بها المفتشون أمثال كوريت وغير كوريت من الذين يحكمون على الرجل بالإعدام في لحظة وينفذ المفتش حكم الإعدام بنفسه الشيء الذي لا يقره الرفق بالحيوان فضلاً عن الإنسان.

إنّ هذه المقارنات تؤيد ما ذهبنا إليه من أنّ الدوافع لتلك الأحداث كانت متعدّدة وكانت مدبرة وأنّها لم تكن مطلّبية أو سعيّاً وراء حرية ولكنّها أحقاد غزاها التبشير ورعتها الحكومة وخطط لها الاستعمار.

مفاوضات الحكومة القومية وإعلان الاستقلال

بدأت مرة أخرى وبعد بيان السيدين تأخذ قضية الحكومة القومية شكلاً أكثر جدية كما زادت حدة النشاط لإضعاف الوطني الاتحادي وإبعاد النواب والمؤيدين من حوله ولكن كان الوعي قد ساد ووقف أناس إلى جانب الحزب بالرغم من طائفيتهم التي ما كان أحد يشك فيها

وبدأت عمليات إحصائيات وكم سيكون مع الوطني الاتحادي وكم سيخرجون عليه وفي جانب آخر كان المشفقون من كبار الختمية يلحون علينا في إرضاء قيادة الختمية بقيام الحكومة القومية وحدثت اتصالات من رجال لهم وزنهم مثل المرحوم محمد إبراهيم فرح والسيد محمد حمد أبو سن مع قيادة الختمية على أنه إذا تم قيام الحكومة القومية سيرجع جميع النواب الذين خرجوا من الحزب كنواب شرق السودان.

كان وقوفنا ضد الحكومة القومية قبل إعلان الاستقلال هو خوفنا من أن لا يعلن الاستقلال مطلقاً خصوصاً وأتينا نحس بأن جهات ما لها غرض من تأجيل هذا الاستقلال هذا من جهة ومن جهة أخرى إيماننا بأن الحكومة القومية هي أول مسمار في نعش الوطني الاتحادي وسيقف العمل الذي خططنا له ونوينا أن ننجزه بمجرد إعلان الاستقلال. كان السيد الرئيس يرى أن يوضع الدستور بسرعة وأن يُعدّل في الدستور المؤقت بحذف ما يجب حذفه وإضافة ما يجب إضافته وقد رأينا في مدى ستة أشهر نستطيع أن نقر الدستور الدائم وأن نؤمن استقلالنا ونتم كل معالمه.

وكنت من أشد الناس رفضاً للحكومة القومية.

وأخيراً رأينا أن نربط بين الحكومة القومية وإعلان الاستقلال من داخل البرلمان أي أن يكون إعلان الاستقلال من داخل البرلمان ثمناً لقيام الحكومة القومية.

وفي 1955/12/8م بدأ أول اجتماع بين الحكومة أو الوطني الاتحادي وبين المعارضة وكان الاجتماع في دار البرلمان وفي إحدى غرفه.

كان يُمثّل الوطني الاتحادي مبارك زروق - خضر حمد - علي عبد الرحمن - أمين السيد - إبراهيم المفتي - بوث ديو.

وكان يمثل المعارضة عبد الله خليل عن الأمة - ميرغني حمزة عن حزب الاستقلال

الجمهوري- محمد نور الدين عن الجبهة الاتحادية- بنجامين لوكي عن حزب الأحرار الجنوبي- حسن الطاهر زروق عن الجبهة المعادية للاستعمار- يوسف العجب عن الحزب الجمهوري الاشتراكي.

ووافقنا جميعاً على أن يتولى السيد محمد عامر بشير سكرتارية الاجتماع. ووافقنا أيضاً على أن هدف الحكومة بعد أن وافقنا على مبدأ قيامها هو الوصول إلى استقلال السودان التام وسيادته الكاملة بأقصر الطرق العملية وأضمنها، استقلالاً غير مشروط أو مُقَيَّد بقيد من أحلاف أو معاهدات أو مركز ممتاز لأية دولة من الدول. واصلنا الاجتماع بعد هذا اليوم وظهرت النوايا وقال عبد الله خليل في صراحة إننا غير متفقين يعني بذلك المعارضة ولكننا اتفقنا ضدكم أيّ الحكومة وبدأ نور الدين يتحدث عن منصوص الاتفاقية وأنّ له صندوقاً وهو صندوق العلاقة مع مصر وتحدث ميرغني عن الاستفتاء وانتقلنا إلى عدد الوزارات إلى غير ذلك من مواضيع لو سرنا فيها لقضينا أكثر من عام.

كان اتفاقنا نحن في الوطني الاتحادي أن نحصل على موافقتكم على إعلان الاستقلال من داخل البرلمان ولو اقتضى ذلك أن نعطيكم عدداً أكثر في الوزارات وأن تكون الرئاسة عندنا.

وشاء الله أن ينعم علينا بمنه وكرمه إنعاماً ما كنّا نتوقعه أو نفكر فيه. كنّا نعقد تلك الاجتماعات بعد انفضاض جلسة البرلمان وكان سير المفاوضات لا يُبشّر بخير فقرّر الرأي عندنا على أننا إذا لم نتفق على شيء في يوم الأربعاء 1955/12/14م نعد بياناً يليقيه السيد الرئيس في البرلمان نعلن فيه رغبتنا في إعلان الاستقلال من داخل البرلمان.

أمّا المنّة التي أنعم الله بها علينا هي أنّه في يوم الخميس 1955/12/15م وقف السيد يعقوب حامد بابكر نائب شمال الفونج ووجّه سؤالاً إلى السيد رئيس الوزراء قائلاً هل تلقّت حكومة المملكة المتحدة أيّ وعد من حكومة السودان بمنحها قاعدة جوية في السودان. وردّ الرئيس بكلمتين كلا ثمّ كلا.

وهنا وقف السيد بلين البر نائب واو وقال هل لا هذه تنطبق على الاتفاق الذي قيل إنّه أبرم مع بريطانيا وأمريكا بشأن الدفاع عن الصحراء ومن ضمنها هذه البلاد؟ فردّ السيد إسماعيل الأزهرى رئيس مجلس الوزراء قائلاً:-

«إن مهمة حكومتي محددة في إتمام السودنة وقد تمت وإتمام الجلاء وقد تمَّ في جمع كلمة السودانيين حول الاستقلال التام وقد تمَّ هذا أيضاً ولم يبق إلا إعلانه من داخل هذا المجلس يوم الاثنين القادم إن شاء الله وأرجو ألا يفوت حضرات نواب هذا المجلس الموقر حكومة ومعارضة قطاف هذه الثمار الدانية وأرجو أن يقدموا عليه ويقروا بكل قوة وشجاعة، وأؤكد أن حكومتي لم توفَّع اتفاقاً أو معاهدة مع أي شخص كان أو حكومة ولم تتقدم حكومتي بشئ مثل هذا إلى هذا البرلمان ولن تتقدم به في المستقبل إن شاء الله».

وهنا قام السيد داك ديبى - وكأئماً أراد أن يتم كل شيء في هذه الجلسة وهذا اليوم فقال:-

إذا لم يكن هناك اتفاق فعلاً لماذا لا زالت بعض الطائرات الحربية تُحلّق فوق سماء السودان بعد الجلاء؟
فردّ الرئيس إسماعيل الأزهرى قائلاً:-

«أمّا الطائرات الحربية ما زالت تُحلّق فوق سماء السودان فهذا راجع إلى اختصاص معالي الحاكم العام الذي أراد أن يتمسك بالحق الذي منحه إياه الاتفاقية في قوانين السودان ولا يريد أن يتركه للسيد وزير المواصلات السوداني ولكن من حسن حظ السودان أن الحاكم العام قد قدّم استقالته وهو في انتظار من يعينه هذا البرلمان ليحل محله وعندها سيبارح السودان وأرجو أن يوفّق البرلمان في يوم الاثنين القادم في اختيار لجنة قومية تصبح رأساً للدولة وتكون مستقلة تماماً وليست عميلة لأي دولة من دولتي الحكم الثنائي وبذا ينتهي الحكم الثنائي وتكون للسودان السيادة التامة وعندها يكون من حقّ تلك اللجنة أن تسمح للطائرات الحربية أن تُحلّق في سماء السودان أو لا تسمح لها.
وعاد السيد يعقوب حامد بابكر يسأل:-

ذكر السيد الرئيس أن يوم الاثنين المقبل سيكون يوم اختيار اللجنة التي ستتسلّم سلطات الحاكم العام وأنا أعلم أن بحثاً يجري بين الأحزاب فيها فهل نفهم أن الاتفاق عليها قد تمَّ أو أنه يأمل ذلك؟

فرد الرئيس أزهرى قائلاً- أرجو أن تنتهي المفاوضات بين الأحزاب المتحدة ولا أقول المؤتلفة سريعاً ويتم الاتفاق اليوم أو غداً ونتمكّن في يوم الاثنين القادم من إجازة قرار إجماعي ونحقق للسودان سيادته التامة.

خرجنا من البرلمان ورحنا ننتظر المفاوضين من المعارضة وتوقعنا أن يثيروا هذه المفاجأة قبل أن نتفق على شيء وجاءوا أخيراً متأخرين ولكنهم لم يثيروا الموضوع. ونقلنا المعركة إلى صفوف النواب وحمل نوابنا على نواب حزب الأمة الذين كانوا جادين في تحقيق الاستقلال أمّا عبد الله خليل فظن هو وميرغني ونور الدين أنهم يستطيعون المساومة ولكن علمنا أخيراً أن نواب الأمة قالوها صريحة لعبد الله خليل أن أزهري إذا طرح الموضوع يوم الاثنين فسيقفون معه ولم يكن لميرغني في البرلمان نواب فقبل واتفقنا هو وعبد الله خليل على أن نور الدين إذا لم يوافق فسيتركونه وفي الأيام القليلة أي الجمعة والسبت والأحد تمت بوساطة بعض الإخوان أشياء كثيرة واتفقنا على كيف يقدم الاقتراح ومن يثنيه حتى تكون الجهات كلها مشتركة في هذا العمل التاريخي المجيد واتفقنا على أن ينتخب البرلمان لجنة مكونة من خمسة سودانيين لتمارس سلطات الحاكم العام حتى يتم انتخاب رأس الدولة بمقتضى أحكام دستور السودان النهائي كما اتفقنا على أن تقوم جمعية تأسيسية منتخبة لوضع وإقرار الدستور النهائي للسودان.

كانت تلك الأيام الثلاثة عامرة بالنشاط والحركة ليلاً ونهاراً وكان الشعور العام معباً تعبئة تامة يتابع الأحداث باهتمام بالغ وحماس دافق ووعي مكتمل. وتقاسمت الأحزاب عن طيب خاطر شرف تقديم اقتراح الاستقلال واللجنة القومية والجمعية التأسيسية.

وفي يوم 19 ديسمبر 1955م وبعد الإجراءات الشكلية وقراءة بعض الردود وقف السيد عبد الرحمن محمد إبراهيم دبكة (أمة) واقترح الآتي - وهو الاقتراح المتفق عليه منّا جميعاً مع غيره من الاقتراحات:-

« نحن أعضاء مجلس النواب في البرلمان مجتمعاً نعلن باسم الشعب السوداني أن السودان قد أصبح دولة مستقلة كاملة السيادة ونرجو من معاليكم أن تطلبوا من دولتي الحكم الثنائي الاعتراف بهذا الإعلان فوراً».

وبعد أن تحدّث عن الاقتراح مؤكداً له وقف السيد مشاور جمعة سهل (وطني اتحادي) وقال إنني أنثي هذا الاقتراح التاريخي الخطير وأقدر مدى الشرف الذي يناله مقترحه ومثنيه في جلسة كهذه سوف يسجلها في سجل الشرف تاريخ هذه البلاد وسوف تكون حداً فاصلاً بين عهد الاستعمار الذي رزحنا تحته سبعة وخمسين عاماً وعهد الحرية

الكاملة والسيادة التامة والانعتاق الذي يجعل السودان أمة بكل مقوماتها لا تستوحى في شئونها الداخلية والخارجية إلا مصلحة الشعب وإرادة الأمة وتقيم علاقاتها مع الدول جميعاً على قدم المساواة- المساواة بين ند وند لا سيد وعبد الخ....

وبعد أن تحدث ممثلو جميع الأحزاب مؤيدين هذا الاقتراح في حماس بالغ وإحساس بالعزة أقر الاقتراح بالإجماع.

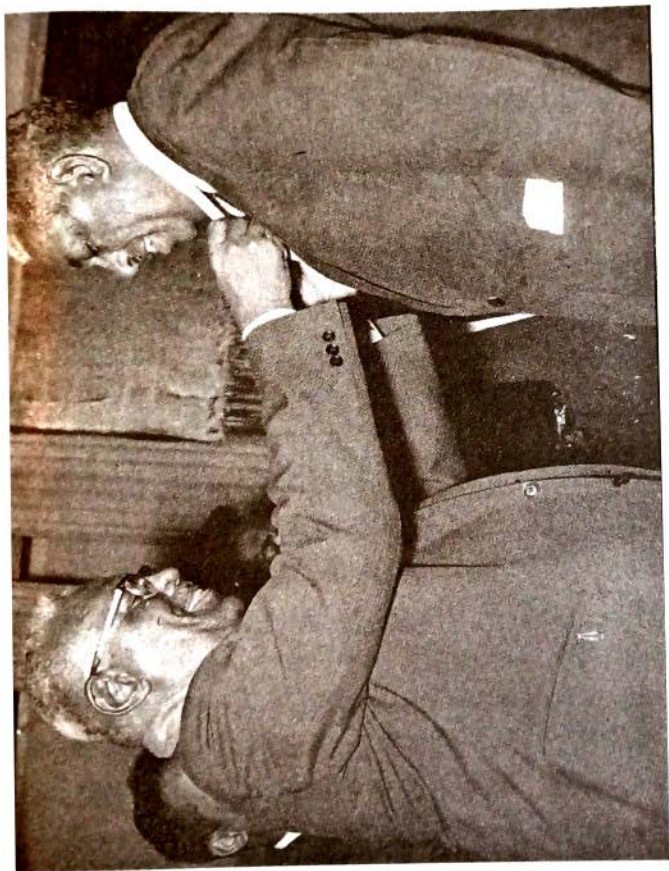
ثم وقف النائب السيد حسن جبريل سليمان (وطني اتحادي) وقال أرجو أن أتقدم بالاقتراح التالي:-

« بما أنه يترتب على الاعتراف باستقلال السودان قيام رأس دولة سوداني فإنه من رأى هذا المجلس أن ينتخب البرلمان لجنة من خمسة سودانيين لتمارس سلطات رأس الدولة بمقتضى أحكام دستور مؤقت يقره البرلمان الحالي حتى يتم انتخاب رأس الدولة بمقتضى أحكام دستور السودان النهائي كما أنه من رأى هذا المجلس أن تكون الرئاسة في اللجنة دورية في كل شهر وأن تضع اللجنة لائحة لتنظيم أعمالها». وتحدث أيضاً قليلاً عن أهمية الاقتراح والأسباب الداعية له وطلب من النواب تأييده والوقوف إلى جانبه.

ووقف بعده السيد جوشوا ملوال (غرب النوير الجبل) وقال إنني أثنى الاقتراح وأبدي سروري لأن أحد أبناء المديريات الجنوبية التي يمثلها مع بقية إخوانه سيكون أحد أعضاء المجلس الذي سيمارس سلطات رأس الدولة. وتحدث أيضاً ممثلو الأحزاب الممثلة في البرلمان مؤيدين الاقتراح وبعد ذلك أجاز بالإجماع.

وأخيراً تقدم السيد محي الدين الحاج محمد (وطني اتحادي) باقتراح هذا نصه:- « أنه من رأى هذا المجلس أن تقوم جمعية تأسيسية منتخبة لوضع وإقرار الدستور النهائي للسودان وقانون الانتخاب للبرلمان السوداني المقبل».

وثنى هذا الاقتراح وأيده السيد حماد أبو سدر (نائب الجبال الشمالية شرق) وأجاز أيضاً بالإجماع وانفض أخيراً هذا الاجتماع التاريخي العظيم.



مجلس السيادة

بعد القرارات التاريخية التي حددت رغبة الشعب ممثلاً في برلمانه بدأنا أولاً في الإعداد ليوم إعلان الاستقلال وممارسته فعلاً وذلك قبل أن يصل ردُّ حكومتي الحكم الثنائي وتَمَّ الاتفاق مبدئياً على أن تقوم الحكومة القومية وعلى أن يكون للوطني الاتحادي سبع وزارات مع الرئاسة وأن يكون للمعارضة ثماني وزارات.

وجاء دور اختيار مجلس السيادة وكان ذلك في 1955/12/22م فاتفقنا على أن يكون للوطني الاتحادي عضو وللمعارضة عضو وللجنوبيين عضو وأن يرشح الوطني الاتحادي محايدين تختار منهما المعارضة واحداً وكذلك ترشح المعارضة محايدين نختار من بينهما واحداً.

وهنا يظهر التحول بأجلي مظاهره هذا التحول الذي يعلم من يريد أن يعلم أن السياسة لا تعرف صديقاً ولا تستقر على حال وأنها حول قلب الناس أيضاً.

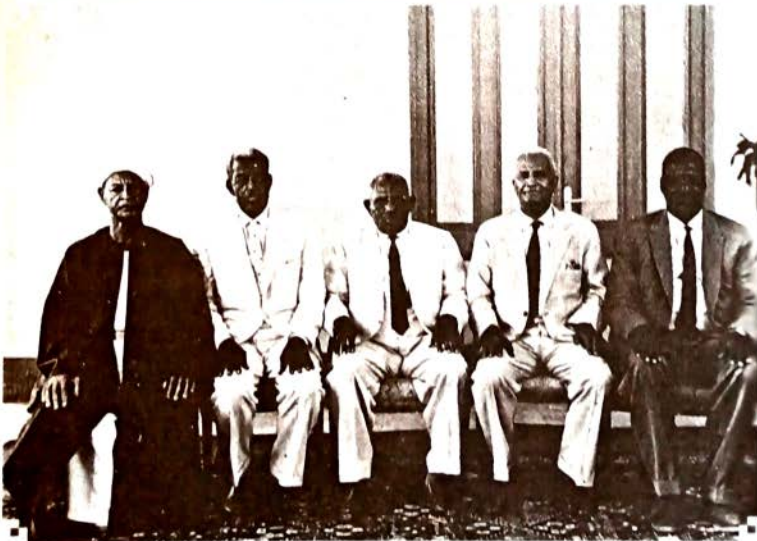
لقد رشحنا نحن أحمد محمد يس وكان مرشح المعارضة أو الأمة في الحقيقة السيد درديري محمد عثمان الذي كان ممثلنا قبل أيام في لجنة الحاكم العام. وقَدَّمنا كمستقلين السيد أحمد محمد صالح والشيخ أبشر حميدة وقَدَّم حزب الأمة عبد الفتاح المغربي والشيخ محمد الحسن دياب.

واختار الأميون أحمد محمد صالح واخترنا نحن عبد الفتاح المغربي أمّا الجنوبيون فقد اتفقوا بعد لأي علي السيد سرسيو إيرو.

وكان يُمثِّل الوطني الاتحادي في هذا الاجتماع مبارك- خضر- إبراهيم المفتي وكان الاجتماع في منزله.

ومثل الأمة عبد الله خليل- إبراهيم أحمد- ميرغني حمزة.

وبعد ذلك بدأ العمل لإعداد العلم وتسابق الفنانون برسوماتهم المختلفة وكان فيها المناسب ولكن كان حزب الأمة مصراً على أن يحوي العلم هذا اللون الأصفر الذي كما قالوا يرمز إلى الصحراء!! وأي خير في الصحراء لسنا ندرى ولكننا كنّا نريد أن يتم كل شيء على اتفاق.



السادة رئيس وأعضاء مجلس السيادة

وهذا الخريتيت أو وحيد القرن كان أيضاً نتيجة مسابقة وفضلوه لقوته ولندرته ولوجوده في السودان ولكنهم نسوا كم يظهر بلادته. ولعلّه من الخير قبل أن أصل إلى يوم رفع العلم السوداني أن أشير إلى وصول اعتراف الدولتين وكانا مؤرخين بأول يناير سنة 1956م التاريخ الذي قرّرنا أن نرفع فيه العلم وللتاريخ أيضاً أرى أن أسجل هنا الاعترافين:

وثيقة الحكومة المصرية

السيد رئيس مجلس وزراء حكومة السودان

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إنّ الحكومة المصرية عملاً بنواياها التي جاهرت بها وبمسعاها الذي جاهدت من أجله لتحقيق الحرية لشعب السودان تعلن فوراً الاعتراف بالسودان دولة مستقلة ذات سيادة..

وقد أصدرت الحكومة المصرية تحقيقاً لهذا الإعلان المرفق كما اعتمدت نيابة السيد الأميرالاي أركان حرب عبد الفتاح حسن عنها لتقديم هذا الإعلان. ولي عظيم الشرف بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن الحكومة المصرية في أن أزجي إلى سيادتكم خالص التهنئة بهذا اليوم الخالد في تاريخ السودان وأن نبتهل إلى الله أن يسدّد خطاه في حاضره ومستقبله.

وتفضّلوا بقبول خالص مودتي واحترامي

القاهرة في أول يناير سنة 1956م

جمال عبد الناصر

رئيس وزراء حكومة جمهورية مصر

إعلان

استجابة للقرار الذي اتخذه البرلمان السوداني في 19 من ديسمبر سنة 1955م والذي أعلن أنّ السودان سيصبح دولة مستقلة كاملة السيادة وطلب فيه من دولتي

الحكم الثنائي أن يعرفا.

فإن حكومه مصر يعرف بأن السودان دولة مستقلة ذات سيادة بهذا الإعلان اعتماداً من تاريخ أول يناير ١٩٥٦م وتأمل حكومه جمهورية مصر في الوقت الذي تعترف فيه باستقلال السودان أن تستمر حكومة السودان في رعاية الاتفاقيات والوفقات التي عقدتها دولتا الإدارة الثنائية نيابة عن السودان أو اتفقتا على تطبيقها على السودان وسيكون من دواعي سرورها وترجو حكومة جمهورية مصر تأييد الحكومة السودانية كذلك أن تتعاون معها حكومة السودان في كل الخطوات الضرورية لتصفية الإدارة الثنائية في السودان.

القاهرة أول يناير سنة ١٩٥٦م

جمال عبد الناصر

رئيس وزراء الجمهورية المصرية

وهذا هو اعتراف الحكومة البريطانية:

وزارة خارجية لندن

(سري)

السيد إسماعيل الأزهرى

رئيس وزراء السودان

تسلمت حكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال أيرلندا قرار البرلمان السوداني الذي يعلن فيه أن السودان قد أصبح دولة مستقلة ذات سيادة والذي يطلب فيه من دولتي الحكم الثنائي الاعتراف بذلك الإعلان.

وإجابة لهذا الطلب فقد خولتني حكومة المملكة المتحدة بأن أحيطكم علماً بأنها تعترف منذ تاريخ اليوم بأن السودان قد أصبح دولة حرة مستقلة ذات سيادة.

وبينما نتقدم بهذا الاعتراف تثق حكومة المملكة المتحدة بأن حكومة السودان ستظل تنفذ الاتفاقيات والمعاهدات التي أبرمت بالنيابة عن أو التي طبقت على السودان بواسطة دولتي الحكم الثنائي ويسرنا أن تؤيدوا بأن هذه هي نية حكومة السودان.

وتأمل حكومة المملكة المتحدة أن تتعاون معها حكومة السودان في جميع الخطوات المؤدية إلى تصفية الحكم الثنائي.

ولي عظيم الشرف بأن أكون مع خالص التقدير والاحترام خادماً سيادتكم المطيع.
أول يناير سنة 1956م

سلوين لوييد

وعندما قرأ السيد إسماعيل الأزهرى هذين الاعترافين أعلن حكومة السودان لا تعلم شيئاً عن تلك الاتفاقيات أو الاتفاقات أو المعاهدات لأنها لم تكن طرفاً فيها وكانت السياسة الخارجية في يد الحاكم العام وأنَّ هذه الاتفاقات متى ما عرفت ستعرض على البرلمان وهو الذي يقرها أو لا يقرها.



يوم العلم

إنَّه اليوم التاريخي الخالد يوم أول يناير سنة 1956م اليوم الذي فتح السودان فيه أولى صفحات تاريخه الحديث في ظل الحرية والاستقلال إنَّه اليوم الذي سينطلق منه السودان الحر الطليق ليبني المستقبل المشرق إنَّه اليوم الذي تنسمنا فيه عبير الحرية وأحس فيه كل سوداني بأنَّه حر وأنَّه اليوم غيره بالأمس. إنَّه اليوم إنسان حر التصرّف في بلده له علمه وله حكومته وله عزته وكرامته.

اجتمع في ذلك اليوم مجلسا النواب والشيوخ في قاعة مجلس النواب في شكل مؤتمر وفي تمام الساعة الثامنة وقف الرئيس إسماعيل الأزهري يتلو على المؤتمر اعتراف دولتي الحكم الثنائي باستقلال السودان. وكان في شرفة الزوار ممثلاً مصر وبريطانيا الذين حضرا لتسليم الاعتراف واستلام علمي الدولتين.

وعند إنهاء رئيس الوزراء من تلاوة الاعترافين وعقب بتعليقه الذي أشار فيه إلى المعاهدات والاتفاقات دخل القاعة أعضاء مجلس السيادة فوقف الناس إجلالاً واحتراماً لهم.

وبدأ السيد رئيس مجلس النواب يدعوهم واحداً إثر واحد ليؤدوا القسم وكانت صيغته «أقسم بالله العظيم بأن أناصر بكل ما في وسعي دستور السودان وأن أودي واجباتي كعضو بمجلس السيادة بأمانة دون خشية أو محاباة أو سوء قصد وألا أذيع لأي شخص أية مسألة علمت بها كعضو بذلك المجلس إلا لأداء واجباتي المذكورة». وبعد أداء الأعضاء القسم سرنا جميعاً وزراء ونواب وشيوخ في موكب ضخم وسار من دار البرلمان إلى سراي الحاكم العام «القصر الجمهوري» وكانت الشوارع ممتلئة بالشعب وهو يهتف الهتافات الداوية ويحيي نواب الشعب وشيوخه الذين تحقق على أيديهم استقلال الوطن.



السيد / إسماعيل الأزهري يسلم العلم البريطاني لمندوب حكومة بريطانيا

القرآن

ولأول مرة يدوي صوت المقرئ حسين عبد العزيز مردداً أي الذكر الحكيم في تلك الدار التي لم تسمع جنباتها صوت التكبير أو القرآن إلا يوم اقتحمها الأنصار عنوة وقطعوا رأس غردون الذي كان يحتل ذلك القصر. والمقرئ حسين عبد العزيز سيد من يحسن اختيار الآيات المناسبة فقرأ فيما قرأ « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ».

ليس في استطاعة قلم مهما أوتي من سحر البيان ومهما تداعت له المعاني وأسعفته البلاغة أن يصف الشعور الذي كان يغمر الحاضرين أو يصور الإحساسات التي كانت تتفاعل في تلك النفوس أو يكيّف الفرحة التي غمرت القلوب وسمت بالعقول وأسعدت الوجدان...إنّه يوم الحرية إنّه يوم العزة إنّه يوم الاستقلال فهذا علم الاستعمار يثاوى رويداً رويداً وذاك العلم الجديد رمز عزتنا يرتفع أيضاً رويداً رويداً إلى الرفعة إلى السمو.

طويت أعلام الاستعمار وسلمت لمندوبي الدولتين وارتفع علمنا يحتل مكانهما في أعلى السراي.

وفي ذلك الحشد الكبير الذي ضمّ السידين والوزراء والنواب والشیوخ ومندوبي الدول ورجال الصحافة وأفراد الشعب الذين ضمّتهم الدار في ذلك الحشد وقف السيد إسماعيل الأزهري والقي الخطاب التالي:-

«اللهم يا ذا الجلال يا مالك الملك يا واهب العزة والاستقلال نحمدك ونشكرک ونستعديک ونطلب عونک إنک أنت الموفق المعین».

ليس أسعد في تاريخ السودان وشعبه من اليوم الذي تتمّ فيه حرّيته ويكتمل فيه استقلاله وتهياؤه لجميع مقومات الدول ذات السيادة.

ففي هذه اللحظة الحاسمة تماماً من اليوم الموافق أول يناير سنة 1956م و18 جمادي الثاني سنة 1375هـ يعلن مولد جمهورية السودان الديمقراطية المستقلة ويرتفع علمها المثلث الألوان ليكون رمزاً لسيادته وعزته.

وإذا انتهى بهذا اليوم واجبنا في كفاحنا التحرري فقد بدأ واجبنا في حماية

الاستقلال وصيانة الحرية وبناء نهضتنا الشاملة التي تستهدف خير الأمة ورفع شأنها ولا سبيل لذلك إلا نسيان الماضي وطرح المخاوف وعدم الثقة وأن نقبل على هذا الواجب الجسيم أخوة متحابين متعاونين وبنينا مرصوفاً يشد بعضه بعضاً وأن نواجه المستقبل كأبناء أمة متماسكة قوية.

ولا يسعنا في هذه المناسبة إلا أن نمجد هذا الشعب الأنبي على حيويته وإيمانه وجهاده الذي أثمر أطيب الثمرات.

وأرى واجباً عليّ في هذه اللحظة التاريخية أن أزجي الشكر لكل من جمهورية مصر وحكومة المملكة المتحدة اللتين أوفتا بعهدهما وقامتا بالتزاماتهما التي قطعتهما على نفسيهما في اتفاقية فبراير سنة 1953م وهما اليوم في هدوء وبنفس راضية تطويان علميهما اللذين ارتفعا فوق أرض هذا الوطن ستة وخمسين سنة ليرتفع مكانهما عالياً خفاقاً علم السودان الحر المستقل.

ويهمني أن أسجل شكر السودانين للهند والباكستان وأمريكا التي شاركت في جهود لجنة الانتخابات الأولى ولجنة الحاكم العام كما أسجل شكري للجنة السودنة وللدول السبع التي قبلت مساعدتنا ورضيت الاشتراك في اللجنة الدولية التي كان مقدراً أن تشرف على إجراءات تقرير المصير. ولا أنسى أن أسجل شكري للدول التي سارعت بإرسال ممثلين لها للسودان حتى قبل إتمام الاستقلال ويشرفنا أن يكون ممثلوها من ضباط الاتصال السابقين بيننا.

إنّ شعبنا قد صمّم على نبيل الاستقلال فناله وهو مصمم على صيانه وسيصونه. وما دامت إرادة الشعب هي دستورنا فسنمضي في طريق العزة والمجد والله هادينا وراعيينا ومؤيدنا وناصرنا وإنّ ينصركم الله فلا غالب لكم» والسلام.

وما انتهى الرئيس من كلمته حتى بدأت التهاني وتقدم الناس يهنئون بعضهم البعض وهنأ الوزراء وبقية الشعب السيدين الكبيرين وكان يوماً بكى فيه الرجال بدموع الفرح واهتزت أعصاب الكثيرين فلم تتحمل ذلك المنظر الطافي بالسعادة والفرح وأخذوا يمسحون دموعهم ولا يستطيعون الحديث إلى أحد.

وكان الشعب بالمثل يرفع الرؤوس ليسعد النظر بمنظر علمه الخفاق يعلو هذا القصر الشامخ الذي حرم من الدخول فيه أو يحوم حوله سبعاً وخمسين سنة وها هو ذا اليوم ملك يمينه يمرح في ميادينه ويستمتع برؤية زهوره وبساتينه وعلمه يعلو

منفرداً.

كانت كلمة الرئيس لا تخلو من إشارة واضحة إلى واجبنا بعد الاستقلال فقد كانت هناك شكوك وكان لها ما يبررها إلى حد ما وكان هناك عدم ثقة وكان هناك نفور واتهام ولكن ماذا بعد اليوم.

لقد قطع الشك باليقين ويجب أن تعود الثقة بعد أن وضع أن رائد الجميع هو الحرية ويجب أن يموت الاتهام فلا مجال له بعد اليوم.

كانت كلماته دعوة صريحة إلى نسيان الماضي وطرح المخاوف وأن نقبل على عملية البناء وصيانة الحرية وخير الأمة أخوة متعاونين وبنيناً مرصوصاً. فهل نسي الناس فعلاً المطاعم والأحقاد وأقبلوا على البناء وهل ماتت النزوات الشخصية والمطامع الذاتية وهل سَلَّت الأحقاد من القلوب وأتجه الناس جميعاً إلى بناء السودان الحر المستقل؟ سنعرف ذلك فيما بعد وسنوضح أن الهدف الأول كان هو القضاء على هذه الحكومة وعلى هذا الشخص الذي كان جريئاً وصريحاً وأعلن الاستقلال من داخل البرلمان لم يتركه للجنة دولية منحت من الصلاحيات ما يعطيها حق تأجيل تقرير المصير إلى أيّ أمد تشاء إذا ما رأت هي وحدها ذلك.

الحكومة القومية

بمجرد أن انتهت احتفالات الاستقلال وقبل أن ينتهي شهر يناير سنة 1956م استأنفنا الحديث عن الحكومة القومية وكان الضغط علينا شديداً من جانب قيادة الختمية التي وعدت السيدين محمد إبراهيم فرح ومحمد حمد أبو سن أن الحكومة القومية إذا ما قامت عاد إلى الحزب كل من خرج عليه.

واتفقتا كما قلت على أن يكون للمعارضة ثمانية مقاعد وأن يكون للوطني الاتحادي مثلها بما فيها الرئاسة وبدأت قصة أخرى.

تريد المعارضة أن تعرف الوزارات التي ستكون من نصيبها ونريد نحن أن نعرف من من المعارضة سيدخلون الوزارة ومنطق المعارضة يقول إذا ما عرفنا الوزارات استطعنا أن نختار الرجال الصالحين لها ومنطقنا إذا عرفنا من سيدخل الوزارة اخترنا

من جاسنا من يستطيع التعاون معهم وأن نخصّص لهم الوزارات المناسبة لهم.
ولما طال الحديث انتدب الرئيس السادة علي عبد الرحمن وحمّاد توفيق وأمين
السيد ليصلوا إلى اتفاق مع المعارضة في هذا الصدد من حيث توزيع الوزارات.
وفي يوم 1956/1/24م قدّمت الاستقالة الآتية للسيد رئيس الوزراء:-

السيد الرئيس إسماعيل الأزهري

رئيس مجلس الوزراء

تحية واحتراماً وبعد

أرجو قبول استقالتي من الوزارة وذلك مساهمة منّي في التمهيد لقيام الوزارة
القومية التي يرى بعض الزملاء أنّ قيامها ضرورة وطنية. وأنّي إذ أتحنّى أرجو
لزملائي التوفيق في التعاون مع زملائهم الجدد للإسراع بالخطوات الباقية لاستكمال
البلاد مظاهر استقلالها وسيادتها في أقرب وقت والسلام.

خضر حمد

وزير الري والقوة الكهربائية المائية

كنت أعتقد أنّ هذا الإجراء الصحيح وكان يجب أن يضع جميع الوزراء استقالتهم
أمام رئيس الوزراء حتّى يفسح لسيادته المجال ليختار في الحكومة القومية من يشاء
في حرية تامّة.

وذهب الرسل والفرسان الثلاثة وتفاوضوا واتفقوا وقسّموا الوزارات واختاروا الوزراء
دون الرجوع لا إلى رئيس الحزب ولا إلى هيئته البرلمانية وكان أغرب ما في الأمر
أنّ الذين أرسلناهم ليخطبوا تزوجوا هم أنفسهم.

ولم يكن أمام الرئيس ليرضي الحاديين والمشفقين والمؤملين في جمع كلمة
وتقوية الحزب إلّا أنّ يقبل الوضع الشاذ.

وهكذا قامت الحكومة القومية لتكون سلماً للوزارة الائتلافية أو وزارة السيدين.

معالم في الطريق

قامت الحكومة القومية كما أريد لها أن تقوم وكما أرادت في إلحاح الصحافة ونشرت الآراء التقليدية المعروفة بأن البلاد مقدمة على أعمال كبيرة وأن وحدة الصف شيء لا بد منه وأشار إلى الدستور وإلى مشاركة الأحزاب جميعها في الخطوات المقبلة إلى غير ذلك من الحجج التقليدية التي تقام كلما أريد تعديل في الوضع القائم ولكن.

هل تمَّ شيء من كلِّ تلك التمنيات الطيبة والأمنيات البعيدة؟ هل زال الشكُّ وأحسن الناس بالمسؤولية وانصرفوا إلى التخطيط ورسم المستقبل للسودان الحر المستقل؟ لم يحدث شيء من ذلك ولكن الذي حدث هو عكس ما كان يكتب أو يقال.

تحوّل النزاع الذي كان في الأحزاب إلى داخل الحكومة واستمر الخلاف الخارجي أشدَّ ممَّا كان وبدأت الصحافة اعتماداً على ما تسمع وتستنتج تسأل متى سيقوم الحزب الجديد الذي سيضم الختمية واستمرَّ شراء النواب ورشوتهم في الخفاء ونشطت حركة الاستيلاء على الحزب الوطني الاتحادي وإبعاد المشكوك في ولائهم بحلق خلاف مفتعل ثمَّ تفصل الأغلبية الأقلية.

وجاء الوقت الذي شعر فيه أناس بحزبيتهم وكان ولاؤهم قبلاً للطائفية وحاول طائفيون كباراً أن يخففوا من حدة النشاط لإضعاف الحزب وتقذّموا بالنصائح وأبدوا من الإشفاق ما فيه الكفاية ولكن سارت الأمور كما أريد لها أن تسير وغضبت قيادة الختمية ممن يتحدثون في هذا الصدد فبعدوا أسفين.

وعقد في يوم اجتماع في بحري استعرضت فيه أسماء أعضاء لجنة الحزب التنفيذية ووضع كل فرد فيها إلى جانب ولما رُوي أن جانب الحزبيين أقوى رُوي أن يرسل كشف في الحال فيه عشرة أسماء يطلب إضافة هؤلاء إلى اللجنة التنفيذية مباشرة وفيهم من لم يكن عضواً في هيئة الحزب.

وكان الحديث واضحاً جداً من حيث إنَّ الغرض من هذا أن يكون الجانب المناوئ للحزب أكثرية وهنا ثار بعض الناس وأعلنوا عدم موافقتهم واتهموا تلك العملية بأنها

عملية تخريبية ومن ذلك اليوم لم تطأ أقدامهم حلة خوجلي.
وعلمنا بالخبر وكُنّا بين الشك واليقين إلى أن جاء الكشف وفي صباح يوم من الأيام قدّم السيد الرئيس الكشف وهو يضحك فقلت إنّ المسألة سهلة فما علينا إلّا أن نضيف نحن أيضاً عشرة أسماء من احتياطي اللجنة من أعضاء الهيئة وهم أحق من غيرهم بأن يكونوا أعضاء في لجنة الحزب ولكن الرئيس قال لن نحتاج إلى هذا الأمر. وأما في محيط الحكومة فقد كان الاهتمام ظاهراً بالانتهاء من الميزانية وعلاقة النواب كان ظاهراً كما يقولون «سمن على غسل» ولكن كان العمل يجري بهمة للخلاص من المهمة والمهمة هي متى تسقط حكومة أزهري وتتولّى الحكم حكومة السيدين.

فرقت بنط

الذي أعلمه وأنا على ثقة منه كما أسلفت أنّ حزب الشعب الديمقراطي أسس في يوليو من السنة السابقة أي سنة 1955م وعلى أن يكون رئيسه الشيخ علي عبد الرحمن.

ورسمت الخطة أيضاً على أنّ الشيخ علي عبد الرحمن سيكون رئيس الحكومة لأنّه إذا ما حدث الخلاف بين الختمية والوطني الاتحادي سينحاز إلى جانب الحزب الجديد ثلاثون نائباً على الأقلّ هذا زيادة على ما سيحصلون عليه من الجنوبيين ولن يبقى مع أزهري إلّا سبعة عشر نائباً. والثلاثون نائباً أو أكثر إذا ما اتلفوا مع حزب الأمة ستكون الرئاسة عندهم لا عند حزب الأمة ونشأ سوء التقدير من الاعتقاد بأنّ كلّ طائفي في الحزب الوطني الاتحادي سيسير في ركاب الحزب الجديد.

كانت التنظيمات سائرة في الخفاء وفي شبه العلنية أيضاً لتطهير الحزب مع إسقاط الحكومة وكان الوزراء الذين سيخرجون على الحزب مصرين على البقاء فيه إلى آخر لحظة وكان رئيسهم ينفي للصحافة نفيّاً قاطعاً أنّه ليس هناك تفكير في قيام حزب بل يصف الذين يرددون مثل هذا القول بالقرض والدس.

وفي آخر يونيو دُعيت مع آخرين من النواب لزيارة لإنجلترا بدعوة من البرلمان

الإنجليزي وكان معي حمّاد توفيق وكان وزيراً للمواصلات عن الوطني الاتحادي وكذلك النائب طيفور محمد شريف وفي المطار جاءه السيدان علي عبد الرحمن والمرحوم أمين السيد وانتحيا بحمّاد في غرفة كبار المسافرين ووقع لهما على استقالته من الحزب لتكون تحت تصرفهم إلى أن تحين ساعة الصفر.

وفي مصر وبمنزل المرحوم السيد مصطفى أبو العلا اجتمعنا للغداء وكان معنا السيد عبد الله خليل وجزّنا الحديث إلى الأغاني والموسيقى ومن غير قصد قال حمّاد لعبد الله خليل إذا حدث تعديل أرجو أن تحتفظوا لي بوزارة الشؤون الاجتماعية لأنّ لي فكرة في تطوير الأغاني والموسيقى.

وسافرنا إلى إنجلترا ولم نمكث أكثر من ثلاثة أيام حتّى ظهرت التايمز تقول إنّ وزارة الأزهر القومي تعاني أزمة وكان الإنجليز الذين اجتمعوا بنا صباح يوم ظهور الخبر وهم عدد كبير ممن كانوا يعملون في السودان كانوا يعجبون من وزارة قومية مكوّنة من كلّ الأحزاب تعاني أزمة ومن يا ترى الذي سيسقطها.

قطعت الرحلة وعدت إلى السودان وفي يوم الأربعاء 4 يوليو سنة 1956م جاء اليوم المتفق عليه أو حانت ساعة الصفر وفي صباح نفس اليوم تقدّم الفرسان الثلاثة وفي الساعة صباحاً باستقالاتهم من الوزارة ليقفوا بعد ثلاث ساعات مع المعارضة ويصوت الاثنان الموجودان بالعاصمة ضد الحكومة التي كانوا أعضاء فيها إلى قبل ساعات.

تقدّم السيد رحمة الله محمود (أمة) باقتراح يقول «إنّه من رأي هذا المجلس أنّ السيد رئيس الوزراء قد فقد ثقة هذا المجلس» وقرأ حديثاً طويلاً معداً بروح تقطر حقداً وألفاظ حوت ما حوت من الكلمات النابية الشيء الذي جعل الرئيس يوقفه أو يطلب منه الاعتذار أكثر من ثلاث مرّات.

وبعدها وقف السيد محمد محمود محمد(ريفي كسلا ختمي) ولم يقل أكثر من أربعة كلمات هي «أنتي أنتي هذا الاقتراح» وتحدث النواب من الجانبين مؤيدين الاقتراح ومعارضين له وتحدّث الجنوبيون أيضاً وتباكوا على حوادث التمرد ولكن أعجبت بكلام السيد بوث دبو لأنّه علّق على نقطتين تتفقان مع هواي الأولى عدم جدوى الحكومة القومية والثانية مغالطة الجنوبيين الذين أيّدوا الاقتراح وللحقائق والتاريخ قال بوث:-

« لقد ذكر مقدم الاقتراح بأنّ السيد رئيس الوزراء قد فقد ثقة هذا المجلس وكان

الأجدر بهم أن يقولوا إنه قد حانت الفرصة ليتسلّموا فيها كراسي الحكم» وقال: «إنّ العمل للتخلص من الحكومة القومية الحاضرة ليس مفاجأة لي فقد أعلنت للصحافة رأيي منذ أكثر من سنة وذلك باقتباس رأي دزرائيلي في الحكومة القومية الذي قال: «إنّ إنجلترا لا تحب قيام الحكومات القومية وذلك لسبب السياسات المتعارضة والتناحر حول المطامع».

وقال في رده على النواب الجنوبيين «أذكر نائب غرب بحر الغزال ذلك البيان الذي وضعته ليزاع على المتمردين وطلبت منه أن يوقع عليه فرفض كما رفضه أعضاء حزب الأحرار، إنّنا جميعاً نذكر الكوارث التي كانت تحدث في العهد السابق وأسواق هنا على سبيل المثال حادثتين وأريد أن أعرف رأي أعضاء حزب الأحرار فيهما- فالحادثة الأولى هي إبادة الدينكا بالمدافع الرشاشة عندما قتلوا أحد البريطانيين أمّا الثانية فهي ما فعله البريطانيون بالنوير عندما قتلوا المستر فرغنسن مفتش المركز سنة 1927م».

وأخيراً طرح الاقتراح لأخذ الرأي عن طريق الفصل وأجيز بأغلبية 60 صوتاً مقابل 31 صوتاً.

وأضح أن الذين خرجوا على الوطني الاتحادي من النواب خمسة عشر نائباً أضيف إليهم فيما بعد السيدان حمّاد توفيق وطيفور محمد شريف بعد عودتهما من إنجلترا. لهذا جعلت العنوان فرقت بنط والحقيقة أنّها فرقت أبناطا لأنّ الأمة أغلبية ويجب أن تتحكّم هي في الأمر وجاء الشعب الديمقراطي ومن يقف من خلفه يحملون حزب الأمة على رؤوسهم إلى الحكم.

قضية عبد المنعم

ومما يؤيد ما ذهبت إليه وأنّ الغاية كانت الوصول إلى الحكم بأيّ وسيلة وقد تحالفت على ذلك جهات ثلاث وإنّ المؤامرة كانت قد بدأت قبل الاستقلال تلك القضية التي رُفعت ضد عبد المنعم حسب الله وكان عبد المنعم قد اتهم الحكومة ورئيسها بالرشوة والتآمر.

وعند نظر القضية أبرز عبد المنعم وثائق دامغة أثبتت أنَّ النواب الذين تحوّلوا كانوا يتناولون مرتباً شهرياً من عبد الله خليل بواقع خمسين جنيهاً في الشهر منذ يناير سنة 1956م وجئ بالكشف أمام المحكمة عليه أسماء النواب والمرتبّات التي يتقاضونها وتوقيع السيد عبد الله خليل عليها.

وكان المرحوم مبارك زروق هو المحامي عن عبد المنعم فأصرَّ على أحد شينين إمّا أنَّ يحضر عبد الله خليل أمام المحكمة ويؤدي الشهادة وهو رئيس الوزراء أو يعترف للمحكمة بأنَّ ذلك التوقيع هو توقيعه وهو يقره واختصر عبد الله الطريق واعترف بصحة الكشوفات والتوقيع.

وكانت تدفع تلك المرتبّات لأولئك النواب على أنَّهم نواب الختمية بينما هم في الحزب الوطني الاتحادي ولم ينفصلوا عنه إلى يوم إسقاط الوزارة الائتلافية. تلك صور من صور الماضي المخجل نسجلها للحقيقة والتاريخ.

تقرير الجنوب

قامت حوادث الجنوب أو التمرد في أغسطس سنة 1955م وفي سبتمبر من نفس السنة عيّن وزير الداخلية بعد موافقة مجلس وزراء السادة قطران القاضي رئيساً والسيد خليفة محبوب مدير عام المشاريع الاستوائية والزعيم لوليك لادو زعيم ليريا عضوين للتحقيق في الاضطرابات ورفع تقرير عن الأسباب التي أدّت إليها.

وتطوّرت الأحداث السياسية وقامت الحكومة القومية ثمَّ جاءت حكومة السيدين ومنذ قيام الحكومة القومية كان في الإمكان تقديم تقرير لجنة التحقيق لأنّه قدّم إلى السيد وزير الداخلية في 18/2/1956م وكان الأمل قوياً أنَّ يدين هذا التقرير الحكومة في تصرفاتها أو يصمها بالجهل أو يصفها بالتقصير أعني حكومة الأزهري وبذلك يستغل في الهجوم عليها.

ولكن التقرير جاء بعكس ذلك ووصم بعض الدعاة للانتخابات في الجنوب وكان على رأسهم من جانب الوطني الاتحادي الشيخ علي عبد الرحمن كما إنَّ التقرير قالها صراحة بأنَّ الإنجليز كانوا إلى جانب حزب الأمة وكانوا يقومون بالدعاية له نيابة عنه فقد

جاء في صفحة (131) من التقرير:

« كانت نقطة الخلاف الرئيسية بين الحزبين الكبيرين في السودان هي هل يرتبط السودان مع مصر بأي نوع من الارتباط كما كان ينادي بذلك الحزب الوطني الاتحادي أم يكون مستقلاً استقلالاً تاماً كما كان ينادي بذلك حزب الأمة. ومن الجلي أن البريطانيين كانوا يعطفون على الحزب الثاني. وقد أثر الإداريون البريطانيون هنالك لما لهم من صلة وثيقة مع الزعماء والأهالي في مراكزهم سواء أكان ذلك عن طريق مباشر أو غير مباشر على الناس لتأييد استقلال السودان. وقد كانت آراؤهم فيما يختص بنقطة الخلاف الرئيسية مطابقة لوجهة نظر حزب الأمة.

لذلك فإن رجال حزب الأمة لم يكونوا في حاجة إلى القيام بحملة واسعة لكسب الأصوات في الانتخابات في جنوب السودان لأن هنالك أشخاصاً آخرين يقومون لهم بهذه المهمة».

لهذا السبب الذي يربط حزب الأمة حليف اليوم بالنسبة لحزب الشعب أو الشيخ علي وعدو الأمس بالنسبة لاشتراك الشيخ علي نفسه لم يستطع أن يخرج تقرير الجنوب الذي قدّمته اللجنة في 1956/2/18م إلا في أكتوبر سنة 1956 بعد أن قامت حكومة السيدين فعلاً وأصبح ظهور التقرير لا يهمها كثيراً.

حكومة السيدين

كان الوطني الاتحادي حريصاً كل الحرص على أن يضع أسساً ديمقراطية وتقاليد قومية فلم ينفرد مع ما كانت عنده من قوة وما كان يتمتع به من سند لم ينفرد بعمل كبير بل حاول إشراك المعارضة أو التشاور معها في كل الأحداث.

والشيء الوحيد الذي لم يشرك فيه المعارضة هو لجنة السودنة لعلمه أن المعارضة ما كانت مؤمنة إيماناً راسخاً بالسودنة أمّا ما عدا ذلك فكان حرص الوطني الاتحادي شديداً في وضع الأسس التي تعطي المعارضة اعتبارها وتحفظ لها حقها وكرامتها لأنه ليس معنى حصول حزب ما على أغلبية أن يتجاهل الأقلية التي قد يكون لأرائها ومشاورتها نفع كبير وتقليد حسن.

وكنّا نعلم أنّ الحكم تقليد لا تخليد وإن أغلبية اليوم قد تكون معارضة الغد وآته لا خير يرجى من الغرور بهذه الأغلبية.

كنّا ننتظر أنّ تتذكر الحكومة الجديدة كلّ هذه التقاليد التي وضعنا أسسها وحرصنا على أنّ تكون سوابق لغيرنا وكم من أحداث مرّت بنا فلا ننسى أنّ المعارضة يجب أنّ يؤخذ رأيها أو على الأقل تكون على علم سابق بما سيتمّ وزاد ذلك التعاون من جانبنا في الأيام الأخيرة التي أعقبها إعلان الاستقلال وكذلك الإجراءات التي تمّت عند إعلان الاستقلال.

وجاءت حكومة السيدين وكأنّها حكومة احتلال أجنبي أبدت من أنواع الصلف والاستبداد ما جعلنا نؤمن أنّها كانت تظنّ أنّها مخلّدة وظهرت شعارات «أنت رئيسها وسلمها لعيسى» أي إنّ عبد الله خليل لن يخرج من الحكم إلّا إذا ظهر عيسى عليه السلام ولكنّه سلمها قبل قيام عيسى وإلى عبود.

وبدأت الحكومة أول ما بدأت بالصفاير فأحرق وزير الاستعلامات والعمل كلّ الصور وأزالها من كلّ مكان ومسح كلّ الأشرطة حتّى الأشرطة والصور التي كانت تحوي أحداثاً تاريخية ولو كان الأمر في غير هذا البلد لاحتفظ بها في متحف مع صور النواب الذين توجوا كفاح الشعب بإعلان استقلاله ولم يتهاونوا فيه بترك الأمر إلى لجنة دولية كانت لها صلاحيات لا حدّ لها وكلها ليست في صالحنا خصوصاً بعد حوادث الجنوب. كانت تصرفات تلك الحكومة التي سمّاها رئيسها نفسه حكومة السيدين وأعتبر بهذا القول أعضاء البرلمان كمأ مهملاً لا أثر ولا قيمة لهم كانت تصرفاتهم تصرفات الذي نسي الدنيا إلّا نفسه وجهل التاريخ وعظاته والله وقدرته وأوشك أنّ يقول أنا ربكم الأعلى. أمّا أولئك الذين كانوا معنا بالأمس وكانوا يعلنون على رؤوس الإشهاد وفي كلّ مكان وكلّ مناسبة أنّ الرئيس أزهري نبي الوطنية وخالق الحركة الوطنية وأنّ الهنافات يجب ألا تردّد إلّا اسمه وأنّ طاعته والانقياد له من مكملات الإيمان ومتممات العقيدة هؤلاء كانوا الألسنة الناطقة بكلّ فحش حتّى أنّ حزب الأمة وقف وقفة المتفرج وترك هزر الكلام وفحش القول والصفافة بكلّ ما تحمل من معاني إلى أولئك المتطوعين المتنكرين.

حرق العملة

294

فكّر السودان في أن ينشيء له عملة خاصة به فقد كانت العملة المتداولة هي المصرية والإنجليزية ولا أريد هنا أن أسرد تاريخ التفكير في العملة ومتى كان فتلك أمور نجعلها أو نجهل ما كان منها قبل عهد الحكم الوطني ولكن طبعت العملة بعد أن وافقت المعارضة ممثلة في زعيمها على كل ما كان في ورقة العملة من رسومات أو توقيع وكان قد وقّع على العملة السيد رئيس الحكومة إسماعيل الأزهري وما كان ذلك إلا بناء على رغبة الفنيين.

ولكن أزهري رئيس الحكومة وأزهري بدا اسمه يصعد ويعرفه العالم وأزهري أصبح جزءاً من تاريخ السودان وكيف يستقيم هذا ووجود أسياذ كبار كانوا هم دون سواهم كل شيء. يجب أن يزول اسم أزهري ويجب ألا يتداول الشعب أوراقاً مالية عليها توقيع الأزهري واجتمع مجلس وزراء السيدين وقّر حرق كل العملة التي كلفت الدولة في الطبع والنقل كما يقول وزير المالية آنذاك ثمانين ألف جنية وربع مليون كما أقول أنا.

واليكم ما دار في البرلمان عند مناقشة موضوع حرق العملة وكان ذلك في 1956/11/21م فهذا النقاش يُعطي فكرة واضحة لرأي الحكومة ورأي المعارضة ويجعل القارئ يتصوّر كيف كانت تفكر تلك الحكومة وأنّ اتهامنا لها بأنّها حكومة انتقامية ليس فيه مبالغة ولا تعنّت.

وفي جلسة يوم 1956/11/21م عندما أدلى السيد وزير المالية ببيان أعمال وزارته سرد البيان الآتي عن حرق العملة فقال:

بدأ التفكير في إصدار عملة منفصلة للسودان في أواخر علم 1951م وقد عهدت الحكومة في ذلك الوقت إلى شركة واترلو بتجهيز الرسومات والورق استعداداً للطبع عندما يطلب منهم ذلك.

وعند قيام الحكم الوطني في أوائل عام 1954م بدأت المعارضة تطالب بالإسراع في إصدار عملة مستقلة للسودان ولكن حكومة الوطني الاتحادي لم تكن راغبة في ذلك بالرغم من إلحاح المعارضة واستمرّت المشادة بين الحكومة والمعارضة إلى

أواسط عام 1955م عندما بحث مجلس الوزراء في جلسته بتاريخ 1955/6/18م مذكرة تُقدّم بها السيد وزير المالية حول العملة الجديدة والوسائل العملية لإصدارها وعرض السيد الوزير على المجلس نماذج من أوراق النقد التي تمّ الاتفاق على تصميماتها في عهد المجلس التنفيذي والتي ترك مكان التوقيع فيها ليملاً بإمضاء المختصين بعد أن تمّت الموافقة النهائية على النماذج المعروضة.

وقد جاء في مطلع مذكرة السيد وزير المالية إلى المجلس قوله (يجب أن يلاحظ أن نماذج أوراق النقد المعروضة تُعبّر تعبيراً واضحاً عن مناظر السودان ومواضيع ذات طابع قومي وليس فيها ما يحمل أيه دلالة سياسية وهي بوضعها هذا ستكون مقبولة لدى كل الهيئات الوطنية بألوانها السياسية والدينية المختلفة).

ثمّ طاب السيد وزير المالية من المجلس أن يوافق على الإجراءات التي تُقدّم بها للعمل لإصدار العملة.

وطلب أيضاً من المجلس تكوين لجنة وزارية حصر مسؤوليتها في اتخاذ قرارات حول المسائل التفصيلية وضرب لها مثلاً باللون الذي تحمله أوراق النقد وتصميمات النقود المعدنية.. إلخ على أن يكون معلوماً إنّ كلّ المسائل الهامة في هذا الصدد يجب أن تعرض على مجلس الوزراء... وقال أيضاً إنّ من واجب هذه اللجنة أن تبحث إذا كان من المرغوب فيه إصدار أوراق مالية من فئة الخمسين والمائة جنيهاً. وقال وزير المالية إنّ على هذه اللجنة الوزارية أن تتقدّم بتقارير دورية إلى مجلس الوزراء عن أعمالها.

وبعد دراسة مذكرة السيد وزير المالية اتخذ مجلس الوزراء آنذاك القرارات التالية:-

1. الموافقة على الرسومات التي تمّ إعدادها على أن يعاد النظر فيها عندما يأتي الوقت لإصدار طبعة ثانية من الأوراق المالية.

2. أن تتخذ الإجراءات العملية كالتي ورد ذكرها في مذكرة وزير المالية بقصد توفير الوقت عند اتخاذ قرار نهائي بإدخال العملة المنفصلة.

3. تشكيل لجنة مكوّنة من السادة رئيس الوزراء ووزيري المواصلات والتجارة للتشاور مع وزير المالية في المسائل التفصيلية التي يجب أن تتخذ فيها قراراً على أن تعطى هذه اللجنة لمجلس الوزراء من وقت لآخر تقريراً بأعمالها وأن ترفع كلّ القرارات الهامة لمجلس الوزراء للموافقة عليها قبل العمل بها.

انصرفت اللجنة الوزارية الخاصة بموضوع العملة بعقد اجتماعاتها واتخاذ قراراتها بدون الرجوع إلى مجلس الوزراء والواقع أنَّ الموضوع الوحيد الذي كان على هذه اللجنة أن تدرسه وتتقدّم بتوصياتها عنه إلى مجلس الوزراء هو التوقيع على أوراق النقد... من يوقع عليها وما هي المبررات لتوقيع من يتفق عليه- ولكن مجلس الوزراء كان يجهل أعمالها بالرغم عن المذكرات العديدة التي أرسلتها سكرتارية مجلس الوزراء مطالبة بتقديم تقرير عن أعمالها.

وبعد بضعة شهور علم السيد رئيس الوزراء السابق والذي هو رئيس حزب سياسي قد وضع توقيعه على أوراق النقد بجانب توقيع وزير المالية وبهذا الإجراء غير الطبيعي:- (أ) عمل السيد رئيس الوزراء ضد الروح التي بدت بجلاء في مذكرة السيد وزير المالية عندما أكد أنَّ أوراق النقد قبل التوقيع عليها لم تحمل أي طابع سياسي أو ديني ممّا يجعلها مقبولة لدى الجميع... تلك المذكرة التي أجازها مجلس الوزراء آنذاك بكل تفاصيلها.

(ب) تجاهل السيد رئيس الوزراء مجلس وزرائه فلم يعمل بقراره الذي قضى بأن تكتب لجنة العملة الوزارية التي كان يرأسها تقارير دورية عن أعمالها للمجلس للموافقة على قراراتها قبل العمل بها.

تحدى المعارضة فلم يعبأ بوجهة نظرها عندما اعترضت على توقيعه على الأوراق المالية حين عرفت ذلك ومضى في طبع العملة كما أرادها أن تصدر.

لعلنا لم ننس بعد تلك الضجة التي أثارها أحزاب المعارضة في ذلك الحين عندما اعتبرت هذا التصرف من السيد رئيس الوزراء السابق عملاً حزبياً سيؤدى إلى التأثير على سمعة العملة وأضعاف الثقة بها لدى الشعب وعندما طالبت المعارضة بإيقاف طبع تلك الأوراق حتّى يستبدل التوقيع عليها بإمضاء الموظفين المختصين في وزارة المالية.

وعندما جاءت الحكومة الحالية إلى مقاعد الحكم وجدت انقساماً خطيراً في الرأي العام السوداني... الأحزاب الموالية للحكومة تعترض على هذه الأوراق وترفضها رفضاً باتاً وحزب المعارضة يطالب بإصدارها وفي ذات الوقت تجمع لدى الحكومة من المعلومات ما يؤكد أنَّ دعاة المعارضة الحالية أخذوا يبشرون في المدن والأقاليم بقرب إصدار عملتهم ممّا ضاعف ثورة جماهير الشعب الأخرى وقضى بذلك على كل

ما تبقي من أمل للثقة المحلية في تلك الأوراق _ ولا شك أنَّ عامل الثقة هام في الوقت الذي تصدر فيه أول عملة سودانية وخصوصاً لأننا سنطلب من أفراد الشعب أن يسلموا الأوراق المالية التي في أيديهم والتي اعتادوا التعامل بها في السنين الطويلة الماضية ويستبدلوها بالأوراق الجديدة ومن هنا كانت أهمية عامل الثقة - وهذا ما حدا بالسيد وزير المالية السابق في أن يكرر في مذكرته لمجلس الوزراء «إنَّ نماذج أوراق النقد ذات طابع قومي وليس فيها ما يحمل أيَّ دلالة سياسية وهي بوضعها هذا ستكون مقبولة لدى الهيئات الوطنية بألوانها السياسية والدينية المختلفة».

تدارست الحكومة كل وجهات النظر بتأنٍّ وتبصُّر وكان عليها أن تأخذ بأحد أمرين:

1. إمَّا أن تصدر هذه الأوراق وتتحمل مسؤولية إصدار عملة لا تثق بها أغلبية الشعب وبذلك تتعرض اقتصادياً لهزات عنيفة.
2. أو تقرّر إعدامها ثمّ تسارع في إصدار أوراق جديدة يوقّع عليها أعضاء لجنة العملة ولا تتسم بأيّ طابع سياسي.

ورأت الحكومة أمام كل هذه الاعتبارات أن إعدام تلك الأوراق ضرورة تقتضيها مصلحة البلاد.

أمَّا وقد سردت بالتفصيل الأسباب التي أدت إلى إعدام العملة فمن واجبي أن أذكر بعض النتائج التي تترتبت على هذا القرار.

1. إنَّ تكاليف طبع وترحيل العملة التي أعدمت هي 79.971 جنيهًا مصرياً.
2. كان المقدر أن تصدر العملة في آخر شهر سبتمبر من هذا العام أمَّا العملة الجديدة فسيكون منها في السودان بموجب الاتفاقات المعقودة مع الطابعين ما يكفي لإصدارها في آخر مارس سنة 1957م.
3. لم يتسبّب عدم إصدار عملتنا الخاصة في تأخير قبول السودان عضواً في مؤسسة النقد الدولية والبنك الدولي ولمعلومية المجلس فقد صدر القرار من المحافظين للمؤسستين بقبول عضوية السودان في سبتمبر الماضي.

أرجو أن أكون قد أوضحت بالتفصيل كل الظروف التي أحاطت بإعدام العملة ولكن هناك سؤالاً واحداً ربما يتبادر إلى أذهان الكثير من الأعضاء المحترمين وهو ما

رأى الفنين في إعدام العملة والجواب على ذلك هو أنَّ الفنين في وزارة المالية كانوا يرون منذ أواخر عام 1951م أنَّ من مصلحة السودان الإسراع بإصدار العملة المنفصلة واستمرَّ هذا رأيهم طول فترة وجود المجلس التنفيذي وكان هذا رأيهم أيضاً منذ بداية الحكم الوطني في أول عام 1954 وهذا رأيهم اليوم.

وهذا أيضاً رأي الحكومة الحاضرة عندما كانت في المعارضة ورأيها اليوم وهي في كراسي الحكم وهذا ما حدا بها أنَّ تتفق مع شركتين من شركات الطبع بدل شركة واحدة حتَّى يتسنى لها الإسراع بإصدار العملة الجديدة.

وكان قد تمَّ الاتفاق في الحزب على أنَّ أنقد أنا حرق الحكومة للعملة وكيف أنَّ مسلكتها كان خاطئاً أملته روح الانتقام والتشفي ناسية مصلحة البلد فقلت:- لا أريد أن أتحدَّث حديثاً عاماً ولكنني أريد أن أحصر حديثي في خطيئة واحدة من خطايا الحكومة الكبرى ألا وهي مسألة حرق العملة.

لقد مرَّت أيام على هذه البلاد انتعشت فيها الحالة الاقتصادية وكان المال عند المواطنين ملء أيديهم فنتج ذلك أنَّ عبث بعض الناس بالمال وتصرفوا فيه تصرفات شتي كان أغربها أنَّ بعض العابثين في مجالس أنسهم وطربهم وفي لحظات تسيطر فيها العاطفة على العقول بلغ بهم العبث أنَّ يحرق أحدهم ورقة من ذات الخمسة أو العشرة جنيهاً ليشعل لغادة هيفاء أو فتاة لعوب لفاقة من التبغ ومع كثرة المال عند الأفراد ومع أنَّ هؤلاء قد حصلوا عليه بكدهم وجهدهم وعرق جبينهم ومع أنَّه كان بعض الناس يلتمس الأعدار لأولئك العابثين في عبثهم إلا أنَّ العقل والمنطق أبيا إلا أنَّ يصما أولئك العابثين بالسفه وأنَّ يعتبروا في نظر المجتمع ناقصي عقل يستحقون أن يحجر عليهم وأنَّ يحال بينهم وبين العبث بمالهم حتَّى لا يضيعونه هدرًا ويحرقونه سفهاً.

وما كان الناس يتصورون أنَّ يأتي يوم على السودان يحرق فيه الناس الأموال بمثل ما حرقها أولئك العابثون ما كانوا يتصورون أنَّ يحدث مثل ذلك في النصف الأخير من القرن العشرين وفي عهد العلم والنور بل في عهد المادة ينتفع فيه بكلِّ قرش ويحتاج فيه إلى كلِّ مليم ما كانوا يتصورون أنَّ يأتي عهد مثل ذلك العهد مهما زاد الخير ومهما انتعشت الحياة ومهما كثر المال في الأيدي إلى أنَّ جاءت هذه الحكومة التي أرادت أن تصنع المعجزات وأنَّ تبذ الأوائل والأواخر.

جاءت الحكومة الحاضرة لا لتحرق خمسة جنهيات ولا خمسين جنهياً ولا خمسمائة جنهيه ولا خمسة آلاف ولا خمسين ألفاً بل حرقت ثمانين ألفاً من الجنهيات بعمود نقاب.

وليبتها كانت حرقتها في مجلس أنس أو في لحظات انسجام ففي ذلك نوع من الفتوة وإشباع لرغبة التفاخر والمباهاة ولكثها حرقتها لسبب واحد هو الرغبة الجامحة في التشفي والانتقام لقد فعلت الحكومة فعلتها دون تهيب ولا وجل وحرقت من مال الأمة ثمانين ألفاً من الجنهيات كلف البلاد حرقها واستبدالها بسواها ما يبلغ ربع المليون من الجنهيات ليرتاح ضمير بعض الناس ولتنطفئ في نفوسهم نار الغضب والحنق ولتهدأ أعصابهم التي غاظها أن تسعد البلاد وأن يكمل استقلالها وأن تتم لها معاني الحرية والسيادة. ربع مليون من الجنهيات أخذت من عرق الزارع والتاجر والصانع وانتزعت من فم الجائع والمريض والفقير لتحرق قرباناً في هيكل الأحقاد والضغائن ولتشبع بها شهوة التشفي والانتقام.

لقد فزعت الأمة لهذا التصرف الشاذ وتطلعت وكلها شوق ولهفة لمعرفة السبب ولتسمع رأي الحكومة في هذا التصرف وتمنيها من كل قلوبنا أن نجد عذراً للحكومة بعيد إلى النفوس الاطمئنان والثقة في إن العقول مازالت سليمة وأن هذا التصرف الشاذ له ما يبرره.

وقام السيد وزير المالية والاقتصاد يدافع عن شرعية التصرف ويلتمس الأعذار لحكومة الحرائق فجاء دفاعه واهياً متداعياً لا تستقيم حججه ولا تقوى على الوقوف أدلته لأنه دفاع المحامي الذي لا يؤمن بعدالة قضيته ولا يثق في صدق موكله.

جاء في بيان السيد وزير المالية والاقتصاد الذي أدلى به في هذا المجلس محاولاً

برير حرق العملة قوله:-

1. عمل السيد رئيس الوزراء ضد الروح التي بدت بجلالة في مذكرة السيد وزير المالية عندما أكد أن أوراق النقد قبل التوقيع عليها لم تحمل أي طابع سياسي أو ديني مما يجعلها مقبولة لدى الجميع وأراد منا أن نفهم من ذلك أن توقيع السيد رئيس الوزراء عمل سياسي يجعل العملة غير مقبولة لدى الجميع.

2. تجاهل السيد رئيس الوزراء مجلس وزرائه فلم يعمل بقراره الذي قضى بأن تكتب لجنة العملة الوزارية التي كان يرأسها تقارير دورية عن أعمالها للمجلس للموافقة

على قراراتها قبل العمل بها.

3. تحدى المعارضة فلم يعبأ بوجهة نظرها عندما اعترضت على توقيعه على الأوراق المالية حين عرفت ذلك ومضى في طبع العملة كما أرادها أن تصدر. لهذه الأسباب حرق الحكومة العملة ولم تعبأ بالنتائج الخطيرة المترتبة على تأجيل إنزال العملة من النواحي السياسية والاقتصادية ومن حيث الخسارة المادية.

وهذه هي الأسباب التي دافع بها السيد وزير المالية والاقتصاد عن حرق العملة وهي أسباب واهية وحُجج مُتداعية لا تستقيم وإذا استقامت فهي لا تُبرّر ارتكاب تلك الغلظة الكبرى التي كلّفت البلاد باعتراف الوزير نفسه أضراراً خطيرة أخرت تقدّم البلاد الاقتصادي وأخرت تكملة مظاهر الاستقلال التي نحرص جميعاً على استكمالها. يقول السيد الوزير إنّ السيد رئيس الوزراء عمل ضد الروح التي بدت بجلاء في مذكرة وزير المالية والاقتصاد السابق عندما أكّد أنّ أوراق النقد قبل التوقيع عليها لم تحمل أيّ طابع سياسي أو ديني إلى آخر ما قاله السيد الوزير.

ولا أدري من أين جاء الوزير بكلمة التوقيع وكلام وزير المالية السابق كان واضحاً في أنّ الأوراق المعروضة والتي يتحدّث عنها الوزير كانت كاملة الصورة بما في ذلك التوقيع وها هو ذا كلام وزير المالية السابق الذي كان دفاعاً عن الأوراق المحروقة بما فيها توقيعه هو وتوقيع السيد رئيس الوزراء فقد قال الوزير « يجب أن يلاحظ أنّ نماذج أوراق النقد المعروضة تُعبّر تعبيراً واضحاً عن مناظر ومواضيع ذات طابع قومي وليس فيها ما يحمل أيّ دلالة سياسية وهي بوضعها هذا ستكون مقبولة لدى كل الهيئات الوطنية بألوانها السياسية والدينية المختلفة.

ويؤيّد ما ذهبنا إليه أنّ السيد وزير المالية والاقتصاد السابق ما كان يرى في توقيع السيد رئيس الوزراء أيّ دلالة سياسية أنّه لم يعترض أو يحتج أو يبدّ منه ما يشتمّ منه شيء من ذلك.

ويؤيّد ما ذهبنا إليه أنّ السيد وزير المالية والاقتصاد الحالي في الوزارة القومية لم يبدّ منه أيّ اعتراض بل هو نفسه الذي جاء بالأوراق إلى هذا المجلس وعرضها على الأعضاء.

ولو كان لحجة الوزير وزن لأثيرت في عهد الحكومة القومية وكان ذلك أنسب وقت لها ولكن لأنّ السبب غير هذا السبب أرجئت إثارته إلى أن تأتي الفرصة المناسبة

وقد جاءت.

إنَّ السيد رئيس الوزراء لم يُوقَّع على العملة بوصفه رئيساً لحزب الوطني الاتحادي ولكنه وقعها بوصفه رئيساً لمجلس الوزراء وهذا تصرُّف ليس بالغريب كما قال الخبراء، ومن قال إنَّ الوزراء الحزبيين لا يُوقَّعون على أوراق النقد أو أنَّ توقيعهم يحمل دلالة سياسية فهذه مصر إلى جوارنا وإلى ما قبل الثورة كان يُوقَّع وزراؤها وهم حزيون على أوراق النقد وهي الأكثر تداولاً بين أيدي الجمهور ولم تأت حكومة فتجمع العملة التي وقَّعها الوزير السابق وتحرقها.

بل هذه الثورة المصرية وقد قامت في مصر وخلعت الملك واستبدلت بالنظام الملكي النظام الجمهوري فإنَّها مع ذلك لم تعتمد إلى العملة التي بها صورة الملك فتحرقها أو تمنع تداولها.

وإذا كان السيد الوزير وحكومته لا يَقرون توقيع السيد رئيس الوزراء ويرون أنَّ يُوقَّع عليها الموظفون فما هو الضمان ألا يستقيل هؤلاء الموظفون أو أحدهم غداً أو بعد غد ويعمل في السياسة الحزبية ويُرشح نفسه ليصبح وزيراً أو رئيساً للوزراء فهل تلجأ الحكومة أيضاً إلى جمع العملة وحرقها كلما استقال أحد هؤلاء الموظفين وعمل في السياسة.

وقبل كل هذا أنَّ وزير المالية والاقتصاد يعلم أنَّ توقيع رئيس الوزراء ما كان برغبة منه ولكنَّ لضرورة رآها الفنيون في وزارة المالية واعترف بذلك السيد الوزير في هذا المجلس بأنَّ توقيع السيد رئيس الوزراء كان بناء على رغبة الفنيين وطلبهم.

إذن أيُّ روح تلك التي خالفها السيد رئيس الوزراء؟ والحجة الثانية التي أتى بها السيد وزير المالية والاقتصاد هي أنَّ السيد رئيس الوزراء تجاهل مجلس وزرائه فلم يعمل بالقرار الذي قضى بأنَّ تكتب لجنة العملة الوزارية التي كان يرأسها تقارير عن أعمالها للمجلس للموافقة على قراراتها قبل العمل بها.

ولو كان لأحد أن يحتج على هذا أو يُرتَّب عليه عملاً لكان هذا من حقِّ الوزراء أنفسهم وكونهم تسامحوا في حقِّ من حقوقهم وأقرُّوا تصرُّفات اللجنة لا يبيح لأحد غيرهم أن يحتج باسمهم خصوصاً إذا لم يترتب على ذلك اختلاف في الرأي أو تضارب في الآراء.

وقبل أن يزعم السيد وزير المالية والاقتصاد أنَّ السيد رئيس الوزراء تجاهل مجلس

وزرائه هل علم أنّ أحداً من الوزراء احتج على تصرف من تصرفات اللجنة الوزارية أو نفي تأييده لتصرفاتها؟ إنّ العبرة بالنتائج وليست بالتقارير ولعلّ السيد وزير المالية والاقتصاد نسي أنّ الوزارة السابقة كانت وزارة متضامنة وأنها لم تكن حكومة لكل فرد فيها هوي وهدف.

وأخيراً فإنّ تجاهل السيد رئيس الوزراء إنّ صحّ ذلك والذي لم يترتب عليه خلاف في الرأي لا يبيح حرق العملة.

أمّا الحجة الثالثة وهي أوهى من الحجّتين فهي أنّ السيد رئيس الوزراء تجاهل المعارضة فلم يعبأ بوجهة نظرها عندما اعترضت على توقيعه. والحقيقة أنّ المعارضة لم تحتج لا في هذا المجلس ولا في خارجه احتجاجاً بالمعنى المقبول.

والمعارضة ممثلة في زعيمها قد استبشرت قبل التوقيع ووافق زعيم المعارضة موافقة صريحة لم يستطع أن ينكرها وزير المالية نفسه وأقرّها ولا أريد أن أعيد إلى الأذهان ذكر المغالطة المكشوفة التي تذرّع بها السيد الوزير من أنّ زعيم المعارضة استشير ولم تستشر المعارضة ولا أريد أن أقول له وزعيم المعارضة هذا زعيم من؟ ومن زعمه؟.

أردت أن أعقب على الأسباب التي بنت عليها الحكومة حرق العملة وهي كما ترى واهية لأقول إنّها في الواقع ليست الأسباب الحقيقية ولكن الحقيقة أنّ هناك قوة أكبر من الوزراء أرادت أن تفرض إرادتها وأرادت ألا تقيم وزناً لأيّ قيم وطنية أو أخلاقية بل كان همّها الأول والأخير التشفّي ولو أضّر ذلك العمل بالبلد وبكبدّها أعظم الخسائر. والسيد وزير المالية والاقتصاد الذي يقف في المجلس يُبرّر حرق العملة بهذه الأسباب الضعيفة يعلم قبل غيره بل يدون بخط يده وتحت توقيعه الأخطار الجسيمة التي تصيب البلد من جراء حرق العملة وتأجيل إنزالها فهو يعترف بأنّ العملة ليست رمز الاستقلال فحسب ففي تأخير إنزالها تأخير لاستقلال البلاد واستكمال أسبابه بل هي أداة للسيطرة على اقتصاديات البلاد وأنّ الاستمرار في العملة المشتركة يهدّد مواردنا الاقتصادية ورصيدنا النقدي ويجعل مراقبة البنوك مستحيلة ويؤثّر على سمعتنا الخارجية ويحول دون حصولنا على قرض من البنك الدولي.

السيد إبراهيم أحمد - نقطة نظام - من أين أتى العضو المحترم بهذا المستند.

السيد الرئيس- أعتقد أن نقطة النظام وجيهة لأنه لا يجوز الإشارة إلى مستندات لم تُوزَّع على الأعضاء.

السيد خضر حمد- هذا الحديث ليس سراً وإنما نشرته الصحف المحلية وكل هذه الأسباب لم تكف بأن تكون شفيحاً للعملة من الحرق عند السيد وزير المالية وزملائه الوزراء ومن يستندون حكومتهم لقد رفع السيد وزير المالية والاقتصاد مذكرة لمجلس الوزراء في 6 أغسطس سنة 1956م يوضح فيها الأخطار الجسيمة والأضرار البالغة التي ستنتج عن حرق العملة وما يترتب عليها وأعلن في وضوح أن توقيع رئيس الوزراء على أوراق النقد أمر ليس بالغريب كما أكد ذلك الخبراء ثم بين ما ستعرض له البلاد من تأجيل إنزال العملة وقد جاء في تلك المذكرة بالحرف الواحد ما يلي:-
إن شركة ووترلو وأولاده التي تولت طبع هذه الأوراق قد طلب إليها إرسال مندوب للاستشارة بناء على دعوة اللجنة الوزارية للعملة وقد تقدم ممثل الشركة المستر ووترلو بالمعلومات الآتية:-

1. من الصعب إزالة التوقيع عن الأوراق التي طبعت فعلاً ومن ناحية فنية لا يسهل طمسها بمداد كثيف إذا كانت الكلمة صغيرة وبالتالي لن يكون تطبيقه عملياً بالنسبة للكميات الكبيرة التي طبعت، ولو كان ذلك ممكناً من ناحية فنية فإن المستر ووترلو يوصي بعدم اتخاذ هذا الإجراء للأسباب الآتية:-
أ. لأنه سيفسد منظر الأوراق.

ب. لأنه سيؤثر على مدى الضمان الذي نتمتع به الآن.
ج. لأنه يثير الشك في نفوس الذين سيتداولون هذه الأوراق في المستقبل ولم يجد المستر ووترلو سابقة لطمس جزء من عملة بعد طبعها.
2. وفي حالة طلب أوراق جديدة يستدعي ذلك تعديلات طفيفة في اللوح الأصلي وفي التوقيعات وسيكون الوقت اللازم لإكمال الطلب كالآتي:-
أ. شهران لصنع الورق المخصوص لذلك وفي نفس الوقت ستجهز الألواح الجديدة المناسبة.

ب. تسعة أشهر إلى اثني عشر شهراً لطبع كل الكمية المطلوبة أما إذا خُفض الطلب إلى ثلاثة أرباع الكمية الأولى فسيحتاج الطبع إلى 8 أو 9 أشهر، أما نصف الكمية الأولى فسيحتاج إلى 5 أو 6 أشهر.

وقد أكد المستر ووترلو أيضاً أنَّ الأرقام المذكورة أعلاه تقريبية ولا بدَّ من مراجعتها على ضوء الاحتياطات الأخرى المشتركة.

3. وقد وُضِّح المستر ووترلو أيضاً أنَّه ليس غريباً أنَّ يظهر توقيع السيد رئيس الوزراء في أوراق العملة.

نتيجة لما تقدَّم لم يبق إلاَّ طريقان أمام الحكومة:-

1. أمَّا أنَّ تستمر في متابعة الإجراءات الحالية وتضع أوراق العملة التي طُبعت للمداولة أو

2. أنَّ تُؤجل إنزال العملة الجديدة للمداولة لمدَّة سنة حتَّى يتسنى استبدالها بالأوراق الجديدة.

أمَّا تأجيل إنزال العملة الجديدة فستترتب عليه النتائج الخطيرة التالية:-

أ. إنَّ العملة الوطنية ليست رمزاً للاستقلال فحسب ولكنها أداة ضرورية للسيطرة على اقتصاديات البلاد جميعها لتفادي أي خسائر جديدة تنتج من تداول عملة مشتركة مع مصر والاعتبارات الهامة هي:-

أ. سنستمر في تصدير بضائع إلى مصر من المُمكن بيعها لبلاد أخرى بعملات أجنبية.
ب. إنَّ رصيدنا النقدي مع مصر يميل إلى الارتفاع وبالتالي يُقلِّل من مواردنا التي نحتاج إليها في أغراض مُثمرة وفي نفس الوقت يزيد من الصعوبات التي تقف في طريق تسوية مشكلة العملة مع مصر.

ج. سوف يكون من الصعب مراقبة البنوك لأنَّه يمكنها دائماً الحصول على نقد عن طريق التمويل من مكاتبها الرئيسية بالقاهرة.

د. ما دامت أوراق البنك الأهلي المصري متداولة في السودان فإنَّ اقتصادنا سيَتأثر تبعاً لسياسة مصر النقدية فإذا انخفضت قيمة العملة المصرية فلا بد من أنَّ يتأثر السودان نتيجة لذلك وحتى لو كانت سياستنا المالية والاقتصادية سليمة.

هـ. سيحتم تأجيل المفاوضات مع مصر بشأن استرداد العملة المصرية المتداولة الآن في السودان. وبما أنَّ احتياطي مصر من العملات الأجنبية أقرب إلى الهبوط ففي مدى عام ستكون تسوية هذه المسألة في غير صالح السودان أكثر احتمالاً ممَّا هو متوقع الآن.

2. لقد دارت مناقشات كثيرة في البرلمان وفي الصحافة المحلية عن إصدار العملات

الوطنية المرتقبة واقرنت الفكرة تماماً في أذهان الناس بالحصول على الاستقلال السياسي بحيث إنه لو حدث أي تأجيل لإصدار العملة الجديدة فقد يُخلف ذلك أثراً سيئاً أو شعوراً عميقاً بخيبة الأمل.

3. إن سمعة السودان في الخارج قد تتأثر كذلك، حيث إن الدوائر المالية الأجنبية على علم بأن العملة السودانية ستصدر قريباً وأن بنك إنجلترا وبنك السويد المركزي والبنك الأهلي المصري قد أحيطوا علماً بتكوين لجنة العملة وطلب إليهم أن يتقدموا بالمرشحين لعضوية اللجنة وأنه لمن الصعب أن تُبين لهم الأسباب في عدم تكوين هذه اللجنة.

4. إن قبول السودان للعضوية الكاملة في صندوق النقد الدولي قد يتأثر وهذا سيحول دون الحصول على قرض من البنك الدولي.

هذه هي مذكرة السيد وزير المالية لمجلس الوزراء قد بينت الأخطاء الجسيمة التي ستعود للبلد من جراء حرق العملة وألخصها في الأتي:-

أ. خسائر مادية تقرب من ربع المليون جنيه.

ب. تأجيل إنزال العملة عاماً كاملاً تسببت منه الأضرار الآتية:-

1. عطلت البلاد من أن تستكمل استقلالها لأن العملة رمز هذا الاستقلال.

2. حرمت البلاد من أن تسيطر على اقتصادياتها.

3. حرمت البلاد من أن تتمكّن من الحصول على عملة أجنبية نتيجة لتصدير بضائعها لمصر فقط.

4. زادت الصعوبات التي تقف في طريق تسوية مشكلة العملة مع مصر.

5. جعلت اقتصاديات البلد تتأثر تبعاً لسياسة مصر النقدية فإذا انخفضت العملة المصرية لا بد أن يتأثر السودان.

6. أجلت المفاوضات مع مصر بشأن استرداد العملة المصرية المتداولة الآن في السودان

7. جعلت من الصعوبة بمكان مسألة مراقبة البنوك.

8. بما أن احتياطي مصر من العملة الأجنبية أقرب إلى الهبوط ففي مدى عام ستكون تسوية موضوع العملة في غير صالح السودان.

9. ستأثر سمعة السودان في الدول الخارجية من عدم استقرار الحالة المالية.

10. آخر قبول السودان للعضوية الكاملة في صندوق النقد الدولي.
11. حرم السودان من الحصول على أيّ قرض لتنفيذ مشاريعه الكبرى التي يتوقّف عليها تقدّم البلاد.
- إنّ حكومة لا تعبأ بكلّ هذه الأخطار التي ستواجهها البلاد وتركب رأسها لمجرد الدوافع والنزوات الحزبية وتبدّد أموال الشعب بل تقود الأمة إلى الخراب بغير مُبرّر لهي حكومة غير أمينة ولا رشيدة وجديرة بأن تفقد ثقة هذا المجلس بل ثقة البلاد قاطبة.

هل تعجلنا الخلاف مع الختمة

في هذه الأيام التي أدون فيها هذا الجزء من المذكرات يتحدث الناس والصحف عن اللقاء أو الاندماج الذي يتمّ بين حزب الشعب الديمقراطي والوطني الاتحادي. تجتمع اللجان وتنفض ويعلن عن أنّ اللقاء قد تمّ وأنّ الشروط قد قبلت وكنت أعجب لكلّ هذا الحديث لا كراهة في اللقاء وتوحيد الحزب كما كان ولكن لإيماني التام بأنّ الذي سعى للفرقة وخلقها ووسع خرقها لا يمكن أن يعمل لجمع الكلمة ولمّ الشمل وتوحيد الصف ولأني على يقين تام بأنّ الدوافع التي حرّكت الذين عملوا للانشقاق ما زالت قائمة وأنّ محرّكات الأمس أقوى اليوم وأشدّ رغبة في هذا الخلاف.

كنا نحن أعضاء الوطني الاتحادي نسمع عند وقوع كارثة الفرقة وبعدها وكلمنا ضاق الخناق على البلد من حكامها كنا نسمع نقداً صارماً هو أننا استعجلنا الخلاف مع الختمة وبذلك أعطينا الفرصة للعابثين فهل هذا صحيح؟

إنّ الذي ذكرته قبل هذا وفي هذه المذكرات يوضح جلياً أنّ الوطني الاتحادي كان حريصاً كل الحرص على وحدة الصف وحاول بمختلف الطرق والوسائل أن يستجيب للرغبات وأن يستمع إلى التوجيهات وأن يعزو كلّ خير إلى البركات والتأييدات ولكنّ الجهات الأخرى الحريصة على الوحدة أولاً وجهات ثانية حريصة أن تنصدر هذه القوة الشعبية وأعني بها قوة الوطني الاتحادي التي لا يعترفون إلاّ بأنها قوة الختمة وحدهم وجهات ثالثة كانت منتفعة إذا هدأ الحال وسكنت الريح وقفت زوارقهم في

وسط البحر ونضب معين الرزق. وجهات حسبت أن الوطني الاتحادي خدعها ولا بد من أن تنتقم منه مهما كانت النتائج وسعت حتى قربت بين الخصوم الألداء. تجمعت كل هذه الجهات لتحقيق هذا الخلاف وتهدم الوطني الاتحادي أو تستولي عليه بطرد من لا يسائر ركبهم وما كان أمام الوطني الاتحادي إلا أن يدافع عن نفسه ولم يبدأ الدفاع إلا بعد أن سفر كل بعدائه وكثر كل طامع عن أنيابه وشمروا عن ساعد الجد.

وتقرب الوطني الاتحادي وأظهر استعداداه لإصلاح كل فاسد وبرضي كل غاضب وكان همّه الأول هو أن يتخطى العقبة الثانية بعد إعلان الاستقلال وهي وضع الدستور ولكن روح التشقي من جانب والفرحة بالوصول إلى كراسي الحكم من جانب آخر كانت لا تسمع ولا تبصر ولا تطلب من الله ومن كل هذه الدنيا العريضة إلا زوال حكومة أزهري.

وأخيراً خرج الختمية وكوّنوا لهم حزباً وساروا مع ألد أعدائهم فهل اتفقوا معهم وهل أثبتت التجربة نجاحاً وهل ظهر أن الذين خرجوا على الوطني الاتحادي يمكن التعاون معهم.

إن الوطني الاتحادي لم يتعجل الخلاف مع الختمية بل كان يحرص على الوحدة حرصه على الحياة ولم يبدأ الدفاع عن نفسه وحمايتها إلا بعد أن وقع الفأس في الرأس وكان لا بد له أن يدفع الشر بالشر.

هذه حقيقة يسردها من يقف على دقائقها ويعرف أسرارها ولا يتلفها من الجرائد. ومرور عابر على الخطوات التي سبقت الانقسام تؤكد أن السعي وراء الخلاف بدأ من يوم أن تكوّن الحزب وأن المحاولة للاستيلاء عليه أي الحزب كانت مستمرة وأن المناكفات التي كانت تحدث في لجنته وفي مجلس الوزراء توحى بكل هذا. وأن التحركات الطائفية التي كانت تحرك داخل الحزب سواء بسبب مطالب خاصة أو زيادة في أفراد الطائفية في اللجنة أو الرغبة في نقل هذا وترقية ذاك كل تلك كانت مناوشات تعقبها دعايات تقول إن الأزهري ما عاد يهتم بمطالب القيادة. بل ذهبت الدسائس إلى رفع تقارير إلى القيادة بأن مظاهره الحزب رمت قبور السادة بالحجارة وقد ثبت بما لا شك فيه أن تلك المظاهرة كانت مُدبرة ولم يشترك فيها اتحادي واحد. وما موضوع الصورة التي زعموا أنها حُطّمت في دار الحزب بأمر درمان ببعيد فليس

في دار الحرب ولا نادي الخريجين صورة لشخصية محترمة حتَّى تُحطَّم. وفي ذلك اليوم بالذات كان الحزب مُحْتَشِداً بالناس وكبار الختمية على الخصوص واستمعوا إلى كل كلمة أُلقيت من النواب وغير النواب فما معنى هذا ومن الذي سيستفيد منه أمّا نحن فلا ولذلك لن نُؤيده أو نشجعه.

لهذا لم تُظهر النداء الكووية

والسؤال الثاني الذي يواجهنا دائماً ونحمل تبعته هو أنّه كانت لدينا الفرصة لِنُطَهِّر الأداة الحكومية من المنافقين والذين تعاونوا مع الاستعمار ورفعهم على أكتاف الشعب لولائهم له وإخلاصهم في خدمته. وحملنا أيضاً تبعه ترقية الموظفين الذين ورثوا الإنجليز وجاءت بهم السودنة ألياً إلى المقدمة وهم من الساخرين بالحركة الوطنية والذين ليس في قلوبهم ذرة من العطف أو المسايرة للحركة التي مات من أجلها الناس وضُحُوا في سبيلها بالأرواح.

هذا هو السؤال الثاني الذي نواجه به دائماً بل نحاسب عليه ويعتبرنا البعض أنّنا أهملنا وكان يجب أن نحسم الأمور ولكن هل كان ذلك في مقدورنا أو قبل هذا هل كان ذلك من العدل في شيء؟

إنّ الموظف الإداري أو الذي يعمل في الجيش أو البوليس ولاؤه دائماً لوظيفته ولرئيسه المباشر فإذا ما تغيّر الرئيس تحوّلت الطاعة والولاء إلى الرئيس الجديد واستمع إلى الأوامر دون مناقشة.

كان الإنجليز هم الرؤساء وهم الحكومة وكانت القوانين واضحة وكان على هؤلاء أن يتلقوها وأن ينفذوها أو أن يَضْحُوا بوظائفهم دون سواهم هذا إذا سلموا من الأحكام العسكرية. وهذه الأجهزة الحسّاسة كلما كانت بعيدة عن التعبير عن ميولها واتجاهاتها الخاصة كلما كان ذلك أسلم للبلد وأحفظ لأمّنها ونظامها.

وقد علمنا ممّن مرّت عليهم التجربة التي تمرّ علينا أنّ هؤلاء الموظفين يَتَبَدَّل ولاؤهم من أول لحظة تَبَدَّل فيها الحكم وأصبح في أيدي الوطنيين.

وقد سمعنا من باني كار وكان سفير الهند في مصر ثمّ جاء إلى السودان واجتمع بنا

ومس نفس الموضوع وأشار كممثل للموظفين الذين أخلصوا للحكم الوطني أخلصهم لوظائفهم في عهد حكم الاستعمار أشار إلى سو كومانرسن نفسه وقالها أمامه وقال إنه اليوم من أخلص الموظفين وأوفرهم وطنية وقد كان في عهد الإنجليز كذلك. ونصح بأن لا نخلق أعداء دون أن نجد منهم ما يُبرّر حملتنا عليهم أو يُشكك في ولائهم ووضعنا هذا الرأي موضع الاحترام.

ولكن هناك شيء هام كان يقف حائلاً دون عمل شيء مهمما كان هؤلاء الموظفون فقد أنشأ الإنجليز لجنة الخدمة العامة لا حماية للموظفين ولكن حماية لهم أنفسهم وأصبحت تتبع الحاكم العام ولم يكن في مقدورنا أن نتخطى موظفاً لترفع من هو دونه درجة لإيماننا بوطنية هذا الأخير وإخلاصه.

فقانون الخدمة العامة اضطرنا لأن نُقدّم الناس إلى الترقّي وسودنة الوظائف حسب أسبقيتهم لا حسب وطنيتهم.

وبعد أن يقتنع هؤلاء المتسائلون بأنه لم يكن في إمكاننا ذلك في سني السودة- والاتفاقية أيضاً كانت محددة وتحصرنا في محيطها المتفق عليه- يعود هؤلاء الناقدون يقولون لم لم تفصلوا ذلك بعد إعلان الاستقلال فانتهزهم الفرصة وطهرتم الوظائف جميعاً؟ وفات هؤلاء أننا لم نمكث في الحكم بعد الاستقلال إلا شهراً قضيناه في اجتماعات تحوم كلها حول الحكومة القومية التي لم تؤخرنا فقط عن أي عمل حاسم بل كادت أن تؤخر الاستقلال نفسه لولا أن حزم الأمر.

هذه هي ردودنا على الذين يُحمّلوننا ظلماً وعدواناً تبعة التهاون في تطهير الأداة الحكومية سواء قبل الاستقلال أي أيام السودة أو بعده ونحن لم نمكث في الحكم إلا أياماً معدودات.

زيارات للبلاد العربية

310

بعد أن قامت وزارة السيدين وانفض البرلمان قام السيد عبد الله خليل يصحبه وفد من الموظفين والمستشارين بغرض زيارة البلاد العربية والتعرف على ساستها وإصدار بيانات مشتركة تنم عن حسن الصلات وكريم النوايا.

وكانت الزيارات نفسها موضع تساؤل لأنها في الحقيقة لم تخدم غرضاً وكانت سريعة وكانت في بعض البلاد لم تتعرف على الحقائق ولم تتعمق في بحث المواضيع الهامة. وقمت عقب مرور حكومة عبد الله خليل بزيارة للبنان وسوريا ومصر وفي لبنان وسوريا علمت ما حدث وفهمت آراء الحاكمين والمعارضين وتعليقاتهم على تلك الزيارات واستنتجوا أنها عملت لغير غرض واضح.

ولم يكن غرضي متابعة السيد رئيس الوزراء والوصول إلى ما وصل إليه ولكن كئنا قد رسمنا سياستنا الخارجية في الحزب الوطني الاتحادي وكان يهمني في تلك الرحلة أن أطلع عليها المسؤولين في البلاد العربية كلبنان ومصر وسوريا وقد كانت في وحدة آنذاك.

وذهبت إلى بيروت أولاً وهناك وفي السابع عشر من أبريل زرت السيد عبد الله البافي رئيس وزراء سابق بمكتبه فهو خارج الحكم يعمل في المحاماة.

وعندما شرحت له تلك السياسة التي رسمناها أظهر سروره بها وأسهب هو في شرح الأسباب التي تدعو إليها وقال إنه فعلاً زاد علماً بما في السودان من تلك المحادثات ولو أنه كان على اتصال بأخبار السودان وقال إننا جميعاً نعلق على السودان آمالاً كبيرة لأسباب عدة. وجاء ذكر حالة الطوارئ فشكا منها هو أيضاً لأنها كانت مطبقة في لبنان آنذاك يوم حكم شمعون الشبيه بحكم عبد الله خليل وكلاهما يعتمد على نصره الأمريكان ونجدتهم متى دعا الداعي.

ونقد تحركات عبد الله خليل وأشار إلى عدم اتصاله بالمعارضة وقد كانت أقوى من الحكومة كما نقد اتجاههم وسرعة تحركهم ونفى أن يكون هذا العمل مقصوداً منه معرفة الأحوال أو تحسين العلاقات وأشار إلى البيانات المشتركة المتعددة التي وقعها عبد الله مع دول مختلفة اختلافاً جذرياً.

وفي يوم 18 أبريل سنة 1957م كنت في زيارة للسيد حميد فرنجية وزير الخارجية السابق والمرشح السابق أيضاً لرئاسة الجمهورية وهو مسيحي ماروني ولكنه متحرر جداً وعربي متحمس وله مركز ممتاز واحترام عند كل الاتجاهات.

وبدأت معه الحديث أيضاً بشرح سياستنا الخارجية والوضع في السودان وموقفنا من مشروع ايزنهوور ونظرية الفراغ فاستمع باهتمام وعلّق وأثنى وكان أكثر وضوحاً وصراحة من عبد الله اليافى. فتحدّث عن العراق وهاجم حلف بغداد وهاجم حكومة شمعون وقال إنّها مشكلة واحدة فكما في لبنان في السودان.

أما عن مرور عبد الله خليل فكان تعليقه عليه أنّه لم يمس الجوهر وأنّ الزيارة تكاد تكون لا أثر لها وذكر أيضاً عدم اتصال عبد الله خليل بالمعارضة وكانت البلد وقتذاك كلّها معارضة.

ورحّب بفكرة حضور وفد من السودان وتّشعب الحديث حتّى طال ثمّ أظهر رغبته في أن نجتمع به مرّة أخرى أو يرد هو لنا الزيارة غير أنّنا كنّا نزمع الرحيل إلى دمشق في نفس اليوم وأصرّ على أن نصل به متى عدنا.

وفي يوم 18 أبريل سنة 1957م كنت في دمشق وتّمت مقابلي بالرئيس شكري القوتلي في يوم الثلاثاء 23 أبريل وكانت مقابلة ناجحة دامت أربعين دقيقة طرقتنا فيها جميع الشؤون العربية وشرحت له سياستنا الخارجية التي رحّب بها وقال إنّ الأزهرى لم يخط هذه الخطوة التحررية إلّا بحكمته وبأصالة رأيه وأنّ هذا هو الطريق الذي سيسير عليه الشرق العربي وأيد فكرة إرسال وفد للبلاد العربية لتوضيح هذه الاتجاهات وشرحها.

ولوّحت في حديثي معه إلى عدم اهتمام البلاد العربية بالسودان وأنّه يجب أن يكون اهتمامهم في سوريا بالسودان أكثر من اهتمامهم بلبنان أو الأردن لأنّ السودان حديث عهد بالاستقلال وهناك احتمال طمع الاستعمار فيه والتقرّب منه أو التودّد إليه لما فيه من خير ولموقعه الممتاز بين أفريقيا وآسيا وأشرت إلى أنّ السودان لو وقع في قبضة الدول الاستعمارية أصبح خطراً لا على مصر وحدها ولكن على البلاد العربية جميعها. وأخيراً وعد أن يكون أمر السودان موضع اهتمامه وسيشير إلى السيد صبري العسلي بذلك كما طلب منّي أن أتصل بالسيد صبري ووعد أن تُعين سوريا سفيراً خاصاً بالسودان.

وقد شعرت بأنَّ الزيارة كانت ذات أثر حسن ودليل ذلك أنَّه دعاني إلى العشاء في نفس اليوم وكان هناك عدد من رجال السياسة والدين فأجلسني إلى جواره وكان أغلب حديثه ترديداً لما دار بيننا في الصباح كما كان يُعلِّق على سلامة لغتنا وأشار إلى كلمات بدرت مِنِّي كما قال على السجِّية وهي كلمات عربية يستعملونها هم في سوريا دون اختلاف.

كانت تجري في تلك الأيام الانتخابات في سوريا ووجدت دعوة لحضور ليلة انتخابية أقامها العالم المسلم السيد مصطفى السباعي رحمه الله فلبيت الدعوة ووجدتها فرصة لأعرِّف بالسودان وأشرح اتجاهات الحزب الوطني الاتحادي ونددت بمشروع ايزنهور وحلف بغداد والأحلاف العدوانية ودعوت إلى التكتُّل العربي وإلى أن يكون خير العرب وبلاذ العرب للعرب وكانت ليلة ناجحة بالنسبة لي على الأقل .

وفي مصر كان من الرجال المقربين إلى جمال عبد الناصر والذين يشرفون على هيئة التحرير الصاغ الطحاوي فاجتمعت به في نادي مصر من الساعة السابعة إلى التاسعة وأنَّسم الحديث بالوضوح والصراحة وأشارت بالشواذب التي شابت العلاقات أخيراً وكيف أنَّنا سعيًا جهدنا لنُبصر بالحقائق ولكن كانت هناك عقبات تحول دون التفهم والتروى.

وقد وافق على الكثير ممَّا قلته وعزا الأخطاء إلى بعض الناس واتهمهم بالتسرُّع والأنانية ووعد أن يعمل على إصلاح الخطأ وأن يحمل إلى المسؤولين الحقائق مُجرَّدة وقال كلما عرفنا الحقائق وصلنا إلى الصواب وقد كان لهذه المقابلة أثر فيما بعد.

الانتخابات الثانية

عُدت من مصر وسوريا ولبنان إلى السودان في مايو سنة 1957م وكان حديث الجميع هو حديث الانتخابات وكانت الحكومة تُماطل وتمدُّ في الأجل حتَّى اضطررنا أخيراً إلى انتداب لجنة من الحزب تقابل السيد رئيس الوزراء عن موعد تكوين لجنة الانتخابات وإن كان في نية الحكومة أجزاؤها فمتى.

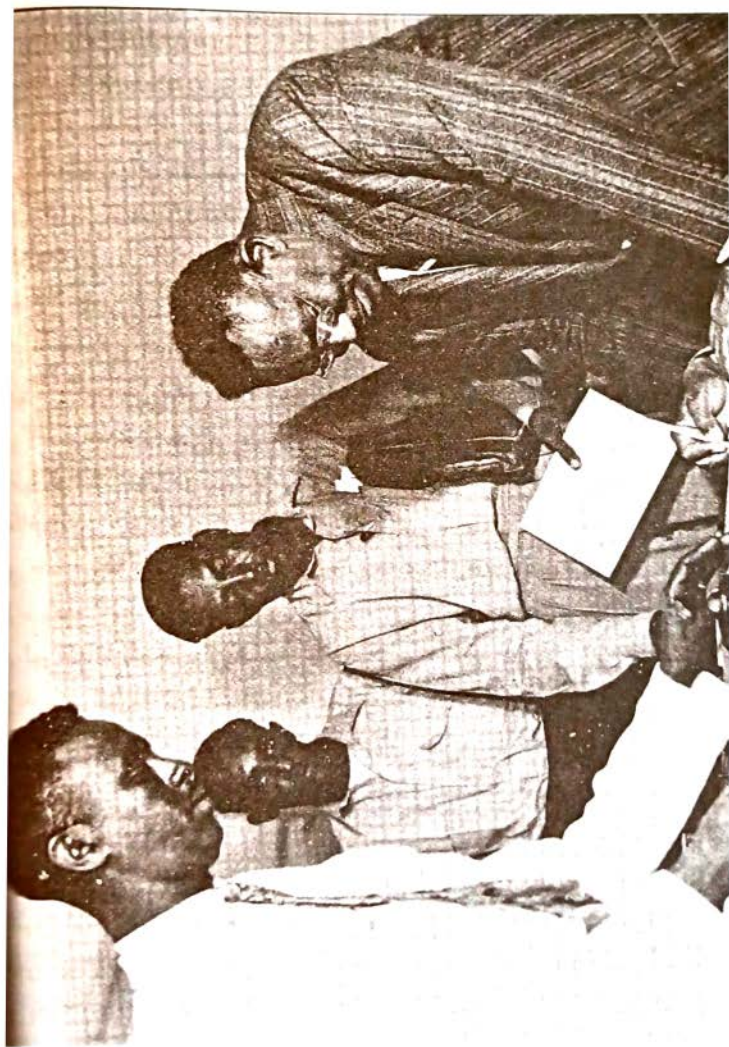
وذهبت إلى عبد الله خليل في مكتبه وكان معي السادة إبراهيم المفتي وزروق

وسنير عبد الرحيم وكان هو قد أحضر إلى جانبه السيدين زيادة أرباب وأمين التوم وتحدث عن اهتمامه بالانتخابات ووعده أن يسرع بتكوين اللجنة ولو أنه قال أثناء الحديث - وعبد الله دائماً يتحدث كما يحلو له - قال إن هذا البلد يجب أن يحكم حكماً دكتاتورياً لمدة ثلاث سنوات وبعد ذلك « ما فيش مانع الواحد يقتلوه ويخلص ». ولعل هذا ما كان يدور في عقله الباطن حقيقة لأن الحوادث أثبتت فيما بعد هذه الرغبة وتمكنها من نفسه.

وكونت لجنة الانتخابات في شهر يوليو وكان رأسها السيد حسن علي عبد الله وعضوية كل من السيدين محمد يوسف مضوي وأندريا قوري وسكرتارية السيد عبد الماجد عوض الكريم وبدأت أعمالها وقد ذهب متاً وقد مرحباً بها مبدئياً لها ثقته بها واطمئنانه إلى حسن تصرفها وما كنا ندري أن الذي دار في تلك الانتخابات وما اكتنفها من مخالفات شيء لم يحير لجنة الانتخابات وحدها ولكنه حير البلد جميعها. لقد نشط الإداريون في مهمتهم وقاموا بتقسيم الدوائر متوخين كل الطرق السليمة التي لوحظ فيها الأوضاع الجغرافية ووسائل المواصلات وإعطاء المواطنين فرصهم الكاملة لتأدية واجبهم الانتخابي وقدم الإداريون تقريرهم وكان تقريراً لا غبار عليه تم في حيدة تامة ولكن اجتمعت الحكومة وأعدت التقسيم كما يطيب لها ورمت بتقسيم الإداريين.

لم يكن هذا حدثاً أو تخميناً ولكننا استطعنا بطرقنا الحزبية أن نحصل على تقسيم الإداريين كما رفعتهم لجنة الانتخابات إلى مجلس الوزراء حصلنا عليه في نفس اليوم واستطعنا أن ننقله جميعه في كراسات وأن يكون ذلك كله في صباح الجمعة وفي صباح السبت يكون المشروع والخطاب المرفق به أمام السيد رئيس مجلس الوزراء كأن يدا لم تمسه.

وعبث مجلس الوزراء بالتقسيم بل قلبه رأساً على عقب وخرج بمشروع لا يمت إلى مشروع الإداريين بصلة وبعد ذلك بدأت المساومات بين الحزبين في الدوائر نفسها لمن تكون هذه ولمن تلك وما هي الدوائر المقفولة للحزب الوطني الاتحادي وكم كان عجباً أن يختار حزب الشعب دوائر العاصمة المثلثة مدعياً أنها دوائره المقفولة ونسي أن الوطني الاتحادي لا ينافس فيها ووجد حزب الأمة أن هذه من مصلحته فقبل وكانت النتيجة أن سقط كل وزراء حزب الشعب الديمقراطي.



ملساة الجنسية

يحق لنا أن نسميها مأساة وأن أذكرها في هذه المذكرات لأنها في نظري جريمة لا تُغتفر ولا تقل عن بيع الوطن أو الخيانة العظمي.
لقد أعمي حب الانتصار هذين الحزبين عن كل الاعتبارات وتاجروا بالجنسية السودانية تجارة لا تحلّ مطلقاً مهما كانت الظروف.
كانت تشعر الحكومة بضعفها ويعزوف الناس عنها لأنّ ما جلبته على البلد بأعمالها حطّ من قدرها وهزّ من كيائها وفي سبيل أن تبقى في الحكم سلكت كلّ مسلك وارتكبت كلّ مُحرم.

منح وزير الداخلية سلطة منح الجنسية إلى ثلاثة وزراء آخرين اثنان منهم من حزب الأمة واثنان من حزب الشعب هو أحدهما وسرح هؤلاء في أطراف السودان والجزيرة وكسلا وطوكر وكلّ الأماكن التي يسكنها أو يعمل فيها أبناء بلاد أفريقيا المجاورة وضرب بقانون الجنسية عرض الحائط ومُنحت الجنسية السودانية لكلّ من تعهد أن يعطي صوته لأحد الحزبين وحدّثني مسئول أن كلّ وزير مُنح آلاف شهادات الجنسية بل بعضهم وقّع عليها وتركها لجماعة حزبه يُوزعونها على من يتفق معهم ويسر على هداهم وهناك آلاف من شهادات الجنسية صدرت وليس لها في أضياب الداخلية أو مصلحة الجنسية أثر.

هذا في الوقت الذي يُشدّد فيه وزير الداخلية وموظفوه على كلّ عربي يدخل هذه البلاد ويحصون حركاته ويعدون أنفاسه وما تكاد تنقضي الأربعة عشر يوماً التي تُمنح له ليقمها في السودان حتّى يلقي البوليس عليه القبض ويخرجه.

لقد كانت مهزلة بل كانت خيانة لهذه البلاد ولكنّها جميعها هانت في نظر فاعليها ما دام الأمل في النصر معقوداً عليها.

وبهذه المناسبة لا بدّ للإنسان من أن يذكر في ألم وحسرة المعاملة السيئة التي تُقابل بها المعاملة الأخوية الكريمة من كلّ البلاد العربية.

لقد رفعت مصر سمة الدخول إليها وكان كلّ سوداني يدخل مصر دون أن يحصل

على تأشيرة دخول وكانت تأمل أن يعاملها السودان بالمثل ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ممّا أضطرنّا إلى الرجوع إلى المطالبة بتأشيرة الدخول أمّا البلاد العربية الأخرى كلبنان وسوريا والأردن فيدخلها السوداني دون تأشيرة ويُقيم فيها المدة التي يريدّها ولا يحتاج إلى أن يمرّ على مكتب أجنب أو وزارة داخلية.

أمّا نحن في السودان فما زلنا على عهد الاستعمار حدودنا مفتوحة لمن لا خير فيهم ولا نفع منهم ومغلقة أمام كلّ عربي تربطنا به الأواصر المتينة والتراث واللغة والذين - أرجو أن نوفق قريباً إلى إزالة هذه الوصمة.

وأعود مرّة أخرى إلى الانتخابات الثانية فالحديث فيها متسع المجال. لقد كانت أم درمان ثلاث دوائر اختصرت إلى اثنتين فالتناس في عُرّف الحكومة ينقصون لا يزيدون. وقسمت الدائرتان بطريقة تحتاج إلى حاوي هندي ليشرح رموزها ويُعيّن حدودها. وانتهالت الأموال من الدول الصديقة للحزبين المؤتلفين وصُرفت في إحدى دائرتي أم درمان أربعة عشر ألف جنيه كما يقول العليمون ومع ذلك فقدّها الائتلاف. ووقع تهديد سافر على رجال الإدارة الذين يقفون إلى جانب الوطني الاتحادي وأوقف مشروع محاولة إيجاد الماء في شمال غرب كردفان حتّى يتحوّل الأهالي إلى تأييد الحكومة والتصويت إلى جانبها.

أمّا نحن فكنا كما يقول المثل «عليك يا رب» لقد بذل الأعضاء والمؤيدون عن سخاء ولكن أين يقف سخاؤهم من نصف المليون التي صرفها واحد من الحزبين المؤتلفين وكم صرف الحزب الآخر - ولو أنّي على ثقة من أنّه لا يعطي بقدر ما يأخذ - وفقد الوطني الاتحادي كثيراً من الدوائر لأنّه عجز عن حمل ناخبه إلى أماكن الاقتراع.

كان الرأي العام كلّهُ والمعلّقون الصحفيون والأجانب يتوقّعون للوطني الاتحادي فوزاً باهراً ويؤكدون أنّه سيؤلّف الحكومة مُنفرداً. كان هذا استنتاجهم ممّا لمسوه من شعور الجماهير ولكن خرج الوطني الاتحادي بأربعة وأربعين نائباً وخرج حزب الأمة بثلاثة وستين نائباً وحزب الشعب خرج بتسعة وعشرين عضواً والجنوبيون خرجوا بسبعة وثلاثين عضواً.

لعبة الجنوبيين

عندما بدأت الانتخابات اتفق الجنوبيين كما يظهر على أن يرشحوا أنفسهم في الأحزاب الشمالية ومتى ما نالوا مساندة تلك الأحزاب والعون المادي وفازوا في المعركة كَوْنُوا الجبهة أو الكتلة الجنوبية ولم تنكشف تلك اللعبة إلا عند توزيع مقاعد الشيوخ الذين يقسمهم مجلس الحاكم العام على الأحزاب بنسبة نواب كل حزب. وتقدّم كل حزب بعدد نوابه آخذاً في الاعتبار الجنوبيين الذين رشحوا وفازوا على مبادئه وتقدّم أيضاً حزب الأحرار مُدْعِياً أن كل الجنوبيين من نصيبه. لم يجد القصر مخرجاً إلا أن يدعو مندوبي الأحزاب كما يدعو جميع الجنوبيين ويسألهم أمام مندوبي الأحزاب عن الأحزاب التي ينتمون إليها. وفي يوم 1958/3/19م عُقد اجتماع بالقصر الجمهوري حضره عن الأحزاب عبد الله خليل- خضر حمد- علي عبد الرحمن- استانسلاوس - الفرد برجوك وجيء بالجنوبيين واحداً واحداً ليسأل عن حزبه فكانت النتيجة أن تفرّقوا كالآتي:-

35 كتلة الأحرار وكانوا يقولون Southern Block

2 قسيس مستقلون منهما سترنينو

3 وطني اتحادي

2 أمة

4 شعب

وفي يوم 1958/3/20م اجتمع البرلمان الثاني لأول مرّة وكان قد اتفق على ترشيح السيد محمد صالح الشنقيطي للرئاسة.

ثم رُشّحت الأحزاب المؤتلفة لرياسة الوزارة عبد الله خليل رُشّحه المرحوم نور الدين فنال عبد الله خليل 103 صوتاً وهي مجموع أصوات الأمة والشعب الديمقراطي وبعض الجنوبيين.

ورُشّح الوطني الاتحادي السيد إسماعيل الأزهرى فنال 44 صوتاً كما رُشّح حزب الأحرار استانسلاوس فنال 25 صوتاً

وكان غرض الجنوبيين الذين صوتوا لبياساما إحراج أولئك الذين وقفوا إلى جانب

حزبي الأمة والشعب الديمقراطي وأعطوا أصواتهم لعبد الله خليل. وانفض الاجتماع بعد انتخاب رئيس الحكومة ولم يفتتح إلا في 12 مايو سنة 1958م.

عودة إلى لبنان

انفض البرلمان في 20 مارس سنة 1958م وقمت إلى مصر ولبنان بمناسبة قضاء شهر رمضان في 1958/3/25م إلى مصر ثم ذهبت إلى لبنان وفي يوم 1958/4/14م قابلت السيد عبد الله اليافي ومعه السيد شارل الحلو الذي صار فيما بعد رئيساً للجمهورية كانت الأحوال في أشد حالات التوتر وزاد في هذا التوتر محاولة الحكومة للحصول على ثلثي النواب لتتمكن من تعديل الدستور بحيث يسمح بإعادة انتخاب كميل شمعون رئيساً للجمهورية لسبع سنوات أخرى والمعارضة مع الشعب اللبناني يقفان ضد هذه الرغبة وقفة صلبة واحتدت شدة الخلاف وتطوّر من خلاف سياسي إلى خلاف طائفي وديني بين المسلمين والمسيحيين. كانت تغلب عليه هذه المسحة ولو أنّ الجانب المسيحي لا يخلو من مسلمين وكذلك الجانب المسلم لا يخلو من مسيحيين.

كان القلق والإشفاق يسود جماعات كبيرة خوفاً من اندلاع فتنة لا يقوى أحد على إخمادها كما أنّها ستفتح الباب أمام أحد الطرفين ليستعين على أهله بالأجانب وسلاح الأجانب.

وكان كميل شمعون لا يتردد في إعلان رأيه من حيث الاستعانة بأي قوى لتحميّه وتقيّه في الحكم ولم يكن الأسطول السادس قد جاء بعد إلى شواطئ لبنان. وفي الجانب الثاني كان البطريرك المعوشي تلك الشخصية الدينية المرموقة لا لمكانها الديني ولكنّه كان رجلاً وطنياً وكان لا يؤيد اتجاه شمعون رغم أنّه ماروني وكان يسميه ومن معه بتجار السياسة.

يسكن المعوشي بقصر كبير فوق جبل عال بناحية (بكركي) وكنت لا أعلم أين بكركي هذه ولكن إشفاقي وخوفي من النتائج التي تلوح بها المقدمات دفعتني إلى معرفة بكركي واندفعت إليها لأتحدث مع هذا الرجل الكبير الذي تكتب عنه الصحف

باحترام وكأنما تشير إليه كأنه الرجل الذي بيده مفتاح هذا المشكل.
 ذهبت إلى بكركى وطلبت مقابلة سيادة البطريرك الذي كان معه في تلك اللحظة
 السفير الأمريكي وبعد أن ودّعه جاني حيث أجلسنا وأخفني إلى مكان آخر وبدأ
 الحديث أولاً عن السودان وعُمن يعرف من السودانيين وبعد أن انتهينا من كلمات
 المجاملة فتحت معه الموضوع وقلت إن هذه الصلة التي أشرت إليها وعلاقات العروبة
 والدم هي التي حملتني على أن أنطلق بالقدوم إليكم لأتحدث فيما يجري في
 البلد اليوم وتكون لبنان على فوهة البركان. وأن ما وصلت إليه وأنا غريب عن
 أحزابكم وخفايا سياستكم أنني شعرت بأن الشعب كله يتجه إليك ويؤمن أن كلمة
 منك حرية بأن تطفئ هذا الجحيم الذي أوشك أن يستمر خصوصاً وأنكم تدين لكم
 بالولاء أكبر طائفة دينية وهي المارونيون.

وكان ردّه أنه تحدّث كثيراً وأنه غاضب فعلاً من تجار السياسة الذين يجرون وراء
 الكسب وقال لا تنسى التدخّل الأجنبي وقال لي إن الشخص الذي كان معي قبلك
 هو السفير الأمريكي وكان يتحدّث أيضاً عن الأوضاع ولكنني قلت له في صراحة إنكم
 إذا بعدتم عنّا يمكننا أن نتفق.

لم اكتف بما قال ولكنني طالبت به بأن يتدخّل أكثر وأكثر وأخيراً وعد أن يعلن رأيه
 واضحاً وأن يقول للشعب رأيه في هذه الزوبعة العارمة التي تكاد أن تحتاج كل ما
 حصلنا عليه.

وتحولنا بعد ذلك إلى الحديث عن القساوسة والسياسة وشكوت له تدخلهم السافر
 وأنهم ليسوا رسل دين بقدر ما هم رسل شر وخراب فالسياسة عندهم أولاً واعتقد أن
 الكنيسة لم ترسلهم أو تختارهم ولكنّ الساسة هم الذين دربوهم واختاروهم.

وأخيراً اقترح أن يكون التفكير في إرسال قسس من البلاد العربية لأنهم ربما كانوا
 أصح وأعرف بالدوافع البعيدة المدى كما ليس وراءهم مطامع استعمارية.
 كانت جلسة ممتعة وطويلة ولم تمض أيام بعد عودتي من لبنان إلّا وقرأت رأي
 البطريرك في المعركة القائمة وكان رأيه إلى جانب الوطنيين وأعلن مطامع شمعون
 ولامه على استعانته بالأسطول الأمريكي.

وسنعرّف فيما بعد الصلة بين سياسة شمعون وسياسة عبد الله خليل وأن المنيع
 واحد وأن عبد الله خليل كان يبارك استعانة شمعون بالأسطول السادس على أتمته.

المعونة الأمريكية

أفتتح البرلمان في 12/5/1958م وفي جلسة 25 يونيو تقدّم السيد إبراهيم أحمد وزير المالية والاقتصاد يطلب أن تُقرأ للمرة الثانية مشروع قانون التصديق على اتفاقية التعاون الاقتصادي للإنشاء والتعمير بين حكومة جمهورية السودان وحكومة الولايات المتحدة الأمريكية لسنة 1958م - وهذا كله هو ما اتفقنا على تسميته بالمعونة الأمريكية.

ما كنّا نشكّ ونحن معارضة في حاجة السودان إلى المعونات غير المشروطة كما أنّنا لم نشك في أن تقدّم السودان وتطويرة في حاجة إلى أموال كثيرة يمكننا من البحث والتنقيب والإصلاح حتّى نحصل على ما في السودان من خيرات وحتّى نحصل على وسائل الإنتاج الذي يرفع مستوى معيشة الفرد السوداني.

هذه حقيقة لا نغالط فيها كما أنّ هناك حقيقة وهي أنّ أمريكا كانت تسعى بكلّ ما عندها من جهد لتحلّ محلّ إنجلترا في الشرق الأوسط ولتحقيق نظرية ايزنهاور القائلة بملء الفراغ. كما أنّ هناك حقيقة أخرى هي ما أصاب أمريكا ودول الغرب من تأميم القنال والحقيقة الأخرى هي أنّ كلّ البلاد التي منحتها أمريكا تلك الإعانات أخذت تسير في ركاب أمريكا ويزيد الطين بلة إنّ أمريكا نفسها هي التي تُعين أمكنة صرف هذه المعونات أعني المشاريع التي تُصرف فيها المعونة.

هذا إلى جانب ما يتبع هذه الإعانة من امتيازات وحصانات دبلوماسية امتدت حتّى وصلت إلى مراقبي الطرق وأخذت العربات ذات اللوحات الدبلوماسية أو الهيئات السياسية تجوب السودان شماله وجنوبه وشرقه وغربه هذا بينما قيل عند المناقشة أنّ الامتيازات الدبلوماسية لا تتعدّى ثمانية أشخاص.

حمي وطيس النقاش وتحذّر جانب المعارضة ثمّ تحدّث أعضاء حزب الشعب من جانب الحكومة ووضح جلياً أنّ المعونة ستُرفض من جانب البرلمان.

وهنا أوعز إلى أحد أعضاء حزب الشعب أن يطلب تأجيل المناقشة ووافقه في الحال وثنى الاقتراح أحد أعضاء حزب الأمة وأجيز التأجيل الذي كان السبب فيه

١٩٥١

حروج شحصة كبيرة من شرفة الزوار واتصالها بشحصة كبيرة أخرى ونم الاتفاق على هذا التأجيل.

وحادث الجلسة التالية وبدأ النقاش يتبادل أعضاء المعارضة من الوطني الاتحادي وأعضاء حزب الأمة ولزم أعضاء حزب الشعب الصمت التام.

وقام أخيراً أحد الأعضاء وأخذ يُنثني على المعونة ويُعَدِّد محاسنها ويقول إنهم عارضوها بالأمس ولكنهم فهموا من زملائهم ما كان غامضاً وقُتل فيها حتى أصبحت ميرة من كل عيب - مع العلم أن التعديل في الاتفاقية كان مستحيلاً أن يحدث إلا باتفاق بين مندوبي الدولتين وأخيراً قال إنهم ائتمنوا بين أمس واليوم بالوقوف مع المعونة.

وما كاد ينتهي العضو من حديثه حتى اقترح قفل باب النقاش ونفي وأجيزت المعاهدة على طريقة «المقصلة».

ولكننا بقينا على كفرنا بهذه المعونة وعلى شُكْنَا فيها وفي الدافع الذي دفع بأمريكا لتقديمها لنا ولسوانا.

وكانت وما زالت أمريكا تقف حائلاً دون دخول الصين الشعبية إلى هيئة الأمم ورات في اعتراف مصر بحكومة الصين الشعبية طريقاً إلى دول الشرق الأخرى لتحذوا حذو مصر فلماذا لا تسرع بالتقرب إليها وتقديم الخدمات لها ؟ وكان مؤلف السودان واضحاً في تأييد دخول الصين الشعبية إلى الهيئة فهل سيظل كذلك بعد أن يتوغل الأمريكيان عندنا بمالهم ومعوناتهم؟

والذي كان يخيفنا أكثر هو الغموض الذي اكتنف إبرام تلك الاتفاقية وبعض الكلمات التي تُقيد السودان بالتعاون مع البلاد التي قبلت هذه المعونات. وأدهى من ذلك هو أن الاتفاقية أبرمت واتفق على أن تكون نافذة من يوم توقيعها لا من يوم موافقة البرلمان عليها وهذا ما أدخل الهلع إلى بعض النفوس حينما شعرت بهوادر سقوط المعونة ولجونها إلى الحليف لينقذ ما يمكن إنقاذه.

وجاءت أحداث بعد ذلك برهنت على أننا كنا على حق وأن المعونة بداية لسلسلة من المؤامرات وكشفت محاكمة عبد الحفيظ شأن كثيراً مما كان يدور في الخفاء وكانت تلوكه الألسن وتلوح به جريدة الصراحة آنذاك.

حلايب

كان اهتمام المعونة بالطرق واضحاً وليس هذا الاهتمام لأنَّ السودان في حاجة إلى طرق أو ربط الشرق بالغرب مثلاً ولكن كانت هناك خطة مُدبَّرة ودرست بواسطة الخبراء الذين أشار إليهم شنان في محاكمته وقد كنت على علم بها ولكنني خشيت أن يكون حديث الصحافة «الصراحة» مجرد حدث.

هناك حلايب المدينة وحلايب العلبة وحلايب العلبة هذه تصلح لأنَّ تكون ميناء يستغنى بها عن قنال السويس بعد تأميمها ثُمَّ يكون الطريق عبر السودان إلى الغرب. ولما علمت المخابرات المصرية بتلك المحاولة والتي تحدَّث عنها صراحة الضابط شنان فيما بعد عندما علم المصريون بذلك أثاروا قضية حلايب لاحقاً في أخذ حلايب من السودان أو إثبات أنَّها لهم أو له ولكن ليعطّلوا المشروع الخطير وما دامت القطعة المراد استغلالها موضع نزاع بين مصر والسودان فلن يُقدِّم الأمريكيان على التورط في الارتباط بعمل فيها.

وأثيرت قضية حلايب وما كنّا نَظهر شماتتنا أحياناً على جيراننا وعلى سوء تصرُّف ممثليهم في السودان ولكننا في نفس الوقت لم نذك نار الخلاف وكانت تصريحاتنا مُتَّزنة نريد أن نعرف الحقَّ ونعترف به لصاحبه.

وممَّا يؤيِّد ما ذهبنا إليه أنَّ مصر لم تُثر بعد ذلك موضوع حلايب ولم تُشر إليه من قريب أو بعيد لأنَّ الغرض الذي من أجله أثارنا المشكلة قد انتهى واستطاعت مصر أن تحوّل دون تحويل حلايب العلبة إلى ميناء ويُستغنى بها عن قنال السويس.

القائمة السوداء

انقضت الدورة أو قُضت على طريقة المقصلة أيضاً في 24 يوليو 1958م وكثا نفق إلى جانب عدم فضّ الدورة بالنسبة للأحداث المتلاحقة والخطيرة التي كانت تكتنف الشرق الأوسط فقد وصلت القوات الأمريكية أو الأسطول السادس إلى لبنان بناء على رغبة شمعون ودخلت قوات إنجليزية إلى الأردن بناء على طلب الملك حسين وكان الواجب أن يبقى النواب وأن تستمر الدورة إلى أن تستقر تلك الأحداث عن شيء واضح ولكن كانت الأغلبية إلى جانب فضّ الدورة فقُضت.

كان للحزب نشاطه بين أحزاب الحكومة محاولاً كسب بعض النواب إلى جانبه وقد نجح بالفعل هناك وسطاء لقيام حكومة قومية كما كانت هناك محاولات للقاء يتم بين الوطني الاتحادي والأمة. وبالجملة فقد كان الجو مُكهرباً كما يقولون وأحاديث المدينة أزعجت حتى بعض الحزبيين الكبار لأنهم كانوا يقرأون الجرائد ويسمعون من أفواه الناس عن مشاورات واتصالات بعضها قد تمّ وبعضها على وشك أن يتمّ.

لهذه الأسباب اجتمع الحزب وشرح الرئيس كل شيء عمّا يُقال ويشاع وأكد للمجتمعين أنّ شيئاً لم يتمّ وإنّما هي محاولات يقوم بها بعض الإخوان في صفوف الحزبين المؤتلفين وأنه لن يثبت في شيء إلا إذا عرض على هيئات الحزب المختلفة وانتقل الحديث إلى تنظيم لجنة الحزب وتكليف كل جماعة بدراسة موضوع خاص أو تنفيذ خطة معينة وكان ذلك في 1958/8/29م واتفقنا على أن يكون الاجتماع القادم في 1958/9/5م وهو التاريخ الذي اضطررت لظروف خاصة أن أسافر فيه إلى مصر.

قدمت إلى مصر وحملت من السيد الرئيس رسالة خاصة تتعلّق بالمهادنة التي طلب من سيادته أن تكون بين الوطني والاتحادي وحزب الشعب والرسالة تقول إنّ الحزب إكراماً لذلك الرجاء هادن حزب الشعب ولكّنه سيصبح بعد اليوم في حل من ذلك الوعد.

ولقد تمكّنت من أداء الرسالة وكان لها أثرها بل ترتّبت عليها آثار أخرى ظهرت نتائجها فيما بعد.

قدمت إلى مصر في 1958/9/5م بالقطار ولما وصلت الشلال شعرت بأن جواز السفر الخاص بي قد تأخر التأشير عليه وكنت قد أرسلته مع أحد المخلصين وقال الموظف على مسمع من المسافرين إن هذا الشخص ممنوع من الدخول إلى مصر . سألت الرجل للمرة الثانية عن الجواز ولكنه قال إنه ما زال عند الموظف المختص وبعد فترة نزلت إلى مكان ضابط الجوازات وكان بوظيفة يوزباشي ومعه آخر بوظيفة ملازم فلما سألته قال « يظهر أننا حناخرك قليلاً » وعلمت كل شيء فيما بعد.

كنت منذ سنة 1955م أسافر إلى مصر عن طريق الطائرة وكانوا دائماً وبعد أن يؤشروا على الجواز واذهب لتخليص العفش يطلب منّي الجواز مرّة ثانية فشعرت بأن اسمي في القائمة السوداء وعندما يجدونه يستردون الجواز لحظات ريثما يتصلون بالتلفون بوزارة الداخلية يسألونها الرأي وعندما تسمح بدخولي يرُدُّون إليّ الجواز حالاً.

أمّا هذه المرّة فقد كانت الأولى التي آتي فيها إلى القاهرة عن طريق الشلال بعد رواية المنشورات والاتصال بالداخلية لا يمكن أن يتم مع الشلال بسرعة.

كان يقف إلى جوارنا عندما كنت أسأل الضابط المختص ناظر محطة الشلال وعندما طلعت إلى الباخرة لفت نظر الضابط إلى شخصيتي فلحق بي الضابط وأخذ يسألني هل أنا فلان الوزير السابق وسكرتير عام الوطني الاتحادي قلت نعم قال: ولكنك مع الأسف لم توضح لنا ذلك قلت هل تريدني أن أسرد تاريخ حياتي على جواز السفر.

وتحرك الضابط مشكوراً إلى الشلال ثمّ أسوان واتصل بمصر وتكلّم هاتفياً إلى زميله ليعتذر لي ويقول أنّ هناك اسماً مشابهاً لأسمي هو الذي أدى إلى هذا الخطأ وعاد الضابط وأبدي شعوراً كريماً أراد أن يزيل به تلك الهفوة.

وصلت القاهرة وأتصل بي دون سابق معرفة السيد محمد فائق وهو اليوم وزير وأخبرني أنّ السيد الرئيس يريدني أن أقابل المستشار في سراي القبة وعلمت فيما بعد من هو المستشار كما أخطرت بالموعد المحدّد وكان المستشار هو صديقنا اللدود حسين ذو الفقار .

طرقنا مواضيع كثيرة وأصرّ على أن أبل زكريا محي الدين وحدد لي موعداً وقابلته وكان زكريا محي الدين وحسين ذو الفقار من الجانب المناوئ للوطني الاتحادي وفي

ذلك الاجتماع أبلغته رسالة السيد الرئيس ولكنه ألح في أن نعطيهم فرصة وسأل عن موعد افتتاح البرلمان ولما علم أنه في نوفمبر قال إن هناك وقتاً كافياً.

وبدلت بعد ذلك مساع من جانب الحاديين على الوطني الاتحادي وطالبوا بأن يمر السيد إسماعيل الأزهري وهو عائد من العراق عندما ذهب مهنئاً بالثورة أن يمر على القاهرة وهم على ثقة من أن الجفوة التي خلقت بواسطة أعداء صلاح سالم ستزول. وقد بلغت الرسالة فعلاً وتم لقاء الرئيسين بمصر ولكنني كنت آنذاك بلندن مع أخي الذي ذهب إلى العلاج. وهذا اللقاء هو الذي أخاف عبد الله خليل.

وجاء 17 نوفمبر وأنا في لندن لا أعلم ما تم عقب تسليم عبد الله خليل الحكومة للجيش ولكن ممّا نشر في صحافة لندن علمت أنه كان يسعى لذلك منذ شهرين وهذا باعترافه هو.

لقد اخترنا النظام الديمقراطي وسرنا عليه وعندما فقدنا ثقة البرلمان تنحينا في نفس اليوم وقدم الرئيس إسماعيل الأزهري استقالته ولم نترث حتى نراضي الذين خرجوا على الحزب وصوتوا ضده في الميزانية، هذا في المرة الأولى.

وفي المرة الثانية أيضاً أردنا أن نضرب المثل الحسن وأن نثبت أركان النظم الديمقراطية في بلادنا وألا نعرضها إلى هزات لا تحتملها كما حرصنا ألا نضع سابقة تكون متكاة يستند عليها كل من أراد العبث بالديمقراطية أو التمسك بكراسي الحكم. لقد كان في مقدورنا أن نحل البرلمان بعد الاستقلال وأن نجري الانتخابات ونخرج منها بأغلبية ساحقة ولكننا أثّرنا تركيز الأسس السليمة خصوصاً وكنا أول حكومة وطنية تأتي بعد خروج الاستعمار.

بدأت حكومة الائتلاف في الاختلاف وتحول حتى رئيسها وأخذ يتقرب إلى غير من سندوه وأيدوه أملاً في البقاء بل فكر في أن يقود هو انقلاباً عسكرياً كما حدث في باكستان بوصفه وزيراً للحربية وذهب في ذلك ليستشير برأي ملك جار ولكن الملك قالها في وضوح إن الجيش غير مضمون ورجع عبد الله خليل وهو يردّد كما حدثني من رافقه- (أن هذا البلد سيحكم بالكف).

سمعت بالانقلاب أو التسليم وأنا في لندن وقد دوت في مذكرتي ما يأتي:-
الانين 17 نوفمبر سنة 1958م ذهبت إلى السفارة فعلمت من الأخ حسن محمد الأمين أنه قد حدث صباح اليوم انقلاب عسكري أو بالأحرى استلم الجيش الحكومة

وعلى رأس الحركة إبراهيم عبود ولم تُعرف تفاصيل الحادث وليس في السفارة شيء، غير البيان الذي أذاعه إبراهيم عبود».

والبيان يتلخص في أنَّ الجيش استلم مقاليد الحكم لأنَّ الفساد استشرى في جميع المرافق حتَّى دواوين الحكومة وأنَّ الاستقلال في خطر لأنَّ التدخُّل الأجنبي أصبح سافراً ولذلك قام الجيش ليعيد إلى البلاد الأمن والسلام وأنَّ يحافظ على الاستقلال ويستبدل الفوضى إلى نظام والفساد إلى نزاهة.

وفي نفس الوقت أصدر السيدان تأييدهما للحركة - وهذا في نظري هو الغريب فالحركة إنَّ كانت انقلاباً حقيقياً بمعنى ثورة فهي ليست في حاجة إلى أن يباركها السيدان أو يؤيِّداها فالجيش أقوى منهما. ولو كانت ثورة بالمعنى الصحيح لكان السيدان أول المحاسبين لأنَّ دخولهما السافر في السياسة هو الذي أفسد السياسة وجعل الوزراء لا يفكرون بعقولهم ولكن بعقلي السيدين وكان السيدان ورئيس الوزراء أحقَّ الناس بالاعتقال والمحاسبة.

هذا ما دوَّنته في مفكرتي في يوم 1958/11/17م.

وأصدر الفريق عبود بياناً ألغى به الأحزاب ومنع المظاهرات والتجمعات والمواكب وأوقف الصحف إلى حين وطالب الناس بالهدوء والسكينة.

وكثرت تخرّصات الصحف الإنجليزية فبعضهم زعم أنَّ الحركة ضد ناصر وبعضهم تخوف منها وبعضهم وصفها بالموالاة للغرب وكتب آخرون يقولون إنَّ صديق بريطانيا قد ذهب. يعنون عبد الله خليل.

وفي اليوم الثاني 1958/11/18م دوَّنت الأتي:-

« أعلن عبود اليوم إلغاء البرلمان والدستور وكل الحياة النيابية السابقة وقد بدأت الصحف تعطي أضواء جديدة عن الموقف في السودان فقالت إنَّ الحركة متفق عليها بين عبد الله خليل والسيدتين والجيش وقالت إنَّ الذين وراء الانقلاب هم السيدان وعبد الله خليل وعبود وعبد الوهاب وحسن بشير وأشارت إلى أنَّ أحمد عبد الوهاب يميل إلى حزب الأمة وحسن بشير إلى الوطني الاتحادي ونشرت صورهم جميعاً ».

وقالت إنَّ الدوافع الحقيقية لهذه الحركة هو التأكد من سقوط حكومة عبد الله خليل إذا ما فتح البرلمان وسقوط عبد الله يعني سقوط السيدين وسقوط أمريكا وإنجلترا ونجاح المعارضة وفي نجاحها نجاح لعبد الناصر ولذلك اتفق الجميع على أن

بسنلم الجيش الحكم وبذلك تضع فرصة الحكم على المعارضة ويأمن السيدان وعمد الله خليل على أنفسهم من الحكومة القادمة».

لا شك أنَّ الإنسان وهو بعيد عن هذه الأحداث الهائلة الجارية في بلده يعيش في جو مزعج فهو لا يعرف الحقيقة وما تنشره الصحف لا يُشبع نهمه ورأيت أنَّ أرسل سريفة لعبود في يوم 1958/11/18م وقد أرسلتها فعلاً وهذا نصها باللغة العربية.

الفريق إبراهيم عبود

الخرطوم

أهنئك على أنَّ قمت بحركتك دون إراقة دماء لقد كنّا نعمل جميعاً وجادين لاستقرار السودان أمّا وعدكم بتحويل الفساد إلى نزاهة والفوضى إلى استقرار فهو ما عملنا ونعمل له وكذلك المحافظة على الاستقلال ولكنّا ننظر إلى الأمام إلى أولئك الذين كانوا سبباً مباشراً أو غير مباشر في هذا الفساد الذي استشرى حتّى شمل دواوين الحكومة وسبب عدم الاستقرار. نتطّلع لنرى أولئك وهؤلاء أمام المحاكم السريعة حتّى نشعر بأنَّ حركتكم جادة لا هي مجرد عملية تسليم وتسلم.

لم أسمع ردّاً خاصاً على هذه البرقية وبالطبع لم تدع مع برقيات التأييد ولكن شملها كما أظنّ تصريح أدلى به الفريق عبود يقول فيه عفا الله عمّا سلف كأنّما الثورات تقوم لتعفو وتصفح عن الأثمين.

عبد الله خليل والانقلاب

ذكرت قبلاً أنَّ عبد الله خليل كان يتوق إلى حكم البلاد دكتاتورياً وحاول أنَّ يقوم بالانقلاب لحسابه بوصفه وزير الحربية وقلت إنّه يسير على هدى شمعون وكذلك بورى السعيد حتّى أنَّ يونس بحري ظهر في السودان رسولاً إلى عبد الله خليل ووسيطاً إلى جرنّ للأحلاف ولكن شاء الله أنَّ تقوم الثورة في العراق حال وصوله إليها ويلقى عليه القبض.

ويؤيّد ما ذهب إلىه هذا التصريح الذي نشره مندوب جريدة « الفيجارو » الفرنسية

واسمه ماكس كلوس وقد أرسل خصيصاً إلى الخرطوم ليأخذ هذا التصريح من عبد الله خليل وتاريخه 1958/11/25م وقد حصلت عليه من السفارة التي جاءها من سفارتنا في باريس.

تصريح مستر خليل للمستر ماكس كلوس الهندوب الخاص لجريدة الفيجارو وهو الن بالخرطوم

قال المراسل « صرح لي رئيس الوزراء السابق أنه لولا الكتلة العسكرية لمرّ السودان بنفس المآسي التي حدثت في لبنان ».

وقال لي عبد الله خليل إنَّ انقلاباً كان نظيفاً وقام به السودانيون دون أيّ تدخل أو تأثير خارجي وقال إنَّ الانقلاب قد خطَّط له منذ ثلاث شهور وقد كنت على علم بذلك ولمَّح إلى أنه كان يستشار واستأنف خليل حديثه قائلاً كان من المُتَوَقَّع أن يكون الموقف خطيراً جداً فإنَّ العناصر الهدَّامة كانت تُنظَّم لقيام انقلابها الخاص وقد كان من الضروري إيقاف تلك الأعمال عند حدّها. لقد بدأ التدخل الأجنبي ورتَّبت بعض الدول الأجنبية أموراً على أن تنال ثقة وتأييد بعض السياسيين عن طريق الرشوة. لولا هذا الانقلاب العسكري لأصبح السودان مسرحاً لنفس المآسي والأحداث التي حدثت في لبنان»

واستمر المراسل يقول « إنَّ خليل يعتقد أنَّ أغلبية السودانيين ضد الاتحاد مع مصر ولا تؤيِّد ناصر وقال أيضاً يجب أن يكون له صلات ودية مع جيرانه الأقوياء».

قال المراسل « ولما سألتَه عن علاقته بالفريق عبود فإنه تردَّد قليلاً ثمَّ قال إنَّه بالطبع ليس صديقي العزيز ولكن علاقتنا ودية ثمَّ قال لم أفكر الآن في أن أترك الخرطوم ولكنني سأبقى هنا وأنا على استعداد لأن أتعاون مع الحكومة إذا طلبت مِنِّي ذلك» (انتهى) وإليك النص باللغة الإنجليزية :

**MR. KHALIL'S DECLARATION TO MAX CLOS
SPECIAL ENVOY OF "LE FIGARO" NOW IN KHARTOUM**

"The ex-prime minister declared to me that" without the military junta the Sudan would have **the same dramatic event as Lebanon**"

The clean coup d'état.

Abdulla Khalil declared to me that "we had a clean coup d'état here, carried out exclusively by Sudanese without foreign influence. The coup d'état had been planned for three months and I was kept informed."

Khalil hinted that he had even been consulted. "If the military junta had not seized power," Khalil continued, "the situation have become very serious. Subversive elements were preparing their own coup d'état. It was Time to put a stop to them. Foreign infiltration had started. Certain foreign countries had managed to gain the support of some of the politicians by means of bribery and craft. Without the military Junta the Sudan undoubtedly would have been the scene of the same dramatic event that took place in Lebanon"

Khalil believed that the majority of Sudanese is against the union with Egypt and is not pro-Nasser. However, he also added that the Sudan must have friendly relation with its power-ful neighbour. When I asked him about his relations with General Abboud, Khalil hesitated, then answered." He is certainly not my best friend but our erlation are cordial, I do not plan to leave Khartoum now, but I shall stay here and Iam ready to co-operate with the new Government if it wants me."

From Sudan Embassy in paris, 25th November, 1958.

لقد كانت دعوى السيد عبد الله خليل باتهام الآخرين بالتعامل مع دول أجبيه وذكر الاتحاد مع مصر واتهام السودانيين بأنهم لا يؤيدون الاتحاد كل هذه مجرد أوهام أو أسباب ظن أنها تُبرّر الخطوة الخطيرة التي خطاها والتي أطاحت بكل المكاسب. لقد كان الخوف من أن يعود الوطني الاتحادي إلى الحكم وهذا هو الاحتمال الوحيد إذا تعاون معه عدد من حزب الشعب فهل كان الوطني الاتحادي عاجزاً عن تحقيق الاتحاد يوم أعلن الاستقلال من داخل البرلمان وتردّد في الاستجابة إلى هذه الرغبة عبد الله خليل ومن كانوا معه وأخذوا يساومون على عدد الكراسي لولا أن ضغط عليه نوابه الذين يؤمنون بالاستقلال. وهل هناك احتمال إلى العودة إلى الوحدة بعد أن أعلن استقلال السودان وأصبح جمهورية سودانية ذات سيادة. لقد تنكّر عبد الله لحزب الأمة نفسه وليس بغريب عليه أن يقول أيّ كلام يحاول أن يُبرّر به فعلته.

الحكم العسكري

عدت من لندن واتصلت بالسيد الرئيس إسماعيل الأزهري وعلمت منه كل ما فأنني في فترة غيابي وذكر لي أن الحركة عندما قامت كانت تتّجه اتجاهاً خاصاً أو كان المأمول فيها أن تتّجه اتجاهاً خاصاً ولكنها على حدّ تعبير سيادته « خرجت من اليد » وقال إنه يثق في وطنيتهم ويرى أن يعطوا الفرصة ليعملوا فلعلهم يوفّقون فيما لم تُوفّق فيه نحن ومن جانبنا فإننا لن نضع أمامهم أيّ عراقيل وسنفسح أمامهم الطريق للعمل المُثمر فالهمم عندنا هو خير البلد. ذكرت لسيادته أنني أريد أن أطلب مقابلتهم وأن أتحدّث إليهم لأنني كنت خارج البلد عند قيام هذه الحركة وأفكر في مقابلة عبود نفسه أو أحمد عبد الوهاب فوافقتني وقال من الخير أن تبدأ بأحمد عبد الوهاب. قابلت أحمد عبد الوهاب وهنّأته بالمنصب وذكرت له أننا كنّا نعمل ورائدنا خير

البلد فلسنا طلاب مناصب ولا طامعين في جاه وبسرنا أن يأتي الخير من أي طريق فنحن لا نريد أن نحتكر العمل وأكثرت له أننا لن نخلق لهم كحزب سياسي أي مشاكل تحول دونهم ودون العمل الجاد وذكررت له ما دار بيني وبين السيد الرئيس وهنا قال إنهم يشكرون الرئيس لأنهم عرفوا من كل من قبله أنه يقول مثل هذا الكلام وأنه يتمنى لهم التوفيق.

وأشرت في حديثي مع عبد الوهاب إلى أعمال كثيرة يمكنهم إنجازها بسرعة لأنهم في موقف حسن وليس وراءهم معارضة فشكرني على ذلك ووعد أن يعملوا ما وسعهم العمل لإنجاز الأعمال النافعة والمستعجلة.

كان السيد الرئيس قد ذكر لي أنه سمع أن رجال الحكومة يلومونه لأنه لم يهتبههم أو يؤيدهم وقال هو أنه حقيقة لم يفعل ذلك وأسبابه عديدة منها أنهم حلوا الأحزاب فزالت عنه صفته الحزبية التي كان يستطيع أن يستغلها في هذا الموقف ثم أنهم عندما طلبوا التأييد طلبوه من السيدين ولم يطلبوا منه التأييد فلم ير هو أن يتقدم متطوعاً بالتهنئة والتأييد وإن كانوا هم في حاجة إلى تأييده لجأوه كما ذهبوا لغيره. كنت على استعداد لأن أذكر هذا للسيد أحمد عبد الوهاب ولكنه لم يتعرض لهذا الأمر وكفاني بذلك التعرض له.

لم يكن لي نشاط ملحوظ في عهد الحكم العسكري وعندما قُدمت المذكرة كنت خارج العاصمة ولما عُدت ووجدت اسمي لم يكتب عليها لمت زملائي مع أنني كلفت أحدهم بوضع اسمي إذا ما أقر إرسال المذكرة وتوقيعها من أعضاء الحزب البارزين. والحقيقة أنني كنت علمت من السيد الرئيس أن المذكرة سيوقعها هو والسيد الصديق رحمه الله ولذلك سافرت ولما عُدت وقُعت على صورتها التي وقّع عليها كل من يقفون إلى جانب المذكرة من الحزبين.

لم يكن عدم اشتراكي في الأعمال التي كان يقوم بها زملائي في الحزب والنشرات التي توزع لم يكن ذلك عن تردد ولكن عن عدم اقتناع بنتائج تلك المحاولات وكنت أسمع دائماً أخبار الاختلافات التي تنجم بين الحاكمين ولكنها تزول بمجرد شعورهم بنشاط المعارضة فكأنما كانت بنشاطها تجمع بينهم وتوحد كلمتهم

لهذه الأسباب كنت أصرُّ على أن نتجاهل الحاكمين تماماً وأن نتركهم يمشون في الأرض وأن أعمالهم وأخطاءهم هي التي ستقضي عليهم لأنهم كلما أخطأوا أو

تصرّفوا تصرّفاً استبدادياً ولم يجدوا له أثراً عكسياً ظنّوا أنّهم على حقّ وأنّهم أخافوا الناس وأنّ الناس قد استكانوا فيزيدون في ارتكاب الأخطاء ويستمرون في التّماذي في الأعمال الاستبدادية. وكنت على ثقة تامّة لا أدري سببها ولا أستطيع أن أعّللها أنّ هذا العهد سيزول حتماً ولكن كيف يزول هذا ما لا أدريه وكنت كثيراً ما ضربت المثل للسيد الرئيس بقصة الملك محمد الخامس وابن عرفة. وشاء الله أن ينقضي الحكم العسكري وأنّ ينقضي على إثر الأخطاء التي ارتكبوها والتي ما ارتكبوها إلا لأنّ الغرور ركبهم وظنّوا أنّهم قد استووا كما قال أحد رجالهم « استواء الرحمن على العرش » واستغفر الله لي وله.

كنت في مصر وكنت أتعالج وبدأت الأمور حقيقة لا يقدر لها الإنسان أن تتطوّر سريعاً كما حدث وفي يوم 64/10/25 وجدت نفسي مدفوعاً إلى عمل شيء إلى أن أشارك ولو على البعد فأبرقت عبوداً برقية هذا نصّها:-

الفريق إبراهيم عبود

رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة

الخرطوم

إنّ الحوادث الدامية التي ألحقت الأضرار المادية بسلامة المواطنين والنزلاء وأملاكهم كما عرّضت أرواح المواطنين الأبرياء للهلاك لهي نتيجة حتمية للحكم العسكري الغاشم الذي جثم على صدر البلاد فأفقدتها الحريات العامة وأطاح بالمكاسب الديمقراطية التي حصل عليها الشعب بكفاحه الدامي ضد الاستعمار ونتيجة أيضاً لمحاربتكم الأحرار المخلصين الذين حقّقوا استقلال البلاد بكفاحهم الباسل ولا علاج لهذا الموقف إلا أن يرجع الجيش إلى ثكناته فالجيش لم يخلق ليحكم ولكن ليحمي وأنّ تعود الحياة الديمقراطية التي لن تستقر الأوضاع إلا في ظلّها وإلا فستحتملون وحدكم تبعة كل ما يحيق بالبلاد من كوارث.

خضر حمد

كانت المواصلات متعطّلة وفي مساء 64/10/28 أصدر عبود بياناً بحلّ المجلس الأعلى ومجلس الوزراء وأشار كما أعتقد إلى أن يجمع المجلس التنفيذي للتشاور

معه فحاولت إرسال برفية إلى الرئيس أرفض فيها ذكر هذا المجلس وأطالب بإعادة البرلمان الذي حلّه الحكم العسكري ليختار هو الحكومة ثمّ ينفذ لتعمل الحكومة على قيام الانتخابات واختيار الجمعية التأسيسية التي تضع الدستور الدائم وكنت أرى أنّ ذلك الحلّ كان يفادينا حكومة سر الختم والطريقة التي كوّنت بها والأخطاء التي ارتكبتها ولكن كانت المواصلات جميعاً مقطوعة فلا برفيات ولا تليفونات ولا إذاعة وكثّاً في عزلة تامّة نتناول الأخبار من الصحف المصرية التي كانت تتناول أخبارها مع الأسف من وكالات الأنباء الإنجليزية المفرضة.

وقد اضطررت أخيراً أن أتصل ببعض الصحف وأن أطلبها بالوقوف إلى جانب الثورة وذكرت لهم أنّ هذه هي الثورة ولو حسبتم أنّ ما قام به عبود هو ثورة عسكرية لها مخطط كنتك التي قامت في مصر تكونون قد ارتكبتم خطأ كبيراً. وتحرك أخيراً محرر أخبار اليوم وكتب شيئاً كان خير ما كتب في تلك الأيام أمّا باقي الصحف فقد أصابها وجوم أو كانت تسير وفق مخطط محدّد.

العقد التي كانت تحكم

لست أريد وأنا اكتب كما قلت تاريخاً لما اتصلت به حياتي من أعمال لست أريد أن أحلل العقد التي كانت تحكم في عهد الحكم العسكري. فهناك عقدة نشأت من تصوّر الحاكمين أنّ الناس يستجهلونهم أو يسخرون منهم ولذلك فهم لا يقبلون نصيحة ولا يستمعون لرأي وهناك عقدة نشأت من حقد غير العسكريين على السياسيين جميعاً وبالأسف كانت هذه العقدة هي التي توجّه وتوجّه توجيهاً خاطئاً أملت روح شريرة حاقدة تريد أن تنتقم من كل فرد ولذلك يلذ لها أن تمس كل مواطن بنصيبها من شرورها.

وظننت أنّ اللطف والحديث الهاديء ربما وجدا طريقهما إلى قلوب هؤلاء الذين يركبون رؤوسهم ويستشيرهم أيّ كلام ويتوسمون فيه النقد أو السخرية ولذلك فكّرت في أن اكتب مذكرة كان كلّ أملي أن يقرأوها وكنت أحاول أن تكون فردية حتّى لا يظنّوا أنني قصدت التشهير بهم وحاولت أيضاً أن أعرضها على بعض الإخوان لإزالة

أَيَّ كلمة أو تعبير تشتم منه الإثارة أو الاستفزاز.
 وذهبت إلى أبعد من ذلك فلم أرسلها لهم مباشرة بل رأيت أَنَّ أَلْتَمَسَ أحدهم
 وأنتَحدثَ معه وأَقْدَمَ له المذكرة وأَفَوَّضَ له الأمرَ حَتَّى أَنَّهُ إِذَا رَأَى فيها أَيَّ مساس
 بشعورهم يَمَزِّقُها ولا يَقْدَمُها. وذهب الوسيط وعاد يخطرني بأنَّه قد قبل عضو المجلس
 أَن يُقابِلني ولكنِّي قبل يومين من الموعد المحدد أعتذر العضو وقال إِنَّ هذه الاتصالات
 أثارَت عليه حفيظة بعض زملائه ولذلك فهو يُرَحِّب بي ولكن لا لنتَحدثَ في السياسة
 أو يستلم مِنِّي مذكرة.

ولجأت إلى ثان وكان صريحاً وجريئاً فقال إِنَّه يُشَرِّفه ويسرُّه أَن يجتمع بي وأن
 يتَحدثَ معي ولكن الخطة التي نسير عليها قد اقتنعنا بصحتها ولن نغيِّرها ولذلك لا
 فائدة في السماع للمذكرة أو قراءتها ومع ذلك فهو يُرَحِّب بي في أَيَّ وقت.
 كنت لا أطمع في أكثر من أَن يقرأوها وأنا على ثقة من أَنهم سيتجاهلونَها رسمياً
 ولكن الكلام الذي تحويه سيحوك بصدورهم ولن يستطيعوا أَن يتناسوه وهذا ما كنت
 أرمي إليه.

وها هي المذكرة بعد أَن شذبتها كثير من الإخوان وأزالوا منها كلمات خافوا أَن
 تفسد الغرض الذي أرمي إليه وفي هذه المناسبة فإنَّني لا أنسى قول الرئيس عندما
 ذكرت له الفكرة وعرضت عليه المذكرة قال لي « لا ضرر ولكن هؤلاء القوم ركبوا
 رؤوسهم ».

الهذكرة

الخرطوم في 1962/2/7م

أصحاب المعالي السادة

رئيس وأعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة

السلام عليكم ورحمة الله

أرجو أَن تسمحوا لمواطن يريد الخير لأُمته أَن يتقدَّم إليكم بهذه المذكرة أملاً
 أَن تجد منكم ما يأمله حَتَّى يشعر بأنَّه أسهم بقسط في مستقبل بلاده.

عندما أستلم الجيش مقاليد الحكم في البلاد كنت خارج السودان فأُبرفت السبد الرئيس مهنتاً ومباركاً للحركة التي تَمَّت دون إراقة دماء. وحمدت الله إذ إنَّ الجيش خطا هذه الخطوة قبل أن يزداد الأمر تعقيداً ويكثر عدد المفسدين فسيال العائون بحقوق البلاد جزاءهم قبل أن يشتدَّ ساعدهم ويستفحل أمرهم وبذلك تستطيع البلاد أن تستأنف بعد الاستقلال حياة أسعد وأطهر تقودها نخبة ممتازة خلت صفوفها، بعد تطهير الجيش لها- من النفعيين ومستغلي السلطة والنفوذ.

ورجوت في تلك البرقية أن يبدأ التطهير حالاً وأن يقدم الذين كانوا سبباً مباشراً أو غير مباشر في الفساد للمحاكم فتعرف البلاد المحسن من المسيء وتكون بذلك حركة الجيش حركة جادة.

ولم أقف عند هذا الحد، حد التهنية والمباركة ولكنني حالما وصلت السودان اتصلت بالسيد وزير الداخلية حينذاك وكشفت له ما يجول بخاطري وبأنَّ حركة الجيش ستجد منَّا كلَّ تأييد ومساندة ما دام رائدها خير الوطن وقلت إنَّ خدمة البلاد ليست وقفاً على أحد ولا على فئة وأننا نرحب بكلِّ ما يعود على البلاد بالنفع ولا يهمننا على يد من تحقق لأننا لسنا طلاب مصلحة خاصة ولا أصحاب مطامع شخصية، وذهبت إلى أبعد من ذلك فأدليت بآراء كنت أرى أنَّها ستقوي الشعور العام الطيب نحو الحركة.

ومرَّت السنون وممَّا لاشكَّ فيه أنَّ الحكومة قامت بالكثير من الأعمال وأنجزتها في وقت قصير وأعمال الثورة كثيرة تحدَّث عن نفسها وهذه نتيجة حتمية لحكومة متجاسنة لا يقف في سبيلها معترض.

وكان لزاماً عليَّ وقد أشرت إلى ما التزمت به مع نفسي نحو الحكومة أن أرقب الأعمال وأتتبع الأحداث دون أن يبدو منِّي ما يشتُم منه الوقوف في سبيل العمل النافع لأنَّ من رأيي ورأى الكثيرين غيري أن تُعطى الفرصة الكاملة للحكومة لتعمل في هدوء.

والآن وقد مرَّت على الثورة ثلاثة أعوام وبدأ منها ما يشعر بأنَّها انتهت من مرحلة وهي بصدد البدء في مرحلة أخرى. ونوّه السيد الرئيس في خطاب الثورة في عامها الثالث بأنَّ البلاد في طريقها إلى الحياة النيابية والحكم الديمقراطي وقد بدت قبل التنويه بوادٍ محاولة لإشراك المواطنين في إدارة الحكم، لهذا كله رأيت أن أرفع

إليك هذه المذكرة مبدئياً الرأي في النظم الدستورية المقترحة والتي بدت بوادرها، وما أراه من وسائل إصلاح النظم الديمقراطية التي كانت قبلاً، بعد مقدمة قصيرة تُمهّد لما أرمي إليه من نتائج.

ولست أرمي من هذه المذكرة إلى النقد بقدر ما رميت إلى إبداء الرأي والمساهمة في خير الوطن وأعتقد أنّ لي من ماضي ما يزكيني لأنّ أبادي الرأي والنصيحة. وإذا كان فيما سأبديه من الرأي يشتّم منه رائحة النقد فإنه النقد المُحبّب، النقد الهادف الباني الصادر من قلب لا يعرف غير خدمة الوطن مارباً ولم يتخذ من خدمة الوطن مكسباً أو مغنماً.

إنّه نقد تُمليه المصلحة لا الغرض أو الهوى، وطالب المصلحة العامة يسعى إليها ويرجو تحقيقها سواء كان ذلك التحقيق عن طريقه أو عن طريق سواه فالأمر لديه سيان لأنّ خدمة الوطن ليست وقفاً على أحد دون الآخرين.

والنقد من حيث هو أمر لا بدّ منه لتقويم الحياة بل هو أساس من أسس الحياة نفسها بمختلف فنونها وألوانها. والنقاد بكلا نوعيهم المُغرض والنزيه لا خطر منهم. فالْمُغرض يكشف بنقده عن خبايا نفسه ويعلن عن دوافعه فيمكن درء شره كما أنّ النزيه يبين بواطن الضعف فيساعد بذلك على البناء الثابت القويم.

والحكيم هو الذي يتشوّق لسماع النقد تشوّقه لسماع الشئ لآثّه إنّ لم يسمع نقداً لعلّ يعمل يقوم به اعتبر نفسه فاشلاً لا لآثّه قد بلغ الكمال المطلق فالكمال لله وحده.

هذا فوق أنّ النقد دليل الحيوية وإشعار بالتجاوب والاهتمام وقد قيل « كل ما لا يقتلنا يقويننا » وقال أحد كبار الساسة « إنني إنّ لم أجد معارضة عملت على خلق المعارضة ».

وممّا يثبت صحة القصد ونزاهته من تقديم هذه المذكرة أنّني لم أشرك فيها أحداً بل هي رأي خاص أردت به المساهمة في البناء فإنّ لقيت منكم أذناً صاغية في مبدئها كنت على استعداد لمناقشة ما جاء فيها ورسم الصورة الأخرى لما لم يجئ فيها من مقترحات العلاج وإنّ لم تجد قبولاً أكون قد سعت وبلغت.

هل للحكومة اعداء

قبل أن أبدي أي رأي أريد أن أسال هذا السؤال هل للحكومة - وللحكومة القادمة بالذات أعداء؟ وأعني بالأعداء أولئك الذين لا يرضيهم أن يعمل الناس وتعمى عيونهم عن حسنات الآخرين لمجرد الكراهية والحقد وعدم الاعتراف بالفضل. هل للحكومة أعداء من هذا النوع؟ أشك في ذلك كثيراً. والذين يقولون بوجود أعداء أنما يريدون أن يدخلوا في روع الحاكمين هذا الفهم لحاجة في نفوسهم وليخلقوا جفوة لا يستفيد منها إلا هم.

إنني لا أجد فيما أرى أعداء للحكومة ولكن لها أنصاراً ومؤيدين يختلفون في التعبير عن هذا التأييد. فبعضهم يؤيد الحكومة لأنه يؤيد كل حكومة. وبعضهم يؤيد لأنه لا يعرف أكثر ممّا تقوم به الحكومة من عمل ولا يرى في الإمكان أبدع وأحسن ممّا كان وبعضهم يريد أكثر ممّا يرى فتراه يطلب المزيد ويتطلع إلى الكمال. يريد للحكومة القوة لأنه يَبْصُرُها بمواطن الضعف وهذا هو النوع الذي يفهم ما يقول ويسعي وراء الكمال فيقام لرأيه وزن.

والرجل الذي يحمل أمانة الحكم، والحكم هو الأمانة بذاتها التي أثبتت السموات والأرض أن يحملنها وحملها الإنسان، هذا الرجل لا شك يتسع صدره لكل فرد ويسمع كل رأي لأنّ الذي يظلمه الحاكم لا ينصفه إلا الله ولهذا كان الناس يعتبرون الملوك والحكام هم ظل الله في الأرض. الظل الذي يستظل به الناس جميعاً دون تمييز ودون إشعار فرد أو فئة بأنه أو أنهم لا يتمتعون برضاء الحاكم المستمد من رضاء الله. والذين يبدون الرأي وينقدون الحكومات أنما يستزيدونها من العمل النافع وسلاحهم في ذلك الحجة والحجة لا تفرع إلا بالحجة أمّا العنف وأما الكبت فهو علاج لا يحل المشاكل بل يجمدها وربما ولد في النفوس مرارة تسوق إلى أمر منها.

إذاً ليس للحكومة أعداء حسب ما أعلم وليس من الحكمة في شيء أن تخلق لها أعداء، فإنّ إيقار الصدور إن جاز أن يحدث من الأفراد فلا يجوز حتماً أن يحدث من الحكومات أو الحاكمين.

الجيش

الجيش هو الحامي الطبيعي للاستقلال لهذا أعدّ ومن أجل ذلك وُجد. والجيش عادة فوق كل الاعتبارات. بعيدة عن الأهواء والأغراض وبمناى عن الطوائف والجماعات والتكتلات حتى يحس كل فرد في الأمة أنّ الجيش له دون سواه وأنه ملجأ وملاذ عند الشدائد ولذلك نرى الجيوش مكان الإعزاز والتكريم ما ظهرت إلّا هتفت لها القلوب قبل الحناجر وأيدتها الأمة جمعاء ونظرت إليها كما تنظر إلى الشيء المقدس الذي هو للجميع وفوق الجميع.

هذه النظرة الموحدة من جانب الأمة نحو الجيش تزيد في وحدة صفوفه وتخلق فيه قوة على قوته لأنّه لا يحس من حوله إلّا بالحب والتأييد والرضا والتشجيع وتحرس الأمم والحكومات على أن تجعل الجيش بمعزل عمّا يחדش هذه القداسة أو يمسها مساً خفيفاً.

ولا تحكّ الجيوش بأفراد الأمة إلّا عند اضطراب حبل الأمن والخوف من الفتنة أو استئراء الفوضى والفساد الشيء الذي لا يكبح جماحه إلّا الجيش فيتدخل الجيش ليحسم الأمر في أقصر وقت ويبعد الأمور إلى نصابها بسرعه الخاطفة ثمّ يصلح ما فسد ويدلّ الناس على الطريق المستقيم دون أن يحتكّ بهم احتكاكاً يفقده هيئته أو كرامته.

والجيوش تحمي من غير أن تحكم لا خوفاً من الحكم ولكن لأنّ للحكم مزاقه وتقلباته ولأنّ الجيوش بحكم تكوينها لها طبيعتها الخاصة وأسلوبها في الحياة الذي يختلف عن أساليب حياة الجماعات والهيئات الأخرى.

ثورة الجيش

وقد تسلّم الجيش زمام الحكم في البلاد لأسباب ذكرها في بيانه الأول وكان الجيش منطقياً مع الأمة ومع نفسه يوم أشار إلى الفساد وأشار في نفس الوقت إلى مهمته في ذلك الظرف الذي أضطره للتدخل.

غير أن الثورة في نظري خالفت منطقها في التطهير يوم أن عفت عمّا سلف والثورات لا تعفو عن حقوق الشعوب بل تجيء لتأخذ للشعب الحقوق. وبذلك حرمت البلاد من

ثمرات الثورة وهي التطهير الشامل كما حرمتها من الحياة الديمقراطية التي هي أهم مكاسب الشعب من فترة النضال وكنت وما زلت أرى أنَّ اضطراب الحكومات السابقة وعدم استقرارها أمر طبيعي بالنسبة لبلد ما زال في أول عهده بالحياة الديمقراطية ولا بد له من أن يكتوي بنار الأخطاء حتَّى يعرف علاجها فيتجنبها في المستقبل. وإنَّ كان هناك عيب فهو ليس عيب الحياة الديمقراطية نفسها التي كان يسير الحكم على أساسها ولكن العيب عيب القوانين التي عن طريقها يأتي البرلمان المهزوز الذي يباع فيه النواب كما تباع السائمة في سوق البهائم. والحياة الديمقراطية لا يحكم عليها بالنجاح أو الفشل في بلد ما في مدى عامين أو ثلاثة وكم كنت أتمنى أن تأخذ حكومة الجيش أول ما تأخذ في اعتبارها أمر تلك القوانين التي كانت سبباً في هذا الاضطراب الذي دعاها للتدخل وتزيل جميع هذه الأسباب لا أن تتخذها سبباً لتحكم حكماً إيجازياً على كل الأمة بالقصور وعلى كل المواطنين العاملين الذين كان استقلال هذه البلاد وحريتها ثمرة من ثمار نضالهم المتواصل وكفاحهم المير، تحكم عليهم بالعجز. وكانت الحياة الديمقراطية الدستورية هي المكسب الشعبي الأول الذي ناله الشعب جزاء نضاله.

معلى حكم الجيش

والجيش عندما يحكم يستمدُّ حكمه من روح الجيش وقوانينه. وروح الجيش هي الطاعة التامة للأوامر واللبث السريع وحسن الضبط والربط. هذا إلى جانب الحزم والشدة التي تذهب إلى حد القسوة إذا دعا الحال. وقوانين الجيش وضعت لتحمي هذه الروح ولذلك لا يصلح كل فرد أن يكون جندياً وبالتالي لا يمكن أن يصبح الشعب كله جنوداً.

وقضت حكمة المُشرِّعين أن تكون للجيش وتلك صفاته، والروح التي يجب أن يسير عليها- قوانينه العسكرية التي تتمشى مع مستلزمات الجندية. وكان للمدنيين قوانينهم التي تتمشى أيضاً مع الحياة العادية المطلقة التي تهبط الحرية في التصرف والتعبير والنقد والاعتراض وفقاً لسنة الحياة وقوانين المجتمع.

والجيش إذا ما تسلَّم مقاليد الحكم لن يتنكر لروحه وتكوين نفسه وإنَّما يستمدُّ حكمه من تلك الروح المُتمكِّنة من تربيته. فالجيش نظام والجيش طاعة ولذلك لن

يكون رجل الجيش رحيماً مع مَنْ يرى أنَّهم لا يطيعون الأوامر أو لا يحافظون على النظام. وإذا دخلت الطاعة العمياء خرجت الحرية الفردية أو الاجتماعية.

وشاء الله للجيش أن يحكم وكان من أولى نتائج حكمه أن حرم الناس من الحريات العامة تلك الحريات التي اعتبرت في جميع العالم وفي قانون حقوق الإنسان حقاً مطلق يجب ألا يُحرم منها الإنسان إذا أُريد به أن يكون إنساناً، وهي الحريات الأساسية الست أو السبع التي تشمل حرية الرأي والكتابة والنشر وحرية الاجتماع والتظاهر والعقيدة إلى آخر تلك الحريات المُسلم بها ضمن حقوق الإنسان.

وحرمان الناس من الحريات الأساسية يجعلهم يفكرون في مُتنفّس لهم فيلجأون إلى الوسائل غير المشروعة إلى الإشاعات والمنشورات والتكتلات الخفية خوفاً من سيف القانون المُسلّط على الرقاب خصوصاً وهو قانون عسكري قاس لا يرحم وليس كأخيه القانون المدني.

وتتمخّض هذه الوسائل والمحاولات فيما تتمخّض عنه عن الدسّ وعن بثّ الوشائيات وظهور المغرضين وتشجيع الناقمين الذين ينتهزون الفرص للانتقام من الآخرين ولعلاج ذلك تزيد الحكومة في المخبّرين والمُتلصّصين. وكنتيجة لكلّ هذا تستشري بين الشعب روح الخنوع والخوف فينكمش ويزهد في الفهم فيقل وعيه ويتخلّى عن أبسط واجباته وينتهي به الحال لأن يكون مخادعاً يُظهر غير ما يبطن ويصبح الشعب كلّ منافقاً.

وليس في الحكومة على ما أعتقد من يريد أن يحكم شعباً من المنافقين أو ينتمي إلى أمة من الجبناء والبلهاء الذين لا يحسّون بما حولهم. ولكنّها القوانين الصارمة هي التي جعلتهم كلّ ذلك بل قل فقدان الحرية أولاً وأخيراً.

والحاكم مهما كان عادلاً فهو مكروه وقد قيل:

صار نصف الناس أعداء لمن

ولي الأحكام هذا إن عدل

ولذلك وصلت الحكمة بالمُشرّعين الدستوريين إلى جعل الدورات البرلمانية لسنوات معدودة ثلاث أو خمس وبعدها يُعطى الشعب حقّ اختيار جديد. لأنّهم عرفوا النفس

الشريعة وطبيعتها وأنَّ الشعوب بطبيعتها ملولة وميَّالة إلى التغيير والتبدل وقيام الجيش بالحكم في أيِّ بلد معناه تحويل الجيش إلى أداة حاكمة مُعرَّضة لكل ما يتعرَّض له الحاكم من جانب الشعب بعد إنَّ كان الجيش ويجب أن يكون دائماً موطن القداسة والاحترام من الجميع.

إنَّ حكم الجيش يفسد الجيش وقد وصل إلى هذا القرار أولئك الذين سبقونا بثورات عمادها الجيش كمصر مثلاً وقد تنبَّهت للخطأ بسرعة واعترفت به وعملت على عودة الجيش إلى مهمته وفتح الباب أمام رجاله الراغبين في العمل بالسياسة أن يخرجوا وقد أشار إلى هذا جمال عبد الناصر في أكثر من خطاب من خطاباتهِ. وفي العراق وتركيا طهَّر الجيش الأحزاب تطهيراً تاماً ونال رجال الأحزاب كل ما يستحقه حتَّى وصل الحال ببعضهم أنَّ علَّقوا على أعواد المشانق. ثُمَّ أعادوا الحياة إلى طبيعتها وعادت الحياة الدستورية البرلمانية.

كان ذلك لحماية الجيش نفسه وللاحتفاظ بوحدة و ليكون حامياً للأمة جمعاء لا حاكمها ويكون للأمة قاطبة لا لطائفة أو حزب أو قبيلة. وبذلك يترعَّب الجيش في مكان القداسة من قلوب الأمة ويظل دائماً وأبداً رمزاً لعزتها وكرامتها وحامي استقلالها ومواطن حبِّها واحترامها.

الحياة الديمقراطية سابقا

قامت الحياة الدستورية في البلاد على قانونين قانون الانتخابات الأول الذي وضعه الاستعمار وغلب فيه جانب المناطق المُتخلِّفة على جانب المناطق الواعية المُتقدِّمة وجعل من الجنوب قوة أراد بها أن تكون القوة المرجحة وأن تكون دائماً في يده. فإذا ما انتصرت الأمة على الاستعمار وخرجت ببرلمان فيه أغلبية واعية لحزب واحد استطاعت حكومته أن تصل بالبلاد إلى الاستقلال فليس معنى ذلك أن القانون كان صالحاً ولكن الحقيقة أن الوعي الوطني كان قوياً.

وجاء البرلمان الثاني بعد فترة طالَّت بين البرلمانين وكان هذا الأخير أيضاً نتيجة لقانون سيء أعدته حكومة حزبية مُتعنَّنة كانت مصلحتها أيضاً في أن يكون جانب المناطق المُتخلِّفة له الغلبة كما أراد قانون الاستعمار وبالرغم من ذلك لم يصل حزب ما إلى أغلبية تُمكنه من حكم مستقر وكان الاضطراب الذي تفشَّى في صفوف النواب

وكان مصيره أن تزول حكومة لتأتي أخرى وليس هناك من يستطيع أن يتنبأ بما يحدث للحكومة الجديدة هل تعيش كما عاشت سابقتها أو يكتب لها عمر أطول. ومن هنا يتضح تماماً أن العيب يتركز في القوانين التي تتمخض عن البرلمان لا عيب النظم الديمقراطية ولا فشلها في بلادنا ولم نمارسها إلا أعواماً قليلة. ولن يقول بفشلها إلا جاهل أو مُتَعَتِّ لأن الحياة الديمقراطية توأم الحرية وللناس أن يعدوا للحياتين معاً ولا وجود لواحدة دون الأخرى فالديمقراطية توأم الحرية ولا استقلال لأمة بغيرهما.

وإذا أريد للحكم الديمقراطي والحياة النيابية أن تعود فيحسن أن تعود بعد أن تصحح الأخطاء السابقة التي عانينا منها لا أن تأتي بتجربة جديدة قد تكون أخطر من أختها السابقة.

إن عيب الحياة النيابية السابقة في البلاد كان يكمن في تقسيم الدوائر وفي قانون الانتخاب. والحرية التي توضع في غير موضعها تفسر بأنها الفوضى فالمناطق المتخلفة التي لا تعرف معنى الحرية لا يجب أن تحرم منها ولكن يجب أن ندرّبها عليها. أما المناطق الواعية فلا يجب أن نضعها في نفس المستوى مع المناطق المتخلفة ونحاول أن ندرّبها بل يجب أن نمناها الحرية كاملة مُحَصَّنَة بالقانون لأن هذه المناطق فاتت طور التدريب ووعت معنى الحرية.

إنني لا أتردد في القول بأن نظام الانتخاب غير المباشر الذي طُبِّق قبلاً في المناطق المتخلفة كالجنوب والغرب وبعض جهات الشرق كان مناسباً جداً وكان تدريباً للناس على ممارسة الحياة الديمقراطية حتى يمكنهم ممارستها في حدودها الواسعة.

والكليات الانتخابية يجب أن تختلف باختلاف الوعي والفهم ولا أقول باختلاف الدخل لأن الحقوق الديمقراطية يجب أن تقاس بالوعي والفهم لا بكثرة الثروة أو قلتها.

وإذا كان في جميع الدساتير أو القوانين الانتخابية لا يُنص على حرمان النائب من حق التمثيل إذا تحول عن المبدأ الذي انتخب على أساسه فإن الحاجة قد تدعونا إلى إيجاد نص كهذا وقد كان التلاعب بالثقة أمراً مخجلاً. وليس هذا التقييد بغريب فقد حدث أن نائباً في البرلمان الإنجليزي تحول من حزبه فطلب منه أن يستقيل

من البرلمان وقد فعل هذا مع أنَّ القانون لا يقول بذلك في إنجلترا. وليس هذا مجال إعطاء نقاط لقانون انتخابات ولكنَّ جاء هذا على سبيل المثال. والانتخابات التي يُراد منها معرفة رغبة الشعب في اختيار حُكَّامه لا تقوم بها الحكومات الحزبية القائمة نفسها وهي صاحبة مصلحة كما كان في المرتين السابقتين في هذه البلاد ولكن تقوم بها الحكومات المُحايدة المؤقتة أو الحكومات الانتقالية التي لا يهمها إلا أنَّ تتوفر للشعب الحرية والحيدة لانتخاب ممثليه وذلك إلى أنْ نُصبح عريقين في الديمقراطية كإنجلترا.

اللّظم المقترحة

لم يفتني أنَّ هناك نظاماً مقترحة بُدئ في تنفيذها وهي نظام مجالس المدن والمديريات التي ربما يكون الغرض منها أنْ تتمخَّض عن مجلس استشاري وقطعاً لن يكون مجلساً تمثيلاً أو تشريعياً لأنَّه جاء بغير طريق التمثيل الصحيح وفاقد الشيء لا يعطيه.

والديمقراطية هي حكم الشعب للشعب بالشعب وهي نظام لا يقوم إلاً على اختيار الشعب لممثليه بحرية تامة.

وليس معنى هذا أنْ نستورد نحن كلَّ شيء ولكن من حقنا أنْ نأخذ ما يلائمنا وأنْ نزيد ما يناسبنا دون أنْ نمسخ جوهر الديمقراطية ونُغيّر معالمها ثُمَّ نزعم أنْ ما نأتي به من نظم هو نظام ديمقراطي في حال أنَّه عمل لا يقوم على الشورى بقدر ما يقوم على الإملاء.

والنظام المُقترح حكم على الشعب بالقصور وبأنَّه لا يستحق الحرية التي هي الحياة الديمقراطية وإذا ذهبنا في هذا التسلسل قلنا إنَّ نوع النظام المقترح هو أنَّ الشعب لا يستحق الاستقلال ذاته الذي حصل عليه بعد أنْ كافح من أجله.

إنَّ النظام المُقترح يرجع بالسودان إلى أكثر من عشرين سنة مضت يوم بدأ الإنجليز بنفس طريقة تكوين المجالس عن طريق التعيين أولاً ثُمَّ السماح بالانتخاب لبعض المقاعد ثُمَّ التطوُّر إلى المجلس الاستشاري ثُمَّ الجمعية التشريعية.

إنَّنا الآن وبعد الاستقلال والثورة نبدأ من حيث بدأ الإنجليز لا من حيث انتهوا وكأنَّا أسقطنا من حساب الزمن عشرين عاماً كانت وما زالت هي موضع فخر الأمة

لأنها أعوام الكفاح والنضال الذي تُوجُّ بالحرية والديمقراطية والاستقلال.
إنَّ في أخذنا بالنظم المقترحة اعترافاً منا بالقصور وإشهاد للعالم بأنَّ السودان ما زال طفلاً قاصراً لا يعرف معنى الديمقراطية والبرلمان ولا يستحق الاستقلال ولذلك رجعنا به أعواماً وأعواماً.

إنَّ الثورة ترمي بلا شك من وراء هذه النظم المُقترحة إلى تسليم الشعب مقاليد أموره فما الحكمة إذاً في تسليمها أناساً معينين تختارهم الحكومة وبالتالي تتحمل تبعه أخطائهم أو عجزهم؟ لماذا تصرُّ الحكومة على تجنُّب بعض الناس واختيار آخرين وليس لهذا التجنُّب أو الاختيار أسس واضحة؟ ولم تريد الحكومة أنْ تحصر الولاء لها في عدد محدَّد وهل من الحكمة أنْ تقوم مجالس من نوع «نظرك كفاية» أو «موافقون»؟.

وإذا كان المقصود هو تجنُّب بعض الحزبيين لعيوب فيهم فما الذي يمنع هؤلاء من أنْ يكونوا أسوأ من أولئك من حيث استغلال النفوذ أو التعالي على بقية أفراد الأمة وهم يشعرون بثقة الحكومة بهم دون سواهم وتقديماً لهم دون غيرهم أو بالأحرى وقد أصبحوا هم أصحاب الخطوة؟

هل ستظلُّ الحكومات المُتعاقةبة تعينهم وتحميهم ولا تفسح المجال لسواهم وإلى متى؟ وإذا فعلت ذلك ألا تكون قد عملت للفرقة بين صفوف الشعب ووقعت في نفس الخطأ الذي تُعاقب من أجله الأحزاب.

كل هذه المحاولات الغرض الواضح منها هو تفادي الحزبيين. وقبل هذا يجب أنْ نسأل أنفسنا لماذا حكم مقدموا هذه المقترحات على الحزبيين بأنهم أعداء الحكومة. هل خدمة الوطن ميراث الأحزاب اغتصبته الحكومة القائمة؟ هل خدمة البلاد وقف على مجموعة معينة؟ وأخيراً هل الأحزاب كلُّها فاسدة والأحزاب هي الأمة في مجموعها.

إنَّ الحزبية نوع من التنظيم وضرورة لازمة للحياة الديمقراطية انخرط في الحزبية كلُّ على حسب ميوله وفهمه وأصبحت الأحزاب بذلك تضمُّ الواعين الذين كانوا يهتمون بما يحدث حولهم ويريدون أنْ يكون لهم أثر في رسم سياسة بلادهم ويشاركون فيها بالرأي أو المجهود أو التأييد والثقة ولكنَّ الشيء المُؤكِّد أنَّه لم يبق واع لم يشترك في الحزبية بطريقة أو بأخرى مباشرة أو غير مباشرة.

والتحزُّب نسبي فكان هناك العاملون في الأحزاب عملاً مباشراً من أرباب المهن الحرة وكان هناك المؤيدون للأحزاب من الموظفين والعمال ولم يتخلف عن الركب إلا أولئك الذين لا يهمهم ما يجري في بلادهم من أحداث وهؤلاء لا يتحركون مهما كانت الظروف وليس من المصلحة تحريكهم لأنهم سيفشلون ما داموا يفقدون الرغبة الصادقة في العمل للمصلحة العامة.

إنَّ الجيش نفسه كان أفراده متحزبين بدليل أنَّهم أدلوا بأصواتهم لمرشحي الأحزاب المختلفة كمواطنين يُودون واجبه الم انتخابي. الحزبية إذا لم تكن عيباً في حد ذاتها ولكنها كانت تكتلاً للقوي الشعبية الواعية وتنظيمها لجهود أفراد الأمة حتى يكون عملهم مثمراً.

والحزبية من غير شك وبما فيها من عيوب هي التي تقدّمت بالبلاد هذه الخطوات السريعة وحققت استقلال السودان وخلقت وعياً شعبياً يتتبع الحوادث الداخلية والعالمية عن فهم وإدراك فإذا ما انحرفت أو اختلفت فيما بينها وجب علينا أن نقومها بالقانون المنظم لها ونضع لها الأسس التي تجعلها بمنجاة من الانحراف والإسفاف وأن نحدد عددها إذا ما أصبحت من الكثرة بحيث تخرج بها تلك الكثرة عن هدفها. لا أن نقوِّض أركانها ونحارب صالحها وطالحها على السواء.

فالتنظيم بالقانون هو الذي يصون الحقوق ولا يُبددها ويفتح الطريق أمام كل المواطنين دون ظلم طائفة أو محاباة طائفة. كما يفتح باب المنافسة المحببة وحينذاك (أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض).

إنَّ القوانين المقترحة جاءت بعد أوانها بكثير ولا شك أنَّ الذين أشاروا بها على الحكومة يعرفون قبل سواهم متى وضعت مثل هذه القوانين ولماذا وضعت يجب أن يشيروا بالقوانين التي تتمشى مع روح الثورة ولفظ الثورة.

وهل معنى الثورة الرجوع إلى الوراء أم السير قدماً إلى الأمام؟ إنَّ الثورة طموح فحركة فنهوض فانطلاق لا تقهقر ولا نكوص .

والثورات تقوم لأنها تستبطن سير من سبقوها فتريد أن تغذ السير وكان يجب أن تبدأ من حيث انتهى من سبقوها.

لقد تلكأت الحكومات السابقة في تكملة مقومات الاستقلال. لم تضع الدستور الدائم الذي يُمكن من انتخاب رأس الدولة وجعل السودان دولة واضحة المعالم

متكاملة المقومات.

إنَّ الحرية يا سيدي الرئيس لا تخيف الأحرار والشرفاء ولكنها تخيف الجبناء والأشرار وتكشف العاملين في الظلام، إنها النور الذي يضيئ الطريق أمام الحاكم والمحكوم هذا ليفصح عمّا في نفسه وذلك ليعرف رغبات شعبه فيستجيب لها وهنا تطمئن النفوس وترتاح الضمائر ويلتقي الحاكم والمحكوم على فهم وعن محبة وثقة. الحرية تخلق الاستقرار والضغط يُولد الانفجار. والسودان الحديث أحوج ما يكون إلى المحبة والتعاون والاستقرار وهذا ما نطمح أن يصل إليه على أيديكم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

خضر حمد

ثورة أكتوبر

لم يُسعدني الحظ بحضور ثورة أكتوبر فقد كنت في مصر ولو أنني تركت تباشيرها قد ظهرت. فقد كنت بالسودان يوم أُلقيت المحاضرة الأولى في الجامعة وكانت عن الأوضاع في الجنوب وكيف تعالج علاجاً صحيحاً ولفت نظري قول الأستاذ الترابي الذي قال: إنَّ المحنة ليست محنة الجنوب وحده ولكنها محنة الشمال والجنوب من حيث فقدان الحرية والحياة الديمقراطية. وكان هذا في نظري كلاماً خطيراً له ما بعده لأنَّ الحكم العسكري لم يتعود سماع مثل هذا الكلام ولا بدَّ له أن يتحرك. وكُنّا أيام الحكم العسكري نختلف في الأساليب التي يُحارب بها وكان من رأي البعض أن يصدرنا المنشورات من وقت لآخر يكشفون بها الأخطاء ويوعون بها الجماهير ويطلعونها على ما خُفي عليها وكان رأيي الذي لم أتنازل عنه لآخر لحظة هو أن أخطاء العسكريين هي التي ستقضي عليهم وأننا كلما أهملناهم زاد غرورهم وتمادوا في الأخطاء وحسبوا أنهم قد قضاوا على كل حركة. أمّا هذه المنشورات فهي فوق أنها تبثهم إلى أخطائهم تجمع شملهم وتؤلّف بين القلوب المتنافرة. ما شاركت في حركة المنشورات وما وقفت ضدها بل كنت أحياناً أقول إنَّ الحركة

خير من السكون الطويل وكان الشيوعيون أيضاً يُناوشون العسكريين بمثل أسلوب الوطني الاتحادي.

لقد قلت في مبدأ هذه المذكرات إنني اعتمد فيها على سرد الأعمال التي اشتركت فيها والتي لم أخدّها عن آخرين أو أروّيها عن صحيفة أو عن عليم. ولذلك لا أريد أن أتحدّث عمّا حدث في ثورة أكتوبر ولكنّها بعد أن قامت وبدأ الناس في التماس الحلول حاولت أن أبرق برأيي ولكن كانت وسائل الاتصال كلّها قد قُطعت بين مصر والسودان إلا أنني استطعت أن أبرق عبوداً في أول الحركة وأحمّله مسؤولية ما ينجم عنها وما أريق فيها من دماء. وفيما يلي نص هذه البرقية: □

معالي الفريق إبراهيم عبود رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة

الخرطوم

إنّ الحوادث الدامية التي ألحقت الأضرار المادية بسلامة المواطنين والنزلاء وأملاكهم كما عرّضت أرواح المواطنين الأبرياء للهلاك فهي نتيجة حتمية للحكم العسكري الغاشم الذي جثم على صدر البلاد فأفقدّها الحريات العامة وأطاح بالمكاسب الديمقراطية التي حصل عليها الشعب بكفاحه الدامي ضد الاستعمار ونتيجة أيضاً لمحاربتكم للأحرار والمخلصين الذين حقّقوا استقلال البلاد بكفاحهم الباسل ولا علاج لهذا الموقف إلا أن يرجع الجيش إلى ثكناته فالجيش لم يخلق ليحكم ولكن ليحمي وأن تعود الحياة الديمقراطية التي لن تستقر الأوضاع إلا في ظلّها وإلا فستحملون وحدكم تبعه كلّ ما يحيق بالبلاد من كوارث وأضرار.

خضر حمد

م 1964/10/26

تكوين حكومة أكتوبر

كنا نتطلع للأخبار ونحاول أن نسمع الإذاعات المختلفة لنعرف ما يجري وما تمّ عليه الاتفاق بعد أن حلّ عبود المجلس الأعلى. ولدهشتي قابلني شقيق الزميل محمد صفوت وقال إنّه سمع أن الحكومة قد كُوتت وكونها شخص يقال له سر الختم فقلت له على الفور.. ليس في السودان من يستطيع أن يكون حكومة واسمه سر الختم واعتبرت الرجل قد سمع اسماً لم يحفظه جيداً.

وعندما عدت إلى الفندق الذي أنزل فيه وجدت الأخ محمد خليل بتيك فسألني هل سمعت الأخبار فقلت له سمعت خبراً لا قيمة له ولم أعلق عليه ولما أخبرته به قال.. نعم لقد ألف الحكومة سر الختم المدرّس واسمه سر الختم الخليفة وكان الخبر موضع دهشة الموجودين.

عدت إلى السودان في أول طائرة ووجدت أن جبهة موحدة قد كُوتت وهذه الجبهة اتفقت على تكوين الحكومة المؤقتة على أن تبدأ الانتخابات سريعاً لقيام الحكومة الدائمة ووضع الدستور.

وفكرة الجبهات دائماً تكون من وحي الشيوعيين لأنّها من أساليبهم في كل العالم وعن طريقها يستطيعون الاشتراك مع الآخرين والزج بأنفسهم مع العاملين.

ومن مبادئ الشيوعيين (اضرب واجر) ولكنهم هذه المرّة حاولوا أن يتبنوا الثورة وفعلاً استطاعوا عن طريق ممثلي الهيئات والأحزاب في الجبهة أن يدخلوا عدداً كبيراً في الحكومة وأن تكون لهم الأغلبية فيها هذا جانب تساهل الأحزاب الكبيرة التي لم تطالب بأكثر من تمثيلها بشخص واحد فمثّل حزب الأمة وزير ومثّل الحزب الوطني الاتحادي وزير وكان حزب الشعب الديمقراطي موالياً للشيوعيين ومتعاوناً معهم.

وجد الشيوعيون فرصتهم وأخذوا ينتقمون من أعدائهم في جميع مصالح الحكومة ووزاراتها وبرز انتقامهم أكثر في صفوف البوليس والثروة الحيوانية لأنهم كانوا يريدون أن يصل الموالون لهم إلى القمة وقد خسرت البلاد كثيراً من هذا التصرف الطائش الحاقد وعندما استقرّ الحكم بعد الانتخابات بدأت الشكاوي ترد إلى الحكومة وإلى

مجلس السيادة وبدأ المظلومون يطالبون بتقديمهم إلى المحاكم لأنهم كانوا على نَقَه من براءتهم.

وأخيراً نصح النائب العام الحكومة أن تتساوى مع الشاكين لأنَّ لهم حقوقاً ظاهرة وأنهم أحيلوا على المعاش لغير ما جريرة أو ذنب وفعلأً دفعت الحكومة لبعضهم تعويضات هي عبارة عن الفرق بين المعاش والمرتب في المدة الباقية لهم في الخدمة وسُوِّيت معاشاتهم على أنَّهم وصلوا إلى سن التقاعد واستخدموا في بعض المصالح. هذا إلى جانب الكفاءات التي خسرها السودان واستفادت منها بلاد عربية أو أفريقية كرجال الثروة الحيوانية الذين وجدوا عروضاً مغرية فلم يتردُّوا في قبولها وقد لفظتهم حكومة بلادهم دون ذنب ودون أن تُقدمهم إلى محاكمة وتحت المادة الظالمة 30(ب) التي تبيح للوزير أن يستغني عن خدمات أيِّ موظف دون أن يُقدِّم أسباباً وكانت هذه المادة من آثار العهد العسكري الذي ولى وجاء الناس لإصلاح مفاصله.

عضوية مجلس السيادة

لم أفكر قط في هذه الوظيفة وكنا بعد الانتخابات لم نخرج بأغلبية مطلقة وكان لا بدَّ لنا في أن نتعاون مع حزب الأمة وإلاَّ لما تكوَّنت في البلد حكومة. لقد ظهرت التكتلات الإقليمية أو القبلية ككتلة البجة وكتلة جبال النوبة وقد صرح كلا الحزبين بأنَّه لن يُشجَّع هذه التكتلات ولن يتعاون معها في تكوين حكومة. وحزب الأمة أيضاً كان لا يستطيع أن يُكوِّن حكومة بمفرده إلاَّ بتعاونه مع التكتلات التي أعلن إدانتها أو مع الحزب الوطني الاتحادي. كان الحزب الوطني الاتحادي قد أعلن أثناء الدعاية للانتخابات على لسان رئيسه وعلى لسان أعضائه البارزين أنَّه لن يُنسَّق عمله أو يتعاون مع حزب الأمة وهذا بالطبع كان أمراً ضرورياً حتَّى لا يتوانى أعضاء الحزب في المعركة وحتَّى لا تفكر بعض الجهات في التنازل لحزب الأمة في الأماكن التي لهم فيها أغلبية ولنا أقلية وكنا نريد الحملة أن تكون مُندفعة برغبة الحصول على أغلبية.

وعندما ظهرت نتيجة الانتخابات وكان كلا الحزبين لم يحز على أغلبية تُمكنه من تكوين حكومة أصبح من الضروري أن يتعاون الحزبان أو يتعاون أحدهما مع الكتل العنصرية أو تترك البلد بغير حكومة. وبدأت المشاورات بين الوطني الاتحادي مُمثلاً في شخص رئيسه وبين حزب الأمة مُمثلاً في السيد الإمام الهادي راعي الحزب والسيد الصادق المهدي رئيس الحزب.

وفي آخر ليلة للمفاوضات اجتمع النواب بمنزل الرئيس في انتظار عودته بما يصل إليه مع الجانب الآخر وكنت مع النواب بوصفي في هيئة الحزب العليا بعد أن استقلت من سكرتارية الحزب عند إعادة تكوين الحزب بعد الحكم العسكري. ودون مقدمات شعرت بتكتلات جانبية مُتعددة على رأس بعضها الأخ السنجاي وعلى رأس أخرى حسن حامد مهدي ومحمد الحسن عبد الله ياسين وعلى رأس أخرى محمد جبارة العوض.

وبعد فترة أخذني جانباً الأخ محمد جبارة العوض وقَدَّم لي بمقدمة يحذرني فيها من العناد وإني إذا فعلت ذلك سأكون سبباً في ضرر على الحزب وأخيراً قال إن إخوانك في الهيئة يرغبون في ترشيحك لعضوية مجلس السيادة وكان هذا التفكير على أساس أنه سيكون لنا عضواً واحداً وأن الرئيس طبعاً لن يكون عضواً بل ربما كان رئيساً للحكومة. بل ربما كان رئيساً للحكومة.

وكان حديث جبارة أشبه بالأمر أمراً من جانبي فقد كنت أعتقد أنهم يتكلمون في أمر لم يأت وقته وأن نتيجة مفاوضات الرئيس لم تعرف بعد وقد تنجح أو تفشل فلا داعي لخلق مشاكل بغير مُبرر وسكت ثُمَّ نزلت من منزل الرئيس إلى الشارع وبقيت هناك مع بعض الإخوان إلى أن ظهر السيد الرئيس فتيبناه لنصعد حيث الاجتماع. وقد كان مع الرئيس السيد إبراهيم جبريل فأخذني إلى جانب وقال لي نريد أن نرشحك لعضوية مجلس السيادة فقلت له أتركنا من هذا الأمر الآن يا إبراهيم إلى أن نعرف ماذا تم.

عقد الاجتماع وسرد السيد الرئيس كل ما دار في اجتماعه مع حزب الأمة وقال عن الاتفاق الذي تم بتعديل الدستور ليكون هو رئيساً دائماً على أن يكون يس الوزارة من حزب الأمة وأن يتكون مجلس السيادة من خمسة أعضاء اثنان منهما من الأمة واثنان من الوطني الاتحادي وواحد من الجنوب.

وبعد قليل سأله أحد الأعضاء وهل فكّرت فيمن سيكون معك في مجلس السيادة فقال والله في فكري أن يكون خضر حمد فصمت الأعضاء ووجدوا أن ما اتفقوا عليه صادف هوى من نفس الرئيس دون أن يعلم باتفاقهم. أمّا أنا فوالله خرجت ولم أعلق على هذا الأمر أي أهمية إلى أن حدّثني الرئيس صباح الغد يقول لي كيف ستدخل البرلمان وليست معك تذكرة فقلت له «يا ريس انتو بتتكلّموا جد؟» فضحك ضحكة طويلة وقال أنت الذي لا تتكلم جد.. من فضلك تعال بسيارتك لندخل سويا إلى البرلمان وسأخبرهم في الباب.

وتمّ ذهبني إلى البرلمان وتمّ انتخابنا وحلفنا اليمين الدستورية ثمّ ذهبنا إلى القصر الجمهوري وهكذا أصبحت عضواً في مجلس السيادة بعد أن خائني التوفيق في عضوية البرلمان.

وعندما خرجنا من القصر جاءني موظف يسألني متى أريد العربة الحمراء أن تأتي إلى المنزل صباح الغد، فقلت له لا تأتي إليّ ولكن أنا الذي سيأتي إليكم وقد نويت على استعمال سيارتي الخاصة واستعملتها فعلاً إلى أن مرضت وأجبرت على استعمال سيارة من القصر بسائقها.

مجلس السيادة

مجلس السيادة هو رأس الدولة وفي حقيقته أشبه بوضع الملك فهو يملك ولا يحكم لأنّ سلطاته محدودة. فيتبع مجلس السيادة الجيش والقضاء ولجنة الخدمة العامة ولجنة الانتخابات. ومجلس السيادة مع الجمعية التأسيسية يكونان الهيئة الدستورية العليا في البلاد.

ومجلس السيادة لا يتّصل مباشرة مع أيّ وزير أو وزارة أو موظف كبير ولكن اتصّاله يتمّ عن طريق مجلس الوزراء.

والأعمال التي يقوم بها مجلس السيادة من تصديق على متطلبات أو قرارات أو أحكام وترقيات الجيش ومن القوانين التي تأتي إليه من الجمعية التأسيسية وقضايا الإعدام التي تصله من محكمة الاستئناف المدنية العليا للتصديق عليها وطلبات العفو

الشامل والالتماسات التي ترفع عادة إلى رأس الدولة وشكاوي الموظفين التي تحوّل إلى لجنة الخدمة العامة وتنظيم الانتخابات العامة واستلام أوراق اعتماد سفراء الدول وبعض المقابلات التي تتمّ بقصد المجاملة من وفود أو أعضاء مؤتمرات أو زيارات رؤساء أو ملوك الدول.

هذه الأعمال وغيرها في رأيي لا تدعو إلى تعيين خمسة أعضاء خصوصاً بعد أن عدل الدستور وأصبح للمجلس رئيس دائم لا كما كان سابقاً يتولّى الرئاسة كلّ شهر أحد الأعضاء. كان من الممكن أن ينتخب عضوان مع الرئيس ولكن يبدو أن الارضاءات الحزبية والتشبيث بتمثيل كلّ الجهات هو الذي دعا إلى جعلهم خمسة ولا أكون متجنياً على أحد إن قلت أن بعض الأعضاء يكون تكلمة عدد ويكلف الدولة ما هي في غنى عنه.

وأكثر شيء كان وما زال له أثر عميق في نفسي أثناء عضويتي في هذا المجلس هو هذه القضايا التي يحكم فيها على أشخاص بالإعدام ثمّ تحوّل إلينا للتصديق عليها. فملخص القضايا ما زال يكتب باللغة الإنجليزية كما كان في عهد الاستعمار وأظنّ وبعض الظن أتمّ أن هذا الملخص يكتبه بعض الموظفين الذين كسبوا الخبرة بالمران ثمّ يقرأه أحد القضاة ويوافق عليه الآخرون وكثيراً ما ألاحظ أخطاء في كتابة الكلمات ممّا يدلّ على أن الذي يقرأها يمرّ عليها مروراً سريعاً ولا يحفل بتصحيح الأخطاء. والمهم جداً في هذا الأمر والذي أثر في نفسي هو أن المحكمة الكبرى بعد أن تصدر حكمها بالإعدام ترسل الأوراق إلى محكمة الاستئناف العليا ويسلم المحكوم عليه إلى السجن الذي يضع على يديه ورجليه كمية ثقيلة من قيود الحديد ويوضع في زنزانة ضيقة ويمكث على تلك الحال أعواماً قد تصل إلى ثلاثة يموت فيها هو وأفراد أسرته كلّ يوم وقد بدأت أهتم بهذه القضايا من حيث المدة التي يمكثها المسجون أو المحكوم عليه بالإعدام في السجن إلى أن تصلنا القضية لنصدق على الحكم فوجدت أن المدة تصل أحياناً إلى أكثر من ثلاث سنوات وعلمت من أحد رجال السجن أن عندهم من مكث في السجن خمس سنوات ومازال ينتظر التصديق على حكم الإعدام عليه.

وقد حملني ذلك إلى رفع مذكرة إلى المجلس أقول فيها إنّه من المسلم به أن القاتل يقتل ولكن لم تقل شريعة سماوية ولا أرضية أن القاتل يُعذب ويُقتل ووصفت

الحالة التي يكون عليها المحكوم عليه بالإعدام وحالة أهله واقترحت أن يقرر أن كل محكوم عليه بالإعدام يمكث في السجن أكثر من عام نُعَدَّل الحكم عليه من الإعدام إلى التأييد ولكن المجلس تَرَدَّدَ وَفَضَّلَ أن يقابل رئيس القضاء ويلفت نظره إلى هذا التأخير الذي يُسَبِّبُ أذى كثيراً لهؤلاء المنكوبين وفعلاً تَمَّتْ المقابلة ولكن رد رئيس القضاء ما كان مقنعاً مطلقاً وبقي الحال كما هو وما زالت السجون تنن من هؤلاء المحكوم عليهم بالإعدام ويثنون هم ويثن أهلهم وتثن سلطات السجن التي ترسل بالاستعجال تلو الاستعجال ولكن لا حياة لمن تنادي ولا أَسْتَبْعِدُ أن تكون بعض قضايا هؤلاء قد فقدت تماماً.

وكم أتمنى أن يأتي اليوم الذي نسلك فيه مسلك الاستعمار عندما كان مدير المديرية إذا لم يأت التأييد بالحكم في مدى واحد وعشرين يوماً يعتبر الحكم قد تأيّد وينفذ فوراً فهو لا يطيق أن يُعَذِّبَ شخصاً أكثر من ذلك ثُمَّ يُنفِذَ فيه حكم الموت.

أحداث

لقد مرّت أحداث عديدة في الفترة التي قضيناها في مجلس السيادة من سنة 1965م إلى سنة 1969 منها زيارات بعض الملوك والرؤساء من أفريقيا والبلاد العربية ومنها بل أهمها انعقاد مؤتمر القمة العربي الذي كان له أثر طيب والذي جعل للسودان مكاناً مرموقاً بين البلاد العربية بفضل الجهد الذي بذله السيد الرئيس الأزهرى ورئيس الوزراء السيد محمد أحمد محبوب هذا إلى جانب المؤتمرات الأفريقية والعربية التي حضرها السيد الرئيس مُمَثِّلاً للسودان وقد كان له فيها مكان بارز ومقعد صدق الشيء الذي جعل الرؤساء الأفريقيين الذين زاروا السودان يشيدون بمجهوده ويثنون على أثره واهتمامه وصبره ونشاطه ولست أنسى خطاب الرئيس كاوندا في حفل العشاء الذي أقامه بالقصر وكيف كان حديثه كله ثناء على الرئيس بل قال إنه يغبط السودان بوجود هذا الرجل على رأسه.

كان القصر الجمهوري قبلاً سراي الحاكم العام وكان مُحَرَّمًا على المواطن أن يراه من الداخل إلا خادماً فيه وكان شارع النيل هذا يقفل منذ العاشرة مساء حتى لا تمرّ سيارة

به وذلك أثناء وجود الحاكم العام وأثناء غيابه في الإجازة واستمر الحال كذلك حتى في مجلس السيادة الأول ولو أنه لم يكن هناك من يسكن القصر أو السراي.

وأقترح الرئيس أن تقام دعوات فطور في أثناء رمضان يدعى إليها مختلف الطبقات من الموظفين ورجال الجيش والهيئات والمواطنين حتى يشعر الناس بأن هذا القصر منهم ولهم وأنه لم يعد ملكاً لحاكم أو مقراً للسلطة الاستعمارية. وتمّ فعلاً تنفيذ الاقتراح وأقيمت حفلات فطور في رمضان في كل يوم خميس وكان لها أكبر الأثر في نفوس الناس بل كانت ترد بعض الاحتجاجات ممن نسيت أو سقطت أسماؤهم. وكذلك لا حظنا توسيع الدعوات في عيد الاستقلال وفي عيد أكتوبر وفي هذه الأعياد كان السيد الرئيس يعد خطاباً صافياً يشرح فيه السياسة التي يرجو أن تسير عليها الحكومة والسياسة الخارجية وينبه الموظفين كبارهم وصغارهم إلى واجباتهم وإلى مسؤولياتهم ويحثهم على الشجاعة وألاً يكونوا أداة طيعة للوزراء فيما لا يكون حقاً أو لا يقوم على قانون.

أما أعضاء مجلس السيادة فلم يحدث أن اختلفوا في شيء وأعتقد تماماً أن كل قرارات المجلس كانت بالإجماع إلا في حادثتين. الحادث الأول نشأ من اعتراض العضو الجنوبي في أول اجتماع وأصرّ على أن يكون اختيار الرئيس بالقرعة وقال إنه يعلم أن الاتفاق تمّ على تعديل الدستور واختيار رئيس دائم ولكنه مع ذلك يصرّ على القرعة.

أما الاعتراض الثاني فقد كان يوم استقال أكثر من ثلث أعضاء الجمعية التأسيسية وجاءنا خطاب من رئيس الوزراء بأن الجمعية لم تعد صالحة للقيام بواجبها الأول وهو وضع الدستور ورأينا أن نردّ الأمر إلى صاحبه الشرعي وهو الشعب ونقيم انتخابات جديدة فقد اعترض السيد عبد الرحمن عبدون أمّا غير ذلك وطول الفترة كان الأعضاء منسجمين تماماً وعلى وفاق تام في إصدار قراراتهم ولم يشذ واحد منهم عن زملائه يوماً ما.

تكاليف الوظيفة

إنَّ وظيفة عضو مجلس السيادة تُكَلِّف العضو كثيراً فإذا صرفنا النظر عن «العشمانين» والطامعين والذين كانوا يرضون بالقليل ثُمَّ أخذوا يطالبون بأضعافه وهذا في داخل السودان فإنَّ العضو في الخارج مهما حاول أن يبتعد عن المجتمعات والمظاهر فإنَّه مجرد أن ينزل في الفندق يعلم كلُّ من به من هو ويبدءون في الإحاطة به و أظهار الاهتمام به الشيء الذي يجعلك مضطراً لأنَّ تبذل أضعاف ما كنت تبذله وأنت شخص عادي.

وأغرب من هذا فإنَّك لا تستطيع أن تنزل حيث تشاء ولكن السفارة تختار لك المكان وتطالبك بالنزول فيه بوصفك رأس الدولة ولا يصحُّ أن تنزل في أقلِّ منه. والسفارة نفسها تحسب حساب العطاءات للخدم والفراشين والموظفين ولكثك مع ذلك لا تستطيع أن تخرج من الفندق وكلُّ هذه العيون ترقبك وتنتظر منك المنح السخية « يا رأس الدولة». إنَّ سائق السيارة وعامل المصعد وحتى الطباخ في مطبخه ينتظر العطاء بل منهم من يطالبك بحق زميله الغائب والعطاء يجب أن يكون كبيراً ومناسباً للمنصب الكبير فإنَّ هذه المناصب لها في غير السودان احترام ومكانة وتقدير وكثنا نأمل أن يشملنا المثل القائل «مين عارف عيشه في سوق الغزل» ولكن خاب أملنا ووقعنا في الشباك مراراً وفي كل رحلة وفي أيِّ بلد.

ليس هذا فحسب ولكنَّ هناك الوساطات التي يريدونك لها ويرجونك فيها سواء بين أهل البلد نفسه وحكومتهم أو بين مواطنيك والبلاد التي يعيشون فيها وهي لا تقل تفاهة أحياناً عن الوساطات التي يطالبك بها بعض مواطنيك هنا في السودان ويظنون أنَّ صاحب المنصب الكبير من حقِّه أن يأمر فيقطاع ولا تجدي المحاولات التي تبذلها لتفهم ذوي الحاجات خطورة موقفك وأنَّه ليس من حقِّك أو لا يليق بمنصبك أن تكتب إلى موظف أو توصي على أحد ولكن تكون النتيجة بعد كل هذا الشرح والاعتذار أن يقول لك صاحب الحاجة وهو غاضب كما هو أرعن إنَّك إذا أردت فعلت ولكثك لا تريد مساعدتي.

مجلس السيادة والقضاء

بحكم الدستور أنَّ القضاء يتبع مجلس السيادة وقد نشأت هنات صغيرة بين المجلس والقضاء والحقيقة أنَّها لم تصل إلى طور الخلاف غير أنَّ الصحافة التي كانت تريد أن تسبق نشر الأخبار المثيرة كانت تخلق من الحجة قبة كما يقولون.

ولم يكن مطلقاً من اتجاهات المجلس أن يعوق سير القضاء أو يتدخل في شؤونه حتى بعد تدخل القضاء في قضايا دستورية ليس من حقّه الدخول فيها وفرض من نفسه وصياً على الجمعية التأسيسية التي عدّلت الدستور وقضى التعديل بتحريم الشيوعية وإخراج الشيوعيين من الجمعية التأسيسية.

والقصة التي دفعت الجماهير إلى مطالبة الجمعية بهذا التعديل معلومة للجميع.

إنَّ الجمعية التأسيسية كُونت لتضع الدستور وتقره ومعنى ذلك أن تلغي هذا الدستور القائم برمته ومن كان من حقّه أن يلغي الكل لا شك له الحق في أن يعدل الجزء.

ولكن مع ذلك فإنَّ مجلس السيادة لم يقف أمام أحد ولم يحكم أو يعلن بأنّه لا يوافق القضاء على السير في القضية الدستورية حتى أضيفت إليها قضية دستورية أخرى نشأت من حل الجمعية بعد استقالة أكثر من ثلث أعضائها ففقدت بذلك صلاحيتها لوضع وإقرار الدستور الذي من أجله وحده انتخبت.

لقد كنّا حريصين فعلاً على ألا نعترض طريق القضاء وهذا الذي أكتبه ليس دفاعاً ولكنه تدوين للواقع وما كنّا مقيدين به - غير أن ما أذيع أخيراً حول القضاء إن كان حقاً أو باطلاً ودون التأكد من صحته. نجد ثاني يوم تصريحاً مضاداً من ممثل القضاء كأنما يردُّ بذلك على مجلس السيادة وهنا تجد الصحافة طلبتها فتصوّر الموقف كما يحلو لها وكما يُثير قراءها.

وكم من مرّة اتصلت ببعض الصحف وطلبت منها أن تحصل على نسخة من الدستور فهو سيد القوانين وتلجأ إليه في المشاكل التي تُثار حول مجلس السيادة والقضاء.

وحدث أن قرأت مواد من الدستور على بعض الصحفيين فبان جهلهم التام بها وأظهروا دهشتهم لوجودها ولكنهم مع ذلك يواصلون السير في موكب الإثارة والإشاعات.

القضية الدستورية النولى

كانت هذه القضية قد نشأت من تعديل الدستور وتحريم الشيوعية وإخراج الشيوعيين من الجمعية. فرفع الشيوعيون قضية على الجمعية ونصيب مجلس السيادة منها قليل ليس أكثر من تصديقه على قرار الجمعية. ولكن مع ذلك فقد لجأنا إلى المستشارين وإلى مَنْ لهم علم بالقوانين الدستورية وأطمأن بالنّا على أنّه من حقّ الجمعية أن تُعدّل الدستور وأنّ ما اعتمد عليه القاضي الذي قبل القضية وأصدر حكماً فيها لم يستند إلّا على فقرات من بعض قوانين لقانونيين لا يُعتدّ برأيهم وأخذت القضية بعد ذلك يتداولها القضاة وكل يحاول التخلص منها بإزاحتها عنه لأيّ سبب من الأسباب حتي نسيها الناس وحتّى حُلّت الجمعية التأسيسية الأولى التي عدّلت الدستور ولكنّ ممّا سند الجمعية الأولى والثانية أنّ اللجنة القومية للدستور أيدت التعديل وشمله الدستور الجديد الذي سيرفع إلى الجمعية التأسيسية لدراسته وإقراره.

القضية الدستورية الثانية

لقد حدث لأسباب لا نستطيع أن نحدّدها نحن كأعضاء مجلس السيادة أن استقال عدد من النواب لأسباب ذكروها وهم نواب الوطني الاتحادي والأمة جناح الإمام الهادي وكان عدد الذين استقالوا أكثر من الثلث وينصّ الدستور على أنّ جميع القرارات تصدر بالأغلبية المطلقة إلّا بنود الدستور فيجب أن تصدر بأغلبية الثلثين. والجمعية التأسيسية أنشئت وسمّيت بهذا الاسم لسببين أولهما وضع الدستور وإقراره في مدي عامين.

وثانيهما ألا تحل في مدي هذين العامين.

فلما استقال أكثر من الثلث وأصبح الباقي لا يستطيع أن يضع أو يقرّ الدستور وقضت من العمر أكثر من عامين أرسل السيد رئيس الوزراء إخطاراً إلى مجلس السيادة بهذا الوضع.

ورأى مجلس السيادة ما عدا واحد من أعضائه أنَّ الباقي في الجمعية من أعضائها فقد الأهلية لوضع وإقرار الدستور وأنَّ وجوده لا معنى له لأنَّ الدستور نصّ نصاً صريحاً على أنَّ الدستور لا يُقرُّ إلاً بالثلثين وأنَّ الجمعية مهمتها الأولى والأخيرة هي وضع الدستور وإقراره.

فكَّر مجلس السيادة في أنَّ يفتح الدوائر التي استقال أصحابها لانتخاب جديد ولكن خشي أنَّ يكون هذا التصرف غير سليم ولذلك فكَّر في أنَّ يرد الحق إلى صاحبه الشرعي وهو الشعب وأنَّ تقوم الانتخابات في أقرب فرصة لتستأنف الجمعية مهمتها ويكون مجلس السيادة لم يتصرف تصرفاً خاطئاً ما دام صاحب الحق الشرعي يمكنه أن يقول كلمته في الوضع وأنَّ ينتخب جمعية جديدة بكامل حريته وقد فعل ولم يعترض أحد على الانتخابات وسلامتها وحيدتها.

أمَّا الذين لم يستقيلوا أو بعضهم فقد أصرُّوا على أنَّ الجمعية قائمة أو يجب أن تستمر ورفعوا قضية ضد الجمعية وضد مجلس السيادة ولو أنَّهم في الآخر آمنوا بالواقع ودخلوا الانتخابات.

لقد انتهت الانتخابات في وقت وجيز وأعيد انتخاب مجلس السيادة وكان لي شرف الانتخاب مرَّة أخرى وكان قد تمَّ الاندماج قبل الانتخابات بين الحزب الوطني الاتحادي وحزب الشعب الديمقراطي وعلمت أنَّهم أي حزب الشعب الديمقراطي طالبوا بتنحياتي واختيار واحد من حزب الشعب سابقاً ولكنَّهم لم يفلحوا. ولم يفتني أنَّهم ربما طالبوا بشيء من ذلك ولذلك غبت عن اجتماع الهيئة والمكتب السياسي حتَّى أعطي الحرية لمن يريد أن يُعرِّض بي أو ينقذني أو يطالب بتغيير. واستمر الحزب بعد ذلك تحت أسم الحزب الاتحادي الديمقراطي وبقيت مع السيد الرئيس ممثلين للحزب في مجلس السيادة.

كان انتخابنا الأول لمجلس السيادة في 1965/6/10 والثاني في 1968/6/7م

الحرية

١٢٥

لو امتاز هذا العهد أي منذ قيام ثورة أكتوبر وبعد الانتخابات الأولى وسلم الحكومة شؤون البلاد، لو امتاز هذا العهد بشيء فهو امتياز به منح الحرية المطلقة للجميع ولست أتردد في أن أقول إنه ليس من بلد في العالم أعطي الصحافة حريتها الكاملة وبماضي من كل هفواتها وحتى إساءتها مثلما أعطاهها السودان لصحافته وأسطع أن أقول كذلك إنه ما من بلد في العالم أساءت صحافته استعمال هذه الحرية حتى أصبح قومي كما فعلت صحافة السودان.

إن الصحافة قد أعطيت صفة المشرف والناقد والموجه ونصحت السلطة الرابعة وكنا ننتظر منها أن تساعد على البناء والهدم أيضاً هدم الفاسد ونشر النقد النزيه الذي يرمي إلى إصلاح الفاسد وتقويم المعوج ولكن صحافتنا أصبحت سوقاً يدخله كل فاضل ونساهم فيه كل جاهل وأصبح أصحاب الصحف يقولونها صريحة إنهم يكتبون مقالاً واحداً وبالمقاييم الصحيفة يتركونه لمن هبّ ودبّ ويرون في ذلك مشاركة منهم في تشجيع حرية الرأي ولو أن ما كان يكتب لا يمت إلى حرية الرأي ولا للرأي نفسه بصلة بل كان الجهل والفوضى والتخريب.

لقد كانت الصحافة جميعها هدامة أعدت نفسها لتهدم لأن الهدم والشتائم والصور الكاريكاتورية المضحكة - حتى ولو كان فيها تعريض بأكبر الشخصيات - يجذب انتباه القارئ وبذلك تروج الصحيفة ويزيد التوزيع وينتفخ جيب صاحب الجريدة.

وأضرب مثلاً واحداً لأنواع التخريب في شكل النقد:

كتب كاتب أن أحد أصدقائه أخبره أن رجلاً واحداً استطاع أن يحصل من الحكومة على 36 قطعة أرض من القطع التي توزع على محدودي الدخل وغرضه من ذلك النشر أن يكشف لقرائه الفوضى أو الفساد الذي عمّ البلاد من حكومتها. وكتبت في الحال كلمة للكاتيب أقول فيها إنني على استعداد لأن أقوم مقام المخبر والمحتسب وأرفع دعوى على هذا الرجل وعلى من منحه تلك القطع في الوقت الذي يسعى فيه الناس للحصول على قطعة واحدة لسكناهم ورجوته أن يخبرني باسم هذا المستغل حتى أقوم بواجبي. ولكن كان تعليق الكاتب أن أحلني لصديقه المجهول وصمت ومن هنا علمت أنه ليس هناك شخص مستغل أو حاكم فاسد أو مدير متآمر ولكن كان الغرض هو الهدم الذي يدخل تحت مادة الكذب الضار وإشانة السمعة.

وكم من مقالات وكلمات كتبت في هذا المعنى وهي من اختلاق الكاتب وكانت الحكومة أضعف من أن تأخذ أي إجراء ممّا جعلني أقولها صريحة إنّها حكومة ضعيفة وجبّانة مع ما لها من السند القوي في الجمعية والرأي العام.

واستمر استغلال الحرية إلى أن أصبحت فوضى وأصبح رجل الشارع العادي يتأذى ممّا تكتبه الصحف أو تصوّره وتّجهت حملته لا على الصحف ولكن على الحكومة التي لا تريد أن توقف هذه الصحف عند حدّها.

ليس هذا فحسب ولكنّي عرفت أنّ مجلة تصدر أسبوعية أجراها صاحبها بأجر شهري يُدفع له وترك تحريرها لهيئة سياسية تستخدم المجلة فيما تريد. وهو لا شك مطمئن من حيث المسؤولية لأنّ الحكومة لا تسأل وليس عندها قانون صحافة والداخلية لا تريد أن تستعمل حقّها الإداري.

وحدث أن قرأت على صاحب جريدة كلاماً نُشر في جريدته وسألته ما معنى هذا الذي نُشر والغرض منه ولدهشتي اسمعه يسألني أين نشر هذا الكلام إي في أيّ جريدة؟ فقلت في جريدتك أيّها الهمام وفي الصفحة كذا والعمود كذا من عدد اليوم. هذا يدل ويؤيد أنّ صاحب الجريدة لا يدري ما يُنشر فيها وليس له صبر ليشرف على المقالات أو يراجعها أو يأمر بنشرها.

ذكرت الحرية وتحذّثت عن الصحافة في هذه المذكرات لأنّي كنت وثيق الصلة بالصحافة وكنت كلما قرأت خبراً لا يمت إلى الحقيقة بصلة حرصت على أن أصححه وفي أغلب الأحيان تصرّ الجريدة على خطئها وأعلم من ذلك أنّها قصدت نشر الخبر الكاذب ولكنّي أحاول مع هذا أن أبدي الرأي السليم وأريح ضميري وحتى إذا ما اتهمت جريدة يكون انتهامي قائماً على أساس سليم لا على الحسد والتخمين.

إنصافاً لبعض الصحفيين الذين تحدّثت معهم أقول إنهم كانوا يتأذّون من انتساب بعض الناس إلى زمرة الصحفيين وكانوا يعلمون مواطن الضعف فيهم أكثر ممّا أعلم ويريدون أن يضعوا قانوناً يُحدّد كفاءة الصحفي الذي يُسمح له بالانتساب إلى زمرة الصحفيين ولكنّهم أيضاً كانوا يشكون من تفكّك أصاب صفوفهم وأنّ الذين اندسوا بين الصفوف أصبحوا قوة يُحسب لها حساب عند أيّ اجتماع وأنّ الحكومة بمعزل عن محاولات الإصلاح التي يريدونها وكان كلّ فريق يحاول أن يجذبها إلى صفة حتّى شلّوا حركتها وأصبحت عاجزة عن إصدار قانون الصحافة.

النكسة

لست أريد أن أتحدث عن تاريخ الخلاف القائم بين العرب وإسرائيل تلك الدولة التي زرعتها الاستعمار وسط البلاد العربية وأعترف أول من اعترف بها الاتحاد السوفيتي ثمّ تبناها الاستعمار الإنجليزي والأمريكاني. لست أريد أن أتحدث عن ذلك ولكن قصدت الحديث عن العدوان الإسرائيلي الأخير أو ما اتفق الناس على تسميته بالنكسة أو النكبة والتي حدثت في 5 يونيو سنة 1967م.

رئاسة الوفد على مصر وسوريا

حالما انتهت الانتخابات الأخيرة وتكوّنت الحكومة ومجلس السيادة صرّح المسؤولون بتأييدهم للعرب. كانت إسرائيل قد تحرّشت بسوريا واعتدت عليها وأعلنت البلاد العربية المجاورة وعلى رأسها مصر والأردن وقوفهما إلى جانب سوريا واعتبار العدوان على سوريا عدواناً عليهما.

بالرغم من الخلافات التي بلغت الذروة بين مصر والأردن فإنّ الملك الشاب حسين طار إلى مصر وقابل عبد الناصر وأزال كلّ ما في النفوس وبرهن على أنّه ملك عربي نبيل وشجاع. وبدأت الدول العربية تعلن تأييدها ومساندتها.

وفي السودان بعد أن أعلن رئيس مجلس السيادة الرئيس الأزهري ورئيس الوزراء السيد محمد أحمد محبوب تأييدهما التام لمصر وسوريا بالمال والرجال والمؤن تقرّر أن يقوم وفد برسالة خطية من رئيس مجلس السيادة إلى كل من الرئيسين جمال والأتاسي وتقرّر أن يحمل تلك الرسالة وفد يكوّن من الوزراء المختصين والقائد العام وبرئاسة أحد أعضاء مجلس السيادة وقد وقع عليّ الاختيار لتلك المهمة.

كان ذلك في أواخر مايو وأوائل يونيو وقبلنا الرئيس جمال وشرحنا له مهمتنا واستعداد السودان شعباً وحكومة وأسفنا لأنّ ظروفنا الداخلية لم تُمكنّا من القيام تلك الرحلة قبل ذلك التاريخ وقلنا إنّ القضية قضيتنا كما هي قضية مصر وسوريا وفلسطين العربية.

وقد عبر مجلس السيادة في رسالته عن سروره بالإجماع العربي الشامل للاستعداد لخوض المعركة وقال أمّا من جهة السودان فإنّهم يعاهدون الله أن يكونوا درعاً للعرب والعروبة في هذه المعركة المصيرية وسيقف السودان صامداً ليحمي ظهر مصر وسوريا والعرب جميعاً حتّى نعلم العالم أننا أقوياء وأننا نعرف من نحن وماذا نريد وكيف نحصل على ما نريد.

وأعلن الوزراء في الوفد عن كلّ إمكانيات البلد في المساعدة للمعركة كما وضح القائد العام الوضع بالنسبة له وعدد الجنود الذين سيشاركون في المعركة. ولقد عبّر الرئيس جمال عن بالغ شكره وتقديره وقد غمره شعور طيب تجاوباً مع شعور السودان وعبّر عن ثقته بالسودان شعباً وحكومة. وبعد ذلك اتصل الوزراء بالوزراء المصريين وتحدث كلّ في شؤون اختصاصه.

وفي اليوم الثاني سافرنا إلى سوريا التي وصلناها في وقت متأخر وكان قد سبقنا إليها السيد زكريا محي الدين وفي صباح اليوم الثاني وفي الساعة العاشرة صباحاً قابلنا الرئيس نور الدين الأتاسي وحملنا إليه رسالة خطية وشرحنا شعور السودان واستعداده ومدى تجاوبه مع البلاد العربية وبعد أن رحّب بالجيش السوداني في بلاده- أيّ إرسالها لهم- وافق على أن يذهب السيد الخوّاض القائد العام ومساعدته عبده حسين محروس إلى الجبهة ومشاهدة الموقع على الطبيعة.

وأثرنا موضوع الملك حسين وخطوته التي خطاها بسفره إلى مصر وكيف أنّها قُوبلت بالثناء والإعجاب من البلاد العربية جميعاً وتشوقنا إلى أن تزول الرواسب التي بين الأردن وسوريا لأنّ الموقف يستدعي وحدة الصف ونسيان كل ماضٍ بغيض. وتحدّث الأتاسي في تحفّظ شديد وعبّر عن شعور عدم الثقة وبدا لي أنّ السيد زكريا محي الدين سبقنا بالحديث في نفس الموضوع دون جدوى.

وتحدّث معي شخصياً عن صديقين سوريين من قدامى المجاهدين هما الدكتور أمين رويحه والسيد أحمد طه وعبر عن شكره لاهتمامي بإخواني السوريين ولعلّ ذلك قد وصله عن طريق سعادة سفيره السيد الجمالي بالسودان.

انتهت الزيارة بالمجاملات المعروفة ثمّ ذهبنا إلى زيارة رئيس الوزراء السيد زعين وهو شاب مملوء حماسة وبدا لنا أنّ مركزه قوي في الوضع الحاكم وكان يتحدّث بحماسة بالغة وبعد الشكر والتقدير على شعور السودان وموقفه الكريم الذي يدلّ على

عروبة أصيلة انتقلنا أيضاً إلى الحديث عن العلاقة بين سوريا والأردن وأن الطرف يستدعي وحدة الصف وأن الخطوة التي خطاها الملك حسين دلت على حنكة وشجاعة. وكان حديثه في هذا الموضوع أكثر حماسة ووضوحاً من حديث الأناسي وكان إصراره على رفض التعاون بل الثقة واضحاً جداً واستمرَّ الجدل إلى فترة حتى حسمته أخيراً وقلت له إننا لم نأت مدافعين عن الملك حسين ولكن جرتنا الأحداث وأهميتها وخطورة الموقف ولذلك لنترك ذلك الموضوع للظروف.

وفي نفس اليوم رجعنا إلى بيروت ومكثنا بها ليلة ثمَّ عدنا إلى مصر وكان ذلك يوم الجمعة وقرَّرنا الرجوع إلى السودان بطائرة السبت 1967/6/3م وقبل السفر زارني السيد حسن صبري الخولي وهو المُمثِّل الشخصي للرئيس جمال في قصر الطاهرة يحمل رسالة خطية رداً على رسالتي وتحدَّثنا قليلاً. والذي لا أنساه أبداً أنه قال لي إنَّهم يتوقعون أن يتحرك اليهود في ظرف 48 ساعة. ومضت الثمانية وأربعون ساعة وهجم اليهود تلك الهجمة الغادرة التي سُمِّيت بالنكسة. والذي لا زلت محتاراً في فهمه أنه كيف حدث ما حدث ومصر تعلم قبل 48 ساعة أن اليهود سيتحركون ولا يكون هناك استعداد مضاد وفقد الجيش المصري سلاح طيرانه في لحظات ورجع اليهود سالمين. لقد كان أثر النكسة سيئاً على كلِّ عربي وكلِّ مسلم لم تتألم مصر وحدها ولكن تألَّم الشرق العربي كلُّه فمصر كانت ومازالت دائماً في المُقدِّمة ورمز عزتنا وعنوان قوتنا ولكن ما زال السر دفيناً ومازال الألم الممض يحزُّ في القلوب ولكن الحرب كُرِّ وفرَّ وأنها يوم لك ويوم عليك ولا بد لنا أن نعي الدرس وأن نعرف الأخطاء فتنداركها في المستقبل القريب.

نسيت أن أعلّق على حماس الشباب الذي كان يطغى على تفكير رجال سوريا حتّى حاد بهم عن جادة الصواب. أن الحرب لم تقع إلّا دفاعاً عن سوريا وسنداً لها ولكن كانت حكومة سوريا تُفكّر بعقلية ضيقة طغى عليها الحقد والحماس ولذلك اندفعت الدول العربية في المعركة وخسرت الكثير بل بعضها خسر كل شيء إلّا سوريا المُتحمّسة والتي تتهم الآخرين فإنّها كانت أقلّ الدول مشاركة في الحرب بل أخذت مرتفعاتها التي يقول العليمون بشؤون الحرب إنّه من الصعب بل من المستحيل على أيّ معتد أن يحتلها مهما كان ضعف القوة التي تحميها. ولكنّ مع ذلك فقد استحوذ عليها العدو وصمت الشباب المُتحمس والذي يفكر في النظريات والعقائد والمعركة معركة مدفع ودبابه.

وعندما عقد مؤتمر وزراء الخارجية العرب في الخرطوم تمهيداً لمؤتمر القمة العربي حضر الاجتماع وزير خارجية سوريا المدعو ماخوس وبقي في الخرطوم إلى أن انعقد مؤتمر القمة الذي لم تشارك فيه سوريا وكانت لها شروط ليس ذلك وقتها. وعندما طُلب من ماخوس أن يحضر بالنيابة عن دولته حتّى لا يكونوا نشازاً رفض الحضور وقال إنّ دولته لم تنتدبه وسافر بعد ذلك.

مؤتمر القمة العربي

إنّ السودان إذا أحصى مفاخرة لا شك في أنّه يعتبر عقد مؤتمر القمة العربي بالخرطوم على رأس تلك المفاخر، لقد بذل السودان ممثلاً في رئيس مجلس السيادة السيد الأزهري ورئيس مجلس الوزراء السيد محمد أحمد محبوب جهداً مشكوراً لتحقيق قيام هذا المؤتمر ونجاحه بالرغم من العقبات المتعدّدة التي كانت تقف في سبيل قيام هذا المؤتمر.

وقيام مؤتمر القمة العربي أكسب السودان سمعة عالمية وأثنت الدول المختلفة على السودان الذي حقّق قيام المؤتمر ونجاحه هذا زيادة على شعور الرؤساء والملوك

والشعوب العربية التي بدأت تنتبه إلى السودان وبلغت نظرها إليه بما بذل من جهد مشكور.

انعقد أولاً بالخرطوم مؤتمر وزراء الخارجية العرب ليمهدوا لمؤتمر القمة وليحددوا نقاط البحث بوضع جدول أعماله وتمّ ذلك بالخرطوم في الفترة ما بين أول أغسطس سنة 1967م إلى الخامس منه ووضع توصيات عشر لتعرض على مؤتمر القمة عند اجتماعه وليس هنا مجال ذكر التوصيات بتفصيلها ولكن آخرها كان التوصية بانعقاد مؤتمر الملوك والرؤساء بالخرطوم.

وقبل التاسع والعشرين من أغسطس سنة 1967م بدأنا نستقبل الملوك والرؤساء وبعد أن أعددنا بالقصر الجمهوري غرفة للاجتماعات كانت في عهد الاستعمار صالة للبلياردو والسينما.

وبعد أن اكتمل عدد الملوك والرؤساء أو من ينوب عن بعضهم كالسيد الباهي الأدهم نائباً عن الرئيس الحبيب بورقيبة لمرضه والسيد عبد العزيز بوتفليقة نائباً عن الرئيس هواري بو مدين والدكتور محمد بن هيمة نائباً عن جلالة ملك المغرب الملك الحسن وغاب عن الاجتماع كما ذكرت آنفاً مندوب سوريا. افتتح الرئيس إسماعيل الأزهري الاجتماع المفتوح الأول بدار البرلمان وحضرته الصحافة ووكالات الأنباء بكلمة ضافية سرد فيها الأسباب والدوافع التي تحتم عقد مثل هذا الاجتماع بالنسبة للظروف التي تحيط بالبلاد العربية ولماذا بادر السودان باحتضان الفكرة وتنفيذها ورحب بالملوك والرؤساء في وطنهم.

وبعد الإجراءات الشكلية من حيث انتخاب رئيس المؤتمر رُفعت الجلسة على أن تُعقد في اليوم الثاني أيّ أول سبتمبر في القصر الجمهوري ولكن تحولت بعد ذلك الاجتماعات إلى فندق السودان حيث ينزل الضيوف إلى أن انتهى المؤتمر فعُقدت الجلسة الختامية في دار البرلمان وتليت القرارات ثم ختم الاجتماع أو المؤتمر بكلمة شكر نيابة عن الملوك والرؤساء ألقاها فخامة الرئيس عبد الرحمن عارف رئيس جمهورية العراق نيابة عن زملائه.

ولعلّه من التسجيل والتاريخ أن أدون هنا قرارات هذا المؤتمر العربي التاريخي لأهمية الأحداث التي جرت فيه وللخدمات القيمة التي أداها إلى الدول المتأثرة بالعدوان أكثر من سواها كمصر والأردن خصوصاً وأن مصر قد فقدت بقفل القنال ما

يزيد على المائة مليون جنيه في السنة عائداً من البواخر التي تعبر القنال هذا زيادة على الخسائر الأخرى التي منيت بها هي والأردن في السلاح والعتاد والمباني والأرواح.

قرارات مؤتمر ملول ورؤساء الدول العربية الملتقى في 29 أغسطس إلى أول سبتمبر سنة 1967م

أولاً: أكد المؤتمر وحدة الصف العربي ووحدة العمل الجماعي وتنسيقه وتصفيته من جميع الشوائب، كما أكد الملوك والرؤساء وممثلوهم التزام بلادهم بميثاق التضامن العربي الذي وقع في مؤتمر القمة العربي الثالث في الدار البيضاء وتطبيقه. ثانياً: قرّر المؤتمر ضرورة تضافر جميع الجهود لإزالة آثار العدوان على أساس أن الأراضي المحتلة أراضي عربية يقع عبء استردادها على الدول العربية جمعاء. ثالثاً: اتفق الملوك والرؤساء على توحيد جهودهم في العمل السياسي على الصعيد الدولي والدبلوماسي لإزالة آثار العدوان وتأمين انسحاب القوات الإسرائيلية المعتدية من الأراضي العربية المحتلة بعد عدوان الخامس من يونيو وذلك في نطاق المباديء الأساسية التي تلتزم بها الدول العربية وهي عدم الصلح مع إسرائيل أو الاعتراف بها وعدم التفاوض معها والتمسك بحق الشعب الفلسطيني في وطنه. رابعاً: كان مؤتمر وزراء المال والاقتصاد والبترول العرب قد أوصى بإمكانية استخدام وقف ضخ البترول كسلاح في المعركة ولكن مؤتمر القمة رأى بعد دراسة الأمر ملياً أن الضخ نفسه يمكن أن يستخدم كسلاح إيجابي باعتبار البترول طاقة عربية يمكن أن توجه لدعم اقتصاد الدول العربية التي تأثرت مباشرة بالعدوان ولتمكينها من الصمود في المعركة. قرّر المؤتمر استئناف ضخ البترول باعتباره طاقة عربية إيجابية يمكن تسخيرها في خدمة الأهداف العربية وفي الإسهام في تمكين الدول العربية التي تعرّضت للعدوان وفقدت نتيجة لذلك موارد اقتصادية من الصمود لإزالة آثار العدوان. وقد أسهمت بالفعل الدول المنتجة للبترول في تمكين الدول التي تأثرت بالعدوان من الصمود أمام أي ضغط اقتصادي. خامساً: أقرّ المجتمعون المشروع الذي تقدّمت به الكويت لإنشاء صندوق الإنماء

الاقتصادي والاجتماعي العربي طبقاً لتوصية مؤتمر وزراء المال والاقتصاد والمخط الذي انعقد ببغداد.

سادساً: قرّر المجتمعون ضرورة اتخاذ الخطوات اللازمة لدعم الإعداد العسكري لمواجهة كافة احتمالات الموقف.

سابعاً: قرّر المؤتمر سرعة تصفية القواعد الأجنبية في الدول العربية.

قرار

قرّرت كلّ من المملكة العربية السعودية والكويت والمملكة الليبية أن تلتزم كلّ منها بدفع المبالغ التالي بيانها سنوياً ومُقَدِّماً عن كلّ ثلاثة أشهر ابتداء من منتصف أكتوبر إلى حين إزالة آثار العدوان:-

- المملكة العربية السعودية - خمسين مليون جنيه إسترليني
- الكويت - خمسة وخمسين مليون جنيه إسترليني
- المملكة الليبية - ثلاثين مليون جنيه إسترليني

وقد كان نصيب مصر من هذه المبالغ 95 مليوناً والأردن أربعين مليوناً، وبذلك تكاد تكون مصر قد غطّت عائد القنال الذي فقدته.

وأختتم المؤتمر الرئيس عبد الرحمن عارف رئيس الجمهورية العراقية بكلمة فيها تقدير واعتراف بما قام به السودان ورأيت أن أدونها هنا كشهادة من رئيس عربي لهذا الشعب العربي الذي أبدى من الحماس والشعور في استقبال الملوك والرؤساء ما أثلج صدورنا وجعلنا نفخر بشعبنا ومدى ما يمتاز به من وعي وفهم.

كلمة السيد عبد الرحمن عارف:

سيدي الرئيس

إخواني

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. باسمي وباسم إخواني أصحاب الجلالة وأصحاب الفخامة الملوك والرؤساء وباسم كافة أعضاء الوفود العربية والشعوب العربية أتقدم بالشكر الوافي إلى السيد رئيس وأعضاء مجلس السيادة السوداني والحكومة السودانية والشعب السوداني الشقيق على الدعوة إلى عقد هذا الاجتماع التاريخي الخطير وعلى الحفاوة والتكريم الذي لقيناه والمشاعر العربية الصميمة التي أبداهها الشعب السوداني تجاه قضايا الأمة العربية وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أصالة الشعب وإيمانه العميق بمبادئ هذه الأمة ووحدتها مع العلم أننا في أمس الحاجة إلى مثل هذه الاجتماعات التي لا يخفى على الجميع فوائدها وما ينجم عنها من أعمال إيجابية تعود على الأمة العربية بالنفع العميم خاصة في الظروف الحالية التي نحن أحوج ما نكون فيها لإزالة آثار العدوان - وفي ختام كلمتي أرجو أن يسدد الله خطانا لإخراجنا من محنتنا هذه والتقدم بها نحو السعادة والرخاء والسؤدد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وفي نهاية كلمته رفع رئيس المؤتمر السيد إسماعيل الأزهري هذه الجلسة الختامية مؤملاً أن نلتقي في مؤتمر القمة القادم.

لفتة بارعة

لقد كانت العلاقات بين المملكة العربية السعودية وبين الجمهورية العربية المتحدة في الذروة من سوء وكانت أدوات الإعلام كلها مشغولة في حمل السباب والشتم من الجانبين وقد أخرجنا يوم وصل الرئيس جمال عبد الناصر وكان المفروض أن نصل معه إلى الفندق في موكب الاستقبال وكانت طائرة الملك فيصل فوق المطار

نستعد للنزول وكان وجودهما في المطار سوياً شيئاً مستحيلاً ومجابهتهما لبعضهما البعض وكثلاً لا يمكن أن نسير في الموكب مع جمال ولا نقابل الملك فيصل كما أنه لا يمكن أن يبقى الرئيس جمال في المطار إلى أن تنزل طائرة الملك فيصل وانكشف الموقف وقال جمال إنه سيذهب ومعه رئيس الوزراء المحجوب ونبقى لاستقبال ضيفنا، فشكرناه على هذا التصرف وذهب فعلاً في موكب ومعه السيد المحجوب وبقينا نحن والرئيس الأزهري لمقابلة جلالة الملك فيصل والسير معه في موكب إلى الفندق.

وبالرغم من أن حشوداً قد حُشدت فإن الشعب تصرّف تصرّف الواعي الذي يستقبل ضيوفه وكباره في داره وكان الاستقبال للجميع في حرارة بأدية وابتهاج أكيد. أما ألفظة البارعة التي جعلتها عنواناً لهذا الباب فهي ما قام به الأخ المحجوب إذ دبر ونظم لاجتماع في منزله يتم بين جلالة الملك فيصل والرئيس عبد الناصر ويكون مسك الختام لذلك المؤتمر الناجح والذي رفع من اسم السودان ورددت وكالات الأنباء اسم الخرطوم صباح مساء.

لقد أعد المحجوب لاجتماع خاص لم يحضره غيره وغير الضيفين في منزله وكان اجتماعاً مباركاً حسم كل نزاع وأزال عن الصدور الإحن والضغائن وصفى العلاقات وخرج الرجلان العظيمان والصفاء والحب والإخاء يغمرهما ووقفت منذ تلك اللحظة كل الكلمات والأخبار التي كانت قبل ذلك تُعكّر الجو بين الشقيقتين وتباعد بين الدولتين العربيتين.

وكانت هذه اللفظة البارعة من المحجوب مسك ختام المؤتمر وقد سرّ لها كل العرب وفرحوا لإحلال الصفاء والوئام محل الخصام البغيض الذي كان يستغله العدو الحاقد ويوسّع من أطرافه ما وسعه ذلك.

دول عدم الانحياز

من الأحداث التي بذل فيها السودان ممثلاً في رئيس مجلس السيادة غير المؤتمرات الأفريقية ومؤتمر الوحدة الأفريقية ومؤتمر القمة العربي فإن السودان كان

عضواً بارزاً في مؤتمر دول عدم الانحياز. وكتب الرئيس تيتو إلى الرئيس أزهري في هذا الأمر وأرسل رسالته مع شخصية كبيرة من أعضاء المجلس الاتحادي. وفي أبريل سنة 1969م رأى الرئيس أن يكتب للرئيس تيتو وأن يطلب إعادة الجهد لعقد مؤتمر دول عدم الانحياز وفكر في أن أحمل هذه الرسالة ومعني السيد جمال محمد أحمد وكيل وزارة الخارجية.

وفي 1969/4/14م غادرنا السودان إلى روما ثم إلى بلغراد. وفي 1969/4/15م أقام لنا المستر استامبلك عضو المجلس الاتحادي حفل غداء تبودلت فيه الكلمات والتمنيات لازدهار العلاقات وتقويتها بين بلدينا وحضر الحفل فوق رجال الخارجية الكبار رجال السلك الدبلوماسي العربي والأفريقي وفي نفس اليوم في الساعة الخامسة مساء استقبلنا الرئيس تيتو وكان معني السيد جمال محمد أحمد وسفيرنا في يوغسلافيا السيد أحمد مختار. كان الرئيس تيتو رغم ما يبدو من تقدم في السن إلا أنه كان بادي النشاط والقوة. وبعد أن حييته وزملاني وحملت إليه تحيات الرئيس الذي كان يرجو أن يحضر بنفسه لولا انشغاله بمؤتمر آخر في لوساكا.

كان رد الرئيس تيتو أنه سعيد أن يسمع أن الرئيس أزهري بخير وتمنى أن يراه هذه السنة في يوغسلافيا ليزورها ويتعرف على أهلها.

وكان أول سؤال سأله هو ما رأيكم في تصريح الملك حسين فأجبت بأن الرئيس لم يُعلق عليه وقال إنه لم يصله رسمياً وربما حُرِّف فيه الجرائد هذا زيادة على أن الملك حسين قال إنه يتحدث باسمه واسم الرئيس جمال وقد قال إن مسألة اللاجئين في نظره أهم نقطة وحلها في المقدمة هذا وقد أعلن الرئيس أزهري أيضاً أن النقاط التي اتفق عليها العرب في مؤتمر الخرطوم ما زالت قائمة.

ثم تحول حديث الرئيس تيتو إلى دول عدم الانحياز فقال إن بعض الدول فقدت إيمانها بالفكرة لكثرة ما يحيط بالعالم من أزمات ولكن 33 دولة قد وافقت على عقد المؤتمر حتى الآن. منها ثمانية دول عربية ثم تبين أن أثيوبيا لم تعد على حماسها القديم وأن الجزائر تأثرت بالإتحاد السوفيتي وأن الأخيرة تخشى أن ينتقدها المؤتمر على غزوها تشيكوسلوفاكيا وإن كانت يوغسلافيا لا ترى أن يفعل المؤتمر ذلك.

قلت إننا نرى أن يعقد المؤتمر وأن يتصل الكبار بالذين فقدوا الإيمان به لأن

'الأحوال العالمية تقتضي ذلك وعلّقنا على تباطؤ أثيوبيا بأنّ جلالة الإمبراطور ربما سعلته بعض الأحداث الداخلية في بلاده وربما تحدّث إليه الرئيس أزهري حين يلتقيان بلوساكا. وقلت إنّ لا مبرر لأحد أن يتردّد خوفاً من أن يدان بالانحياز إلى جهة ما وقلنا إنّنا نجتمع لا لندين أحداً ولكن لنثبت وجودنا العالمي ككتلة العالم الكبير في حاجة إليها كما هي في حاجة إليه. ووافق الرئيس تيتو على ذلك. ثمّ سألتناه عن الدول المُتردّدة والتي فقدت إيمانها وطلبنا أن نعرف عددها وأسماءها وخصوصاً العربية منها والإفريقية ربما استطاع السودان أن يتصل بهم فوافق الرئيس تيتو وقال إنّ للسودان صلات طيبة ولشخصية الرئيس أزهري نفسه أثر واحترام ووعد أن يعطينا وزير الخارجية كلّ البيانات في الاجتماع الذي سيُعقد بينه وبين السيد جمال محمد أحمد.

وعاد الرئيس تيتو للحديث عن مشروع الملك حسين فقال إنّ عدداً من الناس لا يرون رأيه هذا ويحسبون أنّ المشروع ربما أنهى القضية الفلسطينية إنّ أخذ به. وقال إنّ المشروع قد أفاد في أنّه زاد من عزلة إسرائيل لأنّها رفضته قبل أن تدرسه كما رفضت نتائج محادثات الأربع الكبار قبل أن تعرفها وقال إنّ يوغوسلافيا ستقف دائماً مع قضية العرب لأنّها قضية مبدأ يمس يوغوسلافيا نفسها وكثيراً من الدول. وهنا شكرته على مواقفه العادلة الجريئة.

ودار الحديث مرّة أخرى عن دول عدم الانحياز وقال وزير الخارجية إنّّه سيتحدّث في التفاصيل في اجتماعات أخرى يُحدّدها هو مع السيد جمال محمد أحمد والسيد السفير أحمد مختار كما أنّه وافق في نفس الوقت على درس موضوع اللجنة التمهيدية والمؤتمر التمهيدي الذي ربما أعدّ جدول أعمال المؤتمر. وهذا كان من المقترحات التي حوتها مذكرتنا.

استمر الاجتماع مع الرئيس تيتو خمساً وأربعين دقيقة وعند الدواع طلب منّي أن ابلغ تحياته للرئيس أزهري وأن أذكّره بأنّ يفي بوعدته بزيارة يوغوسلافيا فقد وعد بذلك والرئيس تيتو يتوق إلى رؤيته في بلاده.

وبعد ذلك استأنف السيد جمال محمد أحمد والسيد السفير أحمد مختار الاجتماعات مع رجال الخارجية اليوغوسلافية لدرس وإقرار التفاصيل وتحديد موعد اللجنة التمهيدية أمّا أنا فقد رجعت ثاني يوم إلى روما ثمّ إلى الخرطوم.

الانقلاب العسكري الثاني

في فجر يوم 25 مايو سنة 1969م استولى الجيش برئاسة العقيد جعفر محمد نميري على الحكم وصدر بيان في السادسة والنصف صباحاً قرأه السيد بأكبر عوض الله رئيس القضاء السابق ورئيس وزراء الانقلاب وكان مضمون البيان إعلان قيام ثورة وحل مجلس السيادة والجمعية التأسيسية ولجنة الخدمة العامة وإلغاء الدستور إلى غير ذلك من الإجراءات التي تتخذ عادة لتأمين مثل هذا الوضع الجديد.

وألّف مجلس قيادة الثورة برئاسة السيد العقيد نميري الذي رفع رتبته إلى لواء وتكوّنت الوزارة من ملكيين على رأسها السيد بأكبر عوض الله.

بدأت الحركة بعملية إعفاء واسعة في صفوف الجيش والبوليس والخدمة المدنية أكبر من الحركة التي قامت بها حكومة أكتوبر وقد كان في الوزارة عدد من الشيوعيين الذين ظلوا يفرضون أنفسهم أوصياء على الحركة الجديدة ولا شك في أنّ الشيوعيين من أهم أساليبهم القضاء على مخالفيهم وقد خلقت تلك الانتقامات تدمراً في صفوف الشعب زيادة على تدمره من وجود الشيوعيين في الحكومة. والشيوعية قد رفضها السودان أجمع ولن تجد لها مجالاً فيه مهما حاولت أن تجد سنداً من الجيش.

وكان من خطأ رجال الجيش الواضح هو أنّهم استعانوا بالشيوعيين وهذا ما باعد بينهم وبين الشعب وتأييده.

ليس للجماهير أحقاد أو كراهية مع الجيش. ورجال الجيش مهما كانوا فولاؤهم لوطنهم وهم حماة ودرعه ولكن دخول هؤلاء الذين لا ولاء لهم إلّا للدولة الأم وهي الاتحاد السوفيتي ثمّ ما عُرف عن الشيوعية من إحداء وعداء للدين جعل الناس يقفون موقفاً مُتردّداً من الوضع الجديد.

والشيوعيون إذا ما تعاونوا مع أيّ وضع فهم يتعاونوا معه ليستفيدوا منه وليحاربوه في نفس الوقت. فكل الأعمال الانتقامية والتشهير بالأطهار وفصل الموظفين الكبار يزيد من عدد الغاضبين على الوضع وبما أنّ الوضع يحمي الجيش فإنّ الغضب والكراهية تتحوّل تلقائياً إلى رجال الجيش بوصفهم حماة الوضع.

من القصر الجمهوري إلى كوبر

لقد مرَّ عنوان قبل هذا في هذه المذكرات هو « من باريس إلى كوبر » وكان ذلك في عهد الاستعمار وعند محاربة الجمعية التشريعية وكان الشرف كل الشرف أن يدخل كوبر على يد الاستعمار من أجل محاربته ولكن شتان بين دخولنا بالأمس ودخولنا اليوم وبين من أدخلنا بالأمس وأدخلنا اليوم.

لقد مارست الحياة السياسية والاجتماعية والتعليمية في جميع أوجه الإصلاح وخلق الوعي في هذا البلد بل ساهمت في كل عمل لصالح البلد وتقدمه ولم أبلغ العشرين ولقد أوشكت اليوم على نهاية الستين. ما امتلكت مالا ولا عقارا ولا كَوْنَت أسرة ونذرت نفسي لخدمة بلادي ولكن وبعد أن أبلغ أعلى المناصب ويفني العمر إلا أقله أجد أيدي سودانية تزج بي في كوبر لا بتهمة مُحددة ولا لخيانة للدولة ولا لاستغلال للنفوذ ولكن لإجراءات يقتضيها الوضع الجديد.

وربَّ سائل يسألني كيف شعوري مع هذا الوضع فأقول إنني والله لم أحقد على أحد ولم أكره أحداً وكان أمامي شعاري الذي ذكرته أنفا من كلام الله عز وجل « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » ومن قول الرسول صلي الله عليه وسلم في حديث ابن عباس حيث قال: كنت خلف النبي صلي الله عليه وسلم يوما فقال: يا فتى أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف » حديث صحيح

مع الرئيس في كوبر

أخذني البوليس من منزلي وأنا مريض أتناول دواء يساعدني على النوم وكان ذلك في الثالثة والربع صباحاً فذهبت معه لأجدي مع السيدين عبد الله عبد الرحمن نقد الله وأمين التوم وذهبنا من المديرية إلى كوبر. فما وصلت حتَّى رقدت على السرير وأنا

شبه مخدر وذلك في فجر 1969/5/28م.

وفي الحادية عشرة من صباح 1969/5/28م جاء السيد الرئيس إسماعيل الأزهرى وذهب إلى الغرفة المَعْدَّة له فذهبت إليه مرحباً به وقد أصبحت من أصحاب الدار. لم يحضر بعد ذلك أحد من أعضاء مجلس السيادة ومكثنا نحن الاثنان ما يزيد على الثلاثة أشهر لم يسألنا فيها أحد عن شيء وكانت المعاملة حسنة وكانت تعليمات السيد وزير الداخلية كما علمنا من قمندان السجن أن تستجاب مطالبنا فيما يختص بالأكل الخاص والأدوية وألا يحال بيننا وبين ما يأتينا من الخارج من مأكول أو مشروب أو ملبوس أو كتب.

وبقدر ما كبر في نظري هذا الشاب عند مقابلته وحديثه ومجاملاته صَغُر في نظري أناس كُنَّا نحسبهم كباراً ولكنَّهم انكشفوا عن صغار في النفوس والهمم وأنَّهم كانوا الحقد مُجَسِّداً يمشي على رجلين. عفى الله عنهم وشفاهم فَإِنَّ الله يغفر كلَّ الذنوب إِلَّا الإِشْرَاقَ بالله والحقد أو كما جاء في الحديث.

قضيت هذه الثلاثة أشهر أو تزيد مع السيد الرئيس ليس معنا أحد وقد نرى السادة الوزراء السابقين وبقية المعتقلين أثناء مرورهم لمكتب القمندان لمقابلة زوارهم فيحيوننا على البعد.

لقد عرفت الرئيس منذ أن جمعتنا الحركة الوطنية وكنت في أوائلها اختلف معه في المبدأ وكنت كلما هاجمني أعوانه ومناصروه هاجمته وتجاهلت الآخرين وكان لا يرد مطلقاً على جريدة أو هجوم وكان كثيراً ما يقرأ ويضحك فله من قوة الاحتمال والصبر ما ليس لغيره. ثُمَّ ربطت بيننا الحركة الوطنية أيضاً وأصبحنا في حزب واحد هو الحزب الوطني الاتحادي هو رئيسه وأنا سكرتيره وكنت أحد الذين كَوَّنوا هذا الحزب وكُنَّا ثلاثة وكان ثلاثتنا لا يُناصر أزهرى وبعضهم يكرهه ولكن بالرغم من ذلك لم نجد مناصراً من انتخابه رئيساً للحزب لأننا لم نجد سواه أو من يمثله فنال الرئاسة عن جدارة. وعندما نجحنا في الانتخابات الأولى وتكوَّنت الحكومة استطاع أن يعالج المزالق العديدة في حكمه ولَمَّا أُلْحِ عَلَيَّ في دخول الوزارة أصررت على عدم الدخول ولكنه استطاع أخيراً أن يجذبي إلى الوزارة.

وفي فترة الحكم بدأت أشعر بأنه رجل يُقَدَّر المسؤولية تماماً ويعرف واجبه وقاد السفينة وأصرَّ على أن تسير وفق الاتفاقية وألا نعطي فرصة لتدخل الإنجليز إلى أن تَمَّ

الاستقلال. ومضينا في التعاون مع بعض. وصفات أزهرى الممتازة كثيرة وعلى كثرتها يعرفها العدو والصديق ولا يُنكرها إلا مكابر أو حاقد.

وفي السجن قد ظهرت منه صفات أخرى هي تدينه ومداومته على قراءة القرآن والفقهاء والتاريخ هذا إلى جانب اهتمامه بالتخطيط فقد كان ضمن كتبه تقويم السودان وخريطة السودان وكان يدرس الطرق وأماكن المياه وتطوير الرعاة وكان اهتمامه بالخریف عظيماً وكان يتحدث عن الثروة الحيوانية والاهتمام بها وبالصيد وكُنّا كلما نلتقي في الفطور أو الغداء أو العشاء يأتيني بسؤال في القرآن أو الفقه أو السودان عموماً.

لا يتكلم عن الغير ولم يسأل مرّة واحدة لماذا نحن هنا ومتى نخرج وماذا يريدون منّا وكان مؤمناً بأنّ الإنسان لا يشكو للإنسان فمعنى ذلك أنّه يشكو الخالق للمخلوق أيّ أنّ كلّ ما يحدث فهو من الله ويجب الصبر عليه.

وعلم مرّة أنّ جماعة من الضباط ذهبوا إلى منزله ولعلّهم كانوا يريدون تقدير قيمته فضحك وقال لماذا هذا التعب لقد بدأت المنزل في العهد العسكري وتّم في العهد العسكري ولم أكن شيئاً في الحكومة حتّى يُظنّ أنّني سخرت غيري أو تناولت مالا من الحكومة. كان عطوفاً يهتم بالغير وكنت أتناول طعاماً مخصوصاً حسب أمر الطبيب فإذا ما لاحظ أنّي لم أأكل منه ما يكفي نبه الطبيب عندما يمرّ علينا ولفت نظره إلى أنّني لم أتناول كفايتي لأنّ الأكل لم يكن حسب المطلوب وأنا لا أعلم ذلك إلاّ ثاني يوم عندما يعودني الطبيب ويسأل عن الأكل وأنّه عمل بملاحظة السيد الرئيس.

كان يتمتع بصحة حسنة كما يبدو لأنّه لا يشكو وكان طبيبه الخاص الذي يأخذه معه في الرحلات والذي يأتي إليه أحياناً في القصر ويكشف عليه هو الدكتور وصفي وطلب مرّة الدكتور وصفي ليراه ولكن وزير الداخلية بالنيابة قال كما بلغنا ولماذا وصفي؟، يذهب أيّ طبيب آخر وجاء الطبيب بعد أيام وسأل بعد التحية سؤاله الروتيني «كويس» فقال له كويس وذهب الطبيب ولو كان وصفي لما سأله ولكنّه كان يقوم بالكشف العام لأنّه يعرف جسم الرئيس تماماً.

وكنت بيني وبين نفسي أتمنّي له عمراً مديداً وأشعر بأنّه لا يوجد من يخلفه وأمني نفسي بأنّ جده السيد إسماعيل الأزهرى قد عمر وكذلك والده السيد أحمد وكذلك والد السيد إبراهيم المفتي فاطمات نفسي بأنّ حياة الرئيس ستكون طويلة بأذن الله كما هي عريضة بإعمالها الخالدة

وفاة المرحوم علي الزهري

كان الرئيس قد أعطى تعليمات ألا يزوره أحد قبل صلاة المغرب فإذا ما كان له زائر انتظروه إلي أن نصلي المغرب سوياً ثم يخرج وكان محمد الأزهري عمه أخذ أذنا بزيارته كل يوم ثلاثاء مساءً وفي صباح يوم الثلاثاء ونحن نشرب شاي الصباح جاء الجاويش ليقول للسيد الرئيس لك زائر هو السيد محمد الأزهري واستعد الرئيس للخروج ولكنه عرج علي وقال لي:

« إنني حساس لازم هناك وفاة » فقلت له إن شاء الله خيراً.

وعاد من الزيارة ويبدو عليه التأثر فلما سألته قال لي إن علي توفي فترحمنا عليه وعلمت منه أنه أصيب بنوبة في المساء وعندما حضر الطبيب كان قد انتهى. وجاء موعد الفطور فدعاني لأن نفطر وأنا واثق من أنه قصد أن أفطر أنا ويطمئن علي وشعرت أنه تناول شيئاً قليلاً جداً فألححت عليه أن يأكل قليلاً وقلت له إنك سوف تصادف يوماً عصيباً ولن تجد إلا الماء وعليه الثلج الشيء الذي لا تراح له وليس هناك من غداء أو عشاء ولكنه قال لي إنهم سيأذنون لي بالخروج في الرابعة لألحق بالتشيع وستمر علينا فترة الغداء يستطيع الإنسان أن يتناول شيئاً يتقوى به وبقدر إلحاحي عليه كان يعتذر ويقول هذا يكفي وهو يتسم.

ولكن بعد ساعة من ذلك الحديث جاءه مدير السجون والقمندان ونائب المدير وبعض الضباط واتجهوا إلى غرفته فعزوه ثم جاءوا إلى غرفتي بعد أن طلبوا من الرئيس أن يستعد للخروج فوراً وقالوا إنه سيمكث ثلاثة أيام المأتم.

وهكذا خرج من غير فطور ليلاني ما لاقاه من تعب ولا شك في أنه لم يجد إلا ماء الثلج الذي لا يروي غلة العطشان بل يلهب الجوف. ولم نسمع بعد ذلك عن الرئيس شيئاً إلا ثالث يوم فقد علمنا أنه في المستشفى وموظفو السجون دائماً صم بكّم لا يسمعون ولا يتكلمون وينكرون معرفة أي شيء ولذلك كان اعتمادنا عليهم قليلاً وكان أملنا في الزائرين.

ذهب ولم يعد

بالرغم من أن إيماني بالله وبأن الموت حق وأن كل حي إلى فناء وأن الله قال نبيه صلي الله عليه وسلم « إنك ميت وإنهم ميتون » بالرغم من ذلك فلا زلت عاجزاً عن أن أقتع نفسي بأن الرئيس الذي هزرت يده في آخر لحظة وهو خارج ليشيع جثمان أخيه وهو في كامل صحته وحيويته وإشراقه هذا الرئيس عدا عليه الموت وذهب ولن يعود. « إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله ».

لم نسمع بموت الرئيس إلا في اليوم الثاني وحدثتني نفسي الأمانة بالسوء أنه ربما سُمح لي أن أودع زميلي في المعتقل ورئيسي في مجلس السيادة ورئيسي في كفاح دام أربعين عاماً أو تزيد ولكن لم يمر علينا ذلك اليوم مسئول أبداً وهكذا حرمانا شرف توديعه إلى مثواه الأخير والحمد لله على السراء والضراء.

ماذا أقول عن الرئيس والزعيم والقائد البطل إسماعيل وقد ارتبط اسمه بكل صفحة بل بكل سطر بل بكل كلمة من تاريخ هذا الوطن الحديث.

لقد تقدّم يوم تقهر الناس وزهد في المنصب والجاه يوم تكالب عليهما الناس وقاد سفينة الكفاح والأمواج صاخبة والمنافقون يستخرون.

لست أجد رجلاً ارتبط تاريخه بتاريخ السودان كأزهري ولست أجد رجلاً تحمل الفقر وصبر على السخرية وثبت في الشدائد كإسماعيل. وكان إلى جانب ذلك واسع الصدر سمح الخلق صبوراً كتماً لا يحقد على الذين يؤذونه أو يعادونه ويقبلهم بصدر رحب.

كان لا يعرف كلمة (لا) ووجود مع فقره في صمت ولا يردُّ طالب حاجة ويكذب من يقول إنّه دخل عليه في حاجة له وخرج صفر الكفّ خالي الوفاض.

ليس من السهل على شخص عاشر الرئيس أن يحصي محاسنه أو أن يعدد مآثره فهي كثيرة متعدّدة الجوانب شملت مختلف فروع الحياة.

لقد قلت في ليلة سياسية في أول انتخابات أُرُكي فيها الرئيس في الدائرة الشمالية: « وقف أوريبي على شلالات نياجرا فعقد لسانه ما شاهد من عظمة الطبيعة فهت. لا

اللفظ يسعفه ولا البيان ينصاع له ولا المعاني تطاوعه ولا البلاغة تُسانده. فكلُّ وصف دون ما يرى وكلُّ بيان دون ما يريد وكلُّ معنى أو وصف يشوه جلال المنظر ولا يُصوِّر طرفاً من الحقيقة ولم يجد وصفاً يُصوِّر ذلك المنظر الأخاذ إلا أن يصيح ثلاثاً أنّها نياجرا نياجرا نياجرا».

وأقف اليوم وحالي أشبه بحال ذلك الأوربي فلا البيان يطاوعني ولا الوصف يدنو لي ولا البلاغة تواتيني وإذا النجوم تدلّت لأنظّمها عقداً في مدح من أريد لكان ذلك دون ما أريد. وإذا تجمّعت معاني السماحة والفضل ومعاني الرجولة والنبيل ومعاني الوطنية العاملة في صمت. إذا تجمّعت كلُّ هذه عندي وتيسّرت لي. لكنت دون ما أريد أن أفصح عنه. وليس لي إلا أن أصبح كما صاح ذلك الأوربي ثلاثاً أنّه أزهرى أنّه أزهرى أنّه أزهرى. حوى كل وصف جليل ودونه كل وصف جليل».

هل مات الرئيس أزهرى؟ إن كان الموت هو الفناء والنسيان فإنّ أزهرى لم يمّت وإن كان الموت هو فناء هذا الجسم بعد صعود الروح إلى بارئها فإنّ إسماعيل باق في هذا السودان ما بقي فيه أناس يحفظون التاريخ ويسجلون الأحداث ويذكرون العاملين المخلصين.

لقد عاش إسماعيل منتصراً ومات منتصراً فإنّ الأمة التي بكته وشيعته وأقامت له المآتم في كل بلاد السودان لسان حالها يقول لن ننساك وستبقى ذكراك بقاء التاريخ لأنك الرجل الذي سطر التاريخ وأدّى واجبه نحو بلاده كاملاً وسنلقن أبناءنا وأحفادنا كيف جثت إليهم بالحرية وحقّقت الاستقلال.

بقيت في السجن مثل السيف منفرداً بعد أن ذهب الرئيس رحمة الله عليه ورضوانه. وبين وفاة المرحوم علي الأزهرى والرئيس جاء السجن الأخ عبد الله عبد الرحمن نقد الله وأعطى غرفة إلى جواري فزاملته حتّى أراد الله لي أن أخرج ويبقى هو وحيداً في ذلك القسم التابع للمعاملة الخاصة على لغة السجن.

خرجت من سجن كوبر لأبقى سجين البيت يحرس باب داري بوليسان صباح مساء وعندهما كشف بأسماء من يسمح لهم بالدخول إلَيَّ أمّا من عداهم فيردُّ على أعقابهم.

ملفوظ

مذكرة مرفوعة إلى

حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس الوزارة المصرية

ترفع إليكم لجنة مؤتمر الخريجين العام بصفتم ممثلاً للشعب المصري في هذه الزيارة الميمونة الخاصة أخلص آيات الشكر والثناء على ما قمتم به للسودان من مبرات جليلة دلت على أنَّ مصر الشقيقة لا تترك فرصة سانحة دون أن تطوق جيد السودان بقلادة من إحسانها حتى أصبح السودانيون عاجزين عن أداء الشكر نحو هذه الصنائع الحميدة.

ونحن ننتهز فرصة هذه الزيارة السعيدة فن تقدّم معبرين عن شعور الحب والإعجاب والإجلال الذي يعمر قلوب السودانيين عامة لترفعوا ذلك عنا إلى الشعب المصري الشقيق.

يا صاحب المقام الرفيع إنَّ حرص مصر والسودان معاً على تقوية الروابط المقدسة بين القطرين لما يشجعنا أن نتقدّم إلى الأمة المصرية ببعض الالتماسات التي نري أنها تقوّي ما بين القطرين من عرى المودة والإخاء وستبقى ذكراها التاريخية ماثلة بجانب مآثر مصر العديدة ناطقة بحسن الصنيع حافظة لعهد صلاتنا الأبدية ولا ندعي أننا بذلك نقترح على الأمة المصرية ما لم يخطر لها ببال أو ما لم يسبق لها التفكير فيه. كلا فنحن نعلم أن فيض مصر قد غمر الشرق كله وأنَّ اهتمامها بشئون بلاد العروبة والإسلام الذي بوأها بحق منصب الزعامة على بلاد الشرق العربي قاطبة ذلك الاهتمام من الطبيعي أن يتجه نحو الشطر الأعلى لوادي النيل أولاً وليس هذا الذي تقدّمه اليوم من الالتماسات التي قد ندخل في نطاق أعمال الإصلاح هو كل ما نأمله في مصر الشقيقة كلا فأمال السودان لارتباط شئونه الحيوية والسياسية الكبرى بمصر لهي أوسع واسمى من هذا بكثير ولكننا نتقدّم بها لنؤكد أن السودان إذا ضاقت موارده لا يأنف أن يلتمس من مصر ما يرى أنه عاجز عن القيام به في ميدان الإصلاح الاجتماعي كما لا يأنف الأخ أن يطلب من أخيه لما بينهما من عرى المودة وإخاء وتلك الالتماسات هي:-

التبشير بالدين الإسلامي في الجنوب

383

يعلم الشعب المصري أنَّ الشطر الجنوبي من السودان لم يساير الشطر الشمالي في مضمار الحضارة ولم يحظ بنصيب وافر من العمران والإصلاح وأنَّ سكانه ما زال جلهم على الفطرة على الرغم من المحاولات التي يقوم بها جماعة التبشير المسيحي ونحن نرى أنَّ واجبنا نحو مواطنينا في الجنوب يحتم علينا أن نساهم في تمدينهم بشئ الوسائل كما نرى أنَّ من واجب مصر أيضاً أن تخصَّهم بنصيب من العناية فتلفت نظر الجمعيات الخيرية والمعاهد الدينية المصرية للعمل في الجنوب من حيث التبشير بالدين الإسلامي ونشر اللغة العربية حتَّى يتسنى للجزء الجنوبي أن يتمشَّى في ثقافته مع الجزء الشمالي.

المعهد العلمي

قد سبق للمؤتمر في العام الماضي أن أهتمَّ بدرس شئون المعهد العلمي بأمر درمان وقدَّم مذكرة لحضرة صاحب المعالي حاكم السودان العام تتضمَّن الإصلاحات التي يري الحاجة ماسة إليها في حالة المعهد العلمي الراهنة وهذه المذكرة لا تزال رهن البحث عند صاحب المعالي الحاكم فنحن نرى بالنسبة لأهمية موضوع المعهد وما يستحقُّه من عناية أن تكون الأمة المصرية مستعدة لتقديم أية مساعدة تطلب منها في هذا الصدد.

ملجأ القرش

أسس هذا الملجأ بأمر درمان لضم أبناء الشعب الفقراء بالتبرعات التي حصل عليها من أموال الشعب وقد سبق للمصريين أن ساهموا في هذا العمل المفيد وعلى رأسهم صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون باشا ولما كان هذا الملجأ في حاجة إلى توسيع ليأتي بالغرض الذي أنشئ من أجله في نشر التعليم الصناعي الحديث بالسودان وأنَّ موارد البلاد لا تساعد على هذا التوسُّع المطلوب فنحن نأمل أن تمده مصر بالمساعدة اللازمة التي تمكِّنه من أداء الغرض الذي أنشئ من أجله

مستشفى في أم درمان

إنَّ عدد المستشفيات الكبرى في السودان لا يزال محدوداً رغم المجهودات المشكورة التي بذلتها حكومتنا في هذا الصدد ولما كانت الحاجة ماسة لإيجاد مستشفى كبير يضمُّ عدداً من الطبيبات والأطباء الاختصاصيين فنحن نأمل أن تبذل الجمعيات الخيرية المصرية مجهوداً في إنشاء مثل هذا المستشفى بمدينة كبيرة

كأم درمان التي يؤمها الناس من مختلف نواحي القطر فيعم نفعه بذلك أكبر عدد من
الأهليين.

تشجيع رجال المال للاستثمار أموالهم في السودان

إن أعمال الإنتاج في السودان خصوصاً الزراعة منها رابحة جداً إذا أديرت علمياً
كما أثبت عملياً أصحاب المشاريع الزراعية من السودانيين والأراضي بحمد الله واسعة
لا تحتاج إلا لرأس المال الذي يكفي للتأسيس وإدارة العمل والسودان بلد بكر فيه
متسع لكل عمل نافع ومشروع مفيد فالمأمول أن يتقدم أصحاب رؤوس الأموال
والبنوك للسودان لينشئوا فيه من الأعمال وبيوت المال ما يرفع مستواه الاقتصادي
ويفتح أبواباً جديدة للرزق ولكثير من أبناء النيل.

مكتبة عربية عامة بأم درمان

ومن الأشياء التي تنقص السودان الجديد المتعطش للثقافة والمعرفة إنشاء مكتبة
عربية تضم كل المراجع وأمهات المؤلفات التي أنتجتها عقول رجال العلم والأدب في
العصور المختلفة- إن مكتبة عربية كهذه قد كانت موضع التفكير عند عامة الطبقة
المثقفة في السودان منذ زمن بعيد ولكن الصعوبات المادية قد كانت دائماً مانعاً أمام
تحقيق هذه الأمنية الغالية- فإن تقدمت الأمة المصرية لإنشاء هذه المؤسسة تكون
قد حققت خير عمل لتوثيق الصلات الثقافية بين القطرين.

وتفضلوا يا صاحب الرفعة بقبول فائق الاحترام.

المخلص

حماد توفيق حماد

سكرتير مؤتمر الخريجين العام

المخلص

نصر الحاج علي

رئيس مؤتمر الخريجين العام

مذكرة المؤتمر الأولي للحكومة

ام درمان في 3 ابريل 1942م

محضره صاحب المعالي حاكم السودان العام

بواسطة سعادة السكرتير الإداري لحكومة السودان

يا صاحب المعالي

يشرف مؤتمر الخريجين العام بأن يرفع لمعاليكم بصفتكم ممثلين لحكومتى صاحب الجلالة جورج السادس ملك بريطانيا العظمى والملك فاروق الأول ملك مصر المذكرة التالية التي تُعبّر عن مطالب الشعب السوداني في الوقت الحاضر. إنَّ التطوُّر العالمي وأحداث الحرب العالمية قد بعثت في الشعوب ميلاً قوياً لتحقيق العدل الإنساني وحرية الشعوب كما أفصحت بذلك تصريحات الساسة البريطانيين وموائق رجال الديمقراطية العالميين.

والسودان كشعب من الشعوب التي تضافرت مع الإمبراطورية البريطانية في هذه الحرب منذ نشوبها قد أدرك إدراكاً صحيحاً حقوقه كشعب ينشد الحياة بعد ما يقرب من نصف قرن قضاه في أحضان حكم منظم. ومؤتمر الخريجين العام الذي يمثل الرأي العام المستنير وهو ثمرة ناضجة من ثمرات الحكم الثنائي يشعر بعظم مسئوليته إزاء بلاده ومواطنيه جميعاً.

ولهذا يتقدّم بهذه المذكرة راجياً أن تجد التقدير الذي تستحقّه والترحيب الذي يطمح فيه وهو بعد واثقاً من أنَّها تُعبّر تعبيراً صادقاً عن ميول وأماني هذه البلاد.

1. إصدار تصريح مشترك في أقرب فرصة ممكنة من الحكومتين الإنجليزية والمصرية بمنح السودان بحدوده الجغرافية حق تقرير مصيره بعد الحرب مباشرة وإحاطة ذلك الحق بضمانات تكفل حرية التعبير عن ذلك الحق حرية تامة كما تكفل للسودانيين الحق في تكييف الحقوق الطبيعية مع مصر باتفاق خاص بين الشعبين المصري والسوداني.

2. تأسيس هيئة تمثيلية من السودانيين لإقرار الميزانية والقوانين.

3. تأسيس مجلس أعلى للتعليم أغلبيته من السودانيين وتخصيص ما لا يقل عن

12. في المائة من الميزانية للتعليم.
4. فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية.
5. إلغاء قوانين المناطق المقفولة ورفع قيود الاتجار والانتقال عن السودانيين داخل السودان.
6. وضع تشريع بتحديد الجنسية السودانية.
7. وقف الهجرة إلى السودان فيما عدا ما قرّره المعاهدة الإنجليزية المصرية.
8. عدم تجديد عقد الشركة الزراعية بالجزيرة.
9. تطبيق مبدأ الرفاهية والأولوية في الوظائف وكذلك-
أ. بإعطاء السودانيين فرصة الاشتراك الفعلي في الحكم بتعيين سودانيين في وظائف ذات مسئولية سياسية في جميع فروع الحكومة الرئيسية.
ب. قصر الوظائف على السودانيين أمّا المناصب التي تدعو الضرورة لمملأها بغير السودانيين تملأ بعقود محدودة الأجل يتدرّب في أثنائها سودانيون لمملأها في نهاية المدة.
10. تمكين السودانيين من استثمار موارد البلاد التجارية والزراعية والصناعية.
11. وضع قانون بإلزام الشركات والبيوتات التجارية بتحديد نسبة معقولة من وظائفها للسودانيين.
12. وقف الإعانات لمدارس الإرساليات وتوحيد برامج التعليم في الشمال والجنوب.

هذه هي المطالب التي نرى في استجابتها إرضاء لرغبات السودانيين في الوقت الحاضر والمؤتمر يتطلع إلى معونتكم ويأمل أن يحظى بما يفيد الموافقة عليها والشروع في تنفيذها.

وتفضّلوا يا صاحب المعالي بقبول فائق الاحترام.

خادمكم المطيع- إبراهيم أحمد- رئيس مؤتمر الخريجين العام

أم درمان في 3 أبريل سنة 1942م

سيدي العزيز

كلّفتني صاحب المعالي الحاكم العام أن أبلغكم أنّه أطلع على مذكرتكم المؤرخة 3 أبريل سنة 1942م ويلاحظ معاليه أنّ الكثير من طلباتكم المدونة بها يمس مباشرة مركز السودان السياسي ودستوره. إنّ هذا الدستور المؤسس على اتفاقية الحكم الثنائي سنة 1899م والمعاهدة الإنجليزية سنة 1936م والمنفذ بموجب التشريعات الخاصة بذلك لا يمكن أن يغير إلا بعمل مشترك من قبل الدولتين المتعاقبتين وحكومة السودان ليست مستعدة لأن تبحث أمر تنقيح ذلك الدستور مع أي مجموعة من الأشخاص إلا أنّها إذا قرّرت الدولتان المتعاقدتان في أي وقت إعادة النظر في الاتفاقية أو المعاهدة فحكومة السودان تأمل أن تستشير الرأي السوداني المسئول ولكن لا يمكن لحكومة السودان أن تعطي وعداً إلى أية مجموعة من الأشخاص باسم الدولتين المتعاقبتين ولا باسمها هي.

وزيادة على هذا أنّكم تذكرون أنّ السير أنجس جيلان قال في خطابه إلى رئيس مؤتمر الخريجين العام المؤرخ 22 مايو سنة 1938م أنّه يكون مستعداً ليقبل من المؤتمر ما يقدمه من رسائل في المواضيع التي تقع ضمن دائرة حدوده ولاحظ السير أنجس جيلان أنّ المؤتمر لم يدع تمثيلاً لغير أعضائه وإنّي أطلب منكم أن تعيدوا قراءة خطابي لكم المؤرخ 1940/10/30م وعلى الأخص الفقرة 11 منه تلك الفقرة التي قلت فيها إنّ مؤتمر الخريجين بدعواه تمثيل جميع السودانيين وبمحاولته تحويل صفته إلى هيئة سياسية وطنية ليس فقط يستحيل عليه أن يحتفظ بالتعاون الحكومي بل لن يكون له أمل في استمرار اعتراف الحكومة به. هذا وإنّ المؤتمر بتقديمه المذكرة التي هي موضوع هذا الخطاب وبالعبارات التي وردت فيها قد وقع في نفس الخطأين اللذين سبق أن حذرته من الوقوع فيهما وهكذا فإنّه فقد ثقة الحكومة ولا يمكن أن تعود إلا إذا أعاد تنظيم شئونه بحيث تكون الحكومة واثقة من أن يحترم رغباتها ويلاحظ إنذاراتها.

ولهذه الأسباب التي دوّنتها آنفاً يجد صاحب المعالي الحاكم العام أنّه ليس

باستطاعته أن يقبل هذه المذكرة وهي لذلك مردودة إليكم.

يرغب صاحب المعالي الحاكم العام أن يضيف إلى ما تقدّم أنّه ومستشاريه على علم تام بما يحتاج إليه السودان وبالرغبة الطبيعية المشروعة التي تختلج في نفوس أبنائه المستنيرين لاشتراك متزايد في حكومة بلادهم وتنميتها- ولهذه الغاية تدرس حكومة السودان وتنفذ باستمرار خططاً ترمي إلى اشتراك السودانين اشتراكاً أوثق في إدارة شئونهم وإلى رفاهية البلاد وأهلها وتقدّمهم المنظم.

على أنّه يجب على المؤتمر أن يدرك تقرير سرعة السير في هذا الطريق هو من واجب وشأن حكومة السودان وحدها- باعتبار التزاماتها العظمى كوصي نحو أهل السودان بالاستشارة مع الحليفتين المتعاقبتين إذا دعت الحالة لذلك.

إنّ للحكومة رغبة صادقة في أن تبرهن للطبقات المتعلّمة في البلاد على أنّها ذات كفاءة ومقدرة لاحتلال مركزها المناسب في إدارة الشئون الداخلية. على أنّ أيّ تقدّم لهذا المركز لا بدّ من أن يكون موضع إخراج خطير وتأخر ما لم يدرك المؤتمر بوضوح ونهائياً أن يتحمّ على الحكومة أن تصرّ على أن يحصر المؤتمر نفسه في الشئون الداخلية وأن يقلع عن أية دعوى صريحة أو ضمنية في تمثيل البلاد تمثيلاً عاماً- وأنها ستصير على ذلك.

وفي الختام كلّفني صاحب المعالي الحاكم العام أن أقول إنّّه يأسف لأنّكم رأيتم من المناسب اتخاذ هذه الخطوة السريعة بتقديم هذه المذكرة.

المخلص

د. نيوبولد

السكرتير الإداري

تعقيب المؤتمر على الرد

حضرة صاحب المعالي حاكم عام السودان بواسطة السكرتير الإداري لحكومة السودان

يا صاحب المعالي

نتشرف بأن نخبركم بأننا اطلعنا على كتابكم السكرتير الإداري المؤرخ 11 أبريل سنة 1943م الذي تضمن رأي معاليكم في موضوع المذكرة التي رفعناها إليكم بتاريخ أبريل 1942م. وإنَّ المؤتمر الذي عمل منذ تأسيسه على التعاون مع الحكومة والذي قدَّم الكثير من الخدمات النافعة التي اعترفت بها الحكومة في وقتها. ليأسف أن يتلقى هذا الرد السلبي على مطالب أدرك بحكم مسؤوليته إزاء بلاده ومواطنيه جميعاً ضرورة بسطها للمسؤولين عن إدارة شئون البلاد.

لقد كنَّا نعلم جيداً أنَّ المطلب الأول وحده يمس مركز السودان السياسي ودستوره المؤسس على اتفاقية سنة 1899م والمعاهدة الإنجليزية المصرية سنة 1936م وبذلك عندما طلبنا إعطاءنا حق تقرير المصير بعد الحرب إنَّما قصدنا أن نحفظ لبلادنا بالحقوق التي كفَّلها ميثاق الأطلنطي للشعوب وعهود ومواثيق رجال الديمقراطية العالميين. على أنَّنا حين طلبنا ذلك ما كنَّا لنجهل ما قد يقتضيه تحقيق هذا المطلب من تفصيلات يصح أن تكون موضع مباحثة وكذلك ما كنَّا نجهل أنَّه ليس من سلطة حكومة السودان أن تبث في هذه النقطة ولا أن تعطي وعوداً لا باسم الدولتين المتعاقبتين ولا باسمها هي ولهذا يرى المؤتمر أنَّه كان ينبغي على حكومة السودان - وهي لا تملك أمر تنقيح دستور الحكومة الثنائية - أن ترفع هذا الطلب إلى جهتي الاختصاص ولا سيما أنَّه ليس هناك قاعدة تربط الشعب السوداني باتفاقات لم يكن طرفاً في إبرامها. وكنَّا نأمل أن تقف حكومة السودان إلى جانبنا بما تؤديه من شهادة عن المستوى الذي بلغه هذا الشعب تحت إشرافها المنظم.

إنَّ المؤتمر يتقيَّد بدستوره الذي نصَّ صراحة على أنَّ غرضه خدمة المصلحة العامة فإذا طلب إليه أن يتقيَّد بقيود أخرى تتعارض مع دستوره فهو بلا شكَّ يتمسك بذلك الدستور. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنَّ الأحداث التي تابعت بعد كتاب

السير انجس جلن في مايو سنة 1938م ذلك الكتاب الذي استند عليه سعادة السكرتير الإداري الحالي في كتابه المؤرخ 1940/10/30م غيّرت المعالم والحدود ووضعت الدنيا بأسرها في جبهتين متقابلتين كلا منهما الأمل لإحراز نصر يتكثف العالم بنتائجه. ثم موقف السودان بتضحياته المادية والمعنوية في هذه الحرب والدور الذي لعبه وما زال يلعبه ليتبوأ مكانه في العهد الجديد كل هذا لا بد أن يدخل تعديلاً كبيراً في النظرة إلى الحياة وإلى الحقوق ولا بد أن يدعو كل فرد وكل هيئة في أي بلد إلى نوع آخر من التفكير الذي يستتبع حتماً تغيراً في الأوضاع. ولهذا لا نرى محلاً لاستنكار هذا الاتجاه الطبيعي على هيئة تقوم في بلاد تعلم الحكومة أكثر من غيرها مسئولية أبنائها المثقفين وأنه لبعيد عن الأنصاف أن يقرن هذا المظهر وهو نتيجة حتمية للتطور العالمي بفقدان الثقة ما دامت أساليب هذه الهيئة في بسط مطالب البلاد لم تتعد الأساليب المشروعة ولذا فإن المؤتمر لا يخفي دهشته من سحب الحكومة لثقتها ويأسف لأنها بقرارها هذا أرادت قطع وشيجة التعاون القائم كما يأسف لأنها علقت عودة تلك الثقة بشروط غير محدودة وغير مفهومة فيما أسمته «تنظيم إدارة شئوننا» وغير عادلة فيما أفصحت عنه الرغبات والإنذارات.

والمؤتمر لا يسعه إلا أن يبدي أشد الأسف على ردكم المذكرة لأن هذا الرد في ذاته ينطوي على ما ينقض أسس العدالة وينافي الروح الديمقراطية الصحيحة وعلى نظرة الجفاف والعنف التي ترمق بها الحكومة- إن لم يكن رغبات وأمانى هذه البلاد- فعلى الأقل هذه الهيئة التي اعترفت الحكومة نفسها بأنها تمثل الطبقة المستنيرة وما دمت يا صاحب المعالي ومستشاروكم على علم تام بما يحتاج إليه السودان وبالرغبة الطبيعية المشروعة التي تختلج في نفوسنا فلماذا تستأثر الحكومة وحدها بالبث في شؤوننا دون أدنى اعتبار لوجهة نظرنا؟

إنّ للوصاية يا صاحب المعالي شروط عديدة يهمننا هنا حق القاصر وإنّ القاصر إذا بلغ سن التمييز وجب أن يستشار وإذا بلغ سن الرشد وجب عليه أن يعطى حقه ونحن إن لم نبلغ الثانية فقد بلغنا الأولى على الأقل وقد مضى ما يقرب من نصف قرن.

ولو أنّ سياسة الحكومة في مسألة اشتراك السودانيين في إدارة شئون بلادهم لم تبعث في جميع مظاهرها وحقائقها الطمأنينة في النفوس فإنه لما يسر أن تقرّر

الحكومة أنّها راغبة في أن تبرهن للطبقات المتعلّمة على أنّها ذات كفاءة ومقدرة لاحتلال مركزها المناسب في إدارة شئون هذه البلاد وهذا يؤيد ما ورد في مذكرتنا من المطالب التي تحقق هذه الرغبة.

على أنّه يبدو غريباً ومتناقضاً أن تؤكد الحكومة أن أيّ تقدّم نحو ذلك المركز المناسب لا يمكن أن يتم ما لم يحضر المؤتمر نفسه في شئون السودان الداخلية وأنّ يقطع عن أيّ دعوى في تمثيل البلاد تمثيلاً عاماً وكأنّ الحكومة بذلك تعتبره مسلك البلاد جميعاً حتّى جاز أن تحاسب عليه في تقدّمها.

إنّ المؤتمر يعمل بمقتضى دستوره وكل ما تضمنته مذكرته داخل هذا النطاق بما في ذلك البند الأول الذي شرحنا وجهة نظرنا فيه. ومع ذلك فالحكومة رفضت جميع المطالب شكلاً وموضوعاً ولم تحصر رفضها فيما اعتبرته ليس من اختصاصها... أمّا تمثيل المؤتمر للبلاد تمثيلاً عاماً فقد برهنت الحوادث على أنّ قراراته وأعماله جميعاً محل اهتمام وتأيد جميع الطبقات كما أنّه ليست هناك هيئة مماثلة له فهو والحالة هذه لا شك أنّه يعبر تعبيراً صحيحاً عن الرأي العام في البلاد ولذا لا نرى ما يدعو لإصرار الحكومة على أن يتنازل المؤتمر عن مركزه هذا.

يا صاحب المعالي إنّ المؤتمر غير مقتنع بما تضمنه خطاب سعادة السكرتير الإداري المشار إليه وأنّه مؤمن ومُصرّ على ما حوته مذكرته من مطالب عادلة وربما فهِمت على غير وجهها الصحيح وليس هناك ما يحول دون التفاهم بشأنها إذا كان صالح البلاد هو الهدف المشترك.

على أنّ المؤتمر قوي الأمل في أنّ هذه المطالب التي كانت تتجاوب في نفوس أبناء هذه البلاد منذ زمن ليس بالقصير ستجد طريقها إلى التحقيق في ظل المباديء الديمقراطية التي اشترك السودان اشتراكاً فعلياً في الذود عنها.

وتفضّلوا يا صاحب المعالي بقبول فائق الاحترام.

خادمكم المطيع - إبراهيم أحمد

رئيس مؤتمر الخريجين العام

رد الحكومة على التعقيب

الخرطوم في 16 يونيو سنة 1942م
حضرة رئيس مؤتمر الخريجين العام
أم درمان

سيدي العزيز

لقد كلفني صاحب المعالي الحاكم العام أن أبلغكم أنه أطلع على مذكرتكم بتاريخ 12 مايو وأنه لا يرى داعياً لتغيير ملاحظاته وقراره اللذين أبلغا لكم في خطابي بتاريخ 19 أبريل.

إنَّ معاليه غير مستعد لأنَّ يقبل مطالب من مؤتمر الخريجين بخصوص دستور السودان ومستقبله السياسي ويرغب معاليه في أنَّ يعيد تأكيد قراره بأنَّ حكومته لا يمكنها الإدعاء الجديد في مؤتمر الخريجين بأنَّه يمثل السودان أو يتكلم باسم السودان أجمع. وإنَّ كون مؤتمر الخريجين في الوقت الحاضر هو الهيئة المُنظمة الوحيدة من المتعلمين السودانيين لا يُعطيه احتكار في التمثيل أو في الشورى أو في الرأي الحكيم وبهذه المناسبة يستنكر معالية إدعاء المؤتمر الغير قائم على أساس بأنَّ جميع أعماله كانت دائماً موضع تأييد من جميع الطبقات في السودان.

إنَّ حكومة السودان لا يمكنها أنَّ تقبل الدعوى القائلة بأنَّ الشعب السوداني غير مرتبط باتفاقية الحكم الثنائي أو المعاهدة الإنجليزية المصرية كما أنَّه لا يمكنها أنَّ تقبل ما جاء ضمناً في خطابكم من أنَّ حوادث الحرب واتجاهات جديدة تنشأ منها تعديل أوتوماتيكية الاتفاقية أو المعاهدة وبهذه المناسبة فإنَّ الحكومة لا تنوي أنَّ تُعدّل موقفها من مؤتمر الخريجين المدرج في خطاب المستر إنجل جيلان بتاريخ 22 مايو سنة 1938م.

إنَّه ليس من الصحيح أنَّ يقال إنَّ حكومة السودان لم تحضر في وقت استشارتها

مع السودانيين في أي هيئة معينة أو أي جماعة واحدة من الأفراد وآنها تنوي أن تستمر في استشارة السودانيين المتعلمين وغير المتعلمين أفراداً أو جماعة على أوسع نطاق تراه بقصد الوصول إلى إدراك تام لحاجيات ورغبات جميع الطبقات التي كما- يعلم معاليه جيداً- قد قدّمت مساعدة خالصة قيمة في المال والرجال والجهود في الدفاع عن السودان ومواصلة الحرب.

لا داعي لأن يخشى مؤتمر الخريجين بأن البلاد برفض الحكومة مذكرته لقيت جزاء فإنّ الحكومة لا تخطط بين مسلك مؤتمر الخريجين ومسلك البلاد وليس في نيتها أن تسمح بتأخير أو تعجيل سابق لأوانه لأيّ من الإجراءات العديدة التي تسير فيها لترقية البلاد سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً كنتيجة لمسلك مؤتمر الخريجين وبلغت معاليه نظرهم إلى الفقرتين الرابعة والخامسة من خطابي بتاريخ 29 أبريل. وختاماً يرغب معاليه أن أذكر هؤلاء الأعضاء من مؤتمر الخريجين الذين هم موظفو حكومة وواجباتهم كموظفين. فإذا أصرّ مؤتمر الخريجين على تحويل نفسه إلى هيئة سياسية وعلى التعرّض إلى أيّ مسائل دستورية أو على التعرّض إلى أيّ مسائل أخرى من شأنها أن تقوده إلى الاصطدام بسياسة الحكومة فسوف لا تملك الحكومة الخيار من أن تحظر على موظفيها الانضمام إلى المؤتمر أو البقاء فيه.

د/ نيوبولد

السكرتير الإداري

تعقيب المؤتمر الأخير

أم درمان في 23 أغسطس 1943م

سعادة المستر نيوبولد

السكرتير الإداري لحكومة السودان

سيدي العزيز

أشكركم على خطابكم المؤرخ 17 يوليو سنة 1943م ويسر المؤتمر أن يبدى ارتياحه للروح الودي الذي ساد محادثات سعادتكم مع مندوبيه في يوم 6 يوليو سنة 1943م تلك المحادثات التي أكدتم فيها بأن الحكومة تعطف على آمال المؤتمر.

وإنه لمن دواعي السرور أيضاً أن نشير إلى ما تضمنته محادثتكم والمحادثات التي جرت بين نائب السكرتير الإداري المستر بني وبين رئيس المؤتمر من أن اتجاهات الحكومة ورغباتها لا تتعارض مع آمال المؤتمر في تقديم السودان ومستقبله وقد نوه عن ذلك في هذه الأحاديث بما يلي:-

استشارة السودانيين عندما يعاد النظر في المعاهدة الإنجليزية المصرية لزيادة نصيب السودانيين من المسؤولية في إدارة شؤون بلادهم العامة وذلك بالسعي لإيجاد هيئة تمثيلية استشارية سودانية وزيادة وظائف السودانيين ذات المسؤولية في الحكومة.

ولما كان من أمني المؤتمر تحقيق الأماني التي وردت في مذكرته فإنه ليعبر باغتراب عن شعوره الحسن أن يرى من مجموع المحادثات والرسائل التي تلتها- وإن لم يخل من أوجه خلاف في الرأي- أن الحكومة مهتمة بأن تحقق بعض رغباتنا ولذا فإننا سننظر باهتمام إلى ما هو أول نيات الحكومة الحسنة من خطوات عملية في تنفيذ السياسة التي أكدت اتجاهها نحوها؟

على أن المؤتمر وقد علم عن رغبة الحكومة الصادقة في استمرار الاتصال التام بينه وبينها يرجو أن يؤدي هذا الاتصال إلى تفاهم تام في جميع مطالبه كما ويرجو

أن تتاح له الفرصة في الوقت المناسب وقبل البت في التفاصيل لإبداء رأيه في المسائل الهامة التي علمنا من المحادثات أنها الآن موضع النظر. وفي الختام نأمل أن تساعد الخطى العملية المقبلة من جانب الحكومة والمؤتمر على تعزيز روح التفاهم الصحيح الذي يقوم على إدراك سليم لنوايا الحكومة ورغبات السودانيين.

المخلص

رئيس مؤتمر الخريجين

رد حكومة السودان على مذكرة المؤتمر

سبتمبر سنة 1945م

رئيس مؤتمر الخريجين العام

سيدي العزيز

إلحاقاً بخطابي المؤرخ أغسطس سنة 1945م - لقد كلفني صاحب المعالي الحاكم العام بالنيابة بأن أخبركم بأن حكومة السودان- كما أوضح ذلك في عدة مناسبات - لا تعترف بحق لمؤتمر الخريجين العام في أن يُقدّم مطالب باسم الشعب السوداني كما زعم في الوثيقة المرفقة بخطابكم 1945/8/5م.

ثانياً:

وكما أبلغتكم من قبل في خطاب مدير مديرية الخرطوم المؤرخ 1945/5/16م أن حكومة السودان لا تعترف بلجنتي مؤتمر الخريجين العام الحاليين المنتخبتين كممثلين في الواقع للطبقة المُتعلّمة.

ثالثاً:

لا يبدو من الدلائل الحالية أنكم ولجنتكم وقد أرسلتم هذه الوثيقة إلى صاحب المعالي الحاكم العام بالنيابة تتمتعون بثقة أكثر من قسم واحد من أقسام مؤتمر الخريجين نفسه ولهذه الأسباب لا تنوي حكومة السودان أن تُرسل المذكرة إلى رئيس وزارتي بريطانيا العظمى ومصر وقد كلفت أيضاً بأن أخبركم أن وجهات نظر أهالي السودان عن مستقبل بلادهم ستُقدّم بواسطة حكومة السودان للحكومتين بالطريقة الاعتيادية وفي وقت مناسب بعد التأكد منها بالطرق الصحيحة.

الإمضاء

روبرتسن

السكرتير الإداري لحكومة السودان

تعقيب مؤتمر الخريجين على حكومة السودان

أم درمان في 13 أكتوبر سنة 1945م
 صاحب المعالي حاكم السودان العام

يا صاحب المعالي:

تسلّمت خطابكم المؤرخ 1945/9/1م الذي تقولون فيه إنكم لا تنوون رفع مذكرة مؤتمر الخريجين العام إلى جهات الاختصاص ولقد اعتمدتم في تصرّفكم هذا على أسباب رأيتم أنّها تُبرر هذا المسلك وبذلك قد حلتّم دون إبداء رغبات طبيعية لشعب متطلع أثبت بتضحياته المتعدّدة ورباطة جأشه في أحلك الأوقات أنّه شعب جدير بأن يستمع له من وضعوا بين أيديهم آماله ومستقبله استماعاً خليقاً بالذين أخذوا على عاتقهم احتمال شرف الوصاية على أنّنا لم ندرك الحكمة التي لجأت حكومة السودان لتحول دون رفع هذه المطالب التي لا يبدو أنّه سيقع من جراء رفعها حيف أو إخلال بالمسئولية على حكومة السودان بل على العكس من ذلك كانت هذه المسئولية نفسها خليقة أنّ تفرض على حكومة السودان رفع هذه المطالب المقدمة لا بل تفرض عليها أنّ تتولّى هي من نفسها القيام بتقديمها وأنّ لم يفعل السودانيون لأنّها لا بدّ عالمة بكلّ ما يُساور السودانيّين في هذه الآونة الدقيقة من الاهتمام بأمر مستقبلهم ولا بدّ تحيط إحاطة تامّة بما توصّلوا إليه في هذا الشأن ألا وهو «قيام حكومة سودانية ديمقراطية في اتحاد مع مصر تحت التاج المصري».

يبدو لنا غريباً أن نقول إنّ حكومة السودان لا تنوي رفع مذكرة لمؤتمر الخريجين لأنّها هي لا تعترف بأنّ المؤتمر يملك حق تمثيل السودانيّين ومن غير مؤتمر الخريجين يملك هذا الحق؟

ثمّ ترجع بنا حكومة السودان إلى خطاب من مدير الخرطوم بتاريخ 1945/5/6م اعتمد فيه على إشاعات وصلته عن الانتخابات الأخيرة التي تمّت في ديسمبر الماضي اعتمد عليها في الزعم بأنّ لجنة المؤتمر الحالية وهيئته لا تمثلان الخريجين متجاهلة

ردنا الذي سبق أن أرسلناه إليهم بتاريخ 1945/4/3م.

وتجاهل حكومة السودان أبسط قواعد النظم الديمقراطية البرلمانية المأخوذ بها في كل العالم التي غالباً ما تنتهي انتخاباتها إلى أغلبية مسنولة في هيئة منتخبة تتجاهل رأي الأغلبية فتصف القرار الصادر من هيئة المؤتمر الستينية التي تكوّنت نتيجة لانتخابات حرة اشتركت فيها جميع الأحزاب بأنه رأى حزب واحد وهي تعلم أنه قرار مؤتمر الخريجين العام.

أمّا الزعم بأن المؤتمر لا يملك حق الكلام باسم السودان فهو زعم غريب إن دل على شيء فهو يدل على أن حكومة السودان مُصمّمة على ألا يسمع للسودان رأي وإلا فأين هي الهيئة التي ترى حكومة السودان أنها أولى من المؤتمر بامتلاك هذا الحق.

المؤتمر هو الهيئة الوطنية الشعبية الوحيدة في البلاد. المؤتمر الذي يتكوّن من النخبة المثقفة الواعية المبنوثة في البلاد جميعها. المؤتمر الذي يسير وفقاً للنظم الديمقراطية الصحيحة المؤتمر الذي التفت حوله قلوب السودانيين جميعاً حتى الذين لم تشملهم عضويته موافقين راضين.

إنّ مؤتمر الخريجين ليرى أنه صاحب الحق الأول في التقدّم بمطالب السودان لأنّه أدرك من غيره بالمطالب التي تعود بالرفاهية الحقيقية على أهله ولأنّه يتمتع بالعطف الشامل والثقة المطلقة من جميع الطوائف والطبقات هو في موضع القداسة من الشعب السوداني على إطلاقه.

وليس من الطبيعي أن يعهد بالتعبير عن رغبات شعب من الشعوب إلى أفراد أو جماعة تعينها الحكومة لأنّ الفرد أو الجماعة التي تُعين تعييناً للتعبير عن رغبات شعب من الشعوب لا تأتي عادة برأي صحيح نزيه يُعبّر عن أمانى البلاد الصادقة ومطالب أبنائها الحقّة التي تحيى بقلوبهم وتختلط بدمائهم ذلك أمر طبيعي لما يخضع له هؤلاء المعينون الرسميون من التأثير بما تفرضه عليهم مراكزهم وبما لها من طقوس واعتبارات. ويتضح لمعاليكم أيضاً أنّ حكومة السودان نفسها ليس من حقّها ولا في مقدورها أن تُعبّر عن أمانى البلاد في رغباتها الحقيقية لأنّ التعيين يشملها هي أيضاً- فالمؤتمر الهيئة الشعبية يا صاحب المعالي عندما يتحدث باسم السودان لا يستمدّ أهليته في ذلك الحديث من حكومة السودان وإنّما يستمدّها

من مشاعر الشعب السوداني وتأييده وثقته وذلك هو العمل الطبيعي والأهلية الحقّة اللتان يؤكدهما رضا السودانيين عن أعمال المؤتمر وتصرفاتهم رضاء لا يشوبه نفوذ أو رهبة بل هو استجابة لرغبة مخلصه يُملئها حبّ صادق وإيمان عميق وثقة أكيدة علم الشعب السوداني ذلك فجعل المؤتمر قبلته الوحيدة لتعبّر عن وجهة نظره واتخذ منه كعبة يحجّ إليها كل عام من توهّله مؤهلاته لانتخاب لجنة وهيئة تتحدّث باسمه وتعمل من أجله فلم يكتف الشعب السوداني بذلك بل أقام للمؤتمر في كل مدنه وفي الكثير من قراه لجانه الفرعية وهي عيونه يرى بها الداء وأيديه يضع بها الدواء.

هذا المؤتمر - مؤتمر الخريجين العام - قال كلمة السودان وليس من بعدها قول لفاؤل. قالها في وضع أيّده لجانه الفرعية في طول البلاد وعرضها قالها في وضع يُحقّق للسودان أمنه ورفاهيته ذلك الوضع هو:

« قيام حكومة سودانية ديمقراطية في اتحاد مع مصر تحت التاج المصري » إنّ مؤتمر الخريجين الذي تقدّم منذ سنة 42 مطالباً بحقوق السودان السياسية بعد أن أبلى أبنائه بلاءاً حسناً معترفاً به لنصرة الديمقراطية لهو الهيئة الوحيدة في البلاد التي أخذت على عاتقها درس المسائل السياسية المُتعلّقة بمستقبل البلاد منذ ذلك التاريخ وأننا لم نسمع جميعاً بأنّ هناك أية هيئة أخرى ادعت أنّها تمثّل السودان أو قامت تعمل كهيئة منفصلة عن المؤتمر بل جميع الأحزاب التي تمارس السياسة اليوم تعمل تحت لواء المؤتمر فهي أجزاءه التي يعتزّ بها والتي تتكوّن منها مجموعته. وقد تقدّم المؤتمر بمذكرته تلك باسم السودان معبراً فيها عن رغبات الشعب السوداني الحقيقية وهو في مسلكه هذا إنّما يُباشر حقاً طبيعياً يؤكّده تأييد السودانيين أجمع لما تقدّم به بشأن تقرير المصير الذي رفعه في مذكرته تلك المذكرة التي أوضحت كلمة البلاد جمعاء.

كل هذا يا معالي الحاكم لنؤكّد لكم حقنا الطبيعي عندما نتحدّث باسم السودان أو نطالب له بحقّ من حقوقه فلا معنى للزعم بأنّ مؤتمر الخريجين لا يُمثّل السودان. لقد أشرتم معاليكم لخطاب مدير الخرطوم الذي يدّعي فيه عدم شرعية انتخاب لجنتي المؤتمر الحاليّتين وقد أثارت هذه الإشارة دهشة واستغراباً إذ ليس من حقّ مدير الخرطوم ولا في سلطته أن يتدخّل في انتخابات مؤتمر الخريجين العام وإنّما ذلك من حقّ أعضاء المؤتمر وحدهم كما جاء ذلك في قوانينه ولوائحه. ونحن ننتهز

هذه الفرصة فرفع لمعاليتكم استنكاراً للطريقة التي سلكها معنا مدير الخرطوم بدخوله في مكاتبات انتهت بقفلها دون إقناعنا بمنطق أو برهان ولا شك أن معاليكم توافقون معنا في أن هذه الطريقة تتنافى مع أبسط قواعد الديمقراطية ونحن ما زلنا عند وجهة نظرنا التي أبديناها لسعادتكم وهي شرعية انتخابات لجنتي المؤتمر الحاليين ولكي نزيدكم إيضاحاً وتأكيداً بصفة ذلك نقول إنه لم يتقدم لنا عضو من أعضاء المؤتمر بطعن في الانتخابات التي لو لم تكن شرعية لبادر الأعضاء بتقديم الطعون بالطرق المنصوص عنها في لوائح المؤتمر. وها هي نسخة من المكاتبات التي دارت بيننا وبين سعادة مدير الخرطوم مرفقة مع هذا لتتطلعوا عليها لتأكدوا من أنها كانت جارية في جوٍّ لا يتنافى مع الروح الديمقراطية التي كنا نأمل أن تعمل بها حكومة السودان وفي عاصمة البلاد.

إن قولكم بأن قرار المؤتمر هو رأي حزب واحد من أحزاب المؤتمر فهو قول غريب من حكومة ديمقراطية تُمثِّ بأقوى الأسباب إلى أعرق الحكومات ديمقراطية. مثل هذا الزعم يا صاحب المعالي لا يتمشى مع المبادئ الديمقراطية التي تعمل بها وتعترف جميع شعوب العالم الآخذة بالمذهب الديمقراطي وفي مقدمتها بريطانيا- ليس ذلك القرار برأي حزب واحد بل هو رأي الهيئة المنتخبة انتخاباً دستورياً حرّاً- الهيئة الستينية لمؤتمر الخريجين العام.

إن المؤتمر طريق قانوني يعبر عن الرأي الذي تُدين به البلاد فهو وإن قُدِّرَ النظم الانتخابية أن يكون في لجنة حزب واحد كما هو الحال في أغلب الهيئات البريطانية الانتخابية إلا أن لجانته التنفيذية لا تصدر في قراراتها عن رأي فئة دون أخرى بل واجبه الذي تتوخاه هو أن تلتمس الرأي الذي يعبر عن مصلحة البلاد العادلة فإذا توصلت إلى رأي أو قرار تقدّمت به لهيئة المؤتمر للمداولة فيه والمصادقة عليه فإذا نال تأييداً أقدمت على تنفيذه على أنه قرار للمؤتمر لا للجنة وإن لم يكن كذلك لانهارت كل القواعد الأساسية للنظم التي تسير عليها الديمقراطية.

وهذا يا معالي الحاكم العام ما فعلته لجنة المؤتمر بكل أمانة وإخلاص لتصل إلى رأي في مصير السودان فقد استعرضت مبادئ الأحزاب المؤتمرة جميعها وبعد الدرس والتحصيص وتقريب وجهات النظر رأت اللجنة التنفيذية أن الوضع الذي يُحقِّق الجوهر لمبادئ الأحزاب المختلفة هو قيام حكومة سودانية ديمقراطية في

اتحاد مع مصر تحت التاج المصري» فتقدّمت به لهيئة المؤتمر فنالت تأييداً منها. والإقرار بذلك أصبح قرار مؤتمر الخريجين العام عن مصير السودان.

ومن هنا يتضح لكم يا صاحب المعالي أنّ هذا القرار ليس برأي حزب واحد وإنما هو قرار المؤتمر الذي تعمل على طريقته كل الأحزاب وتمثل فيه كل وجهات النظر المختلفة وفوق ذلك يا صاحب المعالي فإنّ جميع الأحزاب السودانية هي حزب الأنقاء والاتحاديين والأمة والأحرار الاتحاديين والقوميين والأحرار قد اتفقت جميعها وتقدّمت في 1945/10/3م بوثيقة إلى مؤتمر الخريجين بعد أن تداولت طويلاً بأمل الوصول إلى وضع سياسي للسودان تتقارب فيه وجهات النظر المختلفة فتوصلت إلى المطالب الآتية التي رفعتها الأحزاب للمؤتمر ليعمل على تحقيقها وهي:-

1. قيام حكومة سودانية ديمقراطية حرّة في اتحاد مع مصر وتحالف مع بريطانيا.
2. طلب تعيين لجنة مشتركة نصفها من ممثلي الحكومة الثنائية والنصف الآخر من ممثلي الطبقة المستنيرة من السودانيين على أن يتولّى المؤتمر تعيين الممثلين السودانيين بوضع مشروع لتولي السودانيين مقاليد الحكم في البلاد بأقصر أمد ممكن بشرط أن تُعطي الحكومة هذه اللجنة كلّ التسهيلات اللازمة لأداء مهمتها وأن تلتزم في تنفيذ توصياتها.

3. المطالبة بإطلاق الحريات العامة كحرية الصحافة والاجتماعات والتنقل والتجارة في حدود القوانين العامة التي تتمشى مع الأسس الديمقراطية الصحيحة وتعديل القوانين الخاصة القائمة والمُقيّدة لهذه الحريات.

وها هي صور الوثيقة التي وصلت للجنة المؤتمر موقعاً عليها من ممثلي الأحزاب مرفقة مع هذا.

من هذا يبدو لمعاليكم جلياً أنّ ما وصلت الأحزاب مجتمعة جاء متمشياً جوهره مع القرار والذي سبق أن تقدّم به مؤتمر الخريجين العام في مذكرته للحكومتين المختصتين بل جاء مؤيداً ومُدعماً فأثبت أنّ المؤتمر قد جاء في قراره متوّخياً الرأي الذي انعقد عليه الإجماع أخيراً فالكل يطلبون قيام حكومة سودانية ديمقراطية ويطلبون أن تكون « في اتحاد مع مصر » وتحالف مع «بريطانيا العظمى» غير أنّ الأحزاب سكنت عن تعيين نوع الاتحاد . أمّا المؤتمر فبعد تقليب جميع وجهات النظر رأي أن يكون الاتحاد مع مصر «تحت التاج المصري».

يا صاحب المعالي:

إنَّ مؤتمر الخريجين العام عندما أرسل مذكرته لصحابي الدولة رئيس حكومة بريطانيا العظمى ورئيس حكومة مصر بواسطتكم لم يكن ينتظر من حكومة السودان أن تُبدي رأياً في إرسال المذكرة أو تُدلي بأسباب تحول دون ذلك بل كان يرى أنَّ واجب حكومة السودان هو أن ترسل المذكرة ولها إذا شاءت أن تُعلّق عليها بما يعن لها لدولتي الحكم الثنائي التي تقوم بالوكالة عنهما وما كنّا لنحسب أنَّ هذا التوكيل يُعطل الحقَّ الطبيعي حتّى للفرد الواحد في القرن العشرين بالحيلولة دون إسماع صوته إلى من يريد.

إنَّ مؤتمر الخريجين يا صاحب المعالي تقدّم بالرأي السوداني الصحيح الذي لم يتأثر بالتعيين أو السلطات وإنّما أملتة المشاعر الصادقة والفهم الصحيح لرغبات الشعب السوداني فليس لحكومة السودان أن تعمل على فوات الفرصة السانحة في هذا الظرف العملي الدقيق الذي تُدرس فيه مصاير الشعوب وأوضاعها في مؤتمرات تهدف إلى إقرار سلم دائم تحت ظل المساواة والعدل والإخاء.

وإنَّ مؤتمر الخريجين الذي كان في مقدوره أن يعمل على رفع مذكرته مباشرة لدولتي الحكم الثنائي الذي رأى تمشياً مع ما درج عليه من اعتبار حكومة السودان وسيطاً بينه وبين دولتي الحكم الثنائي لكبير الأمل في أن تُراجع الحكومة موقفها من مذكرته وأن تعمل على رفعها إلى جهات الاختصاص.

والله وحده ولي التوفيق

المخلص

رئيس مؤتمر الخريجين العام

نص المذكرة التي تضمنت قرار مؤتمر الخريجين العام إلى الحكومتين البريطانية والمصرية

أم درمان في 45/8/23م

يا صاحب الدولة رئيس حكومة صاحب الجلالة البريطانية
ويا صاحب الدولة رئيس حكومة صاحب الجلالة ملك مصر
يتشرف مؤتمر الخريجين العام بالسودان - وهو الهيئة الوحيدة التي تمثل الرأي
العام الشعبي بالسودان وتلتقي عندها وجهات النظر القومية المختلفة بالبلاد ويضع
الشعب السوداني بأسره ثقته التامة فيه - هذا المؤتمر يشرفه قياماً بواجبه نحو وطنه
أن يتقدم بهذه المذكرة معبراً عن أمانينا القومية ومطالبنا الوطنية في هذه الآونة
الدقيقة التي تم فيها النصر النهائي وأطل على الدنيا فيه فجر يوم جديد تتطلع
فيه شعوب الأرض كبيرها وصغيرها إلى حل مشاكلها القائمة والمرتبقة ووضع نظام
عالمي عادل يكفل للإنسانية حقوقها وللأقطار حرياتهما وللأفراد ما يرجونه من سعادة
ورفاية في ظل سلام دائم مستقر بإذن الله.

والسودان الذي قام بنصيب غير ضئيل وحمل من العبء فوق ما يستطيع لكي
يقف إلى جانب المجاهدين في سبيل قضية العدالة والديمقراطية ولكي يبلغ بهذا
الصراع العالمي الجبار إلى نهايته السارة المرتجاة والتي تحققت بأسرع ما كان في
الحسبان بانتهاء آخر معازل الطغيان في الجزر اليابانية كل هذا ممّا حمل كبار
رجالات الديمقراطية وأقطاب الإمبراطورية البريطانية على الاعتراف بما أداه السودان
من صادق الخدمات وجليل التضحيات وذكرها بالثناء والتقدير وأشار إليها صاحب
المعالي الحاكم العام بالنيابة في رسالته إلى الشعب السوداني في يوم النصر التي
نقتطف منها ما بعده.

إن السودان لا يستطيع إلا أن ينظر بعين الإعجاب إلى الدور الذي قام به في هذه
الحرب فقد ظل طيلة الحرب يعمل بروح الشجاعة والنظام والطاعة التي ناشد السير
اشمورت سيمز في عام 1940م العمل بها ولم يقف في الطريق المؤدية إلى النصر

وفي سنة 1940م وقفت قواته وقفة باسلة إلى جانب رفيقاتها البريطانية والهندية في طريق العدو النازي ثُمَّ سارت معها قدماً لتشاركها الانتصارات المجيدة التي أحرزتها بالحبشة وشمال أفريقيا وكانت على الدوام تتوج رأس السودان بالفخار بإقدامها وحسن نظامها وفي أرض الوطن ساعد السودان في حراسة حدود المواصلات الأفريقية وهي مهمة حيوية وقَدَّم إلى القوات الحربية التي استخدمت أراضيها معونة غير منقطعة كما قَدَّم أهاليه كثيراً من التبرعات السخية للمجهود الحربي وتحملوا بجلد ما يتبع الحرب من قيد ونقص لا مندوحة عنها وظلَّ مزارعوه يعملون بمثابرة وإخلاص وقد زرعوا أشجاره بولاء لما طلب إليهم وتحملَّ موظفوه دون شكوى أو تذمر أعباء ثقيلة جديدة كما أنَّ تنسيق اقتصاديات البلاد وقت الحرب نال الإعجاب خارج حدود السودان - إنَّ هذا السجل ليدعو إلى الفخر فلنذكره بقلوب ملؤها الغبطة والسرور في هذه الأيام أيام الفرح والابتهاج.

هذا بعض ما قام به السودان من مجهود حربي في سبيل نصره الديمقراطية والحق فمن حق أبنائه بعد ذلك أن يتطلعوا إلى مطالبهم التي ستلاقي من دولتكما ما هي أهلها من القبول والتقدير ولهم أن يأملوا من حكومتكما في أن تتقبلا ما تستاهله من روح العدل والإنصاف.

1. ظلَّ السودان قرابة نصف قرن تحت الحكم الثنائي الحاضر ولم يكن يدور بخلد أحد أن يكون هذا النظام مصيراً دائماً للبلاد ولن يكون كذلك في نظر السودانيين في يوم من الأيام ونحن مع اعترافنا بما أدَّاه هذا النظام من خدمات في تنظيم الإدارة واستتباب الأمن والعدل إلا أنَّ تقدُّم البلاد في مناحي الاقتصاد والثقافة والاجتماع كان ولا يزال يسير بخطى وثيدة لا تتناسب بحال من الأحوال وحاجيات البلاد الحقيقية وطموح أبنائها واستعدادهم للنهوض، ويتضح ذلك إذا قارنا ما حدث في شمال الوادي (مصر) مع ما حدث في جنوبه (السودان) مع إنَّ القطرين هبتان من هبات النيل فبينما تجد في شطره الأسفل اليسر والرخاء تجد في شطره الأعلى البؤس والشقاء. وبينما نجد هناك العلم والهداية نجد هنا الجهل والتأخر وحتى هذا القدر الضئيل الذي أصابه من تقدُّم لم يكن شاملاً ومنظماً لجميع أجزائه بدرجة واحدة وها هو الجنوب لا يزال في حالة بدائية لا يمكن تصوُّر وجودها في القرن العشرين وكذلك الحال في كثير من أصقاعه الغربية والشرقية بما أدَّى إلى اختلاف

نظمة الحكم والتشريع والثقافة في أجزائه المختلفة فكان التقدم اليسير الذي نعما به قد أوجد هوة سحيقة بين أجزاء البلد الواحد وكانت النهضة جزئية عرجاء - كان كل هنا من أثر الحكم الثنائي الذي دام وقتاً كان يكفي لرفع مستوى السودان ونهضته في سلك الأجزاء الراقية في بلاد العالم.

2. ولقد أدت تلك الحالة إلى شعور عام شمل البلاد من أقصاها إلى أقصاها بوجوب الإسراع بوضع حدٍّ لهذه السياسة وتغيير هذا الوضع الشاذ الوقتي بالوضع الطبيعي الذي يحقق للبلاد تقدماً مضطرباً يتناسب مع استعداد أهلها وحاجاتها الحقيقية - وقد تكون نتيجة لذلك الشعور الجامح الطاغي مؤتمر الخريجين العام سنة 1938م وأخذ منذ إنشائه في دراسة الأحوال وتعرّف الرغبات للسودانيين ثمّ تقدّم بمذكرة في أبريل سنة 1942م معبراً فيها عن آماني البلاد ومطالبها ونرفق مع هذا نصها مع ما تبودل من المكاتبات مع حكومة السودان.

3. ولما كان أول وأهم بنود المذكرة السالفة الذكر هو بند تقرير مصير السودان فقد أخذ المؤتمر في دوراته المتعاقبة طيلة السنوات الأربع التي تلتها في تحسّس رغبات البلاد للوصول النهائي لمصير السودان بالصورة التي تحقق للبلاد أمانها وتكفل حقوقها.

ثمّ أقرّت هيئة المؤتمر العام في أبريل سنة 1945م القرار الآتي:-

« قيام حكومة سودانية ديمقراطية في اتحاد مع مصر تحت التاج المصري » وإنّا هنا نطالب بقيام حكومة سودانية ديمقراطية ندرك أنّ الحكم الثنائي ينقسم إلى قسمين إداري وفني. أمّا الإداري ففي الإمكان تسييره بحسن تبديل العمدة والشيخ والناظر والمأمور والمفتش السوداني والمدير السوداني والوزير السوداني. أمّا الفني الذي يحتاج إلى كفاءة علمية لا تتوفر في السودان اليوم بدرجة كافية فيمكن التغلب عليه بالاستعانة بمستشارين وخبراء من الإنجليز والمصريين نستعين بهم بقدر ما ندعو الحاجة إليه في شئون التعليم والمالية والقضاء والزراعة وباقي المرافق العامة الأخرى حيث لا تتوفر الكفاءات السودانية وإلى أن يتمّ ذلك بإيفاد البعث من أبناء السودان ليتمّ تعليمهم في إنجلترا ومصر وباقي البلاد الأوروبية والأمريكية المختلفة ونحن إذ نقول هذا لتمثل في ذهننا حالة البلدان التي تقف في مستوانا أو تقرب منه كالحيشة واليمن والعراق ومثيلاتها التي تهدف في هدفنا وتسير في الطريق الذي

ننوي انتهاجه.

إنَّ اتجاهنا نحو فكرة الاتحاد أولاً ثُمَّ تخصيص مصر بالذات لتكون الطرف الآخر في هذا الاتحاد ثانياً- لبيدو لنا طبيعياً نسبة للارتباطات الحيوية الوثيقة التي تستمد قوتها من تاريخنا المشترك واتحاد المصالح وهناك الدين واللغة وهناك الدم والثقافة وهناك النيل تلك الوشيجة الحيوية الكبرى التي كما تربط صفته تؤكد وحدة أبدية وبذلك يكفل اتصالنا بمصر عدالة توزيع مياه النهر العظيم وتضمن وتنسيق اقتصاديات البلدين ومما لا شك فيه أنَّ استقرار الرخاء والطمأنينة الاقتصادية ستكون سنداً وعوناً للإمبراطورية البريطانية العظيمة أكثر من كلِّ وقت مضى.

وفوق كل هذا وذاك فإننا نحس بأنَّ عصر الدويلات الصغيرة قد زال وأنها لتعجز عن الصمود في الخضم العالمي وحدة منفردة فلا بدَّ أن تنتقل الأمم الضعيفة في جماعات واتحادات لتواجه سائر البلاد العربية والإسلامية التي تربطنا بها روابط مقدسة تتضمن التجانس والقوة المطلوبتين للاتحاد المنشود.

4. يا صاحبي الدولة..

إنَّ هذا الحل لقضية السودان يساعد على الاستقرار والاستثمار والنهوض بينما تظل اقتصادياته مرتبطة بالإمبراطورية العظيمة وإن شعورنا ليزداد على مرَّ الأيام تأكيداً ورسوخاً بأننا من غير معونة بريطانيا لن نكون قادرين القدرة الكاملة على مواجهة الظروف المقبلة أو النهوض ببلادنا لتحتل الوضع اللائق بها في المجموعة العالمية الجديدة. كما أنَّ روح المودة والثقة يجب أن تسود تلك العلاقات مع الإمبراطورية دائماً كما هي الحال الآن.

5. يا صاحبي الدولة

نحن لا ندس لنظام الحكم الثنائي القائم ولا نعمل بطرق ثورية. فقد زال عهد الإرهاب بزوال المحور. ولكننا نطلب حقاً طبيعياً لنا يقتضيه حقنا في الحياة مع أن نعيش أحراراً في بلادنا بنظام نشعر بأنه يتمشى مع مصلحتنا ورغباتنا وأهدافنا وأمانينا القومية. ذلك النظام هو:

« قيام حكومة سودانية ديمقراطية في اتحاد مع مصر تحت التاج المصري »

يحدونا لتقديم هذه المذكرة إحساسنا العميق بعدالة هذه المطالب وبصلاحية هذا الوقت لتحقيقها ووضعها موضع التنفيذ ويشجعنا على ذلك الأفكار التي تسود العالم

لأن إعادة تنظيمه المقبل كما وأتينا لنستبشر في الوقت نفسه بقيام حكومة العمال في بريطانيا ذلك لأن مبادئ العمال التي أعجب بها العالم أجمع لتساير روح هذه المطالب وتساعد على تحقيقها.

6. يا صاحبي الدولة..

نتقدم بهذه المطالب لحاكمين ديمقراطيين بأساليب ديمقراطية. نطلبه باسم مؤتمر الخريجين العام، الهيئة التي حازت ثقة البلاد جميعاً وتمثل الطبقة المستنيرة وتنضوي تحت لوائها الأحزاب المختلفة التي تعمل في البلاد اليوم. نطلبه باسم بلدنا العزيز (السودان) الذي ساهم في حرب الديمقراطية ضد الفاشية بدماء أبنائه وموارده الاقتصادية وتأيبده الأدبي.

ولا ننسى ولا بد أن يذكر التاريخ صمود قوة الدفاع السودانية أمام قوات المحور في صفوف الحلفاء فقد تبع ذلك الصمود اندحار المحور في كرن والحبشة والعلمين وفي إيطاليا ثم برلين وأخيراً في بلاد الشمس المشرقة اليابان.

7. يا صاحبي الدولة..

لما كان السودانيون هم أصحاب الشأن الأول في تقرير مصيرهم فإننا لنتقدم الآن بهذه المطالب راجين وملحين في الطلب أن تصدر على الفور الحكومتان البريطانية والمصرية تصريحاً يتضمن الموافقة على رغباتنا هذه والإسراع في العمل على وضعها موضع التنفيذ.

فباسم العدل وباسم الإخاء التي قامت من أجله الديمقراطية يطلب مؤتمر الخريجين العام بالسودان.

« قيام حكومة سودانية ديمقراطية في اتحاد مع مصر تحت التاج المصري ».

والله وحده ولي التوفيق.. آمين...

المخلص

«إسماعيل الأزهرى»

رئيس مؤتمر الخريجين العام بالسودان

فهرس للمؤمر عن

رقم الصفحة	البيان	رقم الصفحة	البيان
94	المؤمر	3	إهداء
106	المنظمات الدستورية	5	مقدمة 1
110	قيادة الختمية	7	مقدمة 2
113	زيارة علي ماهر	13	مقدمة كاتب المذكرات
117	شركة السينما	15	أثر البيئة
120	النشاط السياسي	17	طرق التربية و التعليم
123	مياديء الاتحادين	22	أنا سوداني
125	تقرير المصير	25	في معترك الحياة
128	ميثاق الجبهة الاتحادية	28	أول جمعية سياسية
129	حزب الأمة	31	جمعية القراءة
130	وفد السودان	32	نحن و الشيوعية
133	الاتجاه نحو العرب	35	السودان أولاً
149	آراء في الجامعة العربية	37	الجنوب
162	السودان وفلسطين	40	الطيب السراجي
168	هيئة الأمم في باريس	43	لجنة العشرة
179	إلى كوبر	46	خليل فرح
183	الثورة في مصر	47	عبيد حاج الأمين
185	مفاوضات الاتفاقية	49	الصحافة
194	الحزب الوطني الاتحادي	58	شوقي والفيل
206	تكوين الحكومة الأولى	61	الطائفية
208	إستقالة نجيب	65	تطوير الفناء
210	حوادث مارس	69	الرياضة
212	التعديل الوزاري	72	المدرسة الأهلية
219	أمير الحج	80	محو الأمية
228	مفاوضات مياه النيل	81	ملجأ القرش
249	علاقتي باريتريا	87	قصة الحضارة
253	تصفيات في الحزب	89	أمل لدفع
257	الحكومة القومية	92	صالح مؤمن

البيان	رقم الصفحة	البيان	رقم الصفحة
لعاء السيد بن	262	النكسة	١٦2
السرور في الحبوب	266	مؤتمر القمة العربي	١٦٩
إعلان الاستقلال	269	دول عدم الانحياز	١70
مجلس السيادة الأول	277	إلى كوبر	١74
حرق الممثلة	295	ذهب ولم يمد	١78
الحلاف مع الحمية	307	ملاحق	١81
ريارات للبلاد العربية	311	مذكرة مرفوعة إلى علي ماهر	١8١
مأساة الحسية	316	مذكرة المؤتمر الأول إلى الحكومة	١86
المعمونة الأمريكية	321	رد الحكومة على المؤتمر	١88
حلاب	323	تعقيب المؤتمر على الرد	١90
القائمة السوداء	324		
عبد الله خليل و الانقلاب	328		
نصريح عبد الله خليل لجريدة الفيجارو	329		
الحكم العسكري	331		
المقد التي كانت تحكم	334		
مذكرة خضر للمجلس الأعلى للقوات المسلحة	335		
نورة أكتوبر	347		
مجلس السيادة الثاني	352		

فهرس الأعلام

أرقام الصفحات	البيانات
103,104,126,227,229,304,321,387,392	إبراهيم أحمد
34,98,126	إبراهيم أحمد حسين
227,245	إبراهيم المحلاوي
205,207,230,249,270,314,376	إبراهيم المفتي
109,193	إبراهيم بدري
351	إبراهيم جبريل
263	إبراهيم صالح سوار الذهب
327,328,333,348	إبراهيم عبود
97,121	إبراهيم عثمان إسحق
28,29,35,82,86,93,98,121,126,136,148,265	إبراهيم يوسف
277	أبشر حميدة
200	أبو العزالدم
211	أبو القاسم ميرغني
194	أبو القاسم (من نواب دارفور)
259	أبو غلطة باكاش
142	أحمد الخزان
33,59	أحمد السيد الفيل
245	أحمد السيد حمد
194	أحمد الشيخ البشير
80	أحمد العالقب
121	أحمد المرصني جبارة
41	أحمد أمين
217,218	أحمد جلي
176	أحمد جمعة
47	أحمد حسن البارون
77,79,118	أحمد حسن عبد المنعم
263	أحمد حسن خليفة
28,92,96,97,119,157,170,199,202	أحمد خير
235,239,240	أحمد سليم
140	أحمد صديقي نور الله
327,331,333	أحمد عبد الوهاب
201	أحمد عبد الرحيم
230,232,235,236,237,239,240	أحمد عبده الشرباطي
81,87,88,91	أحمد عثمان القاضي
129	أحمد عوض
232,233,277	أحمد محمد صالح
129,351	أحمد محمد علي السنجاوي
98,128,205,261,277	أحمد محمد يس

أرقام الصفحات

215,216,371,372	البهان
216	أحمد مختار
103,176	أحمد منير
260	أحمد يوسف هاشم
201,214,215	إدريس الأبريسي
35,38,115,149	إدريس النصري
318	إدوارد عطية
74	استنسلوس بياساما
	إسماعيل الأزهرى (المفتي)
	إسماعيل الأزهرى
97,121,131	إسماعيل العنبراني
67,68	إسماعيل عبد المعين
34	الأمين القرشي
79	الأمين عبد الرحمن
136,138	أكرم رفعت
366	الباهي الأنغم
21	البشير الفضل
255,260	الخليفة حسين محمد
119,181,195,196,198,245,249	الدريزي أحمد إسماعيل
97,109,110,192,201,211,264	الدريزي محمد عثمان
139	الراس بضيئو
82	التشريف كزار محمد
351	الصانق المهدي
	الصديق عبد الرحمن المهدي
313	الطحاوي
40,41,92	الطيب السراج
129,182,198,201,245,254	الطيب محمد خير
194	الفتاح البوي
318	الفرج بروجوك
319	المعوشي
45	المهدي أحمد
164	المواوي
34	النور عثمان
38,98,121	الهادي أبوبكر
351,358	الهادي المهدي
229	الهادي عابدون
89,91	أميل لطف
314,374	أمين التوم
134	أمين السعيد
243,255,262,263,270,290	أمين السيد
207	أمين حسونة
140,141,383	أمين رويحه
35	أمين زيدان
66	أم كلثوم
388	أنجس جيلان
314	اندريا قوري
85	بابكر إسحق
234,242	بابكر الحبيب
79	بابكر الشفيخ
84,85	بابكر بدري
206,373	بابكر عوض الله
126,127,255	بابكر قباني
268	بانقا عبد الحفيظ

أرقام الصفحات

23	البيان
263	بخيت محمد عمر
78,83,94,117,118	أبرسي (الخليفة)
38,98	برامبل (ميجر)
157,174	بشرى عبد الرحمن صغير
235,314	بشير البكرى
23	بشير عبد الرحيم
121	بشير محمد خير
253	بشير محمد سعيد
24	بكري جعفر
271	بلاكي (مستر)
53,54,115,116,395	بنجامين لوكي
206,279,290	بني (مستر)
271	بووث ديو
212	بولين الير
153	روبرتسون (مستر)
174	تحسين العسكري
41,136	ترجفي لي
136	توفيق أحمد البكرى
370,371,372	توفيق صالح
121	تيتو (جوزيف، برونز)
373	ثابت حسن ثابت
229,245,248,257,266,278,279,313,342,369	جهر محمد نميري
98,371,372	جمال عبد الناصر
274	جمال محمد احمد
220	جوشوا مالوال
163,164,165	حامد السيد
79	حامد صالح
47	حامد محمد علي
121	حدياي
199	حسن أبو شمة
28,34,121,126,127,129	حسن أبو جبل
154	حسن احمد عثمان
78	حسن البنا
271	حسن التني
79	حسن الطاهر زروق
327	حسن الطاهر
274	حسن بشير نصر
351	حسن جبريل سليمان
233,234	حسن حامد مهدي
82	حسن حسنين
84	حسن دالوود
239,240	حسن رشيد نور
121	حسن زكي
364	حسن زيلدة
109,110	حسن سبري الخولي
140	حسن عثمان إسحق
	حسن عثمان بدري

أرقام الصفحات

314	حسن علي عبد الله
34	حسن عمر الأزهرى
227,229,240,243,245	حسن موسى الله
121,326	حسن محمد الأمين
259,261	حسن محمد زكي
268	حسن محمود محمد
34	حسن الطهيل
142	حسن المقبلتي
79	حسن توبال
185,192,245,247,248,325	حسن ذو الفقار
284	حسن عبد العزيز
274	حماد أبو سدر
33,97,181,186,192,204,215,287,289,291,385	حماد توفيق
312	حماد فرجينة
163	حيدر باشا
194,195,196,197,199	خضر عمر
198,217,218	خلد الله خالد
292	خليلة محبوب
46,47,48	خليل فرح
272	دات ديبتي
42	دسوقي أبانقة
194,290	رحمة الله محمود
121	رشيد محمد خليل
135,136	رفيق نوري السعيد
81,82	رمضان عبد الرحمن
***	روبرت سون (مستر)
121,326	زاهر سرور السلدات
257,325,363	زكريا محي الدين
214	زينة أرباب
257	زين العابدين أبو قاضي
318	سانتيلمو (الأب)
243	سانتيلمو ديلق
334,349	سر الختام الخليفة
310	سوزار بلي كار
227	سرسو إيزو
82	سر سفليد هول (مستر)
193,194	سرور محمد رملي
133	سعد زفول
***	سعود الطهصل
280	سلووين لوبد (مستر)
49	سلحان ملديل
235,239,240	سمير حلمي
244	سوكارنو
45,79,118	سهد أحمد سوار الذهب
68	سهد خليفة
70	سهد عبد الله
236,239	سهد عمر العوض

أرقام الصفحات	البيان
141	سيف الإسلام إبراهيم
319	شارل الحلو
312	شكري القوتلي
139	شكيب أرسلان
253	صائق مصطفى
92	صالح مؤمن
312	صبري العسلي
49	صديق فريد
236,239	سفرون الزين
185,192,193,200,202,204,230,234,235,236,237,239,240,241,243,244,245,246,247,254,256,257,326	صلاح سالم
235,239,240	ظاهر أبو الوفا
97,121	طه صالح بشير
290,291	طيفور محمد شريف
121	عابدين محبوب
322,323	عبد الحفيظ شنان
209,245	عبد الحكيم عامر
194	عبد الحميد أبكر
9,52,54	عبد الرحمن أحمد
163	عبد الرحمن النجومي
82,85,86	عبد الرحمن النور
290,291	عبد الرحمن نيكه
290,291	عبد الرحمن رمضان
290,291	عبد الرحمن عابدين
366,368,369	عبد الرحمن عارف
10,133,144,147,149,150,151,162,164	عبد الرحمن عزام
126,129	عبد الرحيم شداد
29,101	عبد الرحيم فرحان
103,121,126,129	عبد الرحيم وشي
41	عبد السلام هارون
366	عبد العزيز بوتفليقة
81,109,205,277	عبد الفتاح المغربي
229,235,278	عبد الفتاح حسن
27	عبد القادر حمزه باشا
113	عبد القوي أحمد
114,132	عبد الماجد أحمد
200	عبد الماجد أبو حسبو
314	عبد الماجد عوض الكريم
136	عبد المجيد القصاب
183,218,291	عبد المنعم حسب الله
119	عبد المنعم محمد
103,204,205,263	عبد الله الخاضل
221	عبد الله الفيصل
319,331	عبد الله الهافي
42	عبد الله أمين
15,148	عبد الله حمد

البيان

أرقام الصفحات
28,105,176,178,200,218,247,271,273,277,290,292,294,311,312,3

عبد الله خليل

14,318,319,320,321,326,327,328,329,331

عبد الله شوقي الأسد

عبد الله عبد الرحمن الأمين

عبد الله عبد الرحمن نقد الله

28,82,86,98,100,101,110,120,121,126,127,128,136

عبد الله ميرغني

259,261

عبد النبي عبد القادر

عبد الوهاب زين العابدين

عبد الوهاب عزام

21,47,48,69

عبيد حاج الأمين

121

عثمان أحمد عمر

79,109

عثمان حسن عثمان

194

عثمان خاطر

82,86,98

عثمان شلدي

79

عثمان صالح

260

عثمان مصطفى صالح أورنضي

35,47,50

عرفات محمد عبد الله

295

عقيل أحمد عقيل

377

علي الأزهرى

147,157,169

علي البرير

49,130,260,263,264

علي الميرغني

200,214

علي حامد

28

علي خير

126

علي طالب الله

290,291

علي عبد الرحمن الأمين

53

علي عبد الطيف

196

علي عوض الله

136

علي محمد أحمد

113,114,115,116,383

علي ماهر

167,168

علي مطر

33,34

علي نور

79,263

عمر إسماعيل

188,384

عمر طوسون

215

عمر نور شلت

28

موض الله مرسل

103,104

موض ساني

24,115,116

ميساوي

152

فؤاد عبد الجبار حلمي

164

فؤاد صادق

78

فوزي حمسون

140

فوزي القلوبجي

369,370

فيسل (العلاء)

118

فليس عبد السيد

292

قطران (الفاضي)

174

كادوخلان

42

كامل كيلاني

65

كرهمة

319,320,321

كميل خمسون

121

كيلاني عبد القادر

292

لوليات لانور

194,198,200,215,220,229,240,243,245,256,261,263,268,270,292

مبارك زروق

121

محمد إبراهيم خليل

249,270,286

محمد إبراهيم فرح

34,194

محمد أحمد أبو رنات

193

محمد أحمد أبو سن

79,118

محمد أحمد البرير

210,216,245,247,255

محمد أحمد المرشي

65,252,253,254

محمد أحمد سرور

أرقام الصفحات

15,82,86,206,354,362,365	محمد
377	محمد أحمد محبوب
18,21,79,1277	محمد الأزهرى
351	محمد الحسن دياب
....	محمد الحسن عبد الله حسن
228,229,230,231,232,235,238	محمد الخليفة شريف
67,200,210,245	(محمد أمين) الدكتور
366	محمد أمين حسين
46,66,67	محمد بن حمزة
259,261,351	محمد تميم
255	محمد جبارة العوض
201	محمد جبارة محمد خير
27	محمد حاج الخطر
79,263	محمد حسين هيكال
79,263	محمد أحمد أبو سن
121	محمد خليل بهرم
***	محمد خليل جبارة
101,105,114	محمد سيف
113,163,256,266,278	محمد صالح الشنقيطي
132	محمد صالح حرب
138,139	محمد صفتي باشا
103,122,271	محمد طارق
50	محمد ماهر بشير
82	محمد مباسي أبو الريش
232,253	محمد عبد الرحمن محمد
79,263	محمد عبد القادر كرف
253	محمد عبد الله العمرابي
131	محمد عبد الماجد (قل)
66	محمد عبد الهادي
262	محمد عبد الوهاب
50,93	محمد عثمان الميرغني
59,103	محمد عشري الصديق
103,121	محمد علي شوقي
141,143,144	محمد محبوب لقمان
259,290	محمد محمود الزبيدي
53	محمد محمود محمد
121	محمد مصطفى الخارجي
168,183,184,185,186,192,195,198,207,208,209,210,211,212,216,	محمد مصطفى عبد الواحد
232,233,234,243,247,248,249	محمد نجيب
99,126,128,131,194,196,198,199,219,243,244,245,246,247,254,2	محمد نور الدين
55,256,258,271,273,318,363	محمد نور الحسن
247,248	محمد نور (البكباشي)
73,74,83	محمد وجيه
147	محمد يوسف ماضي
314	محمد يس بخيت
245	محمد إبراهيم
46	محمود أحمد عبد الله
120,121	محمود الفخلفي
126,128,201	محمود الفكي
98	محمود جليلين
235,236,239	محمود مشي
253	محي الدين البربر
121,126	محي الدين الحاج
121,126	مندر البوشي
227	مسز روزفلت
171,173	مشاور جمعة سهل
273	مصطفى أبو العلا
290	مصطفى الربيع
122	مصطفى السباعي
313	مصطفى النحاس
38,132,203	مظفر فهمي
136,	معني محمد حسن
119	مقابلي حسين شريف
33	مكاوي سليمان أكرت
28,34,93,120	

47	مكلوي يعقوب
132	مكرم عبيد
93,98	مكي شويكة
229	منصور أحمد الشيع
35	منصور حسيب
194	منعم منصور
232,235,236	"مورس" مستر
207,208	ميان ضياء الدين
79,83,109,130,195,206,214,217,218,227,235,241,254,271,277	ميرغني حمزة
212	ميرغني عثمان صالح
137	ناجي الكشطي
114,385	ناصر الحاج علي
165	نمازي باشا
363	نور الدين الاتاسي
135,136,150	نوري الصعيد
389,394,395	نوپوپولد
138,139	وهيب باشا
128,195,196,199,210,216,218,243,245,255,261,	يحيى الفضلي
210,215,263	يحيى الكوارتي
271,272	يعقوب حامد بأكبر
23,174	يعقوب عثمان
20	يعدال (مستر)
139,271	يوسف أحمد البشير
82,85,86	يوسف التني
139,271	يوسف العجب
82,86,122	يوسف المأمون
72	يوسف رجب
259,261	يوسف عبد الحميد

رقم الـيداع: 2013/452



أبو
المنصور
المنصور

المؤلف في سطور

- من مواليد 1910.
- تخرج في كلية غردون التذكارية قسم الكتبة 1929 .
- عمل موظفاً بوزارة المالية إثر تخرجه .
- من أعضاء جمعية أبي روف الأدبية البارزين .
- كانت له كتابات في كل الشئون في مجلتي النهضة والفجر.
- اشتهر بكتابة (في الهدف) تحت التوقيع المستعار (طيجي).
- من الذين عملوا لقيام معهد القرش الصناعي.
- التحق بـ لجنة المدرسة الأهلية سنة 1930 عضواً فمساعداً للسكرتير فسكرتيراً حتى 1945.
- اشترك اشتراكاً فعلياً في قيام مؤتمر الخريجين بل عمل سكرتيراً للمؤتمر.
- التحق متطوعاً للعمل بجامعة الدول العربية بين عامي 1948 – 1951.
- كان سكرتيراً عاما للحزب الوطني الإتحادي .
- عمل وزيراً للدولة ثم وزير للري والقوة الكهربائية.
- كان عضواً في مجلس السيادة السابق منذ 1967 وحتى حله.
- توفي عليه رحمة الله في ديسمبر 1970.
- له مؤلفات أخرى نرجو أن نوفق في نشرها.